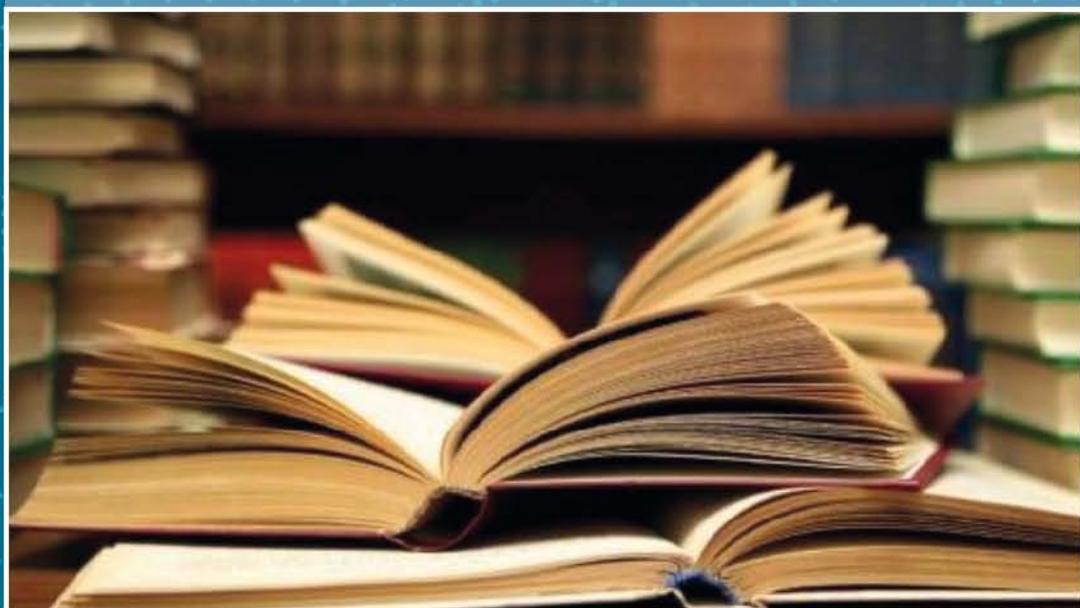


الدكتور محمد خروبات

أستاذ التعليم العالي
بجامعة القاضي عياض بمراكش

مناهج الدراسة الجامعية وأفاق البحث والتكوين



الطبعة الأولى: 2019

**مناهج الدراسة الجامعية
وأفاق البحث والتكوين**



مناهج الدراسة الجامعية
وآفاق البحث والتكوين

المؤلف: الأستاذ الدكتور محمد خروبوات

الطبعة الأولى: 2019

رقم الإيداع القانوني: 2019MO5530

ردمك: 2-768-38-9920-978

الطبع: شمس برينت - سلا

محفوظة
جميع الحقوق

الدكتور محمد خروبات

أستاذ التعليم العالي

بجامعة القاضي عياض بمراكش

مناهج الدراسة الجامعية وأفاق البحث والتكوين

يقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله:

«العلم جهل عند أهل الجهل، كما الجهل جهل عند أهل العلم»

طبقات الشافعية 1/298

المقدمة العامة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فالزمن يتقارب، والعمر تُطوى سنواته بطريقة مدهشة، وتجربة التعليم والتكوين في الجامعة تتقلص أكثر من أي وقت مضى، لكن المدة التي تَصَرَّمَتْ من العمر كفيلة بمد اللحظة الحالية بتجربة وافية في مصاحبة البحث العلمي من جهة المناهج والمعارف، وطرق التلقين والتدريس، وممارسة التوجيه الأكاديمي والإرشاد التربوي، والمساهمة في وضع المقررات والبرامج الدراسية مع مراجعتها بين الحين والحين، ومتابعة النصوص التشريعية لإصلاح لم يتوقف، ومع الأستاذ والطالب والإدارة من جهة، والمحيطين الوطني والدولي تتحرك عملية البحث العلمي في ربطه بالتنمية الشاملة، وهو ربط يتأرجح بين الواقع والطموح، بين الوفاء للالتزامات التشريعية ومراعاة الإمكانيات المتاحة والقدرات الذاتية، بين الثواب الثقافية الدينية والوطنية والمتغيرات الظرفية والتحولات الإقليمية والدولية.

لست في حاجة إلى الكلام عن العلوم والمكتبة، وعن المنهج والمعرفة، وعن طرق البحث وأساليب التدريس، وعن التوجيه والتكوين، كما أنني لست في حاجة إلى بسط الكلام عن الجامعة ومكوناتها، والشعبة وبرامجها، ومستويات التعليم الجامعي في التخصص الذي ننتمي إليه لسبب واحد هو أن هذا الكتاب يعكس كل ذلك وزيادة، فنظرة سريعة في أبوابه الستة، مع ما تتضمنه هذه الأبواب من فصول تكشف عن مضامين ما تقدم، لكن الذي أريد أن أنبه عليه هو أن الكلام في هذا الموضوع لا يتوقف، قد تتوقف مسيرة الباحث الأكاديمي لكن مسيرة البحث والتكوين والتعليم تبقى مستمرة، وهو استمرار لا يأتي من الفراغ بل يُبنى على الجهود السابقة، لهذا السبب تكلمنا في قضايا مضت، وأخرى معمول بها حالياً، وحتى كتابة هذه السطور فقد توصلنا بأخرى للعمل بها في المستقبل، أعني بذلك "مشروع الضوابط البيداغوجية الوطنية لسلك البكالوريوس"، وهو مشروع بُني على المشاريع السابقة، والتي تم العمل بها في الجامعة المغربية، الجديد ينطلق من القديم، والقديم يعود في حلة جديدة، وهكذا.

لم تنبع محتويات هذا الكتاب من التفكير المجرد، أو التحليل المعلق، إنها محتويات نبعت من التجربة العملية، فأغلبها محاضرات موجهة للطلبة والباحثين، بعضها مسجل في موقع جامعة القاضي عياض بعنوان "مناهج الدراسة الجامعية"، برنامج MOOC، وبعضها في دورات

تكوينية وورشات علمية تخصصية، وبعضها محاضرات مفتوحة لجميع الطلاب من مختلف التخصصات، كما أن بعض هذه المحتويات هي بحوث علمية مُحكمة تمت المشاركة بها في دوائر البحث العلمي، وبعضها منشور في مجلات علمية محكمة، وبعضها منشور في المواقع العلمية الأكاديمية على الشبكة العنكبوتية.

"مناهج الدراسات الجامعية" هي مادة من المواد المقررة للتدريس في الجامعة، الهدف منها هو تمكين الطالب من معرفة خصوصية الثقافة الجامعية من الناحية المنهجية، وتوجيهه نحو اكتساب مهارات التواصل العلمي المنهجي مع التراث الإسلامي، وتزويده بقواعد البحث العلمي وطرائق التحصيل الجامعي ومسائل الضبط والاستيعاب، وتدريبه على كيفية الاستفادة المعلومة العلمية من مصادرها، والتمكن من التعامل معها تعاملًا علميًا، وتدريبه على طرق التصنيف والتأليف من حيث القراءة والمطالعة والجمع والترتيب والتحرير، وحثه على اكتساب خصلة الصبر والتأني، ومعاودة القراءة مع الاجتهاد والجدية والمثابرة، والتحلي بأخلاق وآداب البحث العلمي، ومساعدته على كيفية اختيار الموضوع، ووضع خطته، وفهارسه، وحواشيه، ومقدمته، وخاتمته مع إنجاز الأبواب والفصول والمباحث والمطالب الضرورية، وتعيين المصادر الأصلية التي يرجع إليها الطالب لضبط اللغة والمصطلحات الفنية والأعلام والشواهد، وتلقيه المعارف الضرورية بحقائق بعض الموضوعات والعلوم والقضايا المنهجية.

البحث العلمي هو طريق للتقدم العلمي، لا تقدم علمي من دون بحث علمي، الدول التي هي في صف التقدم هي التي تكتسب الريادة في مجال البحث العلمي، وهذا الذي يجعل منها قبلة للباحثين والدارسين، أما خطط النجاح فتتمثل في التخطيط، ووضوح الرؤية، وضبط الأهداف والمخرجات، ورصد الحاجيات، وترتيب الأولويات، بالإضافة إلى التفكير في التكتل العلمي والمعرفي، والمقصود بالتكتل التعاون بين المؤسسات على إنجاز العمل التربوي والتكويني المشترك، ووضع كل هذا في ميزان الوسطية والاعتدال.

نسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بغيره، والشكر موفور لفضيلة الدكتور سعيد النكر على مراجعته للكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وحرره: أ.د. محمد خروبوات،

بمراكش الحمراء

بتاريخ 2 ربيع الأول 1441هـ / الموافق لـ 31 أكتوبر 2019م

الباب الأول: في حقيقة العلوم والمكتبة

بُني هذا الباب على فصلين:

- الفصل الأول: العلوم الإسلامية، الطبيعة والمأل
- الفصل الثاني: المكتبة الإسلامية، الخصائص، المكونات والأنواع.

الفصل الأول:

العلوم الإسلامية: الطبيعة والمآل

ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: خصائص العلوم الإسلامية
- المبحث الثاني: العلوم الإسلامية، المميزات والأنواع
- المبحث الثالث: المقاصد الشرعية، المفهوم والمقاصد

المبحث الأول: خصائص العلوم الإسلامية

نشير في هذه الخصائص إلى التعريف والهدف والغاية والحكم الشرعي والمصادر والأعلام والمصطلحات والموضوعات والمناهج¹.

المطلب الأول: التعريف

العلم هو كل ما يُعلم ويُعرف بطريقة منهجية ونظامية، أما عند العلماء فإن اصطلاحهم في تعريف العلم يتماشى مع ما نريد، فقد عرفه الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح كتاب العلم من صحيح البخاري بقوله: «والمراد بالعلم العلم الشرعي...»².

المطلب الثاني: الغاية والهدف

الغاية تعبدية، إذ الغرض من العلم هو عبادة الله تعالى، فالعلم من منظور الإسلام إذا لم تكن هذه هي غايته فهو ترة على صاحبه، لا خير يرجى منه، العلم الشرعي هو العلم الذي يُعين ويساعد على عبادة الله، لأن الله تعالى لا يُعبد بالجهل، يقول تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾³.

أما الهدف فهو معرفي، يتحدد في معرفة العلوم واكتساب المعارف، فالعلم هو المعول عليه في مأخذ الفهم، العلم هو الضابط الأساس للتحصيل.

المطلب الثالث: الحكم الشرعي

نعني به الحكم الشرعي على هذه العلوم، وهذا الحكم يتباين بتباين العلوم والمعارف، العلوم النافعة نوع منها يكون تعلمه واجبا على الكفاية، والنوع الآخر يكون واجبا عينيا.

¹ - قد يرى البعض بأن هذه الخصائص تتكرر بين الحين والحين ولاسيما في الحديث عن "علمية العلوم"، وهي أمور قصدتها قصدا لحاجة الطالب الباحث إليها، فهي شبكة تقرب إليه "حقيقة العلم"، وحققيقة العلوم الإسلامية هي مما يُبنى عليها "العمل العلمي" أو "اكتساب العلم للعمل به"، أما الكلام في ماهية العلم وحققيقته من الوجهة الفلسفية، فهو كلام لا يعنينا هنا لأنه لا يفيد الطالب المبتدئ، وقد يكون مجاله غير المجال الذي نرومه والقصد الذي نتوخاه.

² - أنظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب العلم 141/1

³ - سورة محمد الآية 19

العلوم غير النافعة: وفيها الضار وغير الضار، فأما غير النافع فتعلمه مكروه لأنه يُلبي عما هو أفضل منه، يتعاطى الناس لبعض العلوم التي لا طائل من وراءها، فهي وإن كانت غير ضارة فهي لا تنفع، والفرق بين ما ينفع وما لا ينفع يكمن في الفائدة التي تجني منها، فلا فائدة فيما ليس تحته عمل، والعلوم الضارة تعلمها محمول على الحرمة.

أما العلوم الإسلامية فتعلمها واجب، لأن عبادة الله واجبة، وهذه العلوم تعين وتساعد على ذلك فهي واجبة، والقاعدة الأصولية تقول: "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

المطلب الرابع: المصادر

نعني بالمصادر المظان التي يُستفاد منها العلم، العلم يُستفاد من أفواه الشيوخ إذا كانوا أحياء لكنهم إذا ماتوا أخذ من كتبهم، وجل العلم موجود اليوم في الكتب والمصادر، فإذا عدنا إلى المكتبة الإسلامية وجدنا لكل علم مكتبته التي تدل عليه، فالحديث نلتمسه في مصادر الحديث، والتفسير نأخذه من مصادر التفسير، والقراءات القرآنية نرجع إليها في كتب القراءات القرآنية، والفقهاء نستفيد من مصادر الفقه وهكذا.

المطلب الخامس: الأعلام

هم رجال العلم وبناءة حقله، كل علم من العلوم يقف وراءه علماء، العلم بهم هو العلم بالعلم، والجهل بهم هو الجهل بالعلم، وهذه إحدى خصوصية الثقافة الإسلامية التي دأبت على البداية بمعرفة الأعلام قبل علومهم، ويمكن أن نجزم من دون تردد أن مدار المكتبة الإسلامية على معرفة الأعلام في كل العلوم تقريبا، فقد اهتموا بهم وصنفوهم على الإجمال مثل: كتاب "الأعلام" لخير الدين الزركلي، و"سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي، و"معجم المؤلفين" لرضا كحالة، كما أفردوهم حسب التخصصات العلمية، فجمعوهم في كتب يطلق عليه الطبقات، مثل: طبقات المحدثين، وطبقات الأصوليين، وطبقات الفقهاء، وطبقات الأدباء، وطبقات النحاة، وطبقات الشعراء، وطبقات المفسرين، وطبقات القراء، وطبقات الأطباء، وطبقات الصوفية...إلخ، وميزوا فيهم بين الصحابة والتابعين وأتباعهم فأفردوا كل صنف بطبقة، كما ميزوا فيهم بحسب الزمان والمكان والحفظ مثل الكتب المفردة في طبقات الصحابة، وطبقات التابعين، وطبقات الحفاظ، وميزوا في التصنيف بين الثقات والمجهولين والضعفاء والمتروكين.....

المطلب السادس: المصطلحات

لكل علم مصطلحاته التي تميزه عن غيره، والمصطلحات هي التي تكون لحمّة الخطاب العلمي داخل كل علم، وهي كل العلم تقريبا، من تملكها فقد تملك العلم، والمغزى من الوقوف على المصطلحات يعني معرفة المصطلح أولا، وهي الألفاظ المعبر بها، ومعرفة المفهوم بعد ذلك وهو المعبر عنه بتلك الألفاظ، وقد أبدع العلماء طرقا منهجية في ضبط المصطلحات وضبط مفاهيمها، وهي ما يعرف بـ "الدراسة المصطلحية".

هذه المصطلحات قد تكون مفردة حين نذكر مصطلحا واحدا من حقل علم معين كأن نقول "حسن" أو "صحيح"، وقد يكون مركبا من مصطلحين حين نقول مثلا "حديث حسن"، أو "حديث ضعيف"، وقد يتركب من ثلاثة مصطلحات حين نقول مثلا "حديث حسن صحيح" أو "العلة وصف غامض"...

والمراد من المصطلح مفهومه أو مفاهيمه، وقد أبدع الأوائل في هذا الفن الذي نجد بوارده عند المحدثين في "علم مصطلح الحديث".

المطلب السابع: موضوعات العلم

هي الموضوعات التي تُكوّن كلّ علم، كلّ علم له موضوعاته التي تبحث من خلاله، ف "المصلحة المرسلّة" هو موضوع من موضوعات علم أصول الفقه، و"الأدلة الشرعية" والأحكام الشرعية" هي موضوعات أصولية أيضا، و"صلاة الجماعة" موضوع فقهي، و"الضرورات الخمسة" موضوع مقاصدي يبحث في علم المقاصد، و"الحديث المتواتر" موضوع حديثي، و"القراءة الشاذة" موضوع من مواضيع علم القراءات... ولا يمكن لموضوع علم أن يتحول إلى موضوع علم آخر، ذلك ما يجب على طلبة العلم أن يتذوقوه، والموضوعات تؤخذ عبر الأيام والليالي ولا تؤخذ دفعة واحدة.

المطلب الثامن: مناهج العلم

قلنا "مناهج" ولم نقل منهجا واحدا، لأنه قد يكون للعلم أكثر من منهج، والمنهج هو الطريق الذي يسلكه العلماء في بحث الموضوعات، وهو الذي يعطي العلم لا العكس، فضبطه هو ضبط العلم، وتملكه هو تملك العلم، من تملك المنهج فقد تملك إنتاج المعرفة، والمعارف

تتميز بمناهجها، والعلماء يتفاضلون بامتلاك مناهج العلوم لا المعارف فحسب، وللمنهج خصائص ومميزات ليس هذا مجال لبسط الكلام فيها.

- المبحث الثاني: العلوم الإسلامية: المميزات والأنواع.

المطلب الأول: المميزات

تتميز العلوم الإسلامية بما يلي:

- 1- إنها إسلامية، منطلقها هو الإسلام، وغايتها خدمة الثقافة الإسلامية، وهذا هو سبب انتسابها إلى الإسلام.
- 2- إنها واقعية، تعالج قضايا الواقع الإسلامي، وإذا كانت تنطلق من الوحي، والوحي بطبيعته غيبا فلا يعني هذا أنها غيبية بعيدة عن الواقع ومتطلباته، إن الوحي جاء من الغيب إلى الواقع، وهذه العلوم انطلقت من الوحي، وظهرت في الواقع لخدمته، وأي علم لا يخدم الواقع فالاشتغال به عبث.
- 3- إنها شاملة، تشمل كل الوقائع، وصالحة لكل الأزمان، لم يقل أحد إن الحديث وعلومه لم يعد صالحا لهذا العصر، أو هو صالح للجزيرة العربية وحدها، ومثل هذا الكلام يقال عن التفسير وعلومه، والفقه وأصوله، والسيرة وفنونها، والمقاصد والتاريخ والعقيدة الإسلامية..إلخ، ولا نتكلم عن القضايا العلمية المتجاوزة التي بقيت في التاريخ، بل نتكلم عن القضايا العلمية الحية السارية في التاريخ.
- 4- إنها علوم إيجابية ونافعة، أثبت التاريخ صلاحيتها للبشرية المؤمنة بها، لا يوجد علم إسلامي أضر بالبشرية، ولذلك قصدها الناس من مختلف التوجهات والانتماءات.
- 5- إنها توثيقية، تعتمد على التوثيق والنقل، وعلى التحليل والبرهان والعقل، لذلك تعددت مناهجها العقلية، وتباينت مناهجها النقلية، والنقل والعقل فيها غير متعارضين بل أحدهما يكمل الآخر.
- 6- إنها مرنة، تسير المستجدات والتطورات، غير جامدة، وما ينسج حولها في هذا الجانب هو مخالف لحقيقتها، والدليل على ذلك شيوع ظاهرة الترجمة التي تنقل

المعارف والفنون من الثقافات الأخرى إلى الثقافة الإسلامية، ومن الثقافة الإسلامية إلى الثقافات الأخرى.

المطلب الثاني: الأنواع.

علوم الإسلام علوم واضحة، غير غامضة ولا مهمة، فيما العلوم الضرورية، من دونها لا يتم الفهم ولا يستقيم العلم، إذا غابت تحصل الفساد في المعرفة، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿لَا تَمُرُّ بِهِ لِسَانًا لَتَعَجَلَ بِهِ﴾، إن علينا جمعه وقرآنه، فإنما قرآنه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه¹، ذكرت هذه الآية:

أ- السنة وعلومها، لأن الخطاب موجه إلى النبي ﷺ.

ب- جمع القرآن الذي يدخل في علوم القرآن.

ج- علم القراءات القرآنية.

د- علم التفسير.

ويقف إلى جانب هذه العلوم علم العقيدة وعلم الفقه وعلوم العربية.

وإلى جانب العلوم الضرورية هناك العلوم الحاجية التي من دونها لا تستقيم المعرفة على الوجه المطلوب مثل علم أصول الفقه، وبعض علوم العربية، وعلم التاريخ ..

وإلى جانب العلوم الضرورية والحاجية تأتي العلوم التكميلية أو التحسينية مثل: الفلسفة الإسلامية والمنطق واللغات الحية ..

هذا التصنيف غير قطعي، والخلاف حوله وارد بحسب الموقع الذي نعاين منه الموضوع، إن هذا المعيار غير راجع إلى التخصص في كل علم، فالمتخصص في علم من العلوم يرى تخصصه هو الضروري من العلوم ولو كان فنا من الفنون الجميلة أو لغة من اللغات الحية، لكن المعاينة هنا نابعة من موقع الحاجة العلمية الإسلامية، ومن موقع ما تسمح به صورة العلم ومضمونه في الثقافة الإسلامية.

¹ -سورة القيامة الآية (16-19)

المطلب الثالث: التكامل

نعني بـ "التكامل" التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية، والكلام فيه ينبع من إحساس عميق يراودنا كباحثين منذ وقت طويل، وهو إحساس تراكم عبر سنوات من العمل في فحص وتحكيم البحوث، ومن موقع التجربة اتضح أن عامل التكامل بين العلوم يجب أن نوليه عناية خاصة، عناية تأخذ بعين الاعتبار البعد العلمي والمهجي والشرعي، وهو البعد الذي تفرضه طبيعة هذه العلوم لكونها علوم موحدة، موحدة لله تعالى بحكم العبودية، وموحدة للمنهج والرؤية التي من أجلها تأسست هذه العلوم، وطبيعة الواقع المجتمعي الذي يتطلب تضافر هذه العلوم من أجل معالجة نوازل وقضاياها فضلا عن طبيعة الحضارة الإنسانية والمعرفة البشرية التي أصبحت تفرض أكثر من أي وقت مضى تلاقحا فكريا وتبادلا معرفيا وحوارا ثقافيا وحضاريا، ولا يخفى ما تنطوي عليه العلوم الإسلامية من بعد إنساني في هذا المجال.

نثير موضوع التكامل مستلهمين القضايا والإشكالات الآتية:

- 1- التحسيس بضرورة التكامل بين العلوم الشرعية وبأهميته.
- 2- هل التكامل ينبع من ذات العلوم الشرعية ومن أنساقها العلمية والمعرفية أم هو معطى خارجي وتقليد.
- 3- متى يكون التكامل حاضرا وملحا ومتى لا يكون، يعني: هل الكلام فيه ضرورة تملئها ظروف الانفصام بين العلوم الشرعية أم هو كلام لأجل الكلام.
- 4- هل التكامل المنشود يلغي خصوصية العلوم الشرعية؟ يعني: هل يخاصم التخصص ويتناقض معه.
- 5- هل من تمييز بين "علوم الصناعة" و"علوم العناية" في إطار التكامل، ونعني بعلوم العناية العلوم المجالية.
- 6- هل يمكن رسم خريطة منهجية للعلوم الإنسانية نحو رؤية تكاملية لهذه العلوم، ومن يتكلم في الموضوع.
- 7- إذا كان التكامل بين العلوم الإنسانية موجودا في بنية العلوم وفي تاريخها فكيف نوضحه ونجليه،

8- إذا لم يكن التكامل موجودا كيف نحققه في العلوم الإنسانية الأخرى؟

هي تساؤلات إشكالية تقرب إلينا الموضوع وتوضح مساره، أملين أن تفتح بشأنه أورش بحث وملتقيات لتعميق الحوار والنقاش.

- المبحث الثالث: المقاصد الشرعية: المفهوم والمقاصد

المطلب الأول: في العلاقة بالموضوع:

ينبع اختيار الموضوع من موقع الاهتمام بهذا العلم منذ أن أرسى دعائم الحكيم الترمذي والعز بن عبد السلام وابن تيمية والغزالي والشاطبي والطاهر بن عاشور، وبلوره الأستاذ علال الفاسي وآخرون، وقد توجس البعض منه خيفة بدعوى أن المقاصد تُلغى بها الأحكام، قد يكون ذلك صحيحا عند من يوظف المقاصد توظيفا سلبيا، لكن الذي يستخدمها فيما وجدت لأجله - أي ربط المقاصد بمقاصدها - يجني منافعها، ونقدر ذلك التخوف لأن إيجابيات هذا العلم ومنافعه لم تظهر لهم بالشكل الكافي.

الجامعات اليوم تعج بالكثير من البحوث في هذا العلم، وما أحوجنا اليوم إلى رصد هذه الإنتاجات للوقوف على عددها، وعلى موضوعاتها، وعلى أسماء الذين بحثوها، ثم على مناهج البحث وطرق الدراسة، لأن هذا حسب ظني هو أول ما تجب البداية به، فالموضوعات تتكرر، والجهود تضيع، ثم إن الفائدة من هذا كله هو العمل على طبع هذه البحوث وإخراجها حتى تدخل عالم المعرفة من الباب الواسع، ما لم يتحقق هذا المطلب فإن الجهود تبقى عرضة للتكرار والنسيان.

المطلب الثاني: التأصيل قبل التفعيل

أول ما يجب الحرص عليه هو إشباع هذا العلم بأصالته، إننا نميل إلى التفعيل قبل التأصيل وهذا خطأ، مهمة العلماء العالمين والعاملين هو التأصيل، فما المراد بالتأصيل؟
نعني بالتأصيل البحث في علمية العلم؟ هل هو علم؟ وبماذا هو علم؟ وكيف يكون علما؟..

لا تكون المقاصد علما إلا بتحديد المبادئ الآتية:

1- تحديد المقاصد: أي تحديد مقاصد علم المقاصد، بمعنى ربط علم المقاصد بأهدافه، إذ لم نهتد إلى مقاصد علم المقاصد فسننتيه في الكلام الزائد.

وجدت المقاصد كعلم يعالج النوازل والقضايا المستجدة في المجتمع، يستند على الفقه ويتكى على الأصول، فكيف نساهم به في حل مشاكلنا، وفي معالجة قضايانا ونوازلنا المستجدة؟

إن العمل على تحقيق ذلك من شأنه أن يربط العلم بما لأجله وجد.

2- تحديد القواعد: وهي قواعد يمكن أن تستخلص من المصادر المعتبرة في هذا العلم، لأنه بهذه القواعد تتم معالجة الموضوعات العلمية.

3- مصطلحات العلم: لا يخلو علم من العلوم من مصطلحات، ولكل علم مصطلحاته، والمصطلحات هي حاملة للمفاهيم العلمية، البحث فيها هو البحث في روح العلم والجهل بها هو جهل بالعلم. ويمكن جرد هذه المصطلحات ودراستها من كتاب الموافقات أو من غيره، ولا يستقيم ذلك إلا بتملك منهج أو خطة الدراسة المصطلحية.

4- مصادر العلم: المصادر هي التي نعول عليها في أخذ العلم والمعرفة التي تخص أي علم من العلوم، وبخصوص علم المقاصد فقد تبلورت صورة مصادره عبر الدراسة والبحث، وأمامنا مصادر قديمة وأخرى حديثة لا يستغنى عنها في طلب العلم، فقد يكون الكتاب كله مرجعا في العلم وقد يكون باب منه أو فصل فقط.

5- مناهج العلم: تحديد المنهجية العلمية في علم معين هي من الأولويات في مباشرة العلم ومعرفته، ما لم تظهر لنا معالم المنهجية المقاصدية في بحث ومعالجة موضوع معين برؤية مقاصدية فإنه سيكون بيننا وبين العلم حاجزا، وإذا اتضح بعد البحث أن المنهجية منتفية فإن الجزم بعدم العلمية سيكون مقرا، لأن من مستلزمات العلمية وجود المنهج.

6- أعلام العلم وتاريخه: الأعلام هم العلماء بناء الحقل، أولئك الذين كتبوا وصنفوا، فأصلوا وفعلوا، لولاهم لما كان العلم، ومن يدعي أن علما ما نشأ من دون أعلام، ولذلك كان تراثهم بالنسبة إلينا لازم لا محالة، لذلك فمعرفتهم لازمة لأنها من العلم، من تعرف على أعلام العلم فقد تعرف على العلم، ومن جهلهم فقد جهل العلم، بهم تبدأ المعرفة بالعلم، ومن خلالهم يتم تطوير العلم، ويتداخل عنصر "الأعلام" مع عنصر "التاريخ" وهما وجهان لعملة واحدة، فتاريخ العلم يعني زمانه وتدرجه عبر سيرورة الزمن التاريخي، وهذا لا يستثني

الأعلام الذين ولدوا في عهد وماتوا في عهد آخر، ثم تبدأ مسيرة العلم مع عالم أو مع أعلام آخرين.

7- موضوعات العلم: من المتعذر تخيل علم من دون موضوعات، وجود الموضوعات تعني وجود العلم، قد تتحول المصطلحات إلى موضوعات حين يصبح المصطلح الواحد موضوعا للبحث والمعالجة، وتنقسم الموضوعات إلى قسمين: قسم يخص بنية العلم، وقسم يخص المستجدات الفقهية المعاصرة التي يتولى العلم جعل نوازلها موضوعات بحث.

8- أسلوب العلم ولغته: نحن بحاجة اليوم إلى المحافظة على أساليب العلوم ولغتها، لم نعد نراهن على تمييز اللغة الفقهية عن اللغة الأصولية وعن اللغة المقاصدية بقدر ما أصبحنا ندق ناقوس الخطر في تمييز لغة العلوم الشرعية عن اللغة الفلسفية والإبستمولوجية واللسانية، إن اكتساب لغة علم المقاصد مثلا لا تتم من منطلق مطالعة كتب الفلسفة وإسقاط كل ذلك على المباحث المقاصدية. مع شحن اللغة والأسلوب بمصطلحات هي خارجة عن سياق العلم وبنيته، الأسلوب العلمي يكتسب بكثرة المطالعة والملازمة، وعبر الأيام والليالي يكتسب الباحث لغة العلم، ويخطئ من يظن أن لغة العلم واحدة، وأن أسلوبه واحد، ولا نغتر بالإحالة على كتاب الموافقات في بعض الادعاءات، إنها إطلاقات لم تقف سوى على أوراق معدودة، وسنعاود الكلام في هذه النقطة في فقرة قادمة إن شاء الله.

المطلب الثالث: التوظيف السلبي للمقاصد

لا تعاني المقاصد وحدها من آفة التوظيف السلبي بل ما أصاب علم أصول الفقه والمباحث العقديّة من تغيير في اللغة والأسلوب والصياغة أصاب علم المقاصد، لقد عاشت هذه العلوم محنة خطيرة في تاريخها ولا سيما في العصور الحديثة، فقد اختلطت لغتها بلغة المناطقة والفلاسفة والإبستمولوجيين واللسانيين فجردت من محتواها، وتلفت مقاصدها وأهدافها، فلم تحقق غرضها ولا عالجت مشكلها.

يتمثل التوظيف السلبي للمقاصد في جهتين اثنتين:

الأولى: تسلط نابذة جديدة على هذا العلم، لم يأخذه بأسبابه ولا هم سعوا في اكتسابه على الطريقة العلمية المرسومة خطتها في علمية العلم، ثم إنهم تناولوه من موقع

عدم الإشباع العلمي، علم المقاصد هو آخر ما يجب أن يؤخذ، بعد أن يمتلك الباحث أساسيات العلوم الشرعية، ويتدرج في سلم أولوياتها يمكنه أن يطرق باب المقاصد، وقد نصح الإمام الشاطبي طالب العلم أن باب المقاصد لا يلجّه إلا من كان رياناً من علوم الشريعة.

أمامنا إنتاجات كثيرة في هذا الباب أصحابها ليسوا من أهل الفن، إذا أحسنا الظن بهؤلاء الطلبة الباحثين في لغتهم وأسلوبهم فإن عطاءهم العلمي يبقى ناقصاً جداً، أما إذا لم نحسن الظن فسنجزم لا محالة بأن هؤلاء صيروا الموضوع فكراً لا فقهاً، ومن هنا يجب التفريق بين " الفكر المقاصدي " و" الفقه المقاصدي "، الفقه المقاصدي يكون أقرب إلى العلمية منه إلى التفكير المجرد.

الثانية: تتمثل في بعض الجهود المحسوبة على الدراسات الإسلامية، ومنها ما هو غير محسوب عليها حين تصبح المقاصد ذريعة لهدم الأحكام التشريعية، فباسم المقاصد تُلغى أحكام الحدود، وباسمها يتم تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة والصريحة، ولا أريد أن أثقل كاهل هذه المعالجة بالأمثلة والشواهد، فهي كثيرة للأسف الشديد.

كانت النتيجة أن بعض المخلصين من الباحثين والدارسين المتخصصين بدأوا يعادون علم المقاصد من موقع هذه النماذج، ولم يفرقوا بين علم المقاصد في صفائه ونقائه وبين التوظيف السلبي له، ولم تكن المصادرة هي الحل، بل الحل هو تسييح هذا العلم، وصيانته، والذب عنه، وذلك بتخليصه من عبث العابثين تماماً كما فُعل بالحديث الشريف، حين كثر الكذب والوضع لم يصادر العلماء علم الحديث بل بادروا إلى تحصينه، وسدوا الباب في وجه الدخلاء والمتطفلين.

المطلب الرابع: حقيقة علم المقاصد

ليس الغرض هنا التأصيل للمقاصد في حد ذاتها بل الغرض هو التأصيل لعلمها، لقد عمل بالمقاصد الصحابة والتابعون والفقهاء المجتهدون وأصحاب المذاهب الفقهية المشهورة في تاريخ الأمة، لكن الغرض هو تأطير هذا الجهد بقواعد وضوابط نعول عليها في مأخذ الفهم، وهذا كله يتمثل في " العلم " .

"علم المقاصد" هو علم استنباطي له صلة بالأحكام الشرعية، لا مقاصد من دون حكم شرعي أو أحكام تشريعية، فحيثما وجد الحكم وجدت معه المقاصد، وحيثما وجدت المقاصد المعتبرة وجدت الأحكام التشريعية، إذا ابتعدت المقاصد عن الأحكام أصبحت فلسفة مجردة لا صلة لها بالعمل.

مما يؤسف له أن لنا نوازل كثيرة ومشاكل عديدة تحتاج إلى حلول شرعية، وعندنا في المقابل وابل من الدراسات والبحوث في المقاصد الشرعية لكن النوازل في واد وهذه الدراسات في واد آخر، فلا النوازل والمستجدات أُشبعَت بحثًا بهذه الدراسات ولا هذه الدراسات تناولت تلك الموضوعات بالبحث والتنقيب، وأعطت الرأي الشرعي الذي يجب أن يكون للنازلة.

المطلب الخامس: علم المقاصد والانفتاح على العلوم والمعارف.

يسود في اعتقاد بعض المتخصصين - وهذه من آفة التخصص - أن الكلام في المقاصد وعن المقاصد لا يكون إلا للمتخصص، و"المخصص" في نظرهم هو من أنجز في الموضوع رسالة أو صنف فيه مؤلفا، والواقع أن علم المقاصد بقدر ما هو منفتح على المجتمع لخدمة نوازله ومشاكله بقدر ما هو منفتح على العلوم والمعارف الشرعية وغير الشرعية، المتخصصون لا يحتكرون العلم، العلم ملك مشاع للجميع، مهمة المتخصص هو ضبط علمية العلم وتأييدها وتحديثها ثم إطلاقه ليكون نافعا لكل العلوم، تماما كما فعل المحدثون في ضبطهم للرواية، فهم لم يحتكروا الرواية بل ضبطوها بعلم الحديث فوضعوا قواعدها وأطلقوها ليأخذها المفسرون والقراء والأدباء والمؤرخون والزهاد ورواة السيرة النبوية، كذلك علم المقاصد فهو يقدم نفسه لكل العلوم، وقد فحصت وناقشت رسائل جامعية في هذا الموضوع من مثل: المقاصد العقديّة، والمقاصد التربوية، والمقاصد في السياسة الشرعية، والمقاصد في السيرة النبوية أو في بعض أحداثها مثل "مقاصد البعثة النبوية"، كما يمكن أن تظهر المقاصد في القراءات القرآنية، وفي تفسير القرآن الكريم مع "التفسير المقاصدي للنصوص" وهكذا.

الفصل الثاني:

المكتبة الإسلامية، الخصائص والمكونات والأنواع



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: خصائص المكتبة الإسلامية
- المبحث الثاني: مكونات المكتبة الإسلامية
- المبحث الثالث: أنواع المكتبة الإسلامية واستثمارها
- المبحث الرابع: الكتاب الجامعي ودوره في تنمية البحث العلمي

يتضمن هذا الموضوع الإشارة إلى خصائص المكتبة الإسلامية ومكوناتها وأنواعها وموقف الطالب الباحث منها، فالمكتبة الإسلامية هي مجمل التأليفات والتصنيفات التي كتبت منذ نزول القرآن إلى الوقت الحاضر، وإن نظرة سريعة في المركب النعتي "المكتبة الإسلامية" يدل على ذلك، فالمكتبة على وزن مفعلة، مشتقة من الجذر اللغوي لمادة "كتب"، فهي من افتعال الكتابة، والمركب الثاني يعني الإسلام في إشارة إلى الانتساب للإسلام، وهذا يدل على أننا لا نريد غير "الكتاب الإسلامي"، الكتاب الذي كتبه المسلمون لا الكتاب الذي كتبه غير المسلمين من الخصوم عن الإسلام.

بداية مسيرة المكتبة الإسلامية منذ نزول القرآن وما تفرع عنه من علوم ومعارف في مختلف مناحي الحياة.

- المبحث الأول: خصائص المكتبة الإسلامية

تتسم المكتبة الإسلامية بجملة من الخصائص نذكر منها:

- 1 - الصلة بالوحي، وهذا الوحي هو القرآن الكريم والسنة النبوية، فهي إذن إلهية المصدر، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الكتاب الإسلامي من كتاب الله عز وجل، وكتاب الله من اللوح المحفوظ، ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّهِ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبُّو وَلَا يَنْسَى¹﴾.
- 2 - الطابع الإنساني، كل ما فيها مفيد للبشرية كلها لا للمسلمين وحدهم، ولذلك لا يوجد تراث على وجه الأرض قصده المفكرون من مختلف الانتماءات الدينية والمذهبية والفلسفية والسياسية مثل التراث الإسلامي، وما حكاية المستشرقين مع التراث الإسلامي علينا ببعيدة، وهذا أمر طبيعي لأن الإسلام دين للناس كافة.
- 3- الشمول والعموم، فمثلما هي للناس كافة فهي شاملة لكل قضايا الحياة، وإن نظرة سريعة في كتب الصحيحين مثلا أو في عناوين المؤلفات العلمية تُبين أن الثقافة الإسلامية أتت على كل مناحي الحياة حتى ما يفعله الناس في الخلاء، وهذا ليس بمستغرب أيضا لأن القرآن الكريم الذي هو نواة المكتبة الإسلامية يقر بهذه الخاصية: ﴿مَا فَرَّصْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ²﴾.

¹ -سورة طه الآية 52

² -سورة الأنعام الآية 38

4- تحقيق المنافع، منافعها تعدت الذات إلى الغير في كل مجالات المعرفة، في مجال العقيدة والتشريع والأخلاق والقيم والاقتصاد والسياسة، وفي مجالات التنظيم والتخطيط والتوجيه والتربية والتعليم...

5 - المرونة والانفتاح، فهي منفتحة لأنها تأخذ من معارف الآخر، وتعطي من معارفها وفنونها، فهي لا تنغلق ولا تسد الباب في وجه الوافد النافع، وهي مرنة لأنها تطاوع التبدلات والتحوليات الإيجابية، انفتاحها ومرونتها جاءتا نتيجة شموليتها ونفعها للناس كافة، ولذلك حرم الإسلام كتمان العلم والمعرفة عن الناس كلهم، قال تعالى: ﴿إِن الْكَاذِبِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الْكَاذِبِينَ وَأَصْلَحُوا وَيَبِئْنَا فُلُوكُمْ أَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

6 - التعدد والتنوع، متعددة ومتنوعة الاتجاهات والفنون والمعارف، تنوع وتعدد اقتضته طبيعة الرسالة أولا وطبيعة الانفتاح والمرونة والشمولية والنفع ثانيا، وهذا من يُسر وسماحة هذه الثقافة.

7- الامتداد في الزمان والإحاطة بالمكان، فهي غير واقفة بطبيعتها عند لحظة زمنية معينة، ولا هي متعينة على بقعة جغرافية معينة. والدليل على ذلك أن المصنفين للكتاب الإسلامي هم من مختلف الأعصار والأزمان، ومن كل الجهات في العالم.

- المبحث الثاني: مكونات المكتبة الإسلامية.

مثلما أن للمكتبة خصائص تميزها فهي تتشكل من عدة محاور تكونها، هذه المحاور هي:

المحور الأول: القرآن وعلومه، أو ما يطلق عليه " المكتبة القرآنية "، وتتكون من كتب في القراءات القرآنية، وكتب في التفسير، وكتب في علوم القرآن، وكتب الإعجاز.

المحور الثاني: كتب السنة النبوية، ومنها مصادر السنة المباشرة التي تحتوي على الحديث متنا وسندا مثل كتب الصحاح والسنن والمسانيد...، وكتب شروح السنة مثل فتح الباري في شرح صحيح البخاري، وشرح صحيح مسلم للإمام النووي، وعون المعبود في شرح سنن أبي داود، وتحفة الأحوذ في شرح سنن الترمذي، وإرشاد الساري وعمدة القاري...

ومصادر فقه الحديث مثل نيل الأوطار للشوكاني وسبل السلام للصنعاني والتمهيد لابن عبد البر وكذلك الاستذكار وغير ذلك.

المحور الثالث: كتب اللغة العربية، ويدخل فيها معاجم اللغة والقواميس مثل لسان العرب لابن منظور ومقاييس اللغة لابن فارس، وكتب فقه اللغة والبلاغة العربية وكتب النحو...

المحور الرابع: كتب الفقه على المذاهب كلها وهي كثيرة جدا، وكتب أصول الفقه، وكتب تاريخ التشريع وكتب في المقاصد الشرعية.

المحور الخامس: كتب العقيدة بمختلف المذاهب والطوائف، وكتب في علم الكلام والفلسفة الإسلامية.

المحور السادس: كتب في الفكر الإسلامي، وأخرى في تاريخ الأديان والفرق والمذاهب.

المحور السابع: كتب في السيرة النبوية والتاريخ العام والخاص، وأخرى في الحضارة الإسلامية.

المحور الثامن: كتب في الجغرافيا الطبيعية والبشرية وغيرها من الفنون والتخصصات التابعة للجغرافيا، ومنها المصادر المتقدمة مثل "نزهة المشتاق" للشريف الإدريسي، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، ورحلات ابن بطوطة وغير ذلك.

المحور التاسع: كتب المعاجم والفهارس والطبقات والأعلام.

المحور العاشر: كتب في الحقوق والقانون والسياسة والاقتصاد.

المحور الحادي عشر: كتب في الثقافة العامة والمتنوعة، مما يتركب من عدة فنون سابقة.

المحور الثاني عشر: كتب في الفنون والجمال والموسيقى والنحت والرسم والخط...

المحور الثالث عشر: كتب في اللغات الحية، والثقافة الأجنبية.

- المبحث الثالث: أنواع المكتبة الإسلامية واستثمارها

المطلب الأول: أنواع المكتبة.

تتنوع المكتبة الإسلامية إلى نوعين: المكتبة الحقيقية، ونعني بها المكتبة في صورتها الواقعية والحية، المائلة أمامك بكتابتها المطبوع على الأوراق كما نرى في المعارض الدولية للكتاب، والمكتبة الإلكترونية، ونعني بها المكتبة التي تتكون من الكتاب المطبوع إلكترونياً، ويدور النقاش حول أيهما أنفع للمعرفة، وأيهما أصلح للعلم والثقافة؟

لا خلاف بين النوعين، فإذا كان الكتاب الحقيقي أثبت جدارته عبر التاريخ فإن الكتاب الإلكتروني هو من التيسير الذي يسره الله سبحانه وتعالى للعلماء والباحثين والدارسين، الكتاب الإلكتروني هو معك أينما حللت وارتحلت، يمكنك حمل الألوف من الكتب في أقراص أو في خزان صغير، نسلم بسلامة المكتبة الإلكترونية ونجوز الاعتماد عليها في كل شيء إذا كان الكتاب الإلكتروني يعكس حقيقة الكتاب الحقيقي، بحيث يكون هو من دون زيادة ولا نقصان.

بعد كل ما تقدم نتساءل عن موقف الطالب من المكتبة، وكيف يجب أن يتعامل معها؟

ليس للطالب موقف من المكتبة سوى الاستفادة منها، فالمكتبة مكونة من كتب أنجزها العلماء في ظروف قد تكون سهلة وقد تكون صعبة، ماتوا وبقي علمهم، وهذا العلم هو دين يلزمنا الوفاء به، وما دام الطالب هو طالب علم فإن العلم لا يوجد إلا في المكتبة، فهي خزان للعلوم والمعارف، من كانت له صلة بالمكتبة فله صلة بالبحث العلمي، وليقم الطالب الباحث بزيارة المعرض الدولي للكتاب للتعرف على أشكال الكتاب وأنواعه، ومن يقف وراءه من المؤلفين والطابعين والناشرين مع ما يتخلل المعرض من أنشطة علمية موازية حول الإصدارات العلمية الحديثة، وتتجسد الصلة بـ "زيارة المكتبة"، وتختزل كلمة "الزيارة" الشيء الكثير، فإذا كنا نؤمن بأن الزيارة في بعض الحالات ضرورية وواجبة فهذا ينطبق على المكتبة، "زيارة المكتبة" هو ربط الصلة برحم العلم، قطع الزيارة هو قطع الصلة مع رحم العلم، وليتق الطلاب الله في رحم العلم.

ليست الزيارة هي الدخول من باب والخروج من آخر، أو الجلوس في المكتبة لوقت من الأوقات، بل الزيارة تعني: طلب الكتاب وقراءته، وفهم ما فيه، والمحافظة عليه لأن المحافظة عليه تعني بقاءه للأجيال القادمة، ولو لم تتم المحافظة عليه من المتقدمين لما وصل سالما إلى المتأخرين، فالكتاب هو صدقة من الصدقات الجارية إذا وقع فيه احتساب الأجر من الله عز وجل، ومما يضاف إلى الزيارة التحلي بأداب المطالعة وأخلاقها حتى لا يزعج من يشتغل فيها.

المطلب الثاني: استثمار المكتبة في التعامل مع التراث

الكلام عن العلاقة بين "المكتبة" و"التراث" هو كلام ذو شجون، يطول بنا المقال فيه، لكننا نخصر العبارات ونقول بأن التراث لا يقوم إلا على المكتبة، لا يمكن تصور تراث إسلامي من دون المكتبة الإسلامية، فمن خالط المكتبة خالط التراث، وإذا كان مفهوم التراث يوجي بالإرث، وما تركه السابقون لللاحقين فإن هذا ينطبق على حقيقة المكتبة، فهي إرث مخلف من السلف للخلف، وهو الذي يعبر عن الكينونة والهوية وجوهر الأمة الإسلامية منذ نزول الوحي إلى اليوم، إذا أدركنا خصائص المكتبة وومكوناتها وأنواعها اهتدينا إلى طريق التعامل مع المكتبة.

إن طرق التعامل مع التراث تتباين بين موقفين متعاكسين: موقف يتعامل مع التراث من موقع اللحظة الزمنية الآنية صوب الماضي، أي من الذات إلى التراث، قد يتوقف عند القرن الثالث أو الخامس أو العاشر المهم أنه ينطلق بطريقة "رجوعية"، وهو ما فعله الدكتور محمد عابد الجابري في مؤلفه "نحن والتراث"، والموقف الثاني ينطلق من الماضي صوب الذات، أي يقرأ التراث بحسب ترتيبه وبنائه الداخلي تحت صيغة "التراث ونحن"، هذا الموقف هو الذي يملك رؤية حقيقية، بنائية ونسقية للتراث، وإذا تكلمت عن التراث هنا فإنني استحضر المكتبة الإسلامية بمختلف فنونها.

- المبحث الرابع: الكتاب الجامعي ودوره في تنمية البحث العلمي¹

توطئة

أعتبر هذا اللقاء بداية حوار جدي وفعال حول قضايانا الراهنة التي يتخبط فيها البحث العلمي في الجامعات المغربية بصفة عامة وفي جامعة القاضي عياض بصفة خاصة، لا يجب أن ننفع إلا لما فيه مصلحة العمل العلمي، ولا ننقد إلا فيما يرجع بالمصلحة على البحث العلمي داخل الكلية، وعلينا أن نتناصح بخصوص قضايانا المصيرية المشتركة، فالأزمة إذا كانت عامة ومشتركة لا تحل إلا بالحوار العلمي المشترك، نعلم جيدا أنه بالبحث العلمي تُحل مشاكل كثيرة، وإذا بالبحث العلمي يتحول إلى موضوعات للتقويم والدرس، وهي بادرة طيبة، ومقدمة إيجابية ستوصلنا إلى نتائج طيبة ومفيدة.

إن الأعراف التي تجمعننا والتقاليد الجامعية التي توحد فيما بيننا تحتم علينا أن نكون «أسرة جامعية واحدة».

لقد اخترت أن أطرح أمامكم موضوع «الكتاب الجامعي»، وأن أثير بعضا من مشاكله ومعضلاته، نتذاكر ونتحاور بشأن وضعيته العامة داخل الجامعة، لكن اسمحو لي أن أقدم بين أيديكم كلمة خفيفة عن ضرورة الكتاب وأهميته.

الكلام عن الكتاب عامة والجامعي منه خاصة ليس من نافلة القول، بل من ضروراته وأساسياته، ذلك أن الكتاب هو أساس الوجود، وأساس الحياة، وأساس المعرفة، وأساس الحساب والعقاب.

أساس الوجود لأن الله تعالى أول ما خلق خلق القلم بحسب الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند، والقلم كناية عن الكتاب، ولشرفه وعلو مكانته أقسم به الباري تعالى في محكم التنزيل فقال: ﴿ن، والقلم وما يسكرون﴾²، كُتب القلم بعلم الله الأزلي الأبدي الذي هو في كتاب ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾³.

¹ - نص الكلمة التي تمت المشاركة بها في اليوم الدراسي الذي نظمته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش في موضوع: «البحث العلمي معوقاته وآفاقه»، ألقى العرض بقاعة الاجتماعات يوم الأربعاء 17 يونيو 2009.

² - سورة القلم الآية 01.

³ - سورة طه الآية 52.

وهذا يدل على أن الكتاب سابق على وجود القلم، ثم إن الأمة اليهودية والمسيحية خرجتا إلى الوجود ب «الكتاب»، فكانوا أهل كتاب في إشارة إلى التوراة والإنجيل، وكذلك الأمة الإسلامية فقد خرجت إلى الوجود بالكتاب ﴿عَلَّمَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾¹، في إشارة إلى القرآن، وكانت أول كلمة نزلت منه هي ﴿اقْرَأْ﴾ في إشارة إلى التعلم من الكتاب، والآيات الخمس الأولى من سورة العلق توضح ذلك وتبينه، وهي أول ما تلقى النبي محمد صلى الله عليه وسلم من الوحي، ليس هذا فحسب فالكتاب هو أساس الحساب والعقاب في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا لك كتابان يسهر عليهما ملكان، ملك اليمين يكتب في كتابك الحسنات، وملك الشمال يكتب في كتابك السيئات، وغدا في الآخرة بعد الحساب إن كنت من أهل الجنة أخذته باليمين، وإن كنت من أهل النار أخذته بالشمال، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا، وَيُنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا، وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾². ثم يقال لك: ﴿اقْرَأْ كِتَابًا كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عِلِيلًا حَسِيبًا﴾³.

هذا من حيث أهمية "الكتاب" في مجال الاعتقاد، وهذا من شرف الكتاب ومكانته في دين الإسلام.

وارتبط الكتاب طيلة التاريخ بمحاربة الأمية، وحقيقة هذه الأمة أنها أمة أمية، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁴، ثم ارتفعت الأمية عن الأمة الأمية ب "الكتاب"، فانطلقت العلوم والمعارف، وحصلت المزاوجة في الكتاب بين كتابين: كتاب الوحي وما تفرع عنه من أصناف شتى من أنواع الكتاب، والكتاب الوافد من الحضارات الأخرى والمترجم في بيت الحكمة، وتشير كلمة «التدوين» إلى عملية تأليف الكتاب.

أصبح الكتاب عربون وجود، به نعرف، وبه نعلم، ومن خلاله نتعلم، ولا نعرف من مضى من سلف هذه الأمة ومن سبقها إلا بالكتاب، فما أرسطو إلا كتاب، وما سيبويه إلا كتاب، وما ابن رشد والغزالي والإمام مالك والشافعي إلا كتب، لولا الكتاب الذي صنّفوه ما

¹ - سورة البقرة الآية 1-2.

² - سورة الانشقاق الآية «7-12».

³ - سورة الإسراء الآية 14.

⁴ - سورة الجمعة الآية 02.

عرفناهم، الكتاب إذن "عربون وجود"، أن تصنف فأنت موجود، أن تحيد عن التصنيف فأنت بعد الموت مفقود.

من هنا حضيت المؤسسات التي لها صلة بالكتاب بقيمة كبيرة في المجتمع، مثل: المسجد، الكنيسة، المدرسة، المعهد، المطبعة، المكتبة، وتقف إلى جانب هذه المؤسسات كلها مؤسسة الجامعة.

يأتي الكلام عن الجامعة هنا لأنها تقف في قمة هرم المؤسسات ذات تعليم الكتاب والاهتمام به، وما زالت الجامعة ينظر إليها نظرة محترمة لكونها مجال للبحث العلمي، ففيها يولد الكتاب، ومنها ينطلق، وفيها يُشرح ويُفهم ويُدرس ويُلقن، نعم قد تجد الكتاب خارج الجامعة، ومن تصنيف غير الأستاذ الجامعي لكن ليس بنفس المواصفات، لذلك قلت إن الكلام عن الكتاب الجامعي ليس من نافلة القول، وقد استطردهنا في الكلام عن الكتاب بهذه الكيفية رغبة في وضع الكتاب الجامعي في إطاره العام، الذي لا يعرف قيمة الكتاب في الوجود بصفة عامة لا يمكنه أن يعرف قيمة الكتاب الجامعي بصفة خاصة.

لماذا وقع اختيارنا على هذا الموضوع ولم نختر غيره؟

وقع اختيارنا لهذا الموضوع لأسباب منها:

أ- تخصيص الكتاب الجامعي في الجامعة المغربية بصفة عامة وجامعة القاضي عياض بصفة خاصة بدراسة مستقلة، لأنني لا أعلم في حدود ما أعلم والله أعلم أن هناك دراسة اهتمت بالكتاب الجامعي في جامعة القاضي عياض، مع العلم أن الموضوع ضروري وحيوي.

ب- اختيارنا لهذا الموضوع يدل على أن الكتاب الجامعي يعيش أزمة حقيقية، أزمة متعددة الوجوه والأشكال.

ج- نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تقديم موضوع الكتاب الجامعي للمطارحة النظرية، والمعالجة العلمية الهادئة، فكل الحاضرين في هذا الملتقى العلمي هم من الأساتذة الباحثين المهتمين بقضايا البحث العلمي.

د- منذ انخراط الجامعة في سلك الإصلاح سنة 2003م والكلام عن هذه التجربة لم ينقطع، فقد أقيمت عدة ندوات ولقاءات وأيام دراسية ومحاضرات كان الكلام فيها عن الكتاب الجامعي غائبا، ونرجو أن تكون مبادرتنا هذه قد فتحت الباب لمناقشة هذا الموضوع

مناقشة علمية ومسؤولة، تتشخص فيها الأزمة بغية معالجتها أو على الأقل التخفيف من آثارها السلبية.

أريد أن أقول للاساتذة الكرام أن الكلام عن "الكتاب الجامعي" هو الكلام عن كل شيء في البحث العلمي، الاهتمام بالكتاب الجامعي هو الاهتمام بالبحث العلمي، فالبحث العلمي يتشكل خارج الكتاب لكن الكتاب يعود ليحتويه ويضمه، وعلى مر الأيام عاش الكتاب وعاء للبحث العلمي، وشكل شكلا من أشكال تنظيم المنهاج الدراسي داخل الجامعة، ومن هذا المنظور فهو يعكس وجوها تمثيلية كثيرة:

- يعكس الوجه الحقيقي للبحث العلمي، في طبيعته ومجاله وموضوعه ومنهجه.
- يعكس وجه الأستاذ الباحث الذي هو سبب في وجوده، إذ بتجربته في ميدان البحث العلمي خرج إلى الوجود.

- يعكس وجه الكلية التي ينتسب إليها الأستاذ، والجامعة التي تنتسب إليها الكلية.
- يعكس وجه البلد الذي ينتهي إليه الأستاذ الباحث وخرج منه الكتاب، وكثيرا ما كنا نسأل ونحن في الشرق أو الغرب عن كتاب مغاربة، وعن الجامعات التي يدرسون فيها، وعن التخصصات والمجالات التي يشتغلون بها، وذلك كله سببه المباشر هو الكتاب.

المطلب الأول: الوضع العام للكتاب الجامعي

لا بد من النطق بحقيقة علمية وهي أن الكتاب الجامعي تأخر الكلام عليه بغية تشخيص مشاكله وأزماته مع العلم أنه مر على جامعة القاضي عياض قرابة ثلاثين سنة من تأسيسها، وأعتقد أن هذه الظاهرة عرفت على مدى سنوات طويلة من تاريخ المغرب، يصور أستاذنا محمد عبد الهادي المنوني رحمه الله هذه الغفلة التي حصلت في تاريخ المغرب فيقول: «ولكن عذري في هذا الاختصار هو تغافل التاريخ المغربي عن هذه الناحية، وإهماله لها إهمالا مشينا، فإن الباحث مهما حاول تفصيل تلك الإشارات، وتبيين تلك التلويحات يجد المؤرخين المغاربة صامتين ساكتين عن هذا الموضوع، لا يعنون به إلا في عبارات قصيرات، وكلمات مقتضبات»¹

¹ - في كتابه دور الكتب في ماضي المغرب ص 12.

إذن لا مجال للتساؤل عن سبب الغفلة عن الاهتمام بالكتاب الجامعي والكلام عليه، فقد بين الأستاذ المنوني أن القضية لها جذور في التاريخ، وما نعيشه اليوم هو شبيه بوضع الكتاب بالأمس، ولعل الدراسة التي نحن بصدد تقديمها كفيلة بأن تكشف عن عمق الأزمة التي يعاني منها هذا الكائن المسمى بـ «الكتاب الجامعي».

حين نحاول القيام بدراسة علمية وجادة تعترضنا مشاكل عدة منها:

أ- تنوع الكتاب الجامعي من جهة تباين الاختصاصات مما يستدعي أن يقوم أهل كل تخصص بمعالجة المشاكل التي تعترض سبيل هذا النوع من الكتب الجامعية.

ب- لا توجد احصاءات علمية دقيقة تخص الكتاب الجامعي بصفة عامة والكتاب الجامعي الذي يخص جامعة القاضي عياض بصفة خاصة، وقد قدم السيد نائب العميد الأستاذ عبد الله كوش رقما ذكر أنه غير دقيق وهو مجرد إحصاء خفيف أن عدد إصدارات السادة الأساتذة بكلية الآداب يصل إلى حوالي مائة واثنين كتابا، هذه الإصدارات هي من جهود الأساتذة الشخصية ومن اعتماداتهم الذاتية.

ج- لا توجد دراسات علمية مواكبة لطبيعة الكتاب الجامعي، وصورته ومحتوياته، ثم المشاكل التي تعترضه، إذ المطلوب على الأقل التركيز على عينات من التخصصات الموجودة في الجامعة يتم الاستئناس بها في هذا الغرض.

أمام غياب هذه المعطيات فإن القيام بدراسة علمية دقيقة وشاملة لمسيرة الكتاب الجامعي منذ نشأة جامعة القاضي عياض إلى اليوم تصبح متعذرة ما لم تتوفر إرادة جامعية قوية تعنى بتضافر الجهود لتحقيق ذلك، أعني بذلك الجهد الإداري وجهد الأستاذ الباحث، ومع ذلك فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله أو بعضه فقد عولت في هذا البحث على جهدي الفردي، مستعينا بتجربتي المتواضعة في تأليف الكتاب الجامعي وطبعه وتلقيه ونشره، أستطيع أن أقول إنها مغامرة محفوفة بمخاطر شتى، فيها ما هو مؤلم وما هو سار، ما هو محزن وما هو مفرح، وهو أمر لا يحس به إلا من كابد مشقة التأليف والنشر.

ماذا يعني الكتاب بالنسبة للجامعة؟ ما موقفها منه؟ وما هي أشكال الدعم التي توليها إليه؟ كم عدد المحاضرات والأيام الدراسية والندوات الدولية والوطنية التي توليها له؟ كم عدد الإصدارات من هذا النوع من كل تخصص؟ هل نملك إحصاء دقيقا عن ذلك؟ هل الكتاب استوفى أغراضه ولم تعد الجامعة في حاجة إليه، كيف ذلك وما هو البديل؟ أم أننا

ما زلنا نبحث عنه؟ ما هي مواصفات الكتاب الجامعي؟ وبأية حلة نريده؟ الخ تساؤلات كثيرة تدفعنا للكلام في هذا الموضوع إن لم ننجح في معالجته فعلى الأقل ننبه عليه ونثير بعض إشكالاته، ذلك أن الكلام في هذا الموضوع أصبح مفترضا وسط إكراهات وعوائق كثيرة.

المطلب الثاني: مواصفات الكتاب الجامعي

نجيب في هذه الفقرة على بعض الأسئلة التي تقدمنا بها بين يدي الموضوع والمتعلقة بـ «مواصفات الكتاب الجامعي».

تختلف المواصفات بين أستاذ وآخر، كل واحد يعطي وصفا معيناً للكتاب الجامعي، وقد أبانت تدخلات السادة الأساتذة في التعليق على العرض عن هذا الاختلاف والتباين في الوصف، منهم من يرى أن الكتاب الجامعي هو الذي يصنفه الأستاذ الجامعي داخل الجامعة، ومنهم من يضيف حتى إصداراته خارجها، ومنهم من يأخذ التجربة الفرنسية أو الألمانية أو الأمريكية أو دولة أخرى من الدول الأوروبية أو بعض الدول العربية، ومنهم من يقول إن الكتاب الجامعي هو الذي يعنى بمداخل العلوم فقط إلى غير ذلك من المقترحات...

والواقع أنه في غياب وضع خطة للكتاب الجامعي، وصورة دقيقة تنبع من إرادة الجامعة في وضع المواصفات السليمة للكتاب الجامعي تبقى كل المقترحات سليمة وبناءة، وفي نظري، وانطلاقاً من التجربة المتواضعة نرى أن للكتاب الجامعي مواصفات، منها:

1- أنه مجموعة من الدروس والأعمال توفرت للأستاذ مع مر السنين في تدريس مادة معينة.

2- مجموعة من المقالات والأبحاث والعروض شارك بها في ملتقيات محلية ووطنية ودولية.

3- عمل علمي حر، قد يكون ترجمة أو دراسة أو تحقيق أو المساهمة في وضع خطة للبحث العلمي.

4- بحث علمي قدم لنيل شهادة جامعية، روجع في ضوء ملاحظات اللجنة، وطور ليصبح كتاباً مطبوعاً ومتداولاً.

5- اشتراك أستاذين أو ثلاثة في وضع دروس ومحاضرات في تخصص واحد، هذا النوع من الكتاب الجامعي موجود في الشرق لكننا لم نعهده في جامعتنا حتى الآن.

أما الطباعة والتوزيع فعلى الجامعة أن تتولى مهمة الكتاب الجامعي من حيث الطباعة والنشر حتى تُريح الأستاذ من هذه التبعات الصعبة التي إن تولاها الأستاذ تحت ضغط الضرورة ضيع فيها وقتا طويلا يمكن أن يستثمره في البحث العلمي، الطباعة والنشر والتوزيع يمكن أن يقوم بها كل واحد لكن عملية البحث العلمي لا يقوم بها إلا الأستاذ الباحث، وهي مهمة لا ينوب عنه فيها أحد.

ومما يلاحظ ويشاع أن البحوث الجامعية التي قدمت لنيل الشواهد الجامعية لا يمكن أن تدخل ضمن الكتاب الجامعي، والسؤال المطروح: ما الفرق بين البحث الجامعي والكتاب الجامعي؟ لماذا نصف البحث بالجامعي قبل أن يُطبع وإذا طبع سحبنا منه الصفة الجامعية؟ ثم ماذا نقول عن الرسائل التي تقوم بعض الكليات ككلية الآداب بالرباط مثلا بطباعتها، فتسعرها وتبيعها أليست من نوع الكتاب الجامعي؟

أعتقد أننا لم نفرق بين الكتاب الجامعي المقرر على الطلاب بالجامعة والكتاب الجامعي الذي لا يقرر، فالنوع الأول لا ينفي عن النوع الثاني صفة كونه جامعيًا.

إلى جانب ما مضى فإن الكتاب الجامعي يتطلب ما يلي:

1- الخبرة العالية التي ترجع إلى تجربة الأستاذ الباحث في ميدان البحث العلمي، وميدان التلقين والتدريس.

2- التوفر على الجهد الذهني والملكة المعرفية، فالكتاب الجامعي ليس كومة من الأوراق تؤخذ من هنا وهناك يوضع عليها اسم أستاذ يدعى باحثًا وتقرر على الطلاب قهرا أو جبرا.

3- التوفر على الإمكانيات المادية لطباعة الكتاب وتوزيعه، فعملية الطباعة والنشر والتوزيع هي ثقافة أخرى غير ثقافة البحث العلمي، والأساتذة من هذا المعيار وان اشتركوا في صفة أستاذ جامعي باحث فهذا لقب إداري لا يعني شيئا ما لم يبرهن الأستاذ على خصلة البحث، فقد يكون الأستاذ جامعيًا وله صفة الباحث لكنه لا يقدم للبحث العلمي شيئا، ثم إن المجموعة الباحثة التي تظهر عليها صفة البحث العلمي كثيرهم يتوجس خيفة من عملية الطباعة والنشر والتوزيع، فإذا خضع الأستاذ لتجربة مرة في هذا الميدان فإنه لا يعاود الكرة الثانية، ثم إن غيرة الأستاذ على ذاته وسمعته وكرامته تنأى به أن يقف متسولا أمام المكاتب

الإدارية بسبب تأخر الجواب في قضية الدعم، وقد ينتظر وقتا طويلا ولا يتلقى دعما، أو أمام المطابع والمجلات التجارية التي تعنى بطبع الكتاب وتوزيعه بنسب عالية جدا....
أمام هذه الإكراهات فإن الأستاذ الباحث يعول على إمكانياته المتواضعة والمحدودة.

المطلب الثالث: أهداف الكتاب الجامعي

يستمد الكتاب الجامعي مشروعية وجوده من الجامعة، ومثلما أن الجامعة في حاجة إليه فهو في حاجة إليها أيضا، وإن كنا نتصور وجود جامعة من دون كتاب فلا يمكن أن نتصور وجود كتاب جامعي من دون جامعة، وإذا كانت الجامعة قد تأسست لتحقيق أهداف معينة فعلى الكتاب أن يعكس ذات الأهداف، ويصب في نفس التوجه، ولا معنى لفصل أهداف الجامعة عن أهداف الكتاب، والسبب في ذلك أن محرره أستاذ جامعي منخرط ومنظر ومساهم في تحقيق رسالة الجامعة، هذه الرسالة المتمثلة في دعامة التعليم والتكوين والتربية والبحث العلمي وخدمة المجتمع والتفتح على المحيطين الوطني والدولي والمساهمة في التنمية الشاملة.

جاء في بعض العروض أن التنمية تقاس بعدة عوامل منها تطويل العمر والزيادة في عمر المواطنين، وسمحوا لي أن أمسك بهذا التعريف لأن الكتاب - من وجهة نظري - يضيف إلى صاحبه أولا وإلى المجتمع والحضارة التي ينتمي إليها رصييدا آخر من الزمن أطول بكثير من عمر الحياة المحدود، وعندنا في الأثر الصحيح: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»¹، هذا معطى جزئي للتنمية ولا مانع من أن يساهم في التنميه بكل أبعادها.

إن للكتاب خاصية عجيبة لا توجد في غيره، وهي الحصانة القوية التي يمتلكها عبر العصور، من أساء إليه بأي نوع من أنواع الإساءة لم يفلح وقبول عمله بالنقد والاستهجان ولو مر على العملية ألف عام، أما القضاء عليه فمستحيل تحقيقه، وقد حاول التتار في هجومهم على الحضارة العربية في بلاد الرافدين تحقيق ذلك حين ملؤوا دجلة والفرات بالكتب ومروا عليها عابرين، وكم أحرقوا وأتلفوا لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق ما سعوا إليه،

¹ - حديث أبي هريرة، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته 1255/3، رقم الحديث 1631.

وهو القضاء النهائي عن الحضارة الإسلامية بإتلاف كتابها، ثم عادت تلك الكتب التي رغبوا في إتلافها إلى الظهور ثانية، وكذلك وقع في الأندلس مع محاكم التفتيش، لقد أخفيت الكتب وأُلفت لكنها عادت فظهرت من جديد، والذي يحافظ عليها اليوم هي المكتبات والجامعات في إسبانيا وأوروبا.

وخاصية أخرى هي خروجه من صلب النفس البشرية، وترائب الروح الباطنية، وعبر التاريخ حفظ بعاملين: الأول كتابته في السطور، والثانية حفظه في الصدور، ولا أريد أن أستطرد في ذكر من كان يحفظ كتابه عن ظهر قلب، وقد تعددت أجزاءه، وهم أكثر جدا أولئك الذين يطلق عليهم نعت "الحفاظ".

إن دور الكتاب الجامعي داخل الجامعة هو خدمة المعرفة الأكاديمية بكل أبعادها، ثم إنه يشكل نواة المكتبة الجامعية، ومعلوم أن المكتبة هي الرئة التي تنفس بها الجامعة بكل مكوناتها، ويبقى الكتاب الجامعي بداية ونهاية ناطقا باسم الجامعة على الرغم منها، فهو منها وإليها، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الجامعة أن توليه المكانة التي يستحقها.

المطلب الرابع: أهمية الكتاب الجامعي

سبق لي أن قلت: إن الكتاب تعبير عن الوجود، كلُّ واحد يعبر عن وجوده عن طريق حرفته، فالبناء يعبر عن وجوده ببناء العمارات والسدود وغير ذلك، والنجار يعبر عن وجوده بالتفنن في صناعة الخشب، والحداد في صناعة الحديد، والفلاح في هندسة الحقل وزرعه، وكذلك المهندس والطبيب وسائر الحرف، أما الأستاذ الجامعي فيعبر عن وجوده ووجود الجامعة والكلية والمسالك والشعب والبلد بالكتاب، وأرجو أن لا أكون مخطئا إذا قلت بأن الحياة الجامعية كلها تتجه نحو الكتاب، بما فيها مجمل العمليات التعليمية والتكوينية والتربوية نظرية كانت أو تطبيقية، فالأستاذ يلقي الطالب مبادئ العلوم، ثم مواضيع العلوم، ثم مناهج البحث عن المعلومة، مع المعلومة العلمية يكون الطالب قد توجه إلى الكتاب رأسا لمطالعتها فيه، ومع مناهج البحث يكون قد توجه إلى كيفية استفادتها منه، ثم يتدرج الطالب إلى إقامة عروض ثم بحث الإجازة ثم المعمقة فالدكتوراه التي تتوج بتقديم بحث علمي أكاديمي تحت إشراف أستاذ موجه، ويتم فحصه ومناقشته، وهذا كله مجرد تدريب يأخذ أشكالا عدة كلها تكشف على أن مجمل العمليات تتجه في النهاية صوب "الكتاب".

تتجلى أهمية الكتاب الجامعي في كونه يحقق ما يلي:

- يسهل على الطلبة الرجوع إلى محاضرات الأستاذ.
- يجعل الأستاذ يتخلى عن الإملاء الذي هو طريقة عقيمة في التلقين لأنها تفوت الشرح والتفاعل وتأخذ وقت الحصة بكاملها.
- يوفر للطالب الجهد في أخذ الأفكار والمعلومات من المحاضرة الشفوية.
- يأخذ الطالب وقته كافيًا في مراجعة الكتاب ليتمكن من مواكبة استفسارات الأستاذ وشروحاته.
- ارتباط الطالب بالكتاب يعني الارتباط باللغة العلمية وبالمنهج العلمي وبالأفكار العلمية والموضوعات السائدة فيه، ثم إن ارتباطه به هو ارتباط قراءة ومطالعة واستيعاب.
- يعتبر الكتاب وسيلة تواصل فعالة بين ثلاثة أطراف أساسية: بين الماضي والحاضر، نعني بذلك معرفة الماضين وثقافة المحدثين، وبين الأستاذ والطالب والموضوع من جهة ثانية، وبين الجامعة والمحيطين الوطني والدولي من جهة ثالثة.
- يشكل الكتاب البذرة الأولى لانطلاق البحث العلمي، ويساعد على انتظام العملية التكوينية والتربوية والتعليمية داخل الجامعة.
- يساعد الأستاذ الباحث على تطوير معارفه والارتقاء بأسلوبه.
- صيانة التجربة العلمية للأستاذ، فهو يصون فيه أفكاره، ويودع فيه تجربته، ولا سيما أولئك الذين قطعوا شوطًا في التدريس بالجامعة.
- يعوض الكتاب الجامعي الأستاذ إذا سافر أو مرض أو مات، يبقى الكتاب بعد زوال الأستاذ وحتى الجامعة، به تنتعش الحياة العلمية في الحال والاستقبال.

المطلب الخامس: معضلة الكتاب الجامعي

نعني بـ "المعضلة" الوضع السيء الذي يعيشه الكتاب الجامعي، فقد أصبحت كلمة "الكتاب" مكروهة في الوسط الجامعي، وقوبل الكتاب وبالازدراء والتنقيص، ولا يرجع ذلك

في نظري إلى المحتويات العلمية التي قد يظن البعض أنها ضعيفة وهزيلة، ولا إلى الثمن الذي يُسعر به، بل يرجع ذلك إلى عوامل أخرى ثبتت لنا بالاستقراء، وهي:

- علاقة الطالب بالكتاب ليست علاقة سليمة منذ مرحلة التعليم ما قبل الجامعي، لقد فقد الطالب القدرة على المطالعة والقراءة، ويصبح ثقيلًا عليه أن يرتبط بالكتاب.

- عدم وضع الأستاذ الجامعي في إطاره المشروع والطبيعي، فلديه صورة عن الأستاذ منذ المراحل الأولى للتعليم يحاول أن يسقطها على الأستاذ الباحث.

- شيوع الاعتقاد بأن الأستاذ يمارس التجارة وجني الأرباح من وراء اعتماد كتابه كمقرر جامعي، وهذا الأمر ليس على إطلاقه.

- شيوع بعض الممارسات من قبل الأساتذة بالإفراط في مراقبة الطالب، وإلزامه علنا باقتناء الكتاب، وإهانته بسبب ذلك، ووضع أئمة باهضة لتسعير الكتاب بما لا يتناسب مع كفه، وهذا الأمر إن صدر من بعض الأساتذة فلا نقره، غير أن هذا السلوك وإن كان موجودا عند البعض فلا يجب أن يؤثر على البعض الآخر، ولا أن يجلب المهانة والازدراء للكتاب الجامعي، ويجب اعتبار هذه الحالات حالات نادرة، والنادر لا حكم له كما تقرر القاعدة الفقهية.

- ضعف البنية التحتية في الجامعة بصفة عامة، ومنها منح الطلبة، فهذه جميعها لها صلة بثمن الكتاب.

- ميل الطلبة إلى المختصرات والمخلصات، وقد وفرتها لهم المحلات التجارية المتواجدة بالقرب من الكلية، وقد تخصصت في تصوير الدروس، والنقط الملتقطة من محاضرات الأساتذة، بما في ذلك الإغارة على كتب الأساتذة وتصويرها وبيعها للطلاب بما لا يقره الشرع ولا القانون، والطلبة يقبلون على هذه المحلات إقبالًا كبيرًا.

- هذه المحلات هي محلات بيع المصورات، فهي تجارية بالدرجة الأولى ليست تعليمية ولا تكوينية ولا تربوية، وهي تضمن النجاح بهذه الكيفية لبعض الطلبة لكن بنسبة كبيرة من الأمية.

- شيوع ظاهرة الغش في الامتحانات، وقد مس الغش الكتاب الجامعي أيضا، وأعتقد أن ظاهرة الغش في الامتحانات تعددت أشكالها وتنوعت صورها، مما يستدعي التوقف عندها وإفرادها بدراسة مستقلة.

- أمام هذه الوضعية المزرية يميل بعض الأساتذة إلى استعمال أسلوب الترغيب والترهيب لحماية كتبهم من هذا النوع من القرصنة، غير أن هذه الأساليب في كثير من الأحيان تقرأ بقرئات مغلوطة.

- الاضطرابات الحاصلة في التعليم، وارتفاع دعاوى وأساليب الإصلاح أثرت على وضعية الكتاب الجامعي سلبا وإيجابا، فمن الناحية الإيجابية ساعد الكتاب على تغطية كاملة للبرامج والمقررات، ففي ظل وضعية تقسيم السنة إلى دورتين: دورة خريفية وأخرى ربيعية جعلت الأساتذة في ارتباك تام أمام استيفاء البرنامج المقرر، فالدورة تنصرم بسرعة، ومن الوجه الإيجابي أنه حرك أقلام الأساتذة الباحثين للتأليف والنشر، بحيث أصبحت منشوراتهم العلمية تعتمد في الترقية السريعة، ومن الناحية السلبية أن السرعة في الإصدارات أفقدتها المصدقية العلمية من جهة الضبط والتركيز والإحكام، ناهيك أن الاضطراب والاستعجال في الإصلاح لم يجعل الكتاب في وضعية مستقرة وثابتة.

- عدم وضوح الصورة المطلوبة للكتاب الجامعي، باختلاف تحديد المواصفات يجعل صورة الكتاب الجامعي مهزوزة عند الطلبة.

- التمييز بين أشكال وأنواع الكتاب الجامعي بحيث يحتفى بنوع دون آخر، ويدعم كتاب دون آخر، وتقام قراءات لأنواع معينة في تخصصات معينة دون أخرى، وتقف المصالح الذاتية والعلاقات الشخصية والخصومات غير المشروعة وراء أنشطة استعراضية ومشبوهة.

إننا نتفهم جيدا أن للطلاب الجامعي مشكلة مع الكتاب المقرر، ونحس جيدا -انطلاقا من التجربة- أن للأستاذ مشكلة مع الكتاب الجامعي أيضا، الأولى مشعور بها والثانية غير مشعور بها، الطالب يعيش المشكلة ويعلن عنها والإدارة تساعد، والأستاذ يعيشها في صمت، في انزواء وانطواء، وأعتقد أن حل هذه المشكلة تبدأ من علاقة الأستاذ بالكتاب الجامعي، ما لم تحل هذه المشكلة لن تحل المشكلة الأخرى.

ومما تجب الإشارة إليه أن الكتاب الجامعي يتأثر بالمحيط الذي يتواجد فيه، فهو يشبه الجنين من هذا الوجه، مثلما أن الجنين يتأثر بعالم الرحم، وبوضع الأم صحيا ونفسيا فإن الكتاب يتأثر هو الآخر بمحيطة، والدته هي الجامعة وكيفما تكون الجامعة يكون كتابها.

المطلب السادس: نقد نقد الكتاب الجامعي

توجه إلى الكتاب الجامعي بصفة خاصة والبحث العلمي الجامعي بصفة عامة مجموعة من الانتقادات لا نرى صوابها، نوردتها في نقط محددة ثم نجيب عليها بصيغة التوضيح والنقد:

1- هناك انتقادات توجه إلى محتويات الكتاب الجامعي في علاقتها بالواقع، وهي مغالطة شديدة، فالعلاقة التي يجب أن ترصد هي علاقة محتويات الكتاب ب "الواقع الجامعي" لا ب "الواقع المجتمعي"، علاقتها بالواقع المجتمعي تأتي بالتبع حين تخصص كتب بدراسة الظواهر الاجتماعية، أما ما له صلة بالبحث العلمي والبيداغوجي فهذا يهم الجامعة بالأساس، فالكتاب الذي يبحث في منهجية البحث العلمي، والفهرسة والتكشيف والتخريج ومنهجية سيويه أو ابن جني وفلسفة ابن رشد وكانط والقضايا الكلامية عند الغزالي وترجمة عمل روائي الخ ما علاقة كل هذا بالواقع الاجتماعي؟

2- نقد آخر له صلة بالأول لكنه يأتي بصيغة أخرى وهي "عدم انفتاح الكتاب الجامعي على المحيط."

صحيح أن من أساسيات الثقافة الأكاديمية الانفتاح على المحيط، وربط الجسور بين مكونات المجتمع المدني ومؤسساته، ومن هذه المؤسسات الجامعة، وهذا ما نص عليه الميثاق، وهذا إن تم فإنه سيكون في صالح الكتاب الجامعي لأن سوقه الممتاز هو المجتمع المدني، فالفئة العريضة من المستهلكين هم أفراد المجتمع، لكن هذا لم يتحقق للأسف، لأنه بالقدر الذي نتكلم عن مساهمة الجامعة في المحيط الاجتماعي نسائل المجتمع نفسه ماذا قدم للجامعة سوى أنه صدر إليها أفواجا من الطلبة وتخلي، طلبة من مختلف الفئات الاجتماعية والانتماءات المذهبية والولاءات الحزبية، وتعرف الساحة الجامعية فوضى مطبقة من المشادات والصراعات والاضرابات التي تؤثر سلبا على سير العملية التعليمية.

العلاقة بين الجامعة والمجتمع مطبوعة بطابع عدم التواصل، والدليل أن الجامعة حينما تعيش حتى الإصلاح لا يشاركها المجتمع هذا الهم، فهمها في واد وهم المجتمع في واد آخر.

3- قولهم " إن الجامعة تساهم في تفرخ أفواج من العاطلين"، وهذه الدعوى تقابل بالسؤال الآتي: كيف دخل الطالب إلى الكلية؟ هل دخل بشهادة وخرج بدونها؟ هل دخل عالما وتخرج أميا؟ هل من مهمة الجامعة التوظيف وإيجاد الشغل؟

الذين يروجون لهذه التهمة لا يعرفون ماهي المهمة المنوطة بالجامعة. مهمة الجامعة هي البحث العلمي والتربية والتوجيه والتكوين لإيجاد الأطر القادرة على خدمة البلد والمؤهلة لتحمل المسؤولية في المغرب الحديث، وتتوج مسيرة الطالب في الجامعة بشهادة تؤهله للانخراط في سوق الشغل، ولم يكن من مهام الجامعة إيجاد الشغل والتوظيف، تلك وظيفة مؤسسات أخرى.

4- من المؤاخذات أيضا أن الكتاب الجامعي بصيغته الحالية لا يحقق شيئا ذا بال للجامعة، والجواب أن صورة الكتاب الجامعي غير واضحة المعالم عند الجامعة، والواقع أنه إذا لم تكن من حسنات الكتاب الجامعي أنه حافظ على المعلومات من الضياع فهذا أكبر عمل يسديه للجامعة، والوضع الذي تعيشه الجامعة بوجود الكتاب هو أفضل بكثير لو لم يكن الكتاب.

5- يقيس البعض جودة الكتاب بعدد النسخ المطبوعة منه، وسرعة نفاذها من السوق، وهذه النظرة نظرة تجارية لا تصلح مقياسا لجودة الكتاب، الكتاب الجيد هو الكتاب النافع المزكى من أهل الاختصاص، كم من كتاب جيد غير معروف وغير متداول، وكم من كتاب كُتب له الأشتهار والرواج وهو غير نافع أو نفعه قليل، وفي ظل غياب الإشهار السليم الناصح الموجه، وفي ظل فساد الأذواق وتعدد المشتبهات والميول إلى الزخارف والشكليات واختيار العناوين البراقة غير الدالة يبقى الكتاب على حاله من الضياع والإهمال.

6- تظهر بعض الممارسات من الإدارة أو من غيرها تحاول أن تمارس عنصر الرقابة على كتاب الأستاذ الجامعي، وتظهر هذه الممارسات مع شيوع بعض الدعاوى حين تظهر بعض الخروقات غير المسؤولة تحاول أن تسيئ إلى توظيف الكتاب الجامعي بطريقة غير علمية

وغير تربوية، رحم الله الأستاذ محمد عبد الهادي المنوني كان يقول في مثل هذه الحالات: «كل الحرف لها محتسب إلا هذه الحرفة»، ويعني بها حرفة الكتابة والتأليف.

الرقابة هي المحاسبة، والمحاسبة غير موجودة على البحث العلمي، نعم هناك قيود وتوجيهات وقوانين معينة لكن أن يقع التدخل في محتويات المحاضرات والدروس والكتابة والنشر هذا أمر غير وارد في الوقت الحاضر، والرقابة الحقيقية السائدة أو التي يجب أن تسود هي التي يمارسها الأستاذ الباحث على نفسه وعلى إنتاجه، أو يستعين بمجموعة من الأساتذة المختصين لتقويم عمله من الناحية اللغوية والأسلوبية والمنهجية، المراقبة المطلوبة هنا هي "المراقبة الذاتية".

7- يحاول البعض أن يقدم علاجاً مفاده الاحتذاء بالنموذج الغربي في تكوين الكتاب، وفي التعامل معه، نقول: نعم، الاقتباس والاستفادة من التجارب أمر مطلوب، لكن لا يجب أن يكون جزئياً، فالجامعة في الغرب ليست هي الجامعة هنا، والبنية التحتية هناك ليست هي البنية التحتية هنا، والعلوم هناك ليست هي العلوم هنا، إن أي نجاح للاقتباس يجب أن يراعي الفوارق والخصوصيات.

إن وضعية الكتاب الجامعي في الجامعات المغربية وفي جامعة القاضي عياض بصفة خاصة لا يجب أن يقاس بتجربة الكتاب الجامعي في الغرب ولا بوضعه في بعض البلدان المشرقية، فمن دون شك أن الكتاب في هذه البلدان دخل في مسلسل الإصلاحات المتتالية للتعليم الجامعي، وشملته مشاريع التنمية العلمية والمعرفية والاقتصادية والحضارية... وإذا كانت بعض البلدان تتحدث عن مرحلة ما بعد الكتاب، والبعض يتحدث عن إعادة النظر في الوضع السائد للكتاب فنحن في جامعاتنا لم نصل بعد إلى مرحلة الاقلاع بالكتاب الجامعي، الكتاب الجامعي عندنا ولد ولم يسم بعد، وليست لدينا مواصفات شكلية ومضمونية متفق عليها يمكن من خلالها تقويم وجوده ومسيرته.

8- الكلام عن مواصفات الكتاب الجامعي يجب أن يكون مسبقاً أو ملحوقاً بمواصفات الأستاذ الباحث، ومواصفات الإدارة الجامعية التي تساعد على البحث العلمي وتدعمه، ومواصفات الطالب الجامعي ومواصفات الفضاء الجامعي، أعتقد أنه بدون تحديد مواصفات هذه الأطراف يبقى تحديد مواصفات الكتاب الجامعي ناقصاً.

المطلب السابع: مقترحات وتوصيات

ما زلت أحس أن أي كتاب أصدرته كأني رُزقت مولوداً جديداً، أو كأني ولدت من جديد، فأسعد بالاصدار وأنشط له، وتغمزني لذة خاصة لا يحس بها كل واحد، لكنها تُختصر في كونها تأتي بعد محنة وتعب.

إن أهم الثورات العلمية والكشوفات والتطورات يقف الكتاب وراءها، الحياة العلمية تبدأ به والتخلف والجهل يعم الأمة بسبب غيابه، فهو ضمان النهضة وعربون التطور.

والكتاب يصنع السمعة العلمية للبلد والجامعة، وكفى بالبلدان فخراً أن تذكر وتشتهر بمن برز فيها من العلماء وما ظهر فيها من كتب، والحضارة اليونانية خير دليل.

إذا أدركنا هذا كله تحتم علينا مضاعفة الجهود لصناعة الكتاب والكتاب في مختلف التخصصات العلمية النافعة، ولن يكون ذلك إلا بتوفر العناصر الآتية التي نذكرها كتوصيات أو كمقترحات، وهي كالاتي:

1- تأسيس منتدى للحوار الأكاديمي، نناقش فيه القضايا الجامعية الساخنة ومنها قضية "الكتاب الجامعي".

2- الحاجة ماسة إلى قانون ينظم شؤون الكتاب الجامعي بما يصبوون كرامة البحث العلمي وحقوق الأستاذ الجامعي ومصالح الطلبة.

3- إقامة ندوات وطنية خاصة بالكتاب الجامعي، ومعارض محلية وجهوية ووطنية ودولية.

4- تخصيص دعم مشرف للكتاب، إما بدعم مادي مباشر وغير مشروط أو باقتناء كمية لا بأس بها، مع عقد اتفاقيات مع وزارة الأوقاف والثقافة والبلديات والجماعات المحلية وكل الجهات التي تُعنى بتشجيع الكتاب الجامعي.

5- من مستلزمات البحث العلمي، ومن ضرورات نجاح الدراسة الجامعية الانفتاح على أوعية العلم، وفتح الجسور وربط الاتصال بين مختلف التخصصات الجامعية، وهذه القضية وإن بدأت في مسالك الشعب في بدايتها فإنها انتفتت من المسالك التي اقترحتها الوزارة الوصية بحيث عاد الانغلاق وساد التقوقع أغلب المسالك، وهي قضية ستنعكس على العملية التعليمية والتكوينية والتربوية سلباً.

6- ليس الكتاب الجامعي مجموعة من المعلومات تُجمع ويتم تلقينها بل يتجاوز ذلك إلى تكوين الطالب وتأهيله وصنعه ليكون مفكرا، باحثا ومبدعا، ينخرط بفعالية في حركة التقدم والتنمية.

7- بقدر ما يسعى الكتاب الجامعي إلى تقديم معارف للطلاب الجامعي بقدر ما يخلق فيه بادرة النقد والمراجعة والحوار.

8- لا يجب أن يقدم الأستاذ الكتابَ على أنه غاية النهاية في المعرفة، أو أنه المرجع الأمثل والمصدر الأوحده، بل الكتاب هو جزء من كل، وأن اعتماد الطالب عليه لا يعفيه من الاعتماد على غيره.

9- عدم إدخال الطالب في الخلافات العلمية والميولات المذهبية والولاءات الحزبية.

الباب الثاني:

الجامعة والمنهج والبحث العلمي

بُني هذا الباب على الفصول الثلاثة الآتية:

- الفصل الأول: البحث العلمي بين خصوصية
الدرس الإسلامي والإنساني والطبيعي
- الفصل الثاني: تساؤلات حول المنهج
- الفصل الثالث: مكونات البحث العلمي

الفصل الأول:

البحث العلمي بين خصوصية الدرس الإسلامي والإنساني والطبيعي.



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: مواصفات للكلام في الموضوع
- المبحث الثاني: البحث العلمي بين علوم الإسلام والطبيعة والإنسان
- المبحث الثالث: الجامعة والبحث العلمي
- المبحث الرابع: البحث العلمي والمجتمع
- المبحث الخامس: البحث العلمي، الخصائص والمجالات

المبحث الأول: مواصفات للكلام في الموضوع:

الكلام عن البحث العلمي هو كلام ذو شجون، المتكلمون في هذا الموضوع على ثلاثة أقسام:

- قسم يتكلم من موقع المطالعة والقراءة، وهذا كلامه كلام تثقيفي، يمكن أن يشاركه فيه أي واحد، والمجال فيه مفتوح.

- وقسم يتكلم من موقع التجربة والمعاشية، فكلامه يكون مشبعاً بالحقائق والدلالات النابعة من الأحاسيس والتجارب، ومثل هذا الكلام لا يقوله أي أحد، إلا من خبر وعاش وجرب، فالتجربة هي أكبر معلم وأكبر ملقن للدروس في هذا المجال.

- وقسم ثالث يتكلم من الموقعين: الثقافة والتجربة، وهو القسم الذي يجمعهما معاً، فالبحث العلمي هو مجالنا وقصدنا وشغلنا وانشغالنا، ومن مستلزمات تحقيق عنصر الجودة في التعليم فقه المجال الذي نتحرك فيه، الفلاح الناجح هو الذي يفقه أمور الفلاحة التي يزاولها، وكذلك المهندس والطبيب والإعلامي والبناء والمقاولاتي... من مستلزمات النجاح وتحقيق الجودة فقه ما نحن بصدد، ومن مستلزمات الفقه الاجتهاد، ومن مستلزمات الاجتهاد الفهم والخبرة والمعرفة، وهي أمور تنطلق من الذات أولاً.

المبحث الثاني: "البحث العلمي" بين علوم الإسلام والطبيعة والإنسان

أولاً- البحث العلمي مصطلح مشترك:

صحيح أن "البحث العلمي" هو مفهوم مشترك بين سائر القطاعات العلمية والمعرفية داخل الجامعة، لكن قضية "التخصص" هي التي تفرض عنصر التمييز بين هذه الحقول، من هنا يجب التفريق بين البحث العلمي في العلوم الإنسانية والبحث العلمي في العلوم الإسلامية والبحث العلمي في العلوم الطبيعية، والتمييز بين هذه الحقول الثلاثة لا يكون اعتباراً بل بدافع من التجاور القائم بينها داخل جامعة واحدة، ثم بدافع الأزمة القائمة في مجال البحث في هذه العلوم، ثم بدافع ما أصبح يعرف بربط الجسور وتحقيق الصلات، وهي مطالب لا تعني الاندماج أو تطفل حقل علي على آخر، أو ميل كفة الاهتمام والرعاية إلى جانب دون جانب.

هي حقول تشكل أصنافا متميزة، البحث العلمي في مجال واحد منها ليس هو عينه في المجالين الآخرين، البحث العلمي في العلوم الطبيعية مجاله الطبيعة، والبحث العلمي في العلوم الإنسانية مجاله الإنسان، والبحث العلمي في العلوم الإسلامية مجاله الوحي، وسيأتي معنا التفصيل في ذلك فيما سيأتي من كلام في الموضوع.

العلوم الطبيعية خصائصها التجريب والتطبيق، وخصائص العلوم الإنسانية التجريد والتعليق، وخصائص العلوم الشرعية هي الجمع والتوفيق، ونعني به الجمع بين المثال النظري والتطبيق العملي، وبعبارة أخرى: إن العلوم الإسلامية تستلهم من الوحي الذي هو المثال لتدفع به نحو العمل.

ثانيا- علوم النظر والخصوصية العلمية:

ينحس كثير من الباحثين في الحقول النظرية إلى درجة كبيرة من الغلو، حيث يصرف شطرا من عمره وقسما من جهده فيها، ومبرره في ذلك أن العلوم النظرية لها حضور قوي في العلوم الإسلامية، وأن هذه العلوم ورثناها مثلما ورثنا الكتاب والسنة والأصول، وأنها من مدخرات العقل الإسلامي الواعي واليقظ، كل هذا الكلام صحيح، لكن الذي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار هو أنها علوم وسائل يتم الاشتغال بها لأجل " العمل "، ولذلك كان النظر المجوز منها هو الذي يبني عليه " العمل " أو يساعد عليه، وكل ما لا صلة له بالعمل لا قيمة له في ميزان العلم.

هي حدود يجب التفريق بينها، صحيح أنك تجد طبيبا أو مهندسا أو رياضيا أو جغرافيا وما أكثر هؤلاء يبحث في العلوم الشرعية، وتجد متخصصا في العلوم الشرعية يبحث في العلوم الطبيعية لكن كل هذا يتم في حدود يجوزها البحث العلمي مثل قضية البحث في "الإعجاز العلمي" مثلا، والبحث في المستقبلات والاستراتيجيات والأهداف الخ، لكن هذا كله لا يجعل من المتخصص في العلوم الطبيعية فقيها عالما بالعلوم الشرعية، كما لا يجعل المتكلم في العلوم الطبيعية من المتخصصين في العلوم الإسلامية عالما طبيعيا أو رياضيا... تلك حدود يجب مراعاتها.

إن الأدهى من هذا هو الخلط بين العلوم والمناهج والتناول بها على الدرس الإسلامي والمعارف الشرعية من موقع الانفتاح، ومن موقع وجود شعبة الدراسات الإسلامية إلى جانب شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس واللغة العربية والتاريخ والجغرافيا بل

وجودها ضمن الجامعة التي تحتضن كلية الحقوق وشعبة الرياضيات والفيزياء والكيمياء...الخ، من شأن هذا التطاول أن يعطي خليطاً غير متجانس من الفهوم، ومن الاستنباطات العجيبة التي لا تراعي طبيعة ونظام المعارف والعلوم الشرعية.

وجود الدراسات الإسلامية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية يجعل منها شعبة تدرس علومها لها صلة بالآداب وعلوم الإنسان إلى جانب العلوم الشرعية، وهذا الذي يضيف عليها طابع الانفتاح، لكن الانفتاح لا يعني الذوبان والانصهار، فالذي يجب الاعتقاد به هو معرفة الحدود والتميزات للتحرك بالبحث العلمي ضمن فلك التخصصات القائمة، وهي أمور لا تأتي من موقع الغلو والتفوق ولكنها تأتي من موقع الفهم العلمي المنهجي والواعي.

ثالثاً- البحث العلمي: الأزمات والمعاناة:

يجب الاعتراف بأن البحث العلمي يعاني من عدة ظواهر، منها فقدان التوازن في وضع الجامعة، وهذا الخلل في التوازن نراه يتغير من فترة إلى أخرى، تجد تكديساً للطلاب في كلية الحقوق والاقتصاد مع إقبال قليل على الآداب والعلوم، وفي فترة أخرى يتكاثر الطلاب على الآداب والحقوق مع ضعف في كلية العلوم، لكن في الوقت نفسه نجد أن كليات العلوم تستأثر بنصيب كبير من الميزانية على قلة الموارد البشرية في حين تبقى كلية الآداب والحقوق تفتقر إلى البنية التحتية.

نتكلم عن هذه الأمور لأنها تمس عملية البحث العلمي، البحث العلمي في حاجة إلى الموردين، وفي حاجة إلى التدبير والتخطيط لكسب عنصر التوازن داخل الجامعة، وبقدر ما نحن ملزمون بتقويم عملية البحث العلمي في ميدان الدراسات الإسلامية بقدر ما يجب أن نتكلم عن وضعية البحث العلمي في الجامعة كلها، لأن البحث العلمي لا يمكن تناوله بمنأى عن الوضع العام الذي يوجد فيه.

هناك أزمة مشعور بها في " البحث العلمي "، والذي أوقعها أمور منها:

أ- عدم الفاعلية والنشاط، وعدم الإقبال عليه بالجدية والحماس المطلوبين، ولذلك فالإقبال عليه يتم بالانفعالية والفتور والتراخي، فتكون النتيجة غير مطمئنة.

ب- عدم تصريف الخبرة والمعارف، فالمشتغل بالعلوم الطبيعية لا يجد مجالاً لتصريف علومه وحمولته من المعارف التي يدخرها، تماماً كالمشتغل بالعلوم الإسلامية لا

يجد مجالاً يصرف فيه معارفه، حين يتخرج مهندس أو متخصص في مجال من المجالات الحيوية التي من المفروض أن تعول عليها الدولة نحو التقدم يعين في وظيفة لا تتلاءم مع وضعه العلمي، كذلك المتخصص في العلوم الإسلامية حين يحصل على شهادة الدكتوراة في القراءات القرآنية أو في علم أصول الفقه أو الفقه يجد نفسه مفصولاً عن الواقع بشغله وظيفية بعيدة عن مجاله، وهو ما نطلق عليه "البطالة العلمية" التي كانت هي الدافع إلى "هجرة الأدمغة" نحو الخارج، أما البقية المتبقية فقد "غيرت التوجه"، هناك نوع من عدم المكافأة العلمية وغياب "القيمة الاعتبارية".

إن البحث العلمي لا يثمر بمجرد الحصول على الشهادة العليا ولكنه يثمر أكثر بعد الحصول عليها، يثمر حين يحصل الطالب على "شهادة السقف" ويواصل مشوار البحث العلمي بكل فاعلية وثقة في النفس في مختبرات البحث العلمي ومختبرات الواقع المحلي. لقد تكدست في الواقع نظريات وآراء ومناهج وأهواء، واستحوذت عليه تقليعات جديدة التي تحاول جادة -أسوة بأختها في الغرب- إلى اكتساح ميدان التربية والتكوين والتعليم.

ج - التقليد وغياب القصد: لما تأسست الجامعات في العالم الإسلامي لم تتأسس لأهداف واضحة وإنما تأسست من منطلق التبعية وتحت ضغط التحديث والرغبة في اللحاق بالآخر، لقد كان التقليد في التأسيس واضحاً، فتراكمت التجارب الفاشلة، وفي كل مرة ينطلق قطار الترميم، ترميم التعليم، فتبقى الأزمة متمائلة بذاتها.

بخصوص تحديد الأهداف والمقاصد يبقى البحث العلمي في الجامعة المغربية بين ثلاثة أمور الحلو فيها مر:

الأول: غياب المقاصد الكلية، وأعني بالمقاصد الأهداف المتوخاة منه التي يطمح كل باحث أو إداري إلى تحقيقها.

الثاني هو سلبية مترتبة عن الأول، فغياب تحديد المقاصد من شأن أي واحد أن يفترض مقاصد وأهدافاً بديلة، وهذا الذي وقع.

الثالث: على فرض وجودها فهي في نظر الكثيرين غير مقنعة وغير مجدية، لذلك تتم المبادرة بافتراض أخرى أكثر نجاعة.

وإذا أردنا أن نمثل بحالة من الحالات المتعلقة بالمقاصد الافتراضية بالنسبة لتأسيس
شعبة الدراسات الإسلامية أخذنا ما شاع عنها من كونها تأسست لمضايقة شعبة الفلسفة،
شاعت هذه التهمة وزادت حتى أصبحت مقصداً، وترتبت عن هذه الشبهة نتائج خطيرة
مست العلاقة بين الشعبتين، وأصبح كثير من الطلبة والأساتذة المنتمين إلى شعبة
الدراسات الإسلامية يحسون بأن وجودهم داخل هذه الشعبة هو وجود إيديولوجي أكثر
منه علمي، وإن مجمل أعمالهم العلمية هي هراوة تكسر بها أضلاع وأنياب، ثم زيد على هذه
التهمة تهمة أخرى مضمونها أن الهدف منها هو تفرغ التطرف والغلو والتشدد، وقد أبانت
الأيام على عدم صحة هذه الدعاوى، وقد صحننا وضعية هذا التصور في مقال منشور
بمجلة الاستناد التي نديرها¹.

لقد تأسست شعبة الدراسات الإسلامية لأغراض شريفة ولأهداف نبيلة اتضح مغزاها
فيما بعد، ويجب التأكيد على ذلك وبيانه شهادة للأجيال وللتاريخ.

د- قلة الدعم: الجامعة هي مخ المجتمع، والبحث العلمي هو روح الجامعة، به تقوم
وعليه تبنى، لا قيمة للجامعة من دون بحث علمي، كانت الحكومات - ولا أدري هل هذا
التصور ما زال قائماً اليوم أو هو عند بعض دون بعض - تنظر إلى التعليم بنظرة مأساوية،
بحيث تحمل قطاع التربية والتعليم مسؤولية تردى الأوضاع، وهذا التصور من شأنه أن
يقلص من المكانة التي تجعله يحقق التنمية الشاملة.

هـ- الاستهلاك بدل الإنتاج: لا توجد استراتيجية في البحث العلمي في العالم العربي
بصفة خاصة، ذلك أن البيئة في هذه البلدان هي بيئة استهلاكية، وإذا أنتجت أنتجت ما
يتلاءم مع الرغبات الغربية والحاجات الأجنبية، وتعطى السوق المحلية بإنتاج ضئيل جداً،
تكون الجودة فيه للخارج وما هو أقل جودة للسوق المحلية، ثم إن هذه البيئة تستهلك أكثر
مما تنتج، بل في بعض النواحي تستهلك ما لا تنتج، فيكثر الطلب على المنتجات الغربية،
وتتقاطع على السوق المحلية بكيفية قوية وسريعة تفوق الحاجة وتتجاوز القدرة الشرائية
للمواطن، وأمام ضغط الحاجة، وبفعل الإشهار اليومي الذي لا ينقطع وتحت إغراءات

¹ - أنظر مقالنا " الأيديولوجي والمعرفي في مركبات البحث العلمي: السوسولوجيا، الاستشراق، الدراسات الإسلامية
"، مجلة الاستناد، العدد الثاني، صيف 2019م ص 25 وما بعدها.

الأبنك ومؤسسات التمويل التي ترهن حاضر ومستقبل الزبون المحلي ينخرط المواطن في عملية استهلاكية تجر عليه ويلات لا تنتهي.

إن غياب الإنتاج هو الذي ساهم في تراجع عملية البحث العلمي في مختلف التخصصات، وحتى الحكومات التي تعاقبت على التدبير والتسيير هي بطبيعتها حكومات استهلاكية، حكومات من أولوياتها التفكير في جيب وبطن المواطن، ومجمل تساؤلاتها تنحصر في: ماذا يأكل المواطن؟ وماذا يشرب؟ وكيف يركب؟ وكيف يلعب؟ فينصرف الهم إلى تسيير الحياة العادية والطبيعية حتى ولو لبس لباس غيره، وأكل طعام غيره، وتداوى بدواء غيره، وركب سيارة ليست من إنتاجه...

إن غياب عقلية ماذا أصنع؟ وكيف أصنع؟ وماذا أنتج وكيف؟ مما يحتاجه المواطن في حياته العامة والخاصة هو المقود السليم لسير عملية البحث العلمي في البلد.

حين نقول الإنتاج نعني إنتاج شيء قابل للاستهلاك، إنتاج ما يقبله المجتمع ويقبل عليه، إنتاج مبني على آمالنا وأعمالنا.

الإنتاج هو سمة مشتركة بين أصناف العلوم والمعارف داخل الجامعة وليس حكرا على تخصص دون آخر، والعلوم الإسلامية هي مطالبة أكثر بتوفير الإنتاج العلمي النافع للوطن وللمجتمع، ولذلك كنا نوصي الطلبة الباحثين على الدوام أن يختاروا أبحاثا لها صلة بالواقع، وأن يكون الموضوع المراد بحثه يعالج ظاهرة اجتماعية.

و- تعاقب مسيرة الإصلاح: الذي يكشف عن الوضعية المزرية للتعليم بصفة عامة والبحث العلمي بصفة خاصة هو تعاقب قضية إصلاح التعليم منذ عهد الاستقلال إلى اليوم، في كل مرة يقع الإصلاح ثم نعيد إصلاح الإصلاح، صحيح أن من متطلبات التطور والنمو عدم الجمود على تجربة إصلاحية معينة، الإصلاح لا يجب أن يتوقف أو ينقطع لكن الذي يدفع إلى القلق عدم تحقيق مردودية نافعة من الإصلاح، الإصلاح الناجح هو الذي يقاس بالنتيجة المحصلة من العملية ولا يقاس بالعملية في حد ذاتها، لذلك ظلت النظرة الحكومية المساوية للتعليم تصاحب التفكير في وضع الجامعة والبحث العلمي منذ عهد الاستقلال، وبقي التعليم يورق الحكومات المتعاقبة على حكم البلد منذ ذلك التاريخ، والسبب في ذلك يكمن في أن الاستراتيجية غير واضحة، وأن الأهداف والمقاصد غير محددة تحديدا دقيقا، ماذا نريد من البحث العلمي؟ كيف نميه؟ كيف نساهم به في تحقيق

التنمية الشاملة؟ كيف نعالج به سلبيات ونوازل المجتمع؟ كيف نحقق به الحاجيات المتزايدة؟.

رابعا - البحث العلمي والتنمية. أية علاقة؟

ربط البحث العلمي بالتنمية هو ربط غير واضح، ويتبدى عدم الوضوح في تحديد مفهوم التنمية من قاموسنا المحلي، والموقع في اللبس هو تحديد المفهوم من قواميس أجنبية يتم العمل على مفهومها، لذلك يتيه مفهوم المصطلح وسط ضباب من الكلام المتعدد، ينتج عن هذا عدم توحيد المفهوم، مما ينعكس عنه عدم وحدة معرفية، الكلام بمصطلح غير مفهوم وغير محدد ينتج عنه كلام غير مفهوم وغير محدد، إذن ماهي التنمية التي يجب تسخير البحث العلمي لتحقيقها؟ سؤال تجيب عليه التجربة الإصلاحية للتعليم طيلة مدة الاستقلال.

التنمية بالنسبة للغرب هو الإنتاج وفق الحاجة المحلية، ويدخل في التنمية إنتاج الفائض لتصديره إلى الغير، لذلك فالتنمية بهذا المعنى هي ممارسة السيادة الاقتصادية والعلمية والعسكرية على الآخر، ليس للتنمية مفهوم واحد، ولا هي بمعنى واحد، هناك أشكال عديدة من التنمية، هناك التنمية الروحية، والتنمية الأخلاقية، والتنمية الثقافية والحضارية...ولا شك أن العالم الاسلامي في حاجة كبيرة لتحقيق هذه الانواع التي هي ضرورية لتحقيق التنمية الحقة.

التنمية الروحية والأخلاقية والعقدية لا يمكن للعلوم الإنسانية أن تحققها، كما لا يمكن للعلوم الطبيعية أن تساهم في تكوينها وإيجادها

المبحث الثالث: الجامعة والبحث العلمي.

الذي يختزل عمل الجامعة وهدفها في التعليم والتربية والتكوين سيء إلى المغزى الحقيقي للجامعة، للجامعة دور اكبر هو " البحث العلمي "، ذلك أن التعليم والتلقين والتربية والتكوين هي أمور لا تكون إلا بالبحث العلمي، فالجامعة ليست هي الثانوية أو الإعدادية حين يكتفى فيهما فقط بالكتاب المدرسي، بحيث يقتصر دور الأستاذ على شرح المقررات الدراسية وتقريبها للتلميذ، فيكون الأستاذ وسيطا بين الكتاب الوزاري والتلميذ المدرسي، بخلاف الأستاذ في الجامعة إذا أراد أن يلحق فهو يعطي معرفة من عرق جبينه،

فهو يبحث ويُنتج ويُعلم ويُلقن، ويراعي في إنتاجه المتطلبات والطموحات والرغبات، وباختصار فهو يراعي في بحثه العلمي التخصصات الأكاديمية والأهداف الجامعية، وإذا كانت هذه الأهداف والمقاصد واضحة تمكن الطالب من مواكبة الإنتاج الجامعي الذي من متطلباته ما يلي:

1- الأستاذ الباحث: الذي يجب أن يسائل نفسه أولاً: ما هي الأمور التي يستفيد ها المجتمع منه كباحث؟ ما الذي يجب أن يقدمه للمجتمع؟ كيف يساهم في توفير حاجياته من منطلق البحث العلمي؟ تلك أسئلة محورية، لا أقول بأن الأستاذ الباحث يجب أن يسائل بها نفسه بل عليه أن يصدر مجمل أبحاثه بها. أما الصفات والمتطلبات الأخرى فسيأتي الكلام عليها في " مكونات البحث العلمي " .

2- الطالب الباحث: الذي من مواصفاته أنه طالب علم لا طالب شهادة أو نقطة، ثم قبل أن يكون باحثاً عن الشغل والوظيفة يجب أن يكون باحثاً عن العلم والمعرفة، ويجب أن يشحذ همته بالبحث العلمي، الطالب الباحث تجده مهموماً بالبحث، عليه اثر الجد والتعب، والكد والمجاهدة في التحصيل، لا يضيع الوقت ولا يتهاون في أخذ المعارف، نسبة كبيرة من الطلاب لا يظهر عليهم اثر البحث العلمي، يتجولون في ردهات الكلية كما يتجولون في السوق يتأملون هنا وهناك، إذا كلمك أحدهم لا يكلمك في قضية علمية أو جزئية منهجية، بل يكلمك عن الامتحان والنقطة والغياب والمبررات كثيرة، وتستطيع أن تقوم الطالب انطلاقاً من أسئلته.

3- الإدارة الجامعية: وظيفة الإدارة الجامعية هي إدارة البحث العلمي وتيسيره، فهي ليست إدارة جامدة تأخذ أوراقاً وتعطي أخرى، ونحن بحاجة إلى دراسة علمية ميدانية حول طبيعة الأقسام الإدارية ومكاتب المصالح وخزانة الكلية ودور هذه المؤسسات في خدمة البحث العلمي، أعتقد أن المسؤولية الكبرى تعود للصنف الإداري الذي حسب ظني لم يعد مؤهلاً للقيام بالمهام العلمية لأسباب تتعلق بالتكوين والتأهيل وتقدم السن، لذلك كان لا بد من إعادة الهيكلة الإدارية وتعزيزها بوجوه شابة، مدربة ذات كفاءة إدارية عالية في التسيير والتدبير، لم تعد الإدارة اليوم مجالاً لملء الفراغ بل أصبحت مؤسسة ذات اعتبار، ولا يجب أن يفتح بابها إلا في وجه أصحاب الشواهد والخبرات الذين يدركون ماذا يفعلون وكيف

يعملون، ويقدرّون العلم والبحث العلمي والعلماء، وينخرطون بكل فعالية في تحقيق رسالة الجامعة إلى الوطن والمجتمع.

المبحث الرابع: البحث العلمي والمجتمع.

علاقة البحث العلمي بالمجتمع هي علاقة جدلية، أحدهما في حاجة إلى الآخر، وكل واحد يؤثر في الآخر، لا جامعة من دون مجتمع، ولا مجتمع سليم من دون الجامعة، لقد خرجت الجامعة من رحم المجتمع فكانت هي مخه الذي يفكر به، تقدم المجتمع وتخلفه رهين بوضع الجامعة فيه، إذا ساد العلم في الجامعة وانفتحت على المجتمع الانفتاح المطلوب كان المجتمع مجتمعا عالما.

إن الذي يجب التفكير فيه هو حاجة المجتمع من الجامعة، وهذا أمر يحتاج إلى التقويم والتقدير، لماذا نقول هذا الكلام؟ لأننا لا نريد من عملية البحث العلمي أن تكون عملية شكلية، ممارسة البحث العلمي لأجل البحث العلمي، أو ممارسته تقليدا ومحاكاة، البحث لأجل البحث هي عملية أصبحت مكررة، تتماثل بذاتها من سنة إلى أخرى.

نطمح بالبحث العلمي داخل حقل العلوم الإسلامية إلى ترشيد الوعي الديني، ومحاربة الأمية العقديّة والأمية التشريعية، وتنوير فهوم المواطنين بالثقافة الإسلامية، وتخليق الحياة العامة، ومحاربة الظواهر المدمومة التي تفكك المجتمع وتقضي على كيانه، وبث روح الإبداع النزيه، وترسيخ مبادئ القيم، والرفع من المستوى التربوي... وهذه القضايا التي تمت الإشارة إليها تحتاج منا إلى أبحاث علمية مطولة.

لا يجب أن نغتر بالفرق بين علوم الإنسان وعلوم الإسلام من جهة أن علوم الإنسان هي العلوم الوحيدة المخولة لخدمة قضايا الإنسان، بحيث يسود في الاعتقاد أن العلوم الإسلامية هي علوم غيب وتجريد، فهي بعيدة عن الإنسان وهمومه، والواقع غير ذلك، مدار العلوم الإسلامية على خدمة الإنسان والاهتمام به، وهنا تعود العلوم الإسلامية لتتنازع العلوم الإنسانية في الاهتمام بالإنسان والرفع من إنسانيته، ولست بحاجة إلى التذكير بصورة الإنسان في العلوم الإسلامية، وصورته في العلوم الإنسانية، أطروحة الإسلام حول الإنسان هي أطروحة كاملة ومتكاملة، وتحاول أن تعطي الإنسان الأنموذج الذي يتحرك في المجتمع بطريقة سليمة وصحيحة.

إن مقارنة بسيطة بين الجامعات التقليدية والعصرية يتبين أن الجامعات التقليدية كانت منخرطة في المجتمع ومساهمة فيه بكل فعالية، كانت الجامعة في خدمة المجتمع، لذلك كان المجتمع يتطلع إليها على الدوام، فكان يقدرها ويقدر شيوخها والطلبة المتخرجين منها، لكن الجامعات الحديثة لاسيما التي برزت بعد الاستقلال قلصت من حجم العلاقة مع المجتمع، وضيقت على الجامعات التقليدية بل تم إلغاء بعضها، وعوض أن تجعل من المجتمع المدني سندا وامتكاؤها أدارت وجهها صوب الغرب، فجعلت من نظيراتها في الغرب سندا وامتكاؤها، فانتحلت الصفة الغربية لكنها لم تكن مثلها.

حين تقطع الجامعة صلتها بالمجتمع تكون عرضة للقرصنة، فتصبح الجامعة في العالم العربي مقرصنة من الجامعات الغربية، فتصبح كلياتها وشعبها وموادها تستمد المخططات والبرامج والمحتويات كما تستمد الدعم بطريق محدودة جدا، وحين تتوجه الجامعة صوب هذا التوجه يصبح المجتمع المحلي بلا جامعة.

- تحقيق الديمقراطية وحقوق الإنسان: هو مطلب أساسي لنجاح العملية العلمية، إذا تحققت الديمقراطية وحقوق الإنسان كان العلم والبحث العلمي للمجتمع كله لا لفئة معينة ولا لفرد بعينه، لكن إذا غابت تحولت التكنولوجيا ومختبرات البحث العلمي وإدارته في يد شخص أو فئة تسخرها لمصالحها.

المبحث الخامس: البحث العلمي: الخصائص والمجالات.

للبحث العلمي مجالاته: مجالات العلوم الطبيعية هي الطبيعة، ومجالات العلوم الإنسانية هي الإنسان وما يتعلق بحاجياته الثقافية والمعرفية...وتبعاً لذلك فقد انقسمت المؤسسات إلى مؤسسات خاصة بالبحث العلمي في العلوم الطبيعية ومؤسسات خاصة بالعلوم الإنسانية، وانقسمت - تبعاً لذلك - العلوم الإنسانية إلى قسمين: علوم إنسانية وعلوم إسلامية، فإذا كان مجال الأولى الإنسان بمنأى عن الإسلام فمجال الثانية الإسلام في علاقته بالإنسان.

من العيوب المرصودة أن الطلبة يتكدسون في ميدان العلوم الإنسانية في حين يتناقص عددهم في ميدان العلوم الطبيعية، لكن التمويل يتكدس في العلوم الطبيعية في حين يقع فقر مادي في العلوم الإنسانية، وحصلت الأزمة في الجامعات بهذا السبب، فالدولة

تريد شيئاً معيناً لكن التوجه العام يعاكس تماماً هذا التوجه فتتحصل الأزمة في المؤسسات التي تهتم بالعلوم الإنسانية بصفة عامة ومن ضمنها العلوم الإسلامية، والواقع أن العيب يكمن في القطيعة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فالحقائق العلمية في كل المجالات تبدو وكأنها جزر معزولة.

خصائص العلوم الطبيعية هو التجريب، وخصائص العلوم الإنسانية هو التجريد، وعلوم الوحي وسط بينهما، وهي تدفع في اتجاه العمل والتطبيق.

إن الذي أوقع الهوة بين المعرفة هو طبيعة الممارسة المهنية وطريقة تصريف المعارف، فالمتخصص في العلوم الطبيعية قد لا يجد عملاً يتلاءم مع وضعه المعرفي بخلاف المتخرج من العلوم الإنسانية، وينتج عن هذا هجرة الأدمغة وتغيير التوجهات، وحصول البطالة المعرفية، فالبينة العربية هي بيئة مستهلكة وغير منتجة، انعدام الإنتاج العلمي في العلوم الطبيعية والتقنية هو الذي يساهم في تراجع العملية التعليمية في التخصصات الدقيقة.

أصبحت نظرة الحكومات المتعاقبة على الحكم نظرة مأساوية سوداوية، وهذا يزيد من ميزانية التعليم في البلاد العربية لكن من دون مردودية مما يجعل التعليم يشكل أزمة لدى الدول القطرية في العالم العربي مما يجعلها تفكر في التخلص والتملص من التعليم بأية طريقة تراها مرضية لكل الأطراف، بيد أن الحل يكمن فيما يلي:

- تخليص التعليم من التبعية العمياء للخارج، ذلك أن الخارج ليس واحداً بل متعدد.
- إعداد الطلبة والتلاميذ لسوق الشغل الداخلية وليس للسوق الخارجي.
- فتح باب الاستثمار والتشغيل لحملة الشهادات العليا مما يقلص من الهجرة إلى الخارج.
- الاعتماد في العملية التعليمية على الأستاذ الباحث وليس الأستاذ سيما في التعليم العالي.
- تكوين الطالب الباحث وليس الطالب، فالوقوف عند مجرد الطالب يفتح الباب للكسل والاستهلاك من دون إنتاج واستثمار.
- التعويل على الإنتاج في مقابل الاستهلاك وليس الاستهلاك وحده.
- المساهمة في التنمية الشاملة بوضع مخرجات واضحة لربط التعليم بها.

- الانفتاح على المجتمع لبحث حاجة المجتمع من الجامعة.
- الانفتاح على المحيط الدولي لتحقيق رسالة التعاون في مجال الدبلوماسية الجامعية وذلك لأجل تحقيق الحاجيات المطلوبة والضرورية من الخارج.

الفصل الثاني:

تساؤلات حول المنهج



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: محددات منهجية
- المبحث الثاني: محددات إشكالية
- المبحث الثالث: تساؤلات منهجية

- المبحث الأول: محددات منهجية

1- عنوانه: «تساؤلات حول المنهج»، ويجب التفريق بين «تساؤلات» و«أسئلة»، الأولى حين توجه السؤال لذاتك لتولد من نفسك الجواب، والثانية توجه السؤال لغيرك لتحصل على الجواب، ويبقى المنهج المقصود في الكلام هنا المنهج الذي يخص الدراسة الجامعية في العلوم الإسلامية.

2- سببه: سبب اختيار هذا الموضوع أنه يأتي من موقع عمل مقدم في بعض اللقاءات العلمية ولاسيما في بعض الدورات التكوينية المخصصة لتكوين الطلاب في مجال البحث العلمي وقواعد المنهج.

3- صفته: لهذه المحاضرة صفتان: الأولى أنها محاضرة محورية، كل ما يأتي يدور حولها، والثانية أنها مغرقة في التساؤلات النظرية، والجانب العملي يبدأ من الإجابة على كل سؤال، فكل سؤال هنا يمكن أن يكون موضوعا مستقلا.

4- خاصيته: أنه موضوع خفيف، لا يأخذ من الوقت كثيرا، وموضوع لطيف لا يأخذ من الجهد طويلا، وموضوع غير كثيف لا يلزم الطالب الباحث بالحفظ والاستظهار بل يفتح شهية الطالب نحو التأمل والمراجعة والتحليل.

5- عدده: تضم هذه المحاضرة حوالي 201 تساؤلا، ومعلوم أن السؤال أو التساؤل هو باب الفهم وطريق المعرفة، فما بالك إذا كان السؤال عن المنهج.

6- كلفيته: طريقة التساؤلات العلمية تتم بطريقتين: إما أن تحرر العمل العلمي ثم تصيغه في أسئلة، بحيث تكون أجوبة تلك الأسئلة قائمة عندك، وهنا ينطلق السؤال من الجواب، وإما أن تضع أسئلة افتراضية تتم بطريقة تلقائية وتنطلق من الإشكالية المطروحة، ترتبها وتهيكلكها وتكون دالة على المراد، ثم تُغير على كل سؤال بالجواب محدد بجواب مدقق، وهنا يكون الجواب من السؤال.

7- الهدف: قصف ذهن الطالب بغية تحريك طاقة العقل لديه للتفاعل مع الموضوع، حين يتلقى الطالب المعارف ويلقنها يكون على حالة من الاسترخاء، لكن حين يوجه إليه السؤال يكون على حالة أخرى من الوعي واليقظة والحماس.

إن الغرض من هذا التحريك هو البحث عن الذات لتمكين القدرات المتاحة والموجودة، وبما أن الصراع اليوم هو صراع شامل لكل مكونات الحياة فإن المناهج ليست بمنأى عما يقع ويجري، لذلك فالصراع اليوم هو صراع مناهج أيضا، المناهج تتعارك وتتصارع مثلما تتصارع القيم والسياسات... فكيف نستحضر مناهجنا في معركة المناهج؟

المناهج الوافدة والغازية لا تطرد بالعواطف وبالكلام الجاهز بل المناهج تتصدى للمناهج، وحتى على مستوى الحوار الفكري والمعرفي - وهما مطلوبان حتما - فإن المناهج تستفيد من بعضها.

- المبحث الثاني: محددات إشكالية.

المنهج المقصود في الكلام هنا هو المنهج الذي له صلة بالمعرفة الإسلامية من حيث التكوين والتحصيل والإنجاز، ويجب التفريق بين نوعين من المعرفة: معرفة إسلامية شعبية ومعرفة علمية إسلامية أكاديمية وهذه ليست كتلك، والمنهج المراد الكلام عليه هنا يخص الثانية لا الأولى، لأن للمنهج طبيعة أكاديمية.

أقدم هنا جملة من التساؤلات الغرض منها قصف الذهن لتحصيل اليقظة، فما من سؤال إلا ويحدد نوعا من الجواب، ومن مجموع الأجوبة يتحصل لنا الجواب النهائي في الموضوع، ويمكن لطلبة العلم أن يجعلوا من كل سؤال موضوعا مفردا للبحث والدرس وفق الرغبة المطلوبة.

لا خلاف في أن الأزمة الحاصلة في المعرفة هي أزمة مزدوجة: في المنهج وفي التفعيل، وهما مسألتان مرتبطتان، لا أحد ينجح إلا بالآخر، تحقق المنهج وتحصيله يتطلب التطبيق، والتطبيق يتطلب المنهج، قد نكون منهجين لكن بالتطبيق، لأن التطبيق هو المعيار الأساس لنجاح الخطة المنهجية أو فشلها، وقد نكون من العاملين الفاعلين لكن من دون منهج تسود الفوضى ويقع الاضطراب، والواقع اليوم لا يشكو من كثرة الأعمال، لكنه يشكو من الفوضى الحاصلة بكثرة الأعمال ووفرته، فالكثرة في حد ذاتها ليست مقياسا في نجاح الأعمال ما لم تكن صحيحة وسليمة وخالصة ومنظمة، وهذه جميعها يجمعها المنهج الذي نتكلم عليه.

المنهج لا يتحقق لك إلا بتملك أسبابه، ومن أسبابه أن تعطيه كل نفسك وكل وقتك وجهدك ليعطيك بعضه، المنهج يتولد بالتجربة، بالمواكبة والمطالعة، ثم بالهم وبالتواصل مع الماضي والحاضر باستشراف المستقبل.

المنهج إذا ظهر في حضارة معينة فهو ليس بريئاً، إنه يعكس قيم تلك الحضارة ومبادئها، بل ويرمي إلى تحقيق أهدافها ومقاصدها، ومن هنا لا بد من ربط المنهج بالهدف الذي رسمه لنفسه، وللمقصد الذي جاء لأجله، فعزله عن سياقه هو قتل له، تصير معه الرؤية العلمية كريشة في مهب الريح، لا طائل يتحقق من ورائها سوى العبث الفكري، وقد أصبحت قضية عزل المناهج عن مقاصدها وليّها لأغراض أخرى من المستحدثات الفكرية الجديدة، هي "موضة" الثقافة اليوم التي تحاول الإتيان بالجديد.

- المبحث الثالث: تساؤلات منهجية

هل كان المنهج مشكلةً وقضيةً في الماضي تتطلب التوقف أم أنه لم يكن كذلك؟ إذا كان مشكلة فكيف تمكّنوا من معالجتها؟ إذا لم يكن مشكلة في الماضي لماذا هو الآن كذلك؟ ما معنى المنهج؟ ما معناه لغة؟ ما معناه اصطلاحاً؟ هل لمصطلح المنهج معالجة اصطلاحية تأخذ بعين الاعتبار دراسة مفاهيمه؟ هل لهذا المصطلح دراسة مصطلحية تتبع مفهومه عبر العصور أم أننا نكتفي بما شاع وذاع بناء على اعتماد بعضهم للقول الشائع: خطأ مشهور خير من صواب مهجور؟.

هل المنهج معطى أصيل مؤصل أم معطى دخيل مفتعل؟ أم فيه ما هو أصيل وما هو دخيل؟ إذا كان الجواب بنعم فهل نعاين الأول من منظور الثاني والعكس؟ هل نستعين به في ضبط العلوم أم نستعين بالعلوم في ضبطه؟ من السابق هنا ومن اللاحق؟

ما علاقة المنهج بمصطلحات أخرى لها صلة بمفهومه قد تقرب أو تبعد، نقدمها في صيغة مجموعة كالاتي:

- علاقة المنهج ب "النظام"؟

- علاقته ب "الترتيب"؟

- علاقته ب " العلم والمعرفة"؟

- علاقته ب " الخلق"؟

- علاقته ب " العقل"؟

- علاقته ب " الحضارة"؟

ثم ما علاقة الإنسان بالمنهج؟ هل هي علاقة قديمة أم حديثة؟ وما حجم هذه العلاقة؟ وما فائدتها عليه؟

هل للمنهج صلة ب " التقدم " و"التخلف"؟ هل يعني التخلف المروج له الآن سببه غياب المنهج؟ وأن التقدم والرقى سببهما حضوره؟

ما معنى مناهج الدراسة الجامعية على الإجمال؟ وما معنى الدراسة الجامعية بصفة خاصة؟ ما معنى الجامعة بصفة أخص؟ أين تأسست ومتى وُجدت؟ هل هي معطى غربي أم لها وجود في واقع ماضي الأمة؟ إذا كانت في الماضي فأين هي؟ وإذا وُجدت في الحاضر فكيف هي؟

ما هي مكونات الجامعة؟ من هو الطالب الجامعي؟ والأستاذ الجامعي؟ والدرس الجامعي؟ والكتاب الجامعي؟ والإدارة الجامعية؟

إذا كان الدرس الجامعي يتحدد في ضوء علاقة الجامعة بالمحيط فكيف تتحدد علاقة الجامعة ب " المجتمع"؟ وعلاقتها ب " سوق الشغل"؟ وعلاقتها ب "الاقتصاد والمال والأعمال"؟ ثم ما علاقتها ب " المحيط الدولي العام"؟

بكم علاقة يتحدد الدرس الجامعي؟ هل يتحدد بعلاقة واحدة؟ أم باثنتين؟ أم بثلاثة...؟ أم بكل العلاقات؟ أم أن الدرس الجامعي له علاقة بذات " التخصص " داخل الجامعة؟

ثم ما معنى " التخصص"؟ وما علاقة مفهوم " التخصص " بمفهوم " الكلية " و"الشعبة " و"المسلك"؟

هل ثمة تداخل المعارف والفنون أم مجرد انفتاح محدود على معارف الجامعة؟ ثم كيف تفتح الجامعة أبوابها للمعارف الأخرى الوافدة باسم: " الشَّرَاكات " و"التعاون" وربط الصلات باسم " الاتفاقيات " و"التوأمة"...؟

ثم كيف هو الدرس الجامعي الإسلامي؟ ما هو نوعه؟ وما كيفه؟ وما حجمه؟ وما هي إضافته النوعية للعلوم الإنسانية؟

من أين نستمد هذه التميزات؟ هل من النصوص؟ أم من التفاعلات والتجارب؟ أم من الرغبات والأهواء والمصالح؟ هل المنهج واحد موحد في ذاته وموحد لغيره أم أنه متعدد في ذاته يعكس عنصر التعدد في غيره؟

ما معنى المطالعة؟ ومعنى القراءة؟ ومعنى تحديد المراجع والمصادر؟ ما دلالة الجرد؟ وما مغزى البطاقة العلمية؟ ما دلالة التحرير والتعبير؟ والمراجعة والتقويم؟ والاستقراء؟ والاستنباط؟ والتحقق؟ النقد؟ التعليق؟ الفهرسة؟ التخريج؟ التلخيص؟ التركيب؟ طرح الإشكال؟...

ما معنى المقدمة؟ التقديم؟ المدخل؟ القسم؟ الباب؟ الفصل؟ المبحث؟ المطلب؟ الفرع؟ العنصر؟ الجزء؟

ما علاقة المنهج بـ "الرؤية"؟ من الذي يعطي الآخر: هل المنهج يعطي الرؤية أم العكس؟ هل من تلازم بينهما؟ وهل يمكن الفصل بينهما؟ وكيف تتحدد صلتها بالبحث العلمي؟

أو ليست هذه كلها سمات للمنهج المطلوب في البحث العلمي؟

هل للإسلام رسالة في المنهج؟ إذا كانت موجودة فكيف نستمد ذلك؟ هل نطبق المنهج على النصوص الشرعية أم نطبق مقتضيات النصوص على المنهج؟

ما هو الدرس الإسلامي في المنهج؟ هل التراث الإسلامي يسمح باستخلاص الدرس المنهجي؟ ما هي الخطوة المنهجية التي يجب قطعها للسير نحو المنهج؟

هل المنهج يعطي نفسه ارتجالاً أم لا بد للمنهج من منهج؟

في مجمل أبحاثنا التراثية: هل توصلنا إلى المنهج وحققناه وتحققنا منه علماً وعملاً؟ أم اقتربنا من تحصيله لتمثله والعمل به وعلى وفقه؟ أم أننا ما زلنا بعيدين عنه، المنهج في واد ونحن في واد آخر؟ وتبعاً لذلك هل ندرك جيداً ماذا نريد أم أننا نشد شيئاً لا وجود له في الحقيقة؟ إذا كان غير موجود فهل يستقيم الكلام عن شيء لا وجود له؟ أم أن المنهج المراد موجود ودليل وجوده هذه المعارك النظرية والأطروحات الفكرية التي تتنازع حوله، والتي تجعل منه موضوعاً وقضية؟

هل بقي المنهج بسيطا في وجوده وفي تعريفه أم أصبح " علما " يطلق عليه " علم المناهج "؟ هل نحن في حاجة إلى هذا أم إلى غيره؟

هل المنهج الغربي بريء ويمكن العمل به في الدرس الإسلامي الجامعي أم هو متهم تجب تبرئته؟ إذا كان متهما هل نتركه؟ وماذا لو كان ضروريا ضرورة معرفية وفهمية؟ كيف نتعامل معه إذن؟

ما علاقة المنهج بالفطرة؟ وهل في السلوك الطبيعي ما يدل على المنهج؟ وهل في الخلق ما يدل على المنهج؟ ما علاقة المنهج بالاستقامة؟ وهل يستقيم أن نجمع بين المنهج والفوضى؟ بين المنهج والخلل أيا كان وكيفما كان؟ ألم يعلمنا الإسلام المنهج في كيفية التعامل مع الزمان والمكان والإنسان؟ هل نستفيد إذن طرائق المنهج وعلاماته من فرائض الإسلام؟ أو ليس في أوقات الصلاة ترتيبا ومنهجيا؟ أو ليس في إقامتها ترتيبا واستقامة؟ ألا نجد في صوم رمضان استقامة وصراطا؟ ما هو الدرس المنهجي من الحج؟ ومن الزكاة؟ ثم ما هو الدرس المنهجي في ترتيب الفرائض؟ أو ليست حياة المسلم من ولادته إلى موته إلى دفنه كلها أمور تقوم على منهج مفترض ومتبع؟ كيف يتم الزواج؟ كيف يكون غسل الميت؟ كيف يتم دفنه؟ وإذا كان هذا يبدو عند البعض بعيدا عن متطلبات المنهج فإن الأمور التي تمت الإشارة إليها لا تخلو أن تكون درسا من الدرس الإسلامي الجامعي الملقن.

ما علاقة المنهج بالإيمان؟ وما علاقته بالإلحاد؟ كيف نفرق بين الأمرين من دون الجمع بين الضدين؟ هل هو قاصر على المؤمنين من دون الملحدين؟ أم على الملحدين من دون المؤمنين؟ أم ليس حكرا على أحد؟

هل يمكن للبشرية كلها أن تجتمع على منهج واحد؟ أم أن لكل أمة منهجها؟ وهل يمكن عوامة المنهج؟

هل يصح القول إن المنهج قاصر على البحث العلمي من دون الحياة العامة في الحضارة والسياسة والاجتماع والعمران...؟

ما علاقته بالبحث العلمي؟ هل هو كل البحث العلمي أم أنه طرف منه فقط؟ إذا كان طرفا فكيف نحدده؟ وإذا كان هو كل البحث فكيف نتمثله؟

هل يصح أن نقول: إن المنهج هو تمثيل واكتساب؟ وهل يصح أن نزعّم بأنه: مهارة وصنعة؟ أم أنه سجية وملكة يهبها الله لمن شاء من عباده؟

يقولون: إن المنهج يصوب الخلل ويصحح الخطأ ويطرد الارتجال ويمنع الفوضى...هل يصح هذا الكلام؟ وماذا لو كانت الفوضى تتم بالمنهج؟ والخلل يسود به؟ والخطأ يتم من خلاله؟

هل يؤخذ المنهج دفعة واحدة أم أنه يتحصل بالتدريج؟

ما علاقة المنهج بعلم قائمة مثل:

-علاقته ب " المنطق "؟

-علاقته ب " الفلسفة "؟

-علاقته ب " الحساب والهندسة "؟

-علاقته ب " اللغة "؟

- علاقته ب " العلم التقني المعاصر "؟

-علاقته ب " الترجمة "؟

هل المناهج كلها على حق وصواب؟ وهل كل معطى خارج المنهج هو خارج عن الحق والصواب؟ أم أن في المناهج ما هو حق وصواب وما هو باطل وخاطئ؟ هل يمكن للمنهج أن يسود في السلبيات من الأعمال العلمية؟ وهل يمكن تصور عمل علمي تم في غياب المنهج؟ وبالمثل هل يمكن تمثيل منهج معين في غياب رؤية علمية؟

ثم ماذا عن الطفرة التكنولوجية الحديثة، هل في تكنولوجيا التواصل والاتصال ما يفيد المنهج؟ كيف يمكن استثمار التقنيات الحديثة التي يوفرها الحاسوب وأنظمة المعلومات الحديثة وطرق البرمجة والإحصاء في تطعيم المنهج وتطويره؟ ألم تعد أماننا اليوم معلومات إلكترونية تندفق علينا كل يوم، ألا توجد مكتبة إلكترونية لمختلف التخصصات تضم ألوف الكتب والمصادر؟ ومصحفا إلكترونيا بالصوت والصورة وبمختلف القراءات؟ ألم تعد الشبكة العنكبوتية تقرب الزمن وتقلص المسافات وتوحد الرؤى وتجمع الشتات؟ وفي الختام؟ هل المنهج يتغذى من كل هذه الفنون أم هو منعزل في سياق مغلق داخل نسق مغلق؟.

قل يا أيها المستشرقون، لا أبحث كما تبحثون، ولا أنا باحث كما تبحثتم، ولا أنتم تبحثون كما أبحث، لكم منهجكم ولي منهجي.

الفصل الثالث: مكونات البحث العلم.



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: أهمية معرفة المكونات

- المبحث الثاني: مكونات البحث العلمي في العلوم الشرعية

المكونات أو الأركان أو الأسس هي الأطراف المكونة للبحث العلمي، لا يستقيم البحث العلمي إلا بها، وهذه الأسس أو الأركان هي قواسم مشتركة بين جميع أنواع البحوث العلمية سواء في العلوم الإسلامية أو العلوم الإنسانية، ولا أجازف إذا قلت: حتى في العلوم التقنية، لذلك فمعرفة أركانها وأسسها أمر مهم.

معرفة المكونات هي مهمة للطالب وللأستاذ لأن كلا منهما يشكل ركنا في المكونات، فهما ركنان أساسيان، ومن الخطورة استبعادهما أو التغافل عنهما.

- المبحث الأول: أهمية معرفة المكونات

قياس جودة البحث العلمي تتوقف على معرفة المكونات، فإذا أردنا قياس جودة البحث العلمي في الجامعة المغربية فإننا لا نتوجه إلى الطقس أو المناخ أو التربة أو أشياء أخرى هامشية لا صلة لها بالمطلوب وإنما نتوجه إلى خصوصية البحث العلمي في حد ذاتها، نفحصها ثم نستخلص منها عناصر الجودة والرداءة، فالذي يرجع في قياس عملية التقويم والمراجعة إلى خارج هذه الأركان لا يحصل إلا على نتيجة سلبية.

إن نجاح عملية البحث العلمي رهين بالنظر إلى المكونات، " البحث العلمي " كلمة جامعة وعامة، فهي تشمل البحث التقني والتجريبي وهذان سبيلهما الطبيعة، وتشمل البحث العلمي في العلوم الإنسانية التي تضم الأدب، واللغة، والتاريخ، والفلسفة وعلم الاجتماع والشعر... وقد أدرجت عملية البحث في العلوم الشرعية ضمن العلوم الإنسانية لتصبح قسما منها، والواقع غير ذلك، العلوم الشرعية قسيم لها لا قسم منها، والسبب في ذلك أن كل صنف من الأصناف السابقة مرده إلى جهة معينة:

- فمرد العلوم الطبيعة إلى الطبيعة والكون.

- ومرجع العلوم الإنسانية إلى الإنسان تراثا وحضارة واجتماعا وفنا...

- في حين أن مرد العلوم الشرعية إلى الوحي.

كل بحث من هذه البحوث له خصوصية معينة، وهي أطراف ثلاثة يجب التمييز بينها، وقد جرى التمييز منذ القدم حين استقل التعليم الجامعي الإسلامي العالي بجامعة مستقلة مثل: القرويين في فاس، وابن يوسف في مراكش، والأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، وبقي هذا الاستقلال جاريا إلى الوقت الحاضر لكن هناك محاولات يائسة تريد أن

الجامعة بالمعنى العصري سارت بالمفهوم الغربي في الاستخدام والاستعمال، الجامعة هي ترجمة لكلمة university، والكلية من كلمة faculté والشعبة من كلمة département وهذا يقودنا إلى التوقف عند اسم الدراسات الإسلامية الذي هو ترجمة حرفية للكلمة اللاتينية études islamiques، يمكن التسليم بالتغير في الهياكل والتنظيمات لكن الذي لا يمكن التسليم به هو التداخل في المضامين والمحتويات، وقد وقع شيء من هذا فعلا، لكن الغيرة والصمود وحب المهنة كلها كانت دوافع للوقوف أمام هذا التغير الجارف، وبقيت الشعبة والله الحمد سليمة في مضامينها ومحتوياتها لا ينقصها غير الاجتهاد والإخلاص من قبل أهلها والمنتسبين إليها.

- المبحث الثاني: مكونات البحث العلمي في العلوم الشرعية

يحلو لي أن أقسمها إلى قسمين اثنين: أدعو القسم الأول بـ "المكونات الأساسية"، وأنتعت الثاني بـ "المكونات البنيوية"، ليس بينهما فرق كبير، إنما هناك تمييز اقتضته طبيعة البحث وطبيعة التقديم.

أولاً: المكونات الأساسية:

1- الباحث والطالب الباحث: ويجب التفريق بينهما، لأن الثاني ليس هو الأول، وقد جرى هذا التمييز لأننا عرفنا الطرفين، وخبنا عملهما، ووقفنا على سلوكهما وتصرفاتهما، وعلى مقاصدهما وكيفية تعاطيها للبحث العلمي.

الباحث قد لا يكون طالبا، ليس كل باحث هو طالب باحث، قد يكون الباحث من الهواة، وسمحوا لي أن أستعمل هذا الوصف في حقه، إنه من عابري سبيل في حقل البحث العلمي، مثل هذا لا يهيمه أن يصيب أو أن يخطئ، أو أن يقدر أو يحط، أو يقدر أو يدنس، الأمور عنده على مستوى واحد من الأهمية، ليست له أخلاق البحث، ولا هم البحث، وغالبا ما يكون القصد شيئا آخر لا البحث العلمي في حد ذاته، يدلك على ذلك الخبط والخلط والارتجال في البحث والطلب، مثل هذا ليست له رسالة في البحث العلمي، وليست له مقاصد مرسومة على الخطة التي كشفنا عنها، والمقاصد والأهداف والغايات من البحث، إنه يبحث وكفى، يبحث كما يبحث في العلوم الإنسانية، وهو يسعى إلى الظفر بلقب "باحث"، مثل هذا لا يهيمه تملك مناهج التراث، ولا اكتساب الغيرة على الذات، ولا الرغبة في تطوير

الإمكانيات والقدرات، لا يدري ماذا يريد، كالداخل إلى السوق لا يدري أين يتجه وماذا يقصد.

أما الطالب الباحث - وهو الذي يهمننا هنا - هو الذي قصد ساحة العلوم الإسلامية من موقع الحب والرغبة والاختيار لا من موقع الصدفة والتلقائية والاحتيار، الطالب الباحث هو الذي يطلب العلم بقواعده، ويأخذه بأسبابه، تقديرا وحرصا وغيره وتصحيح نية...

الطالب الباحث هو باحث عن العلم، باحث عن المعرفة. لذلك يزيد علمه ويرتقي تحصيله يوما بعد آخر، ويعكس اسمه مسماه، ف " الطالب " من الطلب، وفي اللسان: " طلب الشيء: طلبه في مهلة " و " طلبه بحق " و " الطَّلَبَة والطَّلَبَة والطلب جمع طالب " و " طلب: رغب " وطلب إلي الشيء: أسعفته بما طلب " ¹.

تلك بعض المواصفات اللغوية التي حددت معنى الطالب في لسان العرب، يمكن أن نرتب عليها ما يلي:

أ- طلب العلم في مهلة، العلم يؤخذ على مر الأيام ولا يعطى دفعة واحدة، وهذا يتطلب الصبر والمكابدة، فالدماغ كالבطن لا يأكل طعام سنين دفعة واحدة، ولكنه يأخذ وجبات منتظمة.

ب- طلبه بحق لا بباطل، والعلم الشرعي من مواصفاته وخصائصه أنه لا يؤخذ إلا بحق، ومن طلبه على غير هذا الطريق زل وضل.

ت- طلبه من أصوله ومصادره، أصوله هم الشيوخ والأساتذة القيمون عليه، ومصادره هي الكتب والمصنفات التي يدل عليها الأساتذة.

ث- الاجتهاد الدائم، واستفراغ الوسع المتواصل، وهؤلاء تعرفهم بسيماهم، لا يتوانون ولا يتراخون، التحصيل ليس سهلا، لا تظن أن العلم يعطي نفسه لكل

¹ - لسان العرب، مادة طلب، 178/8.

من هب ودب، لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، وفي صحيح مسلم: «لا يستطاع العلم براحة الجسد»¹.

ج- التحلي بآداب وأخلاق البحث، وهي ضرورية ومطلوبة لا يمكن للأستاذ أن يتساهل فيها، كما لا يمكن للطالب أن يفرط فيها، فهي وإن كانت مطلوبة في كل الميادين العلمية فهي في العلوم الشرعية أزم، والسبب في ذلك أنها لصيقة بالبحث العلمي الشرعي، الإخلال بها يؤدي إلى انهيار عملية البحث العلمي لأن لها مزيتان:

الأولى: تحصيلية: فهي تساعد على التحصيل، وتعين على المزيد من الطلب، لا يتعلم العلم إلا متواضع ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾².

الثانية: تشريفية: فبعد التحصيل وإكمال الطلب يتحصل الارتقاء، والارتقاء يستلزم التواضع، كم من عالم كثير الصيت ولا علم له، وكم من آخر كثير العلم ولا صيت له، القضية تكمن في تحصيل الآداب والأخلاق المطلوبة التي سنذكر بعضها على سبيل التمثيل فقط، لأن الأخلاق الإسلامية تجمعها كلها، منها:

- خلق التواضع وخفض الجناح لشيوخ العلم.
- عدم الكبر والعجب بالنفس فإنها خصلة منفرة.
- الإخلاص في العلم وطلبه لأجله لا لأجل شيء آخر، فإن من صنف الباحثين من يطلب العلم الشرعي لأجل الشهادة، والشهادة لأجل الوظيفة، والوظيفة لأجل الخبز فقط.
- مطالعة سير الصالحين من العلماء والحكماء وكتب القدماء لتقف على أقوالهم وحركات أفعالهم وبناء أفكارهم، وتتندسم أنفاسهم في العلم والمعرفة حتى تزود بالعلم والمعرفة، وتتحلّى بالتقوى والورع، وتهتدي بالعلم والمعرفة والإيمان.
- شد الرحلة في الطلب إسوة بالسلف، فإن العلم يُؤتى ولا يأتي، وكان علماء الأمة يولون الرحلة قيمة كبيرة، ما أحوجنا اليوم إلى تفعيلها والدعوة إليها، فطلبة العلم لا

¹ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، 428/1 رقم الحديث

² - سورة البقرة الآية 282.

يعرفون من العلماء غير المتواجدين بالجامعة، أما الذين أحيلوا على التقاعد فلا يُلتفت إليهم.

- استغلال الوقت في طلب العلم، وانتهاز الفرص، متى ما وجدت لنفسك وقتا فاستغله فإنك في مناسبة أخرى لا تجده، ثم إنك نذرت نفسك لهذا.

- إخلاص النية لله، كان العلماء الأوائل يجعلون منها مقدمة أولى للعلم والعمل، لذلك فهي هنا من الخطوات الأولى للبحث العلمي لقول النبي الكريم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».¹

- على الطالب أن يضع نصب عينيه أنه لا يطلب العلم الفلسفي أو الأدبي أو التقني بل يطلب العلم الشرعي، ومواصفات الطلب تختلف من علم لآخر، وقد وقفنا على بعض الظواهر المذمومة في سلوك الطلبة داخل الجامعة مثل الغش والسرقه والانحلال الخلقي، ويحاول البعض منهم أن يجعل مثل هذه الظواهر المذمومة تسري على كل التخصصات والواقع غير ذلك، لأن طبيعة العلم الشرعي تنافر وتناقض هذا السلوك تماما، الطالب في الدراسات الإسلامية يجب أن يراقب قوله وفعله، علمه وعمله، فهو مؤهل لتحصيل علم شريف هو من علوم الدين أو هو الدين كله، فالغرض الأساس من هذه العلوم هو إصلاح البلاد والعباد والظفر بالجنة، واعلم علم اليقين أن الطالب إذا كان على هذا النحو من السلوك فإن الله يفتح له مغاليق الأبواب، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وها هي الأبواب مفتوحة والله الحمد للطلبة من حملة الشهادات العليا ممن أخلصوا النية لله تعالى، فالله سبحانه يكفي طالب هذا العلم مؤنة العيش، وهناك تجارب عديدة وأمثلة كثيرة تثبت صحة هذه الدعوى، بل يوجد طلبة من حملة الشهادات العليا في الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية والتقنية وازوا بإحكام بين هذه العلوم والعلوم الشرعية فارتقوا في مجال الفهم في الدين، ولذلك نجد الكثير من الناجحين هم من المهندسين والأطباء والفلاسفة ودكاترة في الرياضيات والفيزياء.

¹ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، أنظر الفتح 9/1 رقم الحديث 1.

قد يضيق عليك الحال في بعض الأوقات وهذا من الابتلاء الذي يصيب المؤمن لكن بفعل الصبر والتقوى يزول الابتلاء، ولن يغلب العسر يسرين: ﴿فَلْيَنْصَبْ الْعَسْرَ يَسْرًا، إِنْ مَعَ الْعَسْرِ يَسْرًا﴾¹.

- تطهير النفس من الغل والحقد والحسد والكراهية والنميمة والنفاق، لأن هذه جميعها أمراض نفسية خطيرة يجب ألا تكون في صدر العالم ولا طالب العلم، الأمراض العضوية يمكن أن تزول بالتمائل للشفاء بفعل الدواء وهذه الأمراض دواؤها الإيمان والتوبة والرجوع إلى الله، ومن المفروض أن تكون هذه الأمراض زائلة من قلب وعقل ووجدان الطالب الباحث في العلوم الشرعية لسبب رئيس هو صلته بالدين وبعلمه، لكن الذي نأسف له اليوم هو أن العلماء وطلبة العلوم الشرعية أصبحوا مرتعا لهذه الأمراض، بحيث تجد فيهم ما لا تجده في العوام، أمراض ما أحوجنا إلى رصدها وإحصائها، إنها تكدرت في عقول وقلوب وصدور حملة العلوم الشرعية.

الإسلام - والله الحمد- كفانا من خطورة هذه الأمراض الفتاكة التي هي فيالق التدمير لخصوصية المجتمع الإسلامي، الناس تنفق الملايين من الدولارات عند أطباء النفس للمعالجة من الوسواس والخطرات، رحم الله الدكتور المهدي بنعبود - وهو من الأساتذة المؤسسين لشعبة الدراسات الإسلامية وكان يجمع بين الفلسفة والطب والعلوم النظرية في العلوم الإسلامية - كان إذا جاءه مريض إلى عيادته سألته عن الوضوء والصلاة والصيام وذكر الله وقراءة القرآن ثم يعالجه ويعطيه أدوية ناصحا إياه بالرجوع إلى الله، عاش أستاذا وطبيبا وداعية فكان الله سبحانه يبارك في وصفته العلاجية، وجل من زاره تماثل للشفاء، وكنت أزوره لهذا السبب بين الحين والحين، وأذكر أنه في أول معرض أقامته شعبة الدراسات الإسلامية لبحوث تخرج الإجازة طلب نسخة من كل الجهود وحملها إلى عيادته، ووضعها رهن إشارته في الرفوف، فكان كلما كان لديه وقت يطالع فيها، وقد رأيتها بأمر عيني في مكتبته بعيادته، وكنت أتردد على زيارته في بيته في أواخر عمره، طلبت منه مرة أن يضع لي تقديمًا لكتاب «الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في التدافع الحضاري» لكنه اعتذر بسبب المرض، وكان يومها لا يقوى على مسك القلم بيده.

¹ - سورة الشرح الآية 5-6.

هذا الذي كان يفعله الدكتور المهدي بنعبود هو الذي انتشر في بلدان الشرق تحت اسم مستشفيات التداوي بالقرآن الكريم.

على طالب العلم إذا أراد الفلاح والنجاح أن يريح نفسه من هذه الأمراض القاتلة والتي تؤدي بحياته العلمية، لأنه من المفروض أن يكون هو المستفيد الأول من علمه قبل غيره، أنت لا تطلب العلم لتشحن به الصدر، وتكدسه في السطر، بل تطلبه لتقوم وتُربي وتكون به الذات والإنسان، ولذلك كان صاحبه ألزم به من غيره، لأنه لا يصلح لقيادة غيره من لا يصلح لقيادة نفسه، وإذا قدر للناس أن يستفيدوا من علمك فما الذي ترحبه إذا استفاد غيرك منك ولم تستفد أنت من علمك، والله تعالى يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾¹، وفي الحديث الصحيح: «نفسى، نفسى، نفسى»².

- عدم الحرص على الدنيا ولذاتها، لأن العلم لا يلتقي مع كثرة المال ووفرة العيال، ولا يتمشى مع المناصب والجاه والسلطة، إقرؤوا سير أعلام النبلاء تجدون نسبة كبيرة من العلماء عاشوا فقراء، وحتى الميسورين منهم أنفقوا أموالهم وما كسبوا من العلم والمعرفة، ولذلك كتب ابن الصلاح في مقدمته، في آداب طالب العلم عبارة نفيسة يستحسن الرجوع إليها، المتقدمون طلبوا العلم وتركوا المال والمناصب والرياسة فنفذ علمهم، واشتهر صيتهم عبر التاريخ، والمتأخرون أرادوا به الجاه والسلطة والمال فخف وزنهم واضمحل ذكركم عبر الزمن.

طبيعة العلوم الشرعية ليست مثل طبيعة العلوم النظرية، توجد علوم بقدر ما يكون صاحبها في شرفة عالية ووسط خريز المياه، وزقزقة العصافير، يرشف من كأس القهوة أو الشاي يعطي أكثر، لكن علوم الدين لها طبيعة مختلفة، إذ يمكن أن تكتب وسط زحمة الأحداث واشتعال المشكلات وتكاثر الشبهات، لأن المعرفة تنتعش بهذه العناصر جميعها، العلوم ذات طابع إصلاحي وعلاجي ووقائي، علوم تربية، عقديّة، تشريعية...

ومن الفرق المنهجي أنه يمكنك في علوم النظر أن تكتب صفحات عديدة في أوقات محدودة أما في العلوم النقلية فمن الممكن أن تمكث في تحقيق حديث واحد أسبوعاً من

¹ - سورة المائدة الآية 105.

² - متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب " ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبداً شكوراً"، الفتح 395/8 حديث رقم 4712، ومسلم في صحيحه، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، 185/1 رقم الحديث 194.

الوقت، وفي هذا السياق لا يمكنك أن تتجاوز الصفحة الأولى إلا بعد التحقيق والتدقيق، والسبب في ذلك يرجع إلى طبيعة العلوم النقلية، فالأمر يتطلب التدقيق والتوثيق، والرجوع إلى مصادر اللغة والأصول مع الاستقراء والاستنباط والتعليق.

كثير من الطلبة - للأسف- يتخرجون من كون معلوماتهم في هذا الموضوع قليلة أو ضعيفة، لذلك فهم لا يبادرون، وهذا خطأ في طريقة التعلم، العلوم والمعارف لا تأتي دفعة واحدة بل تأتي شيئاً فشيئاً، المعرفة تزيد وتنمو بالطلب والتحصيل، كلما واظب الطالب على التحصيل كلما كان استيعابه في تزايد، فلا تتضايق من قلة المعلومات، إنما ذلكم الشيطان يصدكم عن العلم والمعرفة.

ذكرنا هذا الكلام حتى لا ينسى الطالب أنه طالب علم، وليس عالماً بالمطلق، ومن مواصفات " الطالب " طلب العلم والاستزادة منه.

ليس هذا كل ما يقال عن " الطالب " أو " الطالب الباحث "، إنما هي توجهات ونصائح خرجت من موقع المعاناة الذاتية، ومن تجربة شخصية كأستاذ كان بالأمس طالبا، وطالب أصبح فيما بعد أستاذا باحثا، وما التوفيق إلا من الله وحده.

2- الموضوع: تقدم معنا فيما سبق أن من مواصفات الطالب أنه باحث، لكنه باحث

عن ماذا؟

الطالب الباحث يبحث في موضوع علمي لغرض اكتساب العلم وتحصيله، كل طالب ينتمي إلى سلك الماستر أو الدكتوراة مرهون ببحث موضوع، الذي من مواصفاته الموضوعية وعدم التجريد مع التحديد والضبط والإتقان، تلك هي معاني " الموضوع " لغة في لسان العرب، ف " الموضوع " لغة¹ من: وَضَعَ ضِدَّ رَفَعٍ، وَوَضَعُهُ يَضَعُهُ وَضِعًا وَمَوْضُوعًا، سمي الموضوع به لأن الطالب يضع البحث في موضعه المحدد والمعروف ليكون حسن الوضعة، وَوَضَعَ الشَّيْءَ فِي الْمَكَانِ: أَثْبَتَهُ فِيهِ، وضده الرفع: أي رفع البحث عن من مجاله المحدد إلى مجال مجرد، وهو مذموم.

¹ - لسان العرب 15/315-316- مادة «وضع».

ومن مواصفات الموضوع أن يكون " واحدا " ، لذلك لا تجد طالبا يسجل في موضوعين، المطلوب هو موضوع واحد، لأن واحدية الموضوع لها دلالتها في عملية البحث العلمي، فهي تعني:

- انفراد الطالب بالموضوع حتى لا يكون لطالب آخر تلافيا للتكرار الذي يؤدي إلى السرقة والغش وتكرير الجهود.

- ارتباط الموضوع به، لأنه هو صاحبه.

- التفرغ له، وصرف كل الوقت والجهد له.

- عدم التفكير إلا فيه، وعدم الانشغال إلا به.

- محاولة التغلب على مشاكله وصعابه.

تعدد الموضوع عند الطالب من شأنه أن يربك كل خصائص البحث العلمي عند الطالب، ومن أخطرها تشتت ذهنه، وتوزيع جهوده.

الموضوع بالنسبة إلينا هو كل شيء في عملية البحث العلمي، فهو من جهة ثمرة لشجرة جهد الطالب، ومن جهة ثانية هو ورش كبير يبلور فيه الطالب تجربته التي اكتسبها طيلة أيام التحصيل الجامعي.

كنت دائما أنصح طلبة البحوث الجامعية أن الموضوع بالنسبة للباحث هو كاختيار زوجته، فأنت حين تريد الزواج فإنك تبذل جهدا كبيرا في اختيار ربة بيتك التي من مواصفاتها أن تكون زوجة صالحة، والزوجة الصالحة هي التي حدد لك الشرع مواصفاتها، لماذا؟ لأنها شريكة حياتك، وترغب في الإنتاج المثمر منها، دائما كنت أمثل بهذا المثل لأنه أقرب للتمثل.

القضية تكمن في عنصر الاختيار بالأساس، اختيار الموضوع هو مثل اختيار الزوجة أو اختيار السكن أو اختيار الدابة، ومثل اختيار الرفقة أيضا، كل هذه الاختيارات صحيحة من موقع أنك ستقضي معها وقتا من عمرك أو كل عمرك، إن كانت صالحة صلحت بها حياتك وإن كانت فاسدة عكرت عليك صفو الحياة.

إذا كان الإنسان يصيب الاختيار فهو ناجح، والعكس صحيح أيضا، إذا كان يسيء الاختيار كان الفشل حليفه من كل الجهات، وفي مقدمة ما يجب على الطالب اختياره هو

موضوع بحثه، فهو وجهه ومرآته وسبيله نحو النجاح في البحث العلمي، والفلاح في المعرفة لا سيما إذا كان الموضوع من مباحث علوم الشريعة.

وإذا جاز لي أن أخاطب الطالب بصفة مباشرة قلت: اعلم أن حسن الاختيار له مردودية على حياتك، لأنك لا تدري كم سيأخذ منك من الوقت، هناك باحثون عاشروا موضوعا واحدا عشرات السنين، ومنهم من قضى العمر معه، وعنصر الزمان في مصاحبة الموضوع ليس سهلا هنا، ولا يجب غض الطرف عنه.

لا يعني هذا إهمال للموضوعات الظرفية التي تحتاج إلى معالجة سريعة، الواقع لا ينتظر منا أن نحل مشاكله في عشرات السنين، لا بد من خدمة الواقع بحل مشاكله ومعالجة قضاياها بأن نجعل من نوازله موضوعات بحث، لا أتكلم عن هذا النوع من الأبحاث السريعة التي تخرج في صورة مقالات علمية، أو في كتيبات، أو رسائل أو حتى كتب مفردة... لكن أتكلم عن الفروض والعروض الموجهة التي تدار من قبل أستاذ المادة، ينجزها الطالب برغبة من الأستاذ وبتوجيه منه، فهذه تشكل الخميرة الأولى للبحث العلمي لأنها تساعد الطالب على ترسم خطى البحث، وتفتح له الطريق نحو الاختيار الأفضل والبحث الأمثل، على الطالب أن يبادر إلى هذا النمط من الأبحاث، إنه تدريب على كيفية إنجاز أبحاث علمية رائدة.

البحوث العلمية هي على نوعين من حيث القصد:

- نوع يكون لأجل نيل الشهادة الجامعية، يكون الغرض منه هو الشهادة، مثل هذا النوع من البحوث تتوقف بمجرد نيل الشهادة، وما أكثر الباحثين الذين بمجرد نيل الشهادة توقفوا عن البحث، وأوقفوا مسيرتهم العلمية.

- ونوع يبحث لأجل " البحث العلمي "، يكون القصد هو البحث العلمي لا غير، وتكون الشهادة مجرد وسيلة، هذا النوع من الباحثين يواصل مسار وطريق البحث ولا يتوقف، فتجده ينتج ويعطي إلى أن يتوقف قلبه عن النبض، هذا صنف متميز من الباحثين، وهم قلة قليلة في عالم البحث العلمي.

إن حسن اختيار الموضوع هو نصف إنجازه، إذا كان الاختيار سليما كان الطالب في تحرير الموضوع موفقا، وهذا ينعكس على الميزة أو الدرجة التقديرية، فكثيرا ما يتفق أعضاء

لجنة المناقشة على منح الطالب ميزة " مشرف " على مجرد حسن الاختيار، حسن اختيار الموضوع يرقى درجة صاحبه والعكس صحيح.

يحتاج الطالب إلى وقت كاف جدا في اختيار الموضوع، فالذي يعطب الطلبة من جهة سوء اختيار الموضوع هو السرعة والتسرع، فالطالب يريد أن يسجل بسرعة لينجز بسرعة ويناقش بسرعة، ليأخذ الشهادة بسرعة، ومعلوم أن الاختيار إذا طغى عليه التسرع في البداية صاحبه حتى النهاية، وانعكس هذا سلبا على كل مراحل البحث، هذا ماذا يولد؟ يولد للطالب رغبة في التخلص من بحثه بكل سرعة ممكنة، لم تتوفر لديه الجاذبية إلى الموضوع، انعدم الأنا فحصل النفور.

لماذا استفراغ الوسع في سبيل البحث العلمي؟

الجواب هو قتل الموضوع بحثا، وكل من تجرد لبحث موضوع من المواضيع يجب عليه الوفاء به، لو كانت هذه الخصلة محققة لما حصل التكرار في طرُق الموضوع الواحد، وفي تحقيق المخطوط الواحد، وفي دراسة الكتاب الواحد، إذا صاحبت موضوعا فأخلص له، وتابع البحث فيه لتكون أنت صاحبه، وليكون دالا عليك أبد الدهر، لكنك إذا قصرت في بحثه فاعلم بأنك ستزاحم فيه، ولربما ستدفع عنه دفعا، اربط الموضوع بك كما تربط بك ولدك لكي لا تدفعه لينتسب لغيرك.

إن من خصائص بحث الموضوع " حب الموضوع "، حب الموضوع هو مثل حب الأهل والأولاد، كلما كان حبك لأهلك أقوى كلما زادت الصلة والعشق، كذلك الموضوع، كلما كنت تحبه كلما كان تعلقك به شديدا، وصلتك به قوية، وهذا يجعلك لا تنشغل إلا به، وتحس بالضيق وعدم الراحة في البعد عنه " ومن أحب شيئا رغب إليه ".

الحب كالإيمان يزيد وينقص، كلما زاد الباحث علما وتعلما وبحثا كلما نما حب الموضوع في نفسه، فهو من جهة يحب موضوعه بدافع الاختيار، ومن جهة أخرى فإن هذا الحب ينمو ويزيد بالمزيد من عملية البحث، كلما تعمق كلما تعلق، ولا تجب الاستهانة بعنصر التعمق في البحث، إنك بعنصر التعمق هذا إنما تكتسب عنصر الريادة في بحثك، لأنك ترى ما لا يراه الغير ولو كان هذا الغير قسيما لك في التخصص.

من خصائص الموضوع ما يلي:

أ- أن لا يُفرض على الطالب فرضا.

ب- أن لا يتسلط عليه من موقع السرعة والتسرع.

ج- أن يتماشى اختيار الموضوع مع قدرة الطالب، وأعني ب " القدرة " طاقته العلمية وكفاءته الذاتية هل سيسعفانه في بحث الموضوع، ويدخل في هذا المدة الزمنية التي يجب أن يستغرقها البحث، لا يمكن للطالب أن يختار موضوعا فوق طاقته، أو خارج تخصصه.

الغلاف الزمني يكون مطلوباً مثلاً في بحوث الماجستير، لا يجب عليه أن يقدمه قبل ولا بعد، بل في المدة الزمنية المحددة، هذا بخلاف بحوث الدكتوراة التي تستغرق ثلاث سنوات فما فوق، وفي كل الحالات يمكن للطالب الباحث أن يختار موضوعاً يحتاج إلى عشرات السنين، لكنه ينجز منه قسماً في الإجازة، وقسماً في الماجستير، وقسماً في الدكتوراة والباقي المتبقي هو بصحبة العمر إن شاء الله، هذا إذا كان الاختيار موفقاً، والطالب متمكناً وموجهاً توجيهياً سديداً، كما يمكن أن يشترك مجموعة من الطلاب في بحث موضوع واحد تفرق قضاياهم عليهم، وهذا لا يكون في الغالب إلا لغاية ما أو لمصلحة ما كأن يتعلم الطلبة العمل العلمي الجماعي، فيستأنسون ببعضهم، ويندمجون في عمل مشترك، وقد تقتضي الضرورة أن ينجز هذا البحث في زمن محدد فيتعاون الجميع تحت إشراف الأستاذ المؤطر، ويتوجهاته على إنجاز هذا العمل.

تبدأ عملية الاختيار باقتراح موضوع أو موضوعين أو ثلاثة من قبل الطالب على الأستاذ فيترجح الصالح للبحث، لكن بعض الطلبة يفوضون للأستاذ عنصراً الاختيار، وهو من الصعوبة بمكان، ذلك أن طريقة دخول الطالب على الأستاذ بورقة فارغة وب عقل فارغ هي أمانة من أمارات الفشل، إذ المطلوب من الطالب أن تكون في حوزته لائحة من الموضوعات، يرى أنها في حاجة إلى البحث، موضوعات تحصلت لديه عبر سنوات من المطالعة والتحصيل، إذا أعطى الأستاذ للطالب موضوعاً قد يتضايق الطالب منه، وكثير من الطلبة يقرون بعد المناقشة أو أثناءها أن الموضوع فرض عليهم من قبل الأستاذ المشرف، وهذه العملية لا ترقى بمستوى البحث العلمي إلى الدرجة التي تراد له.

إن عملية اقتراح موضوعات من قبل الطالب على الأستاذ هي عملية تقييمية لمستوى الطالب أولاً، فالأستاذ في أمس الحاجة إليها، لأنه يقيس بها مستوى الطالب، والكثير من الطلبة يتم التخلص منهم بمجرد الاقتراح.

3-الإشراف: الإشراف لغة من الشرف، والمشرف هو العالي، يقال: جبل مشرف: عال، والشرفة من الأرض ما أشرف لك، ومشارف الأرض: أعاليها، والشرف: العلو، كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع ليكون أكثر إدراكا له.¹

يتبين من هذه الدلالات اللغوية أن الإشراف من الشرف، والشرف مصطلح محمود الدلالة، فهو:

أ- يعني: المجد، والحسب، والجاه، وما دار في هذه المعاني.

ب- يعني: المكانة العالية والموقع المرتفع من النظر.

و " الإشراف " على البحوث على هذه المعاني يتنزل، فالمشرف لا يكون إلا ذي مكانة علمية عالية، يحظى بالتقدير والقبول والاحترام حتى يسمع كلامه وينفذ رأيه، لأنه «لا رأي لمن لا يطاع»². ثم إنه لهذا السبب تكون نظرتة عامة ومحيطة بالموضوع وشاملة. كالذي ينظر من شرفة عالية، فالنظر من الشرفة يكون من أعلى إلى أسفل، والنظر من أعلى إلى أسفل ليس كالنظر من أسفل إلى أعلى، نظرة الطالب إلى الموضوع هي بالمعنى الثاني، لأنه يكون في داخل الموضوع لا يرى أطرافه وحدوده وصورته وشكله وحجمه... بخلاف نظرة الأستاذ المشرف.

الإشراف بالمعنى الاصطلاحي يقع بمعنى التوجيه والمراجعة والتسديد ثم التقويم الذي يكون قبل الإنجاز وبعده وأثناءه، وفيما يلي توضيح ذلك:

- الإشراف قبل الانجاز: الأستاذ مشرف على عمل لم يولد بعد، ولم يتكون بعد، يتحصل هذا النوع من الإشراف بالحوار والمذاكرة عبر تساؤلات يوجهها الطالب للأستاذ، مرحلة ما قبل الإنجاز هي أصعب مرحلة في البحث العلمي، لذلك لا يتضايق الأستاذ من استفسارات الطلبة وتساؤلاتهم خلال هذه الفترة، وهذا يقتضي أن يكون الاتصال مباشرا مع الأستاذ لا عبر الوسائط، فالطلبة يشكون من عدم وجود الأستاذ المشرف معهم، وإذا وجدوه تسلم منهم حزمة من الأوراق يقوم بالتعليم عليها بالمداد الأحمر ثم ترجع إلى الطالب بعد وقت وفي صمت، هذا خلل في الإشراف.

¹ - لسان العرب 90/7 وما بعدها - مادة «شرف».

² - طرف من خطبة منسوبة لعلي بن أبي طالب، انظر نهج البلاغة ص 71 رقم 27.

- الإشراف أثناء الإنجاز: لأن الطالب حين ينجز بعضا من عمله لا بد وأن يكون تحت نظر الأستاذ، فهو كلما أنجز عملا أعطى آخر وأخذ ما قدم، وهكذا يكون التواصل بين الطرفين قائما، لا يبخل الأستاذ بوقته وخبرته، ولا يبخل الطالب على نفسه ببذل الجهد والحرص على الاستفادة من الأستاذ.

هذه هي مهمة المشرف على البحث، لا تسند المهمة لأستاذ غير باحث، ولا لأستاذ غير متخصص، ولا لأستاذ غير مهتم، من أمارات ضياع البحث العلمي - قبل ضياع الطالب- أن يكون الأستاذ متخصصا في جهة معينة ويشرف على رسالة جامعية في الدراسات الإسلامية، وحين تنجز تقدم للفحص من قبل لجنة غير متخصصة.

إن من شروط الإشراف المثمر أن يكون الأستاذ المشرف أوسع علما، وأكثر معرفة وأقوى حنكة من الطالب، إذ من العيب أن يكون الطالب أكثر معرفة من الأستاذ فتنعكس الحالة بحيث يصبح الأستاذ هو الموجّه والمؤطر لا الطالب، وهذا ما يقع في بعض الرسائل الجامعية، يستفيد الأستاذ من الطالب أكثر ما يستفيد الطالب من الأستاذ، وتجد البعض منهم يبخل على طلبته بمعارفه وتوجيهاته احتقارا أو كبرياء أو خوفا من المنافسة المشروعة، يجب أن تكون العلاقة بين الطرفين علاقة علمية وودية، قد تندثر بسبب الخلاف الجاري بينهما بسوء فهم أو قلة مودة واحترام، وللود دور كبير في هذه العلاقة إذا غاب الود توقفت العلاقة بينهما بمجرد انتهاء الطالب من مناقشة البحث بل من الطلبة من أصابه التذمر، لم ينهي بحثه فانزوى وابتعد بسبب الأستاذ المشرف، إذا تنافر القلبان ضاع العلم، لكن إذا كان الود حاصلًا تحصل بسببه كل خير، فقد تتطور هذه العلاقة بعد المناقشة وتستمر طيلة العمر.

هذا عن السبب الأول الذي هو الود، أما السبب الثاني فهي العلاقة العلمية، وأعني بها " عملية التأطير "، لا يجب على العلاقة أن تخرج عن هذا الإطار لأنها إن خرجت ضاع العلم أيضا.

البحث يضيع بالتسلط، والتسلط هنا مركب الوجوه قد يجتمع وقد يتفرق، قد يتسلط الطالب على الموضوع، وقد يتسلط الأستاذ على الطالب، وقد يتسلط الطالب على الأستاذ، هكذا يقع في بعض الحالات مفرقا، وقد يتركب من الأولى والثالثة، وقد يتركب من الأولى والثانية وهكذا، النتيجة المحصلة أن عملية الإشراف تصبح مترهلة، ينقطع التواصل،

يغيب التوجيه والتقويم، فتحصل فوضى في الإنجاز، ويجد الأستاذ نفسه في ورطة تقديم الرسالة للفحص وللمناقشة، فتقف لجنة المناقشة على كوارث علمية وعلى أخطاء فظيعة، أفدحها فظاعة المنهج واللغة والأسلوب والأفكار.

ويعلمنا المنهج الإسلامي أن على المشرف أن يكون مُيسرا لا مُعسرا، مبدشا لا منفرا، رحيفا وعطوفا لا فظا ولا غليظ القلب، لكن في المقابل على الطالب أن لا يستغل هذه الصفات لصالح الغش وخيانة الأمانة العلمية، لقد استغل الطلبة انشغال الأساتذة بالإصلاح، وانهماكهم في كثرة الواجبات والأشغال العلمية فتسلل بعضهم في ظلمة هذا الازدحام فحصل على درجات لا يستحقها، فليعلم هؤلاء إنما هي قطعة من نار إن شاء أخذها وإن شاء تركها، وكل امرئ هو خير بنفسه.

الطالب الذي قصد الأستاذ إنما قصده مجبرا، فهو مضطر إليه، لذلك أوصى الشرع بطلبة العلم خيرا، وكان علماء الأمة المتقدمين إذا قصدهم طلبة العلم شجعوهم، ويسروا سبل التحصيل، وكانوا إذا رأوهم قالوا: "مرحبا بوصية رسول الله ﷺ"¹، ووصايا النبي ﷺ كثيرة في هذا الباب، فلتلتمس فيما صح من آثار في كتاب العلم وآداب طالب العلم... طلبة العلم هم منارات للعلوم الشرعية، هم حملة العلم والمعرفة، ولا يحمل هذا العلم إلا عدوله وخياره، وهم الذين سيضربون في الأرض، وسيتحملون مسؤوليات في المجتمع والدولة.

كثير من الطلبة اليوم يحبون أن يروا سمة الأستاذية على الأستاذ، وصفة العلم والمعرفة عليه، وهذا أول شرط، لا يرى الطالب من الأستاذ من أول وهلة إلا هندامه، لذلك فللهندام دور كبير في الحياة العلمية، على الأستاذ إذن أن تظهر عليه صفة الأستاذية، عليه أن يكون مؤثرا بهندامه وشكله قبل علمه وكلامه، كان العلماء المتقدمون يهتمون بالشكل والهندام حتى كان الإمام مالك يغالي كثيرا في ذلك فلما سئل عن ذلك قال: «أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ»²، والعالم إذا رق وجهه وضعفت شخصيته رق علمه واضمحلت معارفه، وما نلحظه اليوم هو أن أساتذة الغرب ومن تبع ثقافتهم يغالون في الشكل والهندام فيؤثرون، في حين يهمل أساتذة العلوم الشرعية هذا الجانب.

¹ - كلام للصحابي الجليل أبي سعيد الخدري في الاستجابة لوصية رسول الله ﷺ، أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في الاستيحاء بمن يطلب العلم، 592/4 رقم الحديث 2842..

² - أنظر مقدمة ابن الصلاح بشرح الحافظ العراقي - ص 249- النوع السابع والعشرون: معرفة آداب المحدث.

يجب على الأستاذ المشرف أن يكون محبا للطلبة، لأن حب طلبة العلم من حب العلم، وبالعكس فالطلبة إذا قصرُوا في حب الأساتذة والشيخ انعكس ذلك سلبا على العلم، على الأستاذ أن يشجع على الحوار والنقاش، ويبث روح التساؤل عند الطلبة، والمقصود بـ " التشجيع " هو أن يفتح للطالب شهية الكلام في العلم، لا يدعه مكبوتا صامتا، خائفا منعزلا، من وجده متضايقا وسَّع عليه، ومن وجده صامتا منعزلا كلمه وأشركه، ومن وجده منطويا أخرجه من عزلته، ومن وجده خائفا شجعه وزرع فيه الحماس، الأستاذ هو خبير ومرب قبل أن يكون معلما وملقنا، عليه أن لا يتعصب لرأي ولا لمذهب، ومن كان على مذهب لا يلزم الطلبة بتوجهه، للأسف الشديد كثير من المشرفين إذا خالفهم الطالب تركوه وهجروه ولربما قسوا عليه، وهذا سلوك غير محمود لأنه يجني على مستقبل الطالب سيما إذا كان من المجدين المجتهدين الذين يُرجى منهم كل خير، ثم عليه أن يضع الطلبة على قدم المساواة لا يُفاضل بينهم على اعتبار القطر أو المذهب أو الجاه... الطلبة يتفاضلون بالعلم والمعرفة وبالأخلاق والقيم لا غير، وأن يميل مع الحق حيثما ظهر، ومع الكفاءة أينما وُجدت، الطالب كالإبن تماما، إنه امتداد للأستاذ، الإبن امتداد نسبي سلاي، والطالب هو امتداد علمي ومعرفي، وهما يشتركان في مسألة واحدة هي: التربية والتوجيه، على الأستاذ أن يعي أن لديه ثلاثة عناصر:

أ- أولاده وأهله.

ب- كتبه وإنتاجاته العلمية.

ج- طلبته وتلاميذه الذين كونهم وعلمهم.

أولاده وأهله بحكم تحمل المسؤولية، ليست هناك ضمانات في أن أولاد العالم سيكونون علماء، وهذه ظاهرة تحتاج إلى دراسة، لماذا أولاد العلماء لا يرثون علم آبائهم وأجدادهم؟ لم يسلم من هذه الظاهرة إلا القليل، لا يعني هذا أن العالم قد فرط في تكوين أولاده فهو قد فعل ما يجب من جهة التربية والنصح والتوجيه والإرشاد، العالم أخذ بالأسباب والنتيجة من عند الله وحده ﴿إِنَّمَا تَهَكِّي مِنْ أَحَبِّبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾¹.

¹ - سورة القصص الآية 56.

العلوم والمعارف المودعة في الكتب خرجت من رحم عقلك، إذا كان الولد قد خرج من صلبك فالعلم خرج من دماغك، كلاهما يرجعان إليك مع فارق هو أن العلم تتحكم فيه، إذا وضعته يبقى على حاله، بخلاف الولد فإنه يتغير.

أما الطلبة فلهم وضعية خاصة ومتميزة، علم العالم لا ينشره سوى طلبته، كثير من علماء الأمة المتقدمين عُرفوا وعُرف علمهم عن طريق طلبتهم، أولئك الذين جمعوا علوم شيوخهم فكتبوها ونشروها.

4- الإدارة الجامعية: سميت الإدارة بـ " الإدارة " لأنها تدير شؤون الطلبة والأساتذة، فهي من جهة رابط بين الكلية والجامعة، ومن جهة ثانية تسهر على خدمة مصالح الطالب والأستاذ، وجولة خفيفة في مكاتب الكلية تجدها أقساما لها وظيفة تسييرية، فهي مجموعة من المصالح: مصلحة قسم الموظفين، ومصلحة استعمالات الزمن، ومصلحة الأنشطة الرياضية، ومصلحة شؤون الطلبة، ومصلحة المنح، ومصلحة التسجيل وإعادة التسجيل، مصلحة الخزانة، مصلحة الدراسات العليا، مكتب السيد العميد ومكاتب نوابه، مكتب السيد الكاتب العام.. كل هذه الملصقات تثبت أن الإدارة برمتها هي في خدمة الطلبة والأساتذة والبحث العلمي الذي هو ثمرة شجرة وجود الكلية والشعبة.

لا صحة لما يقال أن الإدارة لا دخل لها في عملية البحث العلمي، بحيث ترمى كرة الأزمة في شبكة الأستاذ والطالب الجامعي، فالأستاذ إذا لم يجد المدرج جاهزا والقاعة مجهزة كيف يقوم بمهام البحث العلمي، والطالب إذا لم يجد البنية التحتية متوفرة من مرافق وخدمات بما فيها وجود الأستاذ نفسه كيف يكون تحصيله وطلبه للعلم والمعرفة؟ ثم إن الطالب نفسه لم يجلس أمام الأستاذ إلا بعد تزكية إدارية، فالإدارة هي التي تسلمت أوراقه وفحصتها ثم سجلته بصفة رسمية وقانونية ثم حصل على استعمال زمن إداري مكَّنه من الجلوس أمام الأستاذ الجامعي، ولها دور كبير في عملية الإشراف على الامتحانات وتنظيمها، وإعطاء النقط والشواهد، لذلك كان حضور الإدارة ضروريا، وحين نقول " الإدارة الجامعية " إنما نعني الوزارة الوصية، والجامعة المعنية، والكلية ثم الشعبة، إذا كان هناك من نجاح في المهمة التعليمية فهي أمور تتقاسمها الإدارة بهذه المركبات التي تمت الإشارة إليها.

هذه هي المكونات الأساسية، فما هي المكونات البنيوية للبحث العلمي؟

ثانيا: المكونات البنيوية

لا يوجد فرق كبير بين المكونات الأساسية والبنيوية، ولكن يوجد تمييز يجب رصده وبيانه.

" المكونات البنيوية " هي: " المنهج المسلوك في البحث " ولا يعني المنهج هنا المعنى الفلسفي العام أو المعنى الحضاري الواسع لكنه يعني " خطة البحث " أو " مسلك البحث " في صيغتها الجامعية، لماذا؟ لأن المنهج بالمعنى الذي نريد تفرضه طبيعة التخصص، كل تخصص يفرض على الباحث منهجا معيناً، وهو الذي يُعطي للتخصص صفة تخصص، ولذلك لسنا في حاجة إلى الكلام؛ هل المنهج هو الذي يكون الموضوع أم العكس، إذا قلنا بأن للمنهج صفة قبلية فهذا يوقع في الإسقاط بحيث يمكن لكل باحث أن يفترض منهجا ويفرضه قسراً على الموضوع سواء تماشى مع الموضوع أم لا، سواء أوافق التخصص أم لم يوافق، وهذه هي أزمة الثقافة الحديثة، وفي المقابل هناك سلطة الموضوع على المنهج، هل الموضوع الذي تختاره هو الذي يفرض المنهج؟ أعتقد أننا لا نقول: نعم للأول، ولا للثاني، ولكن نقول: نعم لهما معاً، لماذا؟ لأن الإقبال على الموضوع من دون منهج يجعل من دماغ الباحث إطاراً فارغاً من التجربة العلمية، في حين أنه تدرج وتعلم وتلقن وتكون، وخطا خطوات، وحاول أن يتلمس أمارات المنهج بمختلف أشكاله، أعني بذلك أن الطالب خلال مراحل الإجازة يكون قد اكتسب ذوقاً لمناهج علوم العقل والنقل في أخذ المعارف، المعارف التي اكتسبها بطريقة نظامية عبر الوحدات والفصول والمجزوءات، وما رافق هذا من طرق البحث والتلقين والتدريس تكون قد مكنته هذه الطرق من تكوين تصور أولي عن المنهج الأصولي والفقهية والحديثي والقرائي...، لا نقول إذن أن الطالب قد استوعب خلال هذه المراحل كل مناهج الدراسة والبحث استيعاباً كاملاً ولكن نقول: إنه تلمس الأمارات العامة للمنهج، وقد قلنا: " الأمارات العامة " لكون ملامح المنهج تنقدح في ذهنه كلما فكر في علم من العلوم، فهو يعرف أن للمنهج الحديثي مواصفات معينة، وحين يختار موضوعاً في أصول الفقه فهو يعلم صورته ويعرف خطوطه انطلاقاً من التجربة المتواضعة التي اكتسبها لكن إذا كان ذهنه خالياً فإن هذا أحد المعوقات الخطيرة للبحث العلمي.

المنهج ليس واحداً بل هو متعدد، لو كان واحداً لاتحدثت كل المواضيع في صفة واحدة، ولأصبحت كل العلوم النقلية علماً واحداً لكنه يتعدد بتعدد العلوم والفنون والمعارف،

لذلك نعود فنقول: إن الطالب لا يمتلك المنهج بصفة مطلقة، ولكنه يترسم خطاه شيئاً فشيئاً.

تبدأ قضية المنهج في البحث العلمي منذ الوهلة الأولى التي يتصل فيها الطالب بالأستاذ المشرف، فيقترح الطالب على الأستاذ خطأة يريد أن يسير عليها في البحث المراد القيام به، هذه الخطأة هي جزء من المنهج وليست هي كل المنهج، فهي تقدم الصورة العامة لأفكار الطالب وقدرته على مواصلة البحث، هذه الخطأة هي مرتبطة بالذات الباحثة بالأساس قبل ارتباطها بالموضوع، فهي مهمة لتقويم قدرة الطالب وبيان درجة استيعابه لفكرة الموضوع.

حين يُقدم الطالب "الخطأة" لا يعلم أن المادة العلمية التي لم يحصل عليها بعد ستسعه أو لا تسعه في إشباع الخطأة وفي الالتزام بها كلية، نطلق عليها "الخطأة التقريبية"، فهي "تقريبية" من موقع أن الطالب لما وضعها حاول أن يستحضر المنهج العام للموضوع الذي يقترحه، وللتخصص الذي ينتهي إليه الموضوع.

حين يشرع الطالب في جمع المادة العلمية ويقوم بإفراغها في بطاقات تكون تلك هي البداية الأولى لمنهجية البحث، لأنه يقوم بتصنيف البطاقات العلمية حسب الأقسام والأبواب والفصول، وحسب المباحث والمطالب والفروع والعناصر، ثم يضع لكل عنصر من هذه العناصر عنوانه الذي يليق به، ماذا وقع هنا؟ الذي وقع هو أن المادة العلمية التي جمعها الباحث هي التي تحكمت في المنهج، لأنه حين ينتهي من الصياغة العامة ويقارنها بالخطأة الأولى التي وضعها ستملكه الدهشة، وينتابه الاستغراب.

قد يفرض الموضوع المبحوث عدة مناهج لا منهجاً واحداً، وهذا ما نطلق عليه "المنهج المركب"، وأعلم علم اليقين أن "المنهج المركب" قد لا يكون حاضراً دائماً في العلوم الإنسانية أي لا يستلزم أن يكون مركباً لكنه في حقل العلوم الإسلامية يقتضي ذلك، لماذا؟ لأن الثقافة الإسلامية بطبيعتها متداخلة ومتجانسة فهي مهما تنوعت وتعددت واستقلت بمصادرها ومصطلحاتها وغاياتها فهي متعانقة فيما بينها، فهي كغرف القصر الواحد، كل غرفة تؤدي بك إلى الأخرى، خذ موضوعاً في الأسرة على سبيل المثال: هذا الموضوع وإن طغى عليه الطابع الفقهي أو الحقوقي القانوني فإن الباحث غير معذور للرجوع إلى الأصول والمقاصد والفكر واللغة والتفسير والقرآن والسنة...، يجرك الموضوع إلى تخريج نص حديث وممارسة الفقه

وطرق استنباط الأحكام منه، وتجرك الآية من القرآن إلى تتبع معاني تفسيرها من مصادر التفسير المتنوعة، العلوم الإسلامية هي على هذا الشكل تماما من التجانس والتلاحم، لا نقول أن هذه المناهج التي هي من منظورنا "مناهج جزئية" يمكن أن تغطي المنهج العام للبحث ولكن نقول إنها ستكمل مشروع البحث الذي أنت تتلمسه، طبيعة علومنا هي على هذا الحال من التكامل والتجانس، مرد ذلك كله إلى طبيعة هذا الدين الذي لا يتكلم في قضية واحدة من قضايا الإنسان، بل يخاطب الإنسان من كل جوانبه، ويخاطب الحياة في كل مكوناتها، وهو أثناء ذلك يسلك طرقا شتى في أساليب الحوار والإقناع، وعلى هذا النهج سار علماء الأمة المتقدمين. فتجد الشافعي في الشعر والأدب والأصول والحديث والفقه، وتجد الإمام مالك في الفقه والحديث والأصول والعقيدة، وتجد البخاري في النقد والحديث والعقيدة، والطبري في التفسير والفقه والكلام...

طبيعة العلوم الإسلامية أنها كُتبت ودونت بعقلية تركيبية، وتمت صياغتها بطريقة منهجية موسوعية، لذلك فالإقبال عليها من موقع التخصص الواحد يمكن أن يتم لكنه لا يكون ناجحا، المتخصص في علم أصول الفقه إذا كان جاهلا بالفقه ودرجات آثار السنة النبوية ومسالك السند وطرق فقه المتون واللغة كيف تكون صياغته لموضوعات علم أصول الفقه؟، لا شك أن معالجه للموضوعات الأصولية تكون ناقصة ومبتورة، وقد تولد عن هذا الجهل عنصر المعادة، تجد الرجل متخصص في علم أصول الفقه يعادي علوما نقلية هو في أمس الحاجة إليها، أو متخصص في القرآن ويعادي التفسير إلا تفسيرا أرادته لنفسه، هذا الذي نطلق عليه "الجهل العصري".

كل علم له منهج، وكل منهج له وحدات: وحدة اللغة، ووحدة الأسلوب، ووحدة المصطلحات، وستتكلم على هذه الوحدات في خصوصية البحث العلمي ضمن مبحث تكويني آخر إن شاء الله.

لنأخذ على ذلك مثلا: إذا أردنا أن نكتب في السيرة النبوية وقررنا الخروج على المناهج النقلية باسم تطوير المنهج وباسم الحرية الفكرية وباسم الانفتاح على المعارف الأخرى وباسم تبادل المعارف والخبرات وقررنا اعتماد المنهج المادي التاريخي فإننا سنحصل على رؤية كارثية، من خصوصية المنهج المادي التاريخي نكران الغيب مطلقا، تطبيقه على وقائع وأحداث السيرة النبوية من شأنه أن يفرغها من كل ما هو غيبي، وإذا زال الغيب انهارت

السيرة النبوية، سيذهب الوحي أدراج الرياح، وستتبدل معطيات غزوة بدر الكبرى، ستغيب الخوارق والمعجزات، وستزول دلائل النبوة، وقد يقول قائل: إن هذه قضية مرتبطة بالمنهج، ونحن نريد شيئاً يرتبط بذات الباحث، الباحث شخصية مستقلة، ويجب أن تبقى مستقلة في مجال البحث العلمي. الجواب: إن شخصية الباحث هي ذات مُعَيَنة، والذات المُعَيَنة لا تسلم من التأثير بمعطيات معينة، المعطى الأول الذي يجب أن تتصف به الذات المُعَيَنة هو "الإيمان"، الإيمان شرط أساس في البحث في مثل هذه الميادين إذا غاب الإيمان غابت العاطفة، وإذا غابت العاطفة حلت محلها "العقلانية الحارقة"، أو عاطفة من نوع مضاد، وهي "العاطفة المضادة"، خذ مثلاً رجلين يؤرخان لغزوة بدر، أحدهما هواه مع المشركين، والآخر هواه مع المؤمنين، هل وصفهما للحدث سيكون واحداً مع العلم أن الحدث هو هو؟

لاشك أننا سنكون أمام ثلاثة احتمالات لا رابع لها:

أ- واحد هواه مع المؤمنين، يؤرخ للأحداث حسب طبيعتها، يستخدم العقل في موضعه، والعاطفة في موطنها، يعتمد على آيات من القرآن وأحاديث من صحيح السنة، وشواهد من الشعر العربي المؤرخ للمرحلة، والآثار الأخرى التي نقلت في الموضوع مع التمهيص والتدقيق في صحة الأخبار.

ب- الآخر هواه مع المشركين، يؤرخ للأحداث حسب طبيعة الحقد والصراع الذي كان بين مكة والمدينة، يعادي النبوة والرسالة والإسلام، يميل إلى رأي قريش في كل شيء، يشكك في نبوة محمد ﷺ، ويجردها من كل خصوصية، تتملكه العصبية المقبوتة، وروح وثنية العصر السائدة، لا وجود للغيب ولا للملائكة ولا لإبليس، ليست هناك خوارق أو معجزات أو كرامات.

ت- واحد ثالث جرد نفسه منهما، واحتكم لمنهج من المناهج المادية، استحضر العقل وغيب العاطفة، فمال إلى التأويل المقرف والتحليل المجحف، فكان تحليله للأحداث تحليلاً مجرداً من كل خصوصية، تحليل باهت وبارد.

لذلك ف " صيانة المنهج " هي من الأمور الأساسية في البحث العلمي، العلوم الإسلامية لما تأسست إنما تأسست بمنهج، كل علم وراءه منهج، ولم تنشأ علوم الإسلام بطريقة فوضوية، لما وُلد العلم وُلد معه منهجه، وقد خضع هذا المنهج للتطور داخل حقل العلم العام، كل عالم يضيف إلى العلم لبنة

حينما تتمثل العلم وتستحضره بهذه الأبعاد يصبح مطواعا في يدك، تستخدمه بكل مهارة في البحث العلمي، كالمراة التي تجيد الطبخ، فهي تأخذ من الملح بمقدار، ومن الزيت قدرا، ومن الماء قدرا، ومن مختلف التوابل قدرا، وكذلك من اللحم والخضر، فتصنع طبخة متجانسة، تلك الطبخة قائمة على "التوازن"، وبمهارة التوازن حصلت على أكلة يقبلها البطن، هذه الطبخة فيها مكونات لو قمت بتفكيكها عن بعضها لتملكتك الدهشة، ولتساءلت: كيف استطاعت هذه المكونات أن تُعطي هذه الطبخة الفريدة، الطبخة هنا هي كالموضوع، يجب أن تتعامل معه بشهية وتقنية، وبمعرفة، وبعلم، وبالحرص على كسب عنصر التوازن بين مكونات الموضوع، يجب أن تأخذ من اللغة بمقدار، ومن القرآن بمقدار، ومن الحديث بمقدار، وهذه العناصر تتحكم فيها رؤية الباحث هل هي تاريخية أو جغرافية أو فقهية... لا بد من اعتماد ما يناسب ويتناسب مع الموضوع، ولن يتحقق هذا إلا إذا تملك الطالب مفاتيح العلوم، أي علم وقف عليه إلا وفتح بابه، إن الذي يدفعك نحو العلوم الأخرى ولو كانت أجنبية هو مدى الحاجة إليها، وحين تدخل بها في الموضوع تذوب خصوصيتها وتنحل، تذوب لأن الرؤية تغطي علمها وتصهرها في بوتقة منهج واحد يصعب تفكيكه باعتبارية اللهم إلا إذا كانت هناك أيادي مرنة تجيد التفكيك.

لا يجب على الطالب الباحث أن يفكر دائما أثناء مباشرة البحث العلمي في إنجاز مواضيع جديدة لكنه في حاجة إلى دراسة جهود الأعلام القدامى المبرزين في العلوم الشرعية، هذا النوع من الأبحاث يُعلم ويلقن ويدرب الباحث، فيتأثر بلغة صاحب الكتاب وبأسلوبه، ويمتلك ثروة من المفاهيم والمصطلحات الفنية، وتُنهى فيه روح الإبداع والابتكار، ومن المفيد أيضا أن يتدرب على تفكيك ذلك الإنتاج ليقف على الأنساق العلمية، والتجانس القائم بين المعارف والفنون والتي استطاع المؤلف أن يجمع فيما بينها ببراعة، وأن يؤلف بين عناصرها بإبداع ومنهجية، مثل: رسالة الشافعي، وموافقات الشاطبي، وبداية ابن رشد، ومقدمة ابن خلدون، والجامع الصحيح للبخاري، ومؤلفات الغزالي الكثيرة والمتنوعة إلى غير ذلك من الإصدارات التي تشكل منارات الفهم والعلم، أعتقد أن معارفنا وأبحاثنا اليوم يجب أن تتوجه صوب هذا القصد، إن الذي ينقصنا اليوم ليس قلة الطلبة الباحثين بل الاختيارات الموفقة لمواضيع نافعة تعالج بعقلية متمكنة ومنفتحة.

من المكونات البنيوية التي نتكلم عليها هنا ما يدخل في تصاميم البحوث، مثل: المقدمة أو التقديم التي يتكلم فيها الطالب عن الحوافز التي شجعتة على اختيار الموضوع، لماذا اختاره؟ وكيف اختاره؟ ومن شجعه على الاختيار؟

الباحث لا يختار الموضوع لأجل الموضوع، وإنما يكون الاختيار بدافع أسباب يجب أن يذكرها.

يشير في المقدمة إلى العوائق والصعوبات التي اعترضته في سير البحث، ولكل بحث مشاكله، الإشارة إلى هذه المشاكل وتحديدها أمر مهم لأنها جزء من البحث العلمي، تذكر حتى تسطر حلولها ويستتير بها الطلبة الجدد.

لابد من بيان الغاية والهدف من عملية البحث الذي باشره الطالب، وليس كل الباحثين يسطرون الأهداف من البحث، فهم يبحثون وكفى، لماذا هذا البحث؟ وماذا تريد منه؟ وماذا تريد أن تُحقق به؟

هناك أمران متلازمان - حسب ظني والله أعلم - هما: الهدف والغاية.

- الهدف من مجال البحوث الإسلامية هو هدف تشترك فيه جميع الأبحاث والدراسات في العلوم النقلية، هذا الهدف هو الذي يحدد الوجهة، فهو بمثابة قبلة جميع الباحثين، هو هدف لا يجب أن يغيب عن البال مهما تغيرت الأحوال، هذا الهدف هو " خدمة الإنسان بالشريعة الإسلامية "، والخدمة العلمية هي أسعى خدمة، وأسعى عبادة، لأن العبادة المطلوبة هي العبادة بالعلم، والعبادة بالعلم تدخل في مجال التبليغ، يقول تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين...﴾¹، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية»²، هذا الهدف هو هدف موحد بين علماء الإسلام جميعهم، من القرن الأول إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأنت أيها الباحث عليك أن تتركب هذه السفينة ولا تتخلف لأنك إذا تخلفت انهار عملك، وفسدت نيتك، وبطل أجرك، وإذا أحسست بالزغ فأعد النظر في نفسك قبل بحثك، العلوم في الإسلام ليست ملهاة ولا هي إضافات نشاز، لقد وُجدت يوم وُجدت لخدمة الدين.

¹ - سورة التوبة الآية 122.

² - أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر بني إسرائيل، الفتح 496/6 رقم الحديث 3461.

- أما الغاية من البحث فهي المرتبطة بما لأجله وُجد البحث: هل ستحقق مخطوطا، أو تدرس مؤلفا، أو تخرج أحاديث كتاب معين، أو تفهرس آثار مجلدات أو تنتقد نظرية معينة... الغاية تختلف حسب طبيعة البحوث، إذا تمت الإشارة إلى كل هذا فالعمل يكون مُوجهاً.

- الله سبحانه وتعالى ما أنزل الأحكام إلا لمقصد أو لمقاصد علمها من علمها وجهلها من جهلها، فلم لا يكشف الباحث عن قصده من عمله، إن كشف المقصد من شأنه أن يكسب المنهج طابعا من التماسك بحيث يجعل كل تلك المباحث والفصول والأبواب تصب في القصد المحدد من قبلك، كما أنها تُيسر على القارئ أن يُتابع معك سير عملك، فلا تترك نفسك موزعا لا تعرف ما تريد، ولا تترك القارئ تائها وسط ركام من الأوراق بحمولة لغوية لا يعرف إلى أين تتجه.

تشير إلى الدراسات السابقة في الموضوع، فائدة هذه الإشارة أنها تبين هل الموضوع مطروق أم هو جديد في بابه، إذا كان مطروقا ما نوع هذه الجهود وما حجمها وكيفها.. وما الجديد الذي ستضيفه بدراستك هاته؟ بعض الطلبة لا يقصرون في ذكر هذه الجهود وبيانها سواء في المقدمة أو في فهرسة المصادر والمراجع لكنهم يغفلون تقويمها، وإذا لم تكن هذه الدراسات موجودة دل هذا على أن موضوعك جديد في بابه، يجب على الطالب أن يتطلع فيه بمطلع الجديد والجدة والجدية.

بعد هذا يشير إلى الخطة في البحث، والمقصود ب " الخطة " الخطاطة التي تسلك في البحث، ولا تعني الخطاطة فهرس الموضوعات العام كما يكتب في آخر العمل بل ينثره الطالب نثرا، ويحلله ولا يتركه على صورة فهرسة.

يشير إلى المنهج الذي سيسلكه في البحث، ولا يتحرر هذا إلا بعد الانتهاء من البحث، لأنه بعد الانتهاء تكون صورة المسلك قد اتضحت فيقوم الباحث باستخلاص عناصره كاملة.

الباب الثالث:

دراسات مكتبية

بُني هذا الباب على ثلاثة فصول، وهي:

- الفصل الأول: دراسات في كتب الفقه والأصول والأخلاق.

- الفصل الثاني: دراسات مكتبية في اللغة والأدب

- الفصل الثالث: دراسات مكتبية في كتب ثقافية عامة

الفصل الأول:

دراسات في كتب الفقه والأصول والأخلاق



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية
- المبحث الثاني: قراءة في كتاب "الفقه الإسلامي حيوية وامتداد"
- المبحث الثالث: انطباعات حول كتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها"
- المبحث الرابع: علاقة العلم بالأخلاق من خلال كتاب "أخلاق العلماء" للأجري

- المبحث الأول: معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية.

لعل أهم ما يبتغيه الباحث من معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية هو كيفية استثمارها في البحث العلمي، وهو الموضوع الذي يهمننا ويهم الطلبة الباحثين، إذ كثيرا ما يتقدم الطلبة بسؤال حول كيفية استخدام المعلمة في مجال البحث العلمي، وهو سؤال مشروع لأنه ينبع من حاجة الطلبة الباحثين ومن قيمة المعلمة العلمية وما تنطوي عليه من الفوائد الغزيرة، وهي قيمة لا يدركها إلا من تصفح المعلمة واطلع عليها.

المطلب الأول: كيفية التعامل مع المعلمة على مستوى البحث العلمي.

سؤال يجب على كل باحث أن يتقدم به وهو يتلاءم مع ما لأجله وُجدت الموسوعة، والأمور بمقاصدها، فالغرض منها هو خدمة البحث العلمي، ومساعدة الباحثين والدارسين والساسة والاقتصاديين والقضاة والمحامين.

لقد يسرت المعلمة عملية البحث في موضوع القواعد الفقهية والأصولية والمقاصدية وكل ما يتعلق ببحث موضوع القواعد الفقهية من حيث:

أولاً: التنصيب على القاعدة

ثانياً: تحديد مجالها هل في الفقه أم الأصول أم المقاصد

ثالثاً: تعيين رقمها داخل المعلمة، فللرقم دلالة الهوية

رابعاً: تعيين القواعد ذات الصلة بالقاعدة

خامساً: تعريف القاعدة وشرحها

سادساً: تطبيق القاعدة على موضوعات معينة حتى تتحدد القاعدة أكثر، ويُخدم

الموضوع أحسن

سابعاً: دراسة العلاقات والفروق بين القواعد.

المطلب الثاني: المعلمة تيسر عملية البحث العلمي

تيسير عملية البحث العلمي تتمثل فيما يلي:

أولاً - البحث عن القواعد وجمعها وتحديدها وتعريفها وبيان مجالها وتطبيقها، وهذه العملية التي تكررت الإشارة إليها ليست سهلة، فإذا أردت أن تعرف ما تقدمه المعلمة من

تسهيلات فيمكنك أن تقارن بين وضعية البحث في القواعد الفقهية والأصولية والمقاصدية قبل المعلمة ووضعية بحثها في المعلمة.

ثانيا: تمت عملية البحث بالاستقراء التاريخي وبالفحص والاستنباط الداخلي للمصادر الفقهية والأصولية والمقاصدية، وهي عملية صعبة على الباحث إذا أراد القيام بها بمفرده.

ثالثا: تحتوي المعلمة على ثروة من المصطلحات الفنية والقواعد الفقهية والأصولية والمقاصدية والأعلام والمصادر، وهي أمور تحتاج إلى أن تفرد بأبحاث مستقلة، أعني أن تتحول المعلمة إلى مجال للبحث العلمي زيادة على ما تقدمه من معارف وفنون.

رابعا: تقدم المعلمة أنموذجا لكيفية البحث العلمي، فدارس المعلمة يتعلم كيف يبحث في الموضوعات الفقهية إما باستنباط القواعد من المصادر الفقهية، وإما بتطبيق القواعد على الموضوعات الفقهية.

خامسا: تقدم المعلمة اللغة العلمية المطلوبة، والأسلوب العلمي المراد، فللعلم لغته، ما أحوج الباحثين والدارسين الجدد إلى المحافظة عليه فالذي أصبح يطغى على بعض التأليفات الأصولية والمقاصدية اليوم هو اللغة الفلسفية والفكرية التي تعلق الموضوع بالتجريد.

سادسا: ضربت المثل الأعلى في الانفتاح والتسامح مثل في الفقه الإسلامي، لأنها اعتمدت على كل المذاهب تقريبا.

سابعا: تعلم الطالب الباحث معاني المصطلحات مثل: الضابط، والاستثناء، والفروق، والمقصد، والوسائل، والأصل، والفرع.

ثامنا: تعلم الطالب الباحث حسن توظيف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الحديثية وسلامة اقتباس النصوص والشواهد من مظانها.

تاسعا: تعلمه على مستوى المنهج كيف يضع الأبواب، ويرتب المادة العلمية، وكيف يعلق وينقد ويرجع.

المطلب الثالث: كيف نستثمر المعلمة في عملية البحث العلمي

أولا: لأهمية المعلمة ومكانتها المتميزة حرصت إدارة بعض الجامعات مثل جامعة محمد الخامس بأبوظبي أن تكون موجودة وجودا ماديا داخل الجامعة، وأعني بالوجود الوجود

المكتبي والوجود الإلكتروني، تتوفر منها نسخة حاليا داخل المكتبة، مع نسخ إلكترونية، والكل موضوع رهن إشارة الباحثين طلبة وأساتذة.

ثانيا: حرصت الجامعة أن يكون لها وجود تعليمي، تكويني، من ذلك أنها داخلية في المصادر والمراجع المقررة لمساقات الفقه والأصول والمقاصد في كل البرامج: البكالوريوس والماجستير والدكتوراة مستقبلا.

ثالثا: يتمثل هذا الحضور التعليمي في صياغة الدروس التعليمية والتلقينية بحيث يمكنها أن توفر للأستاذ ما يكفيها في مجال التخصص.

خامسا: وفي مجال البحث يمكن استثمار القواعد - وهي بالمئات - في مجال تطبيقها على قضايا المال والأعمال، والفتوى والقضاء، والأحوال الشخصية، والقضايا الطبية والمستجدات الفقهية المعاصرة، فالكلام عن القواعد وتطبيقاتها على موضوعات معينة لا يعني أن تلك القاعدة لا تليق إلا لهذا الموضوع، حتى إذا زال الموضوع زالت، بل التطبيق هو توضيح وزيادة شرح وبيان للقاعدة ويمكن تطبيقها على موضوعات أخرى.

المطلب الرابع: طرق تقنية في كيفية التعامل مع المعلمة.

بمعنا هنا الاستفادة من المعلمة، ونعني بالاستفادة طريقة استخلاص المعلومة بأقصر جهد وبأقل تكلفة زمنية، وُجدت المعلمة للبحث العلمي، وقد وضعت للباحث طريقتين: الطريقة الأولى إلكترونية، وهذه الطريقة سهلة جدا، وميسرة جدا لمن عرف كيف يستغلها، فبمجرد تسجيل المراد والضغط على الزر يظهر لك ما تريد.

أما الطريقة الثانية فهو الكتاب المطبوع، ولم يغب عن واضعي المعلمة عملية تيسيرها للباحثين حين وضعوا لها فهرس، لا أتكلم عن فهرسة كل جزء من أجزاء المعلمة ولكن أتكلم عن الفهارس العامة، ولأهميتها شغلت ربع كم المعلمة، يعني أنها تشكل 1/4 من مجموع 42 مجلدا.

ماذا في هذه المجلدات؟

تبدأ الفهارس بالمجلد الرابع والثلاثين، وهذا الفهرس بدوره يحتوي على فهرس، فهرس للآيات القرآنية، وفهرس للأخبار، وفهرس للأعلام.

المجلد الخامس والثلاثون مخصص لفهرسة القواعد وترتيبها على حرف المعجم، يُعين للباحث أين توجد في أجزاء المجموعة، مثلا قاعدة: «إذا كان الثقة حافظا لا يضره الانفراد» توجد في حرف الألف، وإذا كثرت القواعد بحرف الألف ترتب على الحرف الثاني وهكذا.

المجلد السادس والثلاثون، من هذا المجلد تبدأ عملية فهرسة القواعد على جذور الكلمات، وترتب ترتيبا معجميا أيضا على نفس الطريقة السابقة، مثلا: «البدل يسد مسد الأصل ويحل محله»، الكلمة هنا هي «الأصل» تجدها في حرف الألف.

«إيماء الأخرس خِلقة كالبيان باللسان»، هنا كلمة «بيان» تجدها في حرف الباء، وهكذا بدأ هذا المجلد من حرف الألف الى حرف الجيم.

المجلد السابع والثلاثون، هو امتداد لعملية فهرسة القواعد على جذور الكلمات، بدأ من حرف الحاء إلى حرف الزاي.

المجلد الثامن والثلاثون، من حرف السين إلى حرف العين.

المجلد التاسع والثلاثون، من حرف العين إلى حرف القاف.

المجلد الأربعون، من حرف الكاف إلى حرف الياء.

المجلد الواحد والأربعون، يحتوي على عدة فهرس، فهرس للقواعد بحسب أسماء مؤلفيها، وفهرس لتراجم الأعلام، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات. وفي النهاية نقول: «إن المعلمة مغنمة».

- المبحث الثاني: قراءة في كتاب " الفقه الإسلامي حيوية وامتداد".¹

هذه محاولة في تقديم كتاب الأستاذ عبد العزيز بغداد، لا أقول قراءة، لأن للقراءة شروطها العلمية والمنهجية، وتتطلب مبدئيا تناول الكتاب كله بالتحليل والنقد والتقويم

¹ - نص المحاضرة التي أقيمت بقاعة العقاد للعروض بدعوة من مؤسسة البشير للتعليم الخصوصي والتي نظمت نشاطين ترهما وتكرهما للأستاذ عبد العزيز بغداد رحمه الله، أقيم النشاط الأول من قبل إدارة المؤسسة للتعليم الثانوي يوم 25 يناير 2010، وأقيم النشاط الثاني من قبل إدارة المؤسسة للتعليم الثانوي والتي خصصت لتقديم كتاب الفقه الإسلامي حيوية وامتداد وذلك يوم 15 مارس 2010.

والتمحيص، ولا أعتقد أن هذا هو مراد إدارة التعليم الثانوي لمؤسسة البشير، إنها محاولة احتفائية، تقديمية وتوضيحية لمحتويات هذا الكتاب.

لقد أحسنت المؤسسة خيرا حينما اختارت هذا الكتاب، فقد كان اختيارها موفقا، لقد قلت في كلمة سابقة أن كتاب «الفقه الإسلامي حيوية وامتداد» هو - في نظري- من ألمع كتب الأستاذ الراحل ومن أمتعها، قد يقول غيري غير هذا، وقد يقدم كتباً أخرى في اللغة وفي التفسير، لكن - بحكم التخصص- أقول إن هذا الكتاب من أجود كتبه، وقد اطلعت على مجمل إصدارات الأستاذ لأنه كان يهديها إلي لحظة صدورها، وهي عندي مهداة بخط يده، وكأن القدر ادخرها إلي هذه المناسبة.

المطلب الأول: صورة الكتاب

صدر الكتاب عن المطبعة الوطنية بمراكش في طبعته الأولى المؤرخة في 9 أبريل من سنة 2003م، الموافق ل 7 صفر 1424هـ، وهو من الحجم المتوسط كما تلاحظون، عدد صفحاته 208 صفحة، لا يحتوي سوى على فهرس واحد هو فهرس للموضوعات، وكان الأجدر أن تكون مع هذا الفهرس فهرس أخرى، مثل: فهرس للآيات القرآنية، وفهرس للأحاديث النبوية، وفهرس للأشعار العربية، وفهرس للأعلام وهم كثير، وفهرس للمصطلحات الفقهية والأصولية الفنية، وفهرس للمصادر والمراجع، تيسيرا على القارئ وتسهيلا على المطلع، لكن المؤلف رحمه الله اكتفى بفهرس واحد، وقد يكون له مبرر علمي لا نعلمه.

المطلب الثاني: سبب التأليف وغايته

لم يفوت الكاتب على نفسه أن يذكر السبب الذي دفعه لإصدار هذا الكتاب، فقد لاحظ أثناء مراقبته للعملية التربوية والتعليمية أن الأسلوب الذي يقدم للتلاميذ، وكذلك المعلومات التي تخص درس الفقه الإسلامي لا يسهمان في إنشاء أجيال تتذوق الفقه الإسلامي، وتستضمر أسرارها، وتنفذ إلى لبه، وتتكون به، كان هذا هو الدافع الأساس لتأليف هذا الكتاب.

أما الغايات فقد حددها المؤلف في ثلاثة:

الأولى: لفت انتباه عقول الأبناء إلى التراث الفقهي الإسلامي ليكون نقطة انطلاق في السير، وعمدة في الاستنباط، ومجالا للتجدد والتوليد.

الثانية: تأصيل النظرة الفقهية، ومناقشة القضايا الكبرى في ضوءها بكل أناة ومنهجية.
الثالثة: تحفيز المؤسسات العلمية المهتمة بالثقافة الإسلامية إلى تيسير سبل البحث،
وتسهيل الرجوع إلى المصادر والأصول، والتفاني في خدمة الفقه الإسلامي بكل إخلاص
وموضوعية.

المطلب الثالث: خطة الكتاب وشواهده:

1- خطة الكتاب

كسر المؤلف كتابه على أربعة فصول جامعة:

- الفصل الأول: عنوانه ب «مادة الفقه بين المصطلح وسمو المقاصد»، وزعه على إحدى وعشرين موضوعاً.
 - الفصل الثاني: عنوانه ب «لماذا تعددت المذاهب في الفقه الإسلامي؟»، بُني على تسع وأربعين عنواناً فرعياً.
 - الفصل الثالث: عنوانه ب «الاجتهاد في الفقه الإسلامي: رحلة ممتعة»، جعله على إحدى وعشرين مبحثاً.
 - الفصل الرابع والأخير: عنوانه ب «الفقه الإسلامي: ثروة الماضي وزاد المستقبل»، بناه على عشرين موضوعاً.
- ثم أنهى الكتاب بخاتمة وفهرس للموضوعات.

2- شواهده العلمية

تشكل الشواهد لحمة هذا الكتاب، فهي بمثابة العروق التي تتغذى منها المادة العلمية حتى لا تجف وتتيبس، أو هي كالأوتاد التي تشد الموضوع شداً حتى لا ينجرف بالتنظير المسرف والتحليل المجرد المقرف.

الكتاب على صغر حجمه غني بالشواهد العلمية المتنوعة، نقدمها كما يلي:

أ- الشواهد القرآنية: وهي آيات من القرآن الكريم، منتقاة بدقة، وموثقة من المصحف الشريف، يضم الكتاب أكثر من سبعين شاهداً بالمكرر، هذه الآيات يلتبس الأستاذ تفسيرها من كتب التفسير المعتبرة.

ب- الشواهد الحديثية: يضم الكتاب مجموعة من الشواهد الحديثية، عددها بالمكرر حوالي ثلاثين شاهداً، فيها المرفوع إلى النبي ﷺ، وفيها الموقوف على الصحابة الكرام، ينتقى الأستاذ الأحاديث المشهورة والمتداولة من كتب الفقه، يختلط فيها الصحيح مع الحسن والضعيف، بعضها غير كامل في التخريج.

ج- الشواهد اللغوية والشعرية: هناك شواهد لغوية كثيرة، أكاد أجزم بأنها تطفئ على مادة الكتاب برمته، وبعضها من الشعر العربي سيقت في مقام التوضيح والبيان.

د- المصادر والمراجع: وهي كثيرة ومتنوعة، منها:

- مصادر السنة النبوية، مثل الصحاح والسنن والمسانيد، كان المؤلف يرجع إلى بعضها والبعض الآخر يكتفي فيه بالعزو إليهما من مراجع أخرى.

- مصادر اللغة العربية: من أهم المصادر التي اعتمد عليها لسان العرب لابن منظور، ومقاييس اللغة لابن فارس، وبعض المعاجم المشهورة والمتداولة مثل المعجم الوسيط.

- مصادر التفسير: اعتمد المؤلف على بعض مصادر التفسير لتفسير آيات الاستشهاد، كان اعتماده بالأساس على تفسير الفخر الرازي، وتفسير القرطبي المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن»، وغير ذلك.

- المراجع الفقهية والأصولية: اعتمد على مجموعة من المصادر، منها: كتاب الإحكام للآمدي، والموافقات للشاطبي، وإعلام الموقعين لابن القيم، والرسالة للإمام الشافعي، والأم للشافعي، والمستقصى للغزالي، وكتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي الثعالبي، بالإضافة إلى بعض المراجع العلمية التي في المتناول مثل كتاب تاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبو زهرة، وكتاب الفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي، والمدخل لدراسة الفقه الإسلامي لخالد عبد الله خالد، وكتاب أصول الفقه الإسلامي لوهبة الزحيلي ...

هـ- لغة الكتاب: لغة الكتاب هي لغة المؤلف، الأستاذ عبد العزيز بغداد يكتب كما ينطق، لغة سليمة، صحيحة وقوية، دليل ذلك أنها معبرة عن المعاني بكل يسر وسهولة.

لقد أوتي - بحكم تخصصه- تمكنا من العربية، إلى درجة أنه أحبها وأحب من يحبها، في هذا الكتاب طاوعته لغته، فخضعت لأفكاره، فامتطأها فوصل وأوصل.

- المبحث الثالث: انطباعات حول كتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها".

حين طلب مني الأستاذ المحتفى به الأخ الزميل الدكتور إسماعيل الحسيني المشاركة في تقديم كتابه وقراءته لم أكن أعرف ماذا أقرأ وما نوع الكتاب الذي سأقرأ، بقي الكتاب في ظرف مغلق منذ أن أهدانيه المؤلف إلى وقت قريب، ولما فتحته وجدت فيه كتاب «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» للأستاذ علال الفاسي عليه رحمة الله، وهو من تحقيق وتعليق الأستاذ المحتفى به، وجدت نفسي وكأنني أعثر على أحلام منسية، لقد ذكرني بماضي عمري لما كنت طالبا وما زلت احتفظ بالكتاب منذ ذلك الوقت في طبعته الثانية لسنة 1979م، ومعلوم أن الكتاب صدر في طبعته الأولى لسنة 1963م.

لم أتردد في الاستجابة للدعوة لسببين آخرين:

الأول: دراستي للمقاصد يوم كنت طالبا.

الثاني: تدريسي لهذه المادة في وقت كانت الشعبة تفتقر إلى الأساتذة المتخصصين بالسلكين الثاني والثالث.

ولذلك قلت إنني أحتفظ في ذاكرتي بأسماء أساتذة مروا من ساحة الجامعة ومن قاعات التدريس، منهم من قضى نحبه، ومنهم من كبر وأحيل على التقاعد، كما أحتفظ ببعض المطبوعات والكراسات المقررة، وبعض الكتب منها هذا الكتاب الذي بين أيدينا في طبعته الأولى والثانية، تساءلت وقلت: ماهي نوع القراءة التي سنقرأ بها هذا المؤلف، هل هي القراءة النقدية؟ أم القراءة السرديّة؟ أم القراءة الإشكالية؟ أم القراءة المدحية الإطرائية؟... كل شيء ممكن، لكن الذي يبدو لي غير ممكن هي القراءة النقدية المنفردة لأسباب منها:

- أن الأستاذ المحتفى به زميل في مهنة التدريس، يتعذر علي شخصيا أن أحول كتابه إلى رسالة جامعية تجعله في مقام غير مقامه، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم.
- والثاني أن الكتاب طُبع، وهو متداول بين أيدي الجمهور اليوم، في الشرق والغرب.

- والثالثة أن مؤلفه الأصلي هو الأستاذ علال الفاسي عليه رحمة الله، فمن دون شك ليست هذه هي القراءة الوحيدة حول الكتاب، فالكتاب قديم يرجع عمره إلى حوالي خمسين سنة، وهي سنين ممتدة من دون شك تم الاحتفاء فيها بالكتاب وبمؤلفه، وبعضها وقع في حياة المؤلف نفسه، ما أوجنا إلى استحضارها في هذا الوقت.

لا قيمة لما نكتب إذا لم يكن فيه الجديد، واعتقد أن الكتاب الذي نحن بصده اليوم يحمل إلى الثقافة الإسلامية شيئاً جديداً، هذا الجديد يكمن في المقاصد الشرعية نفسها، فهي فن جديد، ولذلك فهي تحظى اليوم بعناية فائقة، الكل يتكلم عن المقاصد ويتعلق بالمقاصد، لقد بدأ الاهتمام بها في المغرب والأندلس ثم ذاع صيتها في بلاد المشرق، لا نستطيع أن نحدد كمية الإنتاجات العلمية في هذا الفن، كل ما يمكن قوله هو أن الإسراف في تناول الموضوع أصبح مخيفاً، وإذا أردنا أن نقوم مجمل الإنتاجات الفكرية في الموضوع قلنا بأنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- قسم منها جاد ومؤصل، يأخذ المقاصد بأسبابها العلمية، ويوجهها توجيهاً شرعياً، أي أنه يحافظ على مقاصد المقاصد.

- قسم جاد لكنه أخطأ القصد، تناولها من موقع التناول الجاهز والمباشر، ولم يكلف نفسه عناء الارتواء من علوم الشريعة، وهي وصية إمام المقاصد أبي إسحاق الشاطبي في الموافقات، فإذا كان القسم الأول قد حافظ على مقاصد المقاصد فهذا القسم ضيع وسائل وأدوات المقاصد.

- قسم متطفل ومتهور تسلط على المقاصد من موقع اهتمامات علمية أخرى، فاجتر وأسقط، ونأى واشتط، فقد ضيع روح العلم ولغته، ومقاصده وأهدافه، بل ربما سخر كلامه في المقاصد الشرعية في إلغاء الأحكام الشرعية.

ويأتي كتاب الأستاذ علال الفاسي ليرجع الأمور إلى نصابها.

إن الفائدة العظيمة من الاشتغال بالمقاصد وقراءتها أنها تحدد لك الأهداف وتضبط القصد، وهذا يوفر عليك الجهد والطاقة، ثم إنها تنفي العبثية عن العلم والعمل، وتعلم الأولويات، فتحددها وتساعدك على ترتيبها.

صحيح أن هذا التقديم تختلط فيه ثلاثة عناصر مهمة، الموضوع من جهة، وهو يفرض نفسه بقوة، لا يدرك القارئ قيمة الكتاب ما لم يدرك قيمة العلم الذي يتناوله،

فالكتاب في المقاصد، والمقاصد هي علم مفرد برأسه، له مصادره وأعلامه ومنهجه ومصطلحاته وموضوعاته، والجهل بهذه العناصر هو جهل بحقيقة العلم.

والعنصر الثاني هو المؤلف، ونعني به الأستاذ علال الفاسي عليه رحمة الله، والكلام على هذا الرجل يتطلب استحضار تجربته الخاصة، فللتجربة دور كبير في الصياغة العلمية، وهي تجربة مركبة من تجربة سياسية ودبلوماسية وحقوقية قانونية وعلمية شرعية.

والعنصر الثالث الأستاذ المحتفى به الذي قدم هذا الكتاب في طبعته الحالية، وأستاذ له تجربته الشخصية في خوض غمار موضوع المقاصد .

- المبحث الرابع: علاقة العلم بالأخلاق من خلال كتاب " أخلاق العلماء " للأجري.

هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم هو في موضوع الأخلاق، وموضوع الأخلاق واسع وعريض، لذا اختص هذا الكتاب ناحية من نواحيه ألا وهي «أخلاق العلماء»، والحديث عن أخلاق العلماء ليس بالأمر الهين لأنه يمس النخبة المفكرة في المجتمع، والطبقة الراشدة المستنيرة التي تتولى توجيه الناس وإرشادهم وتعليمهم بغية الرقي بهم من حال الجهل إلى حال العلم، ومن حال التخلف إلى حال التقدم، ومن حال السقوط والتدهور إلى حال القيام ومواصلة السير، ذلك أن تقدم المجتمع أو تخلفه إنما هو رهين بفاعلية علمائه فيه، من هنا يأتي هذا الكتاب لا ليتكلم في علم العلماء ولا في دورهم ولا في مكانتهم بل ليمسهم في نفوسهم، ويعالج مواطن الخلل الكامنة في مخابر ذواتهم، لأن معالجة المخبر من شأنها أن تعين على سلامة المظهر، والله عزوجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَالِكُمْ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾¹.

لذلك قدمنا هذا الكتاب لأهميته والتي تتحدد في المطالب الثلاثة:

¹ - سورة المائدة الآية 105.

المطلب الأول: حاجة العلم للأخلاق

أيهما في أمس الحاجة إلى الآخر، هل العلم في حاجة إلى الأخلاق أم الأخلاق في حاجة إلى العلم؟

الجواب هو أن العلم في حاجة إلى الأخلاق، وما ينقص العلم اليوم سوى الأخلاق، وذلك لفساد نيات أهل العلم، وتدهور أخلاق بعضهم، بل عزوف الكثير منهم عن ممارسة العلم بلا أخلاق ظنا منهم أن الأخلاق غير ضرورية للعلم، والعلم إنما يكتفى فيه بذاته، وليس فيه حاجة إلى غيره، كانت النتيجة المحصلة من ذلك هي أن العقل أصابته الدسمة في مجال العلوم، امتلأ إلى حد التخمة في حين بقي القلب فارغا، وبفراغه من القيم امتلأ بأمراض شتى سنعرض لبعضها، والكتاب عبارة عن مجموعة نصائح وتوجيهات أخلاقية وتربوية مفيدة للعالم وللمتعلم، نسأل الله عز وجل أن ينفع بها.

المطلب الثاني: علاقة الكتاب بصاحبه

قيمة الكتاب بربطه بصاحبه، فصاحبه هو محمد بن الحسين بن عبد الله، المكنى بأبي بكر الأجري، وأجر هو أحد أحياء غرب بغداد، فقيه شافعي ومحدث، ولد قبل سنة ثلاثين ومائتين من الهجرة، وكانت وفاته سنة ستين وثلاثمائة، مات بعد أن عمر ثمانين سنة، وقد أهله عمره هذا إلى أن يصنف في الأخلاق مصنفاً منها: «أخلاق حملة القرآن»، وهذا الكتاب مضمونه غير بعيد عما نحن بصدده، وكتاب «حسن الخلق»، وهو تصنيف مباشرة في الموضوع، وكتاب «أخلاق العلماء»، وهو الكتاب الذي نقدمه، وأعتقد أن كلام الإمام الأجري في موضوع الأخلاق سيصيب هدفه وذلك لتوفر عناصر الكلام العلمي وقواعده في المؤلف، أو لنقل بعبارة العصر: إن للأجري آليات وأدوات للكلام في هذا الموضوع، فهو من جهة فقيه، وهذا الموضوع يشترط الفقه، ومن جهة ثانية محدث، وكثير من أمهات الفضائل والكليات الخلقية والأحكام الشرعية في مجال الأخلاق إنما هي مستوحاة من النصوص الحديثية، والكلام في الموضوع يحتاج العناية الحديثية، لاسيما في القرن الرابع الذي عاش فيه الأجري، واعتقد أن للرجل مكانة علمية في مجال الحديث شهد له بها كل من أخرج له

ترجمة في كتب الجرح والتعديل، بل عنه روى المشاهير مثل أبي نعيم الأصبهاني، ومحمد بن الحسين الفضل القطان، ومحمود بن عمر العكبري وغيرهم، وكان ثقة صدوقاً دِيناً¹.

ثم إنه_ من جهة الثالثة_ زاهد، ورع، تقي، يدلنا على ذلك أنه كان ممارساً للزهد، معتقداً وعاملاً بالتقوى والورع، شهد له بذلك غير واحد، كما أنه أودع في الموضوع مصنفات مهمة، منها كتابه «التفرد والعزلة»، وكتاب «النصيحة»، وكتاب «التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة وما أعد لأوليائه»، وهذه كلها مقومات أساسية للأخلاق وللإسلام عليه، فالزهد والتقوى والورع هي معايير حقيقية لتقويم الزهد وعرسه في النفوس، والرجل لا ينبل في العلم ولا في الأخلاق إلا بهذه المعايير، وهل تستقيم أخلاق العالم بلا تقوى ولا ورع...؟.

المطلب الثالث: محتويات الكتاب

وهي موضوعات الكتاب، فقد استهل الكتاب بمقدمة ذكر فيه فضل أهل العلم على سواهم، منوهاً بمرتبتهم، ومذكراً بفضائل مهماتهم، وقد عزز أقواله فيهم بنصوص من القرآن والسنة.

الباب الأول: خصه بذكر ما جاءت به السنن والآثار من فضل العلماء في الدنيا والآخرة، وكالعادة فإن المؤلف كان يخرج هذه الآثار بأسانيد تختلف درجاتها، فيها الصحيح والحسن وما دون ذلك، وغالبية هذه الأحاديث موجودة في كتب السنة المعتبرة مثل الصحاح والسنن والمسانيد وإن اختلفت ألفاظها في الغالب، وتعددت طرقها إلى الصحابي الراوي، وما يميزها أن الكثير منها جاء مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وفيها الموقوف على الصحابي كأبي الدرداء، وعبدالله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عباس، وغيرهم.

وللأجري على هذه الآثار تعليقات طفيفة جداً من جهة موضوعها، يذكر فيها فضل أهل العلم، وخروجهم لطلبه، وفضل مجالستهم والمذاكرات الجارية بينهم لأن الفضل إنما في التعلم والتعليم جميعاً، وهو من الخير الذي جمعه الله لهم، وختم هذا الباب بقوله: «ولكن قد ذُكرت لهم أوصاف وأخلاق فنحن نذكرها، فمن تدبرها من أهل العلم رجع إلى

¹ - راجع ترجمته في تاريخ بغداد 2/243 رقم 707.

نفسه، فإن كان منهم شكر الله عز وجل على ما خصه به، وإن لم تكن أوصافه منهم، وكان ممن علمه حجة عليه استغفر الله عز وجل، ورجع إلى الحق من قريب»¹.

الباب الثاني: أفرده لأوصاف العلماء، وهو باب جامع لأحوال وصفات كثيرة كلها تليق بمقام العالم، وكل صفة من هذه الصفات تلزمها أخلاقها وأدائها، وهي ضرورية لأنها مرتبطة بالمهمة التعليمية والتعلمية، وهذه الصفات كالآتي:

1- صفة طلب العلم، ولها داعيان: الأول داعي ديني، وهي حين يعلم أن الله عز وجل فرض عليه عبادته، والعبادة لا تكون إلا بالعلم، والثاني أن المؤمن لا يحسن به الجهل، فالجهل يُطرد عن طريق العلم، ومن هذا كله يتبين أن العلم واجب، وأنه فريضة عليه، فعبادة الله كما أراد الله تستلزم معرفة مراده من أحكامه، وما شرعه لعباده، وهذا مدخل العلم.

2- صفته في مشيه إلى العلماء، وهذه لها حالتان: الأولى حين يمشي منفردا عليه أن يكون للقرآن تاليا، أو بالذكر مشغولا، أو يحدث نفسه بنعم الله ليشكره، ويستعيد بالله من شر سمعه وبصره ولسانه ونفسه وشيطانه، أو يختار من هذه الحالات ما يوافق حاله، الثانية: حين يختار الرفيق والصاحب، والصاحب إما أن يكون خيرا وإما أن يكون شريرا، وبما أنه نص على أن يكون ممن ينفع فهم أن الشرير غير مرغوب فيه، والصاحب النافع على حالتين:

- إما أن يكون أعلم وإما أن يتساوى مع رفيقه في درجة العلم، وإما أن يكون دونه، فإن كان أعلم فهذا خير ساقه الله إليه، ليزوده بالعلم ويتعلم من وجوه الخير، وإن كان مثله في العلم تذاكر معه حتى ترسخ معارفه، وحتى لا ينسى، وإن كان دونه فهو خير ساقه الله إليه ليعلمه، فإن أجر التعليم كأجر التعلم.

وفي الحالات كلها عليه بالرفق في المشي إلى أهل العلم، أن يتحلى بالوقار والأدب، لا يرى في مكتسب مشيه إلا الخير، يخاف على نفسه من الانصراف إلى غير الحق، محتاطا من عدوه الشيطان مخافة أن يزين له قبيح ما ينهى الله عنه، مستعيذاً من علم لا ينفع، حافظاً

¹ - أخلاق العلماء ص 68.

للسنن والآثار والفقه، يطيل السكوت عما لا يعنيه حتى يشتاق جليسه إليه، وعليه أن يحاسب نفسه في الحالتين: حالة الإكثار من العلم، وحالة الإقلال منه.

3- صفة مجالسته للعلماء: في هذه الصفة خصال جلييلة منها التحلي بالأدب مع العلماء، والتواضع لهم، وخفض الصوت عند صوتهم، ولا يُقبل بالسؤال إلا بخضوع، مبينا في سؤاله أنه فقير إلى ما يسأل عنه، وأن أمره للدين، فإن استفاد شيئاً شكرهم عليه، وعليه أن يجتنب غضبهم فإن أخطأ في حقهم رجع واعتذر، لا يَضْجُرْهم في السؤال، ولا يكثر معهم الجدل، ولا يماري السفهاء، إن جمع العلم عنهم جمعه برفق.

4- صفته إذا عُرف بالعلم: إذا عُرف بالعلم بين الأنام، واشتهر به واحتاج الناس إليه تخلق بصفة التواضع لثلاثة أصناف: لمن هو أعلم منه، ولمن هو مثله، ولمن هو دونه.

وعليه أن يصون علمه بأن لا يطلب به المنازل العليا، لا يأخذ عليه ثمنا، ولا يستقضي به الحوائج، ولا يهجر الفقراء والمحتاجين إليه، ولا بد لهذا العالم أن يكون له مجلس، فإن كان له مجلس فعليه أن يُلزم نفسه حُسن المداراة لمن جالسه والرفق بمن سألته، ففي المجالس من ذهنه بطيء عن الفهم، وفيهم من يجهل عليه بظلم أو جهل، وفيهم من يخوض فيما لا يعنيه، وفيهم من يتخطى المجلس بسوء خلق وقلة أدب، وهؤلاء يحتاجون من العالم الصبر والحلم والعفة والترفع عن الوقوع في هذه المخازي، وعليه في جوابه على أسئلة السائلين أن يردهم إلى ما يعينهم، وأن يبدي لهم ما جهلوا، لا يعنفهم بالتوبيخ القبيح، ولا يزرهم ليضع من قدرهم، يقبل على من يراه محتاجاً إلى علم يسأل عنه، ويترك من يعلم أنه يريد الجدل والمرء، فيسكت عن الجاهل حلماً وينشر الحق نصحاً، وعليه أن يتجنب الدخول في الخلاف، وألاً يُجيب بما لا يعلم، فإن كان لا يعلم قال: "لا أعلم"، وأن يجيب من الكتاب والسنة والإجماع، وعليه أن يسأل من هو أعلم منه أو مثله حتى ينكشف له الحق، ويحذر من المحدثات في البدع أو المؤدية إلى الوقوع فيها، لا يجالس أهل البدع ولا يماريهم، يأمر بالاتباع وينهى عن الابتداع، لا يجادل العلماء ولا يماري السفهاء.

ومن الصفات التي يذكرها الأجرى في هذا الباب صفة المناظرة، فالمناظرة في أصلها مذمومة لأن العالم العاقل الفقيه المنتفع بالعلم لا يجادل ولا يماري ولا يغالب بالعلم، ولا تكون جائزة إلا اضطراراً لا اختياراً، كأن يناظر أحداً من أهل الزرع ليدفع باطله بالحق وإلا فالقاعدة عند العلماء ألا يجالس العالم أهل الأهواء ولا يجادلهم، وردّ على من علّق التعلم

والتفقه بالمناظرة، واشترطها لحصولها بأن ذلك غير حاصل، فالتعلم والتفقه ليس نتيجة المناظرة، ولا هي سبب في تحصيلهما، وساق في موضوع هذه الصفة أحاديث مسندة مرفوعة، وأخرى موقوفة كلها في ذم المرء والجدل، كما بيّن الزلل الناتج عن المناظرة لاختلاف المذهبين، وتباين اجتهاد الطرفين، يقول في الختم عليهما: «من صفة الجاهل الجدل والمرء والمغالبة، ونعوذ بالله ممن هذا مراده، ومن صفات العالم العاقل المناصحة في مناظرته، وطلب الفائدة لنفسه ولغيره، كثر الله في العلماء مثل هذا، ونفعه بالعلم وزينه بالحلم»¹.

ثم سطر موضوعاً بعنوان: «ذكر أخلاق هذا العالم، ومعاشرته لمن عاشه من سائر الخلق»، كتب تحته كلاماً نفيساً، وخصالاً حميدة، يتعذر تلخيصها أو التصرف فيها، وأنا أوردها بتمامها حتى يحصل النفع بها إن شاء الله تعالى، يقول: «من كانت صفاته في علمه ما تقدم ذكرنا له من أخلاقه - والله أعلم - أن يأمن شره من خالطه، ويأمل خيره من صاحبه، لا يؤاخذ بالعترات، ولا يُشيع الذنوب عن غيره، ولا يقطع بالبلاغات، ولا يُفشي سر من عاداه، ولم ينتصر منه بغير حق، ويعفو ويصفح عنه، ذليل للحق، عزيز عن الباطل، كاظم للغيب عمن آذاه، شديد البغض لمن عصى مولاه، يُجيب السفية بالصمت عنه، والعالم بالقبول منه، لا مداهن، ولا مشاحن، ولا مرء، ولا مختال، ولا حسود، ولا حقود، ولا سفيه، ولا جاف، ولا فظ، ولا غليظ، ولا طعان، ولا لعان، ولا مغتاب، ولا سباب، يخالط من الإخوان من عاونه على طاعة ربه، ونهاه عما يكره مولاه، ويخالق بالجميل من لا يأمن شره إبقاءً على دينه، سليم القلب للعباد من الغل والحسد، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر، لا يحب زوال النعم عن أحد من العباد، يداري جهل من عامله برفقه، إذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل، لا يتوقع له بائقة، ولا يُخاف منه غائلة، الناس منه في راحة، ونفسه منه في جهد»².

بهذا الكلام الحلو الذي يقع في النفس موقع القبول، والذي هو بمثابة الميزان يزن فيه كل عالم في أي عصر كان نفسه ينتقل الآجري إلى ذكر أخلاق أخرى للعالم، لكن هذه المرة فيما بينه وبين ربه عز وجل، علاقة العالم مع ربه هي أعظم علاقة، وأقوى صلة، فإذا تحلى

¹ - أخلاق العلماء ص 87

² - أخلاق العلماء ص 88-89.

العالم في علاقته بربه بالأخلاق الحميدة والآداب الربانية الشريفة تحسنت سائر علاقاته، وكانت كلها تجري له بتوفيق من مولاه الكريم، بحيث يصبح «وارث علم الأنبياء، وقرّة عين الأنبياء، وطبيب لقلوب أهل الجفاء»، ومن الصفات التي ذكرها الآجري له: الشكر، والذكر، والمنجاة، والاستغناء بالله والافتقار إليه، ومحاسبة النفس، ومراجعتها كلما زاد علماً، الفهم عن الله مراده من كتابه وعن رسول الله ﷺ مراده من سنته، والتأدب بالقرآن والسنة، عدم منافسة أهل الدنيا في عزهم، والمشي على الأرض هوناً، بهذا يكون بالله متصلاً، وعمّا يزاحمه فيه منفصلاً، وقد عضد الآجري كل هذا بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث مسندة إلى الصحابة والتابعين، بعضها في تفسير بعض الآيات، والبعض الآخر - وهو الغالب - عبارة عن وصف لأهل العلم، وعمّا يراد منهم ويطلب منهم، والعالم الورع هو الذي يدرك - بعلمه - أن علمه عليه لا له، وأنه محاسب عليه يوم يخلو به ربه فيسأله عنه، وموضوع سؤال الله تعالى لأهل العلم عن علمهم ماذا عملوا فيه هو الذي جعل الآجري يفرد برأسه في باب مستقل أخرج فيه حديثاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ، اختلفت طرقه ومخارجه إليه، وأوله حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»¹، ثم أخرج في الموضوع آثاراً موقوفة على ابن مسعود، وأبي الدرداء، وعائشة أم المؤمنين، كلها في التذكير بسؤال الله تعالى للعلماء عن العلم، وفي حثهم على العمل بالعلم والإنفاق منه والاتعاظ به.

ونجد في كتاب «أخلاق العلماء» كتاباً آخر مُضمناً فيه، وهو بعنوان: «أخلاق العالم الجاهل المفتتن بعلمه»، وأظن أن المؤلف أفردته مستقلاً لأن موضوعات ما تقدم هي غير موضوعات هذا الكتاب، فتلك في فضل العلماء وأوصافهم الكثيرة المحمودة وهذه في أخلاق العالم الجاهل المفتتن بعلمه، هذا النوع من العلماء لم ينتفع بالعلم لأنه طلبه للفخر والرياء والجدل والمرء، وساقه إلى غير وجهته، فهذا الذي وصفه المصنف بأنه: «ينسب نفسه على أنه من العلماء، وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجفاء، فتنة لكل مفتون، لسانه لسان العلماء، وعمله عمل السفهاء»²، وساق في التدليل على ذلك أحاديث مسندة مرفوعة، منها

¹ - أخرج الآجري من حديث معاذ في ص 99، والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل ص 18 حديث رقم 3.

² - أخلاق العلماء ص 104.

ما أخرجه بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «من تعلم علماً لغير الله، أو أراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من النار»¹، وما أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه - مرفوعاً: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتجتروا به المجالس، فمن فعل ذلك النار»²، ومن حديث كعب بن مالك عن أبيه مرفوعاً: «من طلب العلم ليحاري به العلماء، ويماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»³، ومن حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه»⁴، وأخرج في الموضوع شواهد كثيرة، وأثار عديدة كلها في ذم العلماء الجهال الذين افتتنوا بعلمهم ففتنوا غيرهم من العباد، وفرق الفضيل بن عياض بين عالم الدنيا وعالم الآخرة. فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، وأوصى باتباع عالم الآخرة مهتدياً في ذلك بقوله تعالى: «إن كثيراً من الأحرار والرهبان لياكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله»⁵، وروى عن الفضيل قوله: «العلماء كثير والحكماء قليل، وإنما يراد من العلم الحكمة، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً»⁶، وعلق الأجرى على ذلك مبيناً أن من العلماء قلة قليلة صانت علمها عن الدنيا وطلبت به الآخرة، وكثير منهم قد افتتنوا بعلمهم، إلا أن الحكماء منهم من طلبوه للآخرة، وأخرج من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»⁷، ثم أتبعه بروايات مسندة إلى الصحابة والتابعين كلها تكشف عن عيوب أهل العلم كعدم صيانتهم، وذلك ببذله لغير أهله وفي غير موضعه، والتعير به، وافترض بعد ذلك سؤالاً لسائل يطلب منه وصفاً جامعاً للأخلاق المشينة، والعيوب الممقوتة التي يتصف بها العلماء الذين علمهم حجة عليهم، وإنما طلب السائل بيانها للاعتبار حتى إذا ظهرت

¹ - أخرجه الأجرى في كتابه ص 99، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، 595/4 رقم الحديث 2846 وقال: " هذا حديث حسن غريب... "، طبعة بيت الأفكار.

² - أخرجه الأجرى من حديث جابر مرفوعاً ص 105، وانظر المستدرک علی الصحیحین للحاکم 86/1.

³ - أخرجه الأجرى في كتابه ص 105، والترمذي في سننه 595/4 رقم الحديث 2845.

⁴ - أخرجه الأجرى في كتابه ص 107.

⁵ - سورة التوبة آية 34

⁶ - أخرجه الأجرى في كتابه ص 111.

⁷ - أخرجه الأجرى في كتابه ص 111، والحاكم في المستدرک 85/1، كتاب العلم، وقال: " هذا حديث صحيح، سنده ثقات، رواه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ".

تُجتنب، لأنها فتنة أصابتهم فلا ينبغي أن تصيب غيرهم، وهو من النصيحة التي أمر بها الشرع، فبادر إلى الجواب، معددا لمجمل الرذائل في عبارة جامعة مانعة تصدى لها فيما بعد بالشرح والبيان، وكانت طريقة شرحه مستوحاة من نصوص وأثار أوردها لكل خصلة مذمومة، من هذه الأوصاف ما يلي:

- أن يتجمل بالعلم، ولا يجمل العلم بعمله، يسرع إلى العلم الذي يشهر به بين الناس، ويكثر منه ليُعرف أنه من أهل العلم، أما العلم الواجب عليه فيما بينه وبين ربه فيتثاقل في تحصيله، وهو إليه فقير، فيكون قد أزم نفسه السماع للعلم الذي يتباهى به، ولا يلزم نفسه العمل به، وهو المطلوب.

- ينفق العلم للرياء، ولا يزيد منه إلا للمباهاة والتصنع.

- يُحاجّ به للمراء، ولا يتورع أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، خوفاً إن قال: لا أعلم، قال له شيطانه إن الناس قد هجروك لأنك لا تعلم، يقول الآجري في هذه النقطة: «وهذا طريق أئمة المسلمين، من الصحابة ومن بعدهم من أئمة المسلمين، اتبعوا في ذلك نبيهم ﷺ لأنه كان إذا سُئل عن الشيء مما لم يتقدم له فيه علم الوحي من الله عز وجل فيقول: لا أدري، وهكذا يجب على كل من سُئل عن شيء لم يتقدم فيه العلم أن يقول: الله أعلم به، ولا علم لي به، ولا يتكلف ما لا يعلمه، فهو أعذر له عند الله، وعند ذوي الألباب»¹.

- يناظر لأجل أن يُعرف بالبلاغة، وجودة الأسلوب والفصاحة.

- غرضه دائماً أن يُخطئ غيره سواء أكان مناظره مصيباً أم مخطئاً، إن كان مصيباً ساء ذلك، وإن كان مخطئاً تباهى بذلك.

- يسره ما يسر الشيطان، ويكره ما يحب الرحمن.

- إذا ناظر وأخطأ احتج على خطئه، فخطؤه صواب، وصواب غيره خطأ، يعرف أنه مخطئ ويصر عليه، يجادل في ذلك ولا يُقر به خوفاً من أن يُدّم على خطئه، وزين له الشيطان أنه إن دُمّ نزلت مرتبته، وسقطت هيئته.

¹ - أخلاق العلماء ص 128.

- الفتوى عنده أنواع، وأحكامها ألوان، يشدد على البعض، ويفرق للبعض، يذم البعض ويحب البعض، قال علقمة: «أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علماً»¹.

- لا يعطي العلم إلا لغرض يصيبه في الحين، وإذا أعطاه مرة بلا مقابل فذلك غبن حاك في صدره، وهزيمة نكراء تلقاها في علمه، وهو هنا لا يلدغ من الجحر مرتين.
- في دعائه غريب وعجيب، يطلب من الله التوبة بلا إقلاع، ويرجو ثواب علم مالم يعمل به.

- يدفع بمناكبه ليذكر من أهل العلم، ويشق عليه أن لا يُسأل كما سُئل أهل العلم عن المسائل، وكان أولى به أن يحمد الله إذ لم يُسأل إن كان غيره كفاه، وإذا بلغه أن أحداً من العلماء أخطأ فرح بخطأ غيره وربما شتّع عليه، وإن كان غيره قد أصاب في فتواه ساء ذلك وربما التمس تخطئه بما يعلم من البضاعة المختلف في حصتها أو قابلية للتأويل.

- وودَّ لو أن كل العلماء ماتوا ليبقى وحده ليجتاح الناس لعلمه، وإن كان في علماء المسلمين من هو أعلم منه نفر الناس منه، وتحاشى الالتقاء به، وربما كره حياته وألَّب عليه.

- مغرور ببضاعته المزجاة، مفتون بحب الدنيا والثناء والشرف والمنزلة، فالعلم عنده للتجميل، يتجمل به كما تتجمل الحسناء للدنيا، وهو في مقابل هذا كله يبدو نقيض نفسه مع الفقراء والمساكين وطلبة العلم، يتكبر عليهم بأن يحرمهم من العلم، ويزهد في الجلوس إليهم، والتحدث معهم، ويظن إن فعل ذلك تلطخ بهم، ونزلت مرتبته، وانحدرت سمعته...

يقول الآجري: «من تدبر هذه الخصال فعرف أن فيه بعض ما ذكرنا وجب عليه أن يستحي من الله، وأن يسرع للرجوع إلى الحق»².

- أن يكون أكبر همه المعاش وجمع المال، لا تجده في مكان يعطي فيه العلم إلا وفيه مُقابل، فهذا قلبه مشغول بالدنيا وبزخرفها لا بالعلم ومعايشة من يستحقه، تجده يحرص، ويتعب، ويرحل، وينصب لكن في طلب الدنيا، وإذا طلب الآخرة فبالتسويق والمنى، قلبه

¹- المرجع السابق.

²- المرجع السابق.

دائما مضطرب، ومشتغل بالمال والأولاد والعيال وقد غابت منه الطمأنينة، وذابت منه السكينة.

- فرح بما آتاه الله من الدنيا، بل تجده منافسا لغيره فيها، ناسيا شكر الله تعالى.
 - مغتم بالمصائب، ولو كانت هينة، فشغلته عن الرضا عن الرب، دائم الشكوى للعباد أكثر من الله، ملتجأ في حلها إلى أصحابه المفضلين، لا يطلب من ربه الفرج إلا إذا أيس من الخلق، فإن طمع في دنو إلى مخلوق نسي مولاه.
 - يُسرف في كرم الأعيان، ويبخل عن إطعام الفقراء والمساكين، ولا يكرم الأولين إلا طمعا في جاه، أو حبا في سلطة.
 - يكثر في مدح من أسدى إليه القليل وينسى ربه، ويكثر من دم من يبغضه.
 - يقطع في الأحكام على الغير بالظنون، ويُحقق بالتهم، ويكثر من فضول القول.
 - إذا مرض فهو نادم ذاكراً، مظهر للتوبة، معاهد على ألا يعود، وإذا شفي انقلب على عقبيه كأن لم يمرض بالأمس.
 - لذته في إطفاء نار غيظه ولو أسخط الرب.
 - دائم في مقارنة نفسه بمن فوقه في النعم فيستثقل نعمة الرب، ولا يقارن نفسه مع من هو دونه فيشكر الرب.
 - صلاته دائما في مؤخرة عن الوقت، وإذا قام قام كسولا، وإن صلى صلى لاهيا، غير متخشع ولا معظم لمولاه، وإذا أطل الإمام ذمه، وإذا خفف اغتتم خفته وحمده.
- فهذا مصاحبته شؤم، ومجالسته لؤم، وهو الذي حذر منه النبي ﷺ بقوله: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه»¹، وفي حديث آخر: «اللهم إني أعوذ بك من الأربع: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يُسمع»².

¹ - أخرجه الأجرى من حديث أبي هريرة ص 107، وهو ضعيف.

² - أخرجه الأجرى في كتابه ص 136-137، والحاكم في المستدرک 104/1، وقال: " هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه".

خلاصة:

يجدر بنا في نهاية تقديم محتويات الكتاب أن نسجل ملاحظتين، الأولى معرفية والثانية منهجية.

من الناحية المعرفية فالكتاب يقدم ثروة من التوجيهات والنصائح التربوية لصنفين من أهل العلم: صنف المتعلمين، وهم طلبة العلم، طالب العلم الذي يطمح في يوم ما ليكون عالما، فإذا تزود واستقام كان هذا عوناً له بأن لا يشتغل في حال كونه عالماً بنفسه، فما أكثر العلماء المشغولين بأنفسهم قبل انشغالهم بأمراض وانحرافات غيرهم، والصنف الثاني العلماء، فقد كان المؤلف في هذا الكتاب مربياً للعلماء، ناقداً لهم، واعظاً إياهم، وهي أمور لا يقدر عليها إلا العالم المتمكن، لا يقارع العلماء إلا العالم، ولا يربيهما إلا من هو مثلهم أو فوقهم، وقد تفوق في ذلك.

أما الناحية المنهجية فقد مكنه تمكنه من الفقه والحديث والزهد إلى الدفع بالحديث النبوي الشريف إلى معالجة الظواهر المرضية والنفسية، وهذه الظواهر هي أمراض نفسية قاتلة لشخصية الإنسان قبل أن تكون قاتلة لعلمه، ويمكننا باستقراء بسيط أن نحدد أصنافاً كثيرة من الأمراض التي تصيب أهل العلم بصفة خاصة، تتبدى الرؤية المنهجية في معالجته لهذه الظاهرة بالحديث الشريف، هذا الحديث الذي يخرج به بسنده مرفوعاً أو موقوفاً، وهذا يكشف على المهمة العلمية التي يقوم بها الحديث في مختلف مجالات المعرفة والحضارة والمجتمع.

الفصل الثاني:

دراسات مكتبية في اللغة والأدب

ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: التعريف بحركة التأليف والتصنيف في اللغة والأدب
- المبحث الثاني: دراسة مكتبية حول ابن الحاجب والشافعية.

المبحث الأول: التعريف بحركة التأليف والتصنيف في اللغة والأدب

تقديم:

نسى من خلال هذا المبحث إلى التعريف بحركة التأليف والتصنيف في الأدب، والمقصود بحركة التأليف والتصنيف الموضوعات الأدبية بصفة عامة والكيفية التي قُدمت بها، لم نبتعد كثيرا في بحث هذا الموضوع عن المصادر والمراجع التي تناولته، إيماننا منا أن المادة واحدة، وحقيقتها واحدة، ولذلك لا نسأم من الاعتماد على مراجع جامعة، نذر مصنفوها أنفسهم لبحث الموضوع من زوايا الهامة، والاعتماد كذلك على دراسات أخرى قاربت نفس الموضوع أو تخصصت في بعضه، كما أن هذا لا يُغني عن الرجوع إلى بعض المصادر الأصلية للمادة العلمية التي تسعف في بحث الموضوع.

تُحتم علينا الدراسات المكتبية ولوج عالم المكتبة الأدبية والدراسات حولها لتحقيق الصورة العامة لطابع المعرفة الإسلامية، حاولتُ هنا أن أقدم الحقيقة العلمية كما تُقدم من دون الدخول في المقارنة بين الرواية الأدبية والرواية الحديثة، وخصوصية الترجمة لأعلام الأدب والشعر وخصوصية الترجمة لأعلام الحديث، والفرق بين المصطلحات المتداولة في حقل الرواية الأدبية والرواية الحديثة، هناك تشابه في بعض الموضوعات والمصطلحات وهناك تباعد في أخرى وهي كثيرة، ومهما كان هذا التباين فإن المعرفة الإسلامية تجمعها كلها، كما أن حاجة الأدباء لعلم الحديث وحاجة علماء الحديث وغيرهم للأدباء هي الدافع الأساس لبحث هذا الموضوع، وفيما يلي محاوره:

المطلب الأول: منهجية التأليف في المجموعات الشعرية القديمة

الفرع الأول: الرواية والتدوين في الجاهلية وصدرا الإسلام

1- الرواية في الجاهلية:

للشعر العربي مزايا عديدة للثقافة العربية والإسلامية والإنسانية، فهو "مادة تراث الجاهليين" لأنه يشكل ثقافتهم ومجمل معارفهم، لذلك فهو يعكس الخصوصية الجاهلية في كل شيء، ما من خصوصية جاهلية أو ظاهرة أو ثقافة إلا ويعكسها الشعر الجاهلي، فالعرب كانوا يجسدون مختلف حالاتهم بالشعر مدحا وقدحا وغزلا وورثاء وفخرا ووصفا، فهو من هذا الوجه مفيد للأدباء والشعراء في كل عصر، ومن جهة ثانية هو مفيد للغويين الذين

يبنون عليه فهم طبيعة اللغة العربية من حيث المبنى والمعنى، ومن حيث التاريخ والتطور، وهو مفيد من جهة ثالثة للثقافة الإسلامية، فالقرآن الكريم أنزل باللفظ العربي، وقد تمت الاستعانة بالشعر العربي في شرح وتفسير مفردات الكتاب العزيز، حتى جعله المفسرون مصدرا من مصادر التفسير، كما تمت الاستعانة به في شرح الحديث النبوي الشريف، وبما أن الشعر الجاهلي هو "ديوان العرب" فقد أصبح محطة للباحثين والدارسين من مختلف الأجناس في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأديان والفلسفات.

كان الشعر العربي في العصور القديمة يتناقل شفاهيا وخاضعا لطريقة الرواية التي كان يشارك فيها الفرد والجماعة، فكان للشاعر راو إلى جانب رواة من القبيلة، هؤلاء يروون شعر شعراء القبيلة، وما يتصل به من مآثر وأخبار¹، ومعروف أن الشاعر المبتدئ يخضع للتلمذة، فيتربى في صنعة الشعر على يد شاعر آخر الناشئ أرسخ منه، فيأخذ منه ويروي عنه، «وقد روى المؤرخون أن الحطيئة - الشاعر الهجاء المخضرم المعروف - كان راوية الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى وابنه كعب، وأن زهيراً هذا كان راوية زوج أمه الشاعر الجاهلي التميمي الكبير أوس بن حجر، ويروي المؤرخون أن كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، الشاعر العذري الإسلامي المشهور بكثير عزة كان راوية لجميل بن عبد الله بن معمر العذري المعروف بجميل بثينة، وأن جميلاً هذا كان راوية لشاعر عذري اسمه هدبة بن خشرم كان هو بدوره راوية للحطيئة»².

لعل السبب في هذا هو أن العرب كانوا أميين، وأن الأمية - كما يقول الدكتور عبد المجيد المسلوت- كانت تلفهم لفا عميقا، وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾³.

«فالقرآن وصف العرب بأنهم أميون، لا يعتمدون في حياتهم على كتابة ولا يستندون في أمورهم إلى تدوين، يقول مجد الدين الفيروزآبادي في معجمه القاموس المحيط: «يقال للأمر

¹ - منهج البحث الأدبي عند العرب للدكتور أحمد جاسم النجدي ص 13.

² - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان - رواة الشعر - 91/1، وحركة التأليف عند العرب لأمجد الطرابلسي ص 92.

³ - سورة الجمعة الآية 2.

الأمة، والأمة والأمان: من لا يكتب، أو من على خلقة الأمة لم يتعلم الكتاب وهو باق على جبلته»¹.

يقول مصطفى صادق الرافعي: «كان العرب أمة أمية لا يقرؤون إلا ما تخطه الطبيعة، ولا يكتبون إلا ما يلقنون من معانيها، فيأخذون عنها بالحس ويكتبون باللسان في لوح الحافظة، فكان كل عربي على مقدار وعيه وحفظه: كتابا أو جزءا من كتاب، وكانت كل قبيلة بذلك كأنها سجل زمني في إحصاء الأخبار والآثار»².

ويقول أيضا: «كان العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظا، وأتمهم حافظة، وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي ومن ثم نشأ فهم الأخذ والتحمل، فكان كل عربي بطبيعته راويا فيما هو بسبيله من أمره وأمر قومه»³، ومن هنا جاء وصفهم بالأمية التي نبتت معهم، وعاشت في أكنافهم، وصارت في حلبة التاريخ عنوانا عليهم، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا»، يعني مرة تسعا وعشرين ومرة ثلاثين⁴.

يقول سليمان البستاني في سلسلة الروائع: «وإذا طالعت أخبار الشعراء المترجمين في كتاب الأغاني وغيره رأيت بعضهم كهوميروس أميين، لا يقرؤون ولا يكتبون، بل ربما احتاج أبلغهم إلى قارئ صغير كما فعل طرفة بن العبد والمتلمس أثناء شخوصهما إلى عمرو بن هند ملك الحيرة إذ اضطر إلى استرضاء غلام حدث ليقرأ لهما كتابا، وكلاهما من فحول الشعراء، وهؤلاء المعلمات والمجمهرات والملحقات كل فريق كبير منهم أميا»⁵.

ولحرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن تتمكن في المسلمين صنعة الكتابة جعل فداء الأسير الكاتب بعد غزوة بدر تعليم عشرة من المسلمين الكتابة⁶، لكن وجود كتابة وكتاب في عصر الجاهلية كان أمرا ناذرا لا ينفي عنهم صفة الأمية، ومن أجل ذلك كان

¹ - نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ص 5.

² - تاريخ آداب العرب 332/1.

³ - المرجع السابق 233/1.

⁴ - الحديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر في كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال...759/2 رقم الحديث 1080.

⁵ - أنظر نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ص 8.

⁶ - أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عباس 92/4 حديث رقم 2216، حسنه شعيب الأرنؤوط.

اعتمادهم على الذاكرة حتى بعد أن شاعت الكتابة، يقول البستاني: «أما مبلغ الذاكرة عندهم فمما لا يفوقه شيء في أخبار اليونان والرومان والإفرنج، وفي أخبارهم مما لو حذف منه شيء كثير لربما باقيه على مرويات اليونان قديمهم وحديثهم، فإذا علمت أن أبا العلاء المعري سمع محاوراة إسرائيليين بالعبرية وهو في شأن غير شأنهما، ثم طلب بعد مدة مديدة للشهادة فأعاد تلك المحاوراة وهو لا يفقه من العبرية حرفاً، إذا علمت ذلك فما ظنك فيما تعي ذاكرته من الشعر لو توخى الحفظ، وإذا قيل لك إن الإلياذة مؤلفة من زهاء ستة عشر ألف بيت، فيصعب الأخذ بأقوال القائلين أنه أمكن استظهارها، فما بالك لو سمعت ما ذكروا عن حافظة غرائب حماد الراوية، إذ امتحنه الوليد بن يزيد¹، ووكل به من يسمع إنشاده فأنشد اتباعاً ألفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية، أو لو قيل لك أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة كاملة، ما خلا القصائد والمقاطع، وأخبار العرب بدوهم وحضرهم، وهذا قول مهمما أنس فيه من المبالغة لا يخلو من صحة، بعضها كاف لصحة ما نتوخاه»²، نعم، كانت هناك كتابة، وظهر في أشعار العرب ما يدل على أنهم عرفوا الكتابة³، «ولا ننكر أن العرب كانوا يكتبون، ولكن الصبغة الغالبة عليهم والسمة البادية فيهم هي الأمية، وقد كان النبي «أمياً» في قوم أميين، ولم تشع فيهم الكتابة ولم يتحولوا إلى كاتبين إلا بعد أن جعلهم الإسلام دولة لها نظامها في سلمها وحررها، ولها دواوينها وإداراتها، ولها خراج يُجبي إلى بيت المال، ويُحصى ثم ينفق ويوزع، وهكذا جاءت الكتابة عامة مع الاستقرار والنظام»⁴.

لكن الأهم من هذا كله هو أن الكتابة لم تستعمل في تدوين الشعر وحفظه ونشره ونقله، ولم يكن الشعراء يكتبون حتى أشعارهم، وكانت قبائلهم هي الحريضة على جمعه وتخليده، ولم يكن الاهتمام جارياً بكتابة القصائد إلا بالمعلقات التي تتوفر فيها شروط التعليق والتي رواها مؤخرًا حماد الراوية، تلك التي اصطالحوا على تسميتها بـ " الشعر

¹ - وهي تذكرنا بامتحان الصحابي الجليل أبي هريرة من طرف مروان بن الحكم وقاضيه أبي الزعيرة حين امتحنوه في الضبط، انظر القصة في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة ص 201.

² - البستاني في ترجمة الإلياذة ص 22.

³ - نظرية الانتحال في الشعر ص «9-13».

⁴ - المرجع السابق، وللتفصيل في الموضوع راجع كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الفصل العشرون بعد المائة: أمية الجاهليين 91/8 وما بعدها.

الحوالي المحنك" ¹، أو " الشعر المصنوع" ² ومن بين شروطهم في التعليق كما يقول ابن خلدون: " من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات" ³.

يقول الدكتور عبد المجيد المسلوت: «ومن هنا نستطيع أيضا أن نقول: إن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا قد حفظه من الضياع وصانته من الاندثار:

أ- الرواة الثقات الذين كلفوا به، وتعشقه فاحتضنوه وأذاعوه، وأقبلوا عليه بكل ما فيهم من شغف ونهم، ينشدونه في كل مجتمع، ويتعصبون له ولقائله.
هؤلاء الرواة كانوا الأساتذة المعلمين الذين يثقفون العقول، ويهذبون الألسنة، ويصححون الأخطاء، ويقومون بالمنطق، ويخلقون الشعراء.

ب- وحفظ الشعر كذلك تلك القبائل التي كان ينسب إليها الشعراء والتي كانت ترى أن حفظ الشعر وإنشاده ومكاثرة القبائل به عز لا يطاول ومجد لا يضاهاى .

وكان نشر الشعر إذن يعتمد على الرواية لا على الكتابة، وكانت الرواية شائعة عندهم لأنها في منطقتهم الحياة الأداة الوحيدة التي يسهل اللجوء إليها والاعتماد عليها، أما الكتابة فكانت لا شك لو لجأوا إليها تقتضهم مشقة وجهدا لا سبيل إلى التغلب عليها» ⁴.

2- التدوين والرواية في صدر الإسلام:

أ- أثر الإسلام في الشعر

جاء الإسلام بدعوته السامية، وسلمه الهادي الجميل، وجده وصدقه وصلاحه، جاء الإسلام بأدب القول وأدب النفس وخلق المعاملة، جاء لمقت الطيش والسفه وبذاءة اللسان

¹ يرى الجاحظ أن الشعراء كانوا يتصنعون في الشعر، ومن ذلك الحوليات أو المعلقات أو المحكمات أو المنقحات، ولذلك قال الحطينة " خير الشعر الحولي المحنك"، انظر نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ص (15-18).

² أنظر كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الفصل الخامس والخمسون بعد المائة، الشعر المصنوع 355/9 وما بعدها.

³ مقدمة ابن خلدون، الفصل التاسع والأربعون في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر، ص 581. وسميت بذلك لأنها كانت تكتب وتعلق على أستار الكعبة. وسميت بالمذهبات لأنها كانت تكتب بماء الذهب، وسميت أيضا بالحوليات لكونها كانت تخضع لشعر الصنعة.

⁴ نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ص 22-23. وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الفصل الثامن والخمسون بعد المائة: المعلقات السبع 506/9.

وفحش المنطق، فأمر بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول تعالى: ﴿إِذْ دَخَلْنَا فِي سُرِّيٍّ مِنْ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَاءَ لِقَمِّهِمُ اللَّيْلُ نَهْرًا أَحْسَنًا﴾¹.

وحدد الإسلام موقفه من الشعر، فعدل بعضه، وأقر بعضه ونهى عن بعض، وفي
السنة الصحيحة أحاديث كثيرة في هذا الشأن.

يقول الدكتور عبد المجيد المسلوت: «ومن هذا نرى أن الشعر لم يُغفل أبدا في صدر
الإسلام، وإن كانت الشواغل الصارفة والعظائم الكثيرة قد حالت بين الناس وبين الانقطاع
لروايته أو الاهتمام بكثرة إنشاده وإذاعته لأن أمامهم أعظم معجزة بيانية تغزو القلوب
وتأسر الألباب وتملك الأسماع وهي القرآن الكريم، وأمامهم كذلك بلاغة أسرة تتدفق من
إمام البيان والبلغاء وهو الرسول الأكرم صلوات الله عليه»².

وقد وجد رواية كثيرون كانوا يروون جيد الشعر العربي مهما اختلف قائلوه، وقد ذكر
المؤرخون عددا من هؤلاء المشاهير مثل مخرمة بن نوفل وهو صحابي عالم بالأنساب، راوية
للشعر، كف بصره في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتوفي في زمان معاوية بن أبي سفيان، وإلى
جانبه عقيل بن أبي طالب، شقيق علي بن أبي طالب، كان عالما بالأنساب قريش وأخبارها، وإلى
جانبهم عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، الملقب بحبر الأمة وبحرها، كان قوي
الحفظ، حاد الذاكرة، واسع الثقافة، متضلعا في الفقه والتفسير والأنساب والشعر وأيام
العرب، وكان كثيرا ما يوزع أيامه على هذه الاختصاصات المختلفة، فيجعل يوما للفقه،
ويوما للتأويل، ويوما للمغازي، ويوما للشعر، ويوما لوقائع العرب³.

¹- المرجع السابق ص 125، والآية من سورة النمل رقم 135

²- المرجع السابق ص 30.

من ذلك أن بعض الشعراء لما أسلموا قل قولهم للشعر، ومن هؤلاء لبيد فإنه لما دخل إلى الإسلام لم يقل إلا بيتا أو
بيتين، وقد بعث إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب إليه بعض شعره فبعث إليه لبيد بسورة البقرة في صحيفة
قائلا: " ما كنت أقول شعرا بعد أن علمني الله سورة البقرة " أنظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ص
75.

³- أنظر تاريخ آداب العرب للرافعي ص 340، ونظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب ص 92-
93.

ب- نشاط الرواية في عصر التدوين:

طوال القرن الهجري الأول وخلال الفتوحات الكبرى بقي الشعر العربي يتناقله الرواة من جيل إلى جيل، جاء القرن الثاني الذي عرف عنه أنه عصر توقف الفتوحات، لكن عرف عنه أيضا أنه عصر الاستقرار والتشييد الحضاري حيث حلت القوة الفكرية مكان القوة العسكرية، وأصبحت القوة الفكرية تستجمع جهودها كي تجمع الآثار المفارقة، وتبحث عن التراث الضائع، وتنظم وتبويب وتدون في كل فن وعلم، فلم يبلغ القرن الثاني غايته حتى كان التدوين قد بلغ أشده، ويشير الدكتور أحمد جاسم النجدي إلى أن فترة نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية هي فترة أوصلت العرب المسلمين بمحض مجهوداتهم الثقافية والعلمية المتعددة إلى خطوات علمية منظمة في البحث والتأليف، توحدتها التجربة المستمرة والتفكير العقلي المنظم، نمت هذه الخطوات وتطورت عبر الزمن حتى أصبحت قواعد ومبادئ مسلم بها مكونة بالضرورة ما نسميه في المصطلح الحديث "مناهج البحث"¹.

لقد اهتم فريق من العلماء في القرن الثاني والذي تلاه إلى الاعتناء بتراث العرب الشعري سيما الجاهلي منه فجمعوا ما تفرق منه، وحاولوا إنقاذ ما تبقى في الصدور بعد أن أتى ضرام الفتوح على قسم جليل منه، فعلاوة على القيمة الفنية للشعر العربي فإنه كان مادة لا غنى عنها لكثير من العلوم، وقد روى ابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين" أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"، ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"²، يقول ابن سلام: "فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوها بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا - أي لم يرجعوا - إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وقد ألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير"³.

ومن أشهر الرواة المهتمين بالشعر العربي:

¹ - منهج البحث الأدبي عند العرب ص 5.

² - نقله ابن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعراء ص 24.

³ - قول لابن سلام منسوب للصحابي الجليل عمر بن الخطاب، أنظر طبقات فحول الشعراء ص 25.

- أبو عمرو بن العلاء: وهو أستاذ الرواية في هذا المجال، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء المشاهير، يصفه أبو عبيدة بأنه كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية، ولد في مكة، وعاش في البصرة، وتوفي في الكوفة نحو سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة، يقال بأن الرجل أحرق كل كتبه في أواخر حياته وانصرف إلى مدرسة القرآن الكريم¹.

- المفضل الضبي: وهو صاحب المفضليات، من أشهر رواة الكوفة، توفي نحو سنة ثمان وستين ومائة، ويرجح الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون في تحقيقهم للطبعة الأخيرة من "المفضليات" أنه توفي سنة ثمان وسبعين ومائة².

- خلف بن حيان الأحمر البصري: وهو راوية مشهور، عرف بأبي محرز، خراساني الأصل، بسط له جواد علي ترجمة مليحة في كتابه المفصل³، ووصفه الرافعي فقال: «وامتاز خلف بقول الشعر وإحسانه وإجادته، ومن ثم كان ينحل الشعراء المتقدمين ذهاباً بنفسه واعتداداً بما تطوع له، حتى لا ينزل عن الطبقة التي يقارن بها، ومن ثم كان ينحل الشعراء، وكان أيضاً أعلم الرواة بالشعر ومعانيه ومذاهب الشعراء فيه، ثم هو معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة، وقد أجمعوا على أنه أفرس الناس ببيت الشعر، وكان علماؤهم لا يتكلمون في الشعر ونقده ما لم يكن حاضراً، ولا يراجعونه في قول إن قال، وفي رأي إن رأى»،⁴ كانت وفاته سنة ثمانين ومائة للهجرة.

- حماد الراوية: اشتهر بكثرة الرواية حتى لقب بـ "الراوية"، وقد طعن عليه في روايته كثيراً، شاهد ذلك القصة التي رواها ياقوت الحموي في ترجمته وكيف أبطل الخليفة المهدي رواية حماد لزيادته في أشعار الناس، وصحح له بعض المرويات، يقول ابن الأعرابي: «سمعت المفضل الضبي يقول: قد سُلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده، فلا يصلح أبداً، فقليل له: وكيف ذلك؟ أخطئ في رواية أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء

¹ - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 95-96.

² - المرجع السابق ص 95.

³ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 321/9 وما بعدها.

⁴ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 317/9-318، تاريخ آداب العرب للرافعي ص 347.

ومعانهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟¹
توفي حماد سنة خمس وخمسين ومائة للهجرة المحمدية

- إلى جانب هؤلاء جميعا عبد الملك بن قريش الأصمعي، وأبو زيد الأنصاري، وابن سلامة الجمعي، وأبو سعيد السكري، وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن حبيب، وعلي بن عبد الله الطوسي، وابن السكيت، وثعلب الكوفي، وغيرهم.

ويتأسف الدكتور أمجد الطرابلسي من أن تكون خالطت هذه الحركة النزوية النشيطة بعض النوازع المذهبية والعنصرية والسياسية والقبلية والشخصية²، لكن يجب ألا ننسى أن اختلاط الزيف بالصحيح أحيانا لا يؤثر على الصحيح لأن من عادة الزيف الدخيل أن يكون أقل من الصحيح الأصيل، ويجب ألا ننسى كذلك أنه إذا وجد بين الرواة عدد قليل ممن أعمتهم غاياتهم ومنافعهم عن الأمانة العلمية فقد وُجد إلى جانبهم عدد كبير من الثقات أصحاب الضمائر النقية، وقد تنبه هؤلاء منذ ذلك الوقت إلى تلاعب المزيفين فبدلوا وسعهم في التنبيه على زيفهم والحد من خطرهم، ومهما يكن من أمر فإنه لا يسع الباحث المصنف إلا أن يقر بفضل هؤلاء العلماء والرواة الذين حفظوا لنا ما أمكنهم حفظه من الشعر العربي القديم، ولولا جهودهم لأسدل ستار كثيف على ماضينا البعيد.

الفرع الثاني: الدواوين والمختارات

بدأ التصنيف يحل محل الرواية الشفوية، فكتبت الدواوين وجمعت الأشعار، وألفت المجموعات الشعرية، وقد خلف هذا العطاء ثروة كبيرة شكلت مادة حية للتواصل مع الشعر العربي عبر تطوره الزمني، «فهذا أبو عمرو الشيباني يجمع مثلا دواوين امرئ القيس، ولبيد بن ربيعة، وتميم بن مقبل، ودريد بن الصمة، والأعشى، والحطيئة، وسواهم، وهذا الأصمعي يرتب دواوين النابغين الذبياني والجعدي، وامرئ القيس، ومهلبل، وبشر بن أبي خازم، وغيرهم، وهذا محمد بن حبيب يجمع أشعار ذي الرمة، والفرزدق، وجران العود، والصمة القشيري، وهذا أبو الحسن الطوسي يجمع دواوين زهير، ولبيد، والأعشى، وحميد

¹ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 306/9 وما بعدها، وانظر ضحى الإسلام لأحمد أمين 309/2.

² - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 97.

بن ثور، والطرماح، والعباس بن مرداس، وهذا أبو سعيد السكري يجمع دواوين أكثر من خمسين شاعرا يذكر أسماءهم ابن النديم في الفهرست»¹.

ومن أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث:

- المفضليات: لمؤلفه المفضل بن محمد بن يعلى الضبي الراوية الكوفي المشهور الذي تقدمت الإشارة إليه، وسميت بالمفضليات لكون المفضل عمل أشعارا مختارة من مائة وثمانية وعشرين قصيدة لتثقيف تلميذه محمد بن عبد الله المهدي ولي عهد المنصور، وقيل ثلاثين ومائة قصيدة لستة وستين شاعرا جلهم هلكوا في الجاهلية، ومن أهم ما تمتاز به هذه المجموعة أن اسم مؤلفها كان موضع احترام، لم يطعن عليه أحد من معاصريه أو ممن جاء بعده في أمانته وصدقه، وكان ثقة. أخذ عنه أبو زيد الأنصاري، وكان الإمام أحمد بن حنبل يحضر مجلسه²، وما هو جدير بالذكر أن المفضل كان من أوائل الذين تنهوا إلى المحاولات الآثمة وغير المرضية لحالة بعض الرواة³.

- الأصمعيات: وهي مجموعة شعرية قديمة صُنفت في القرن الثاني تسمى بـ " الأصمعيات" نسبة إلى مصنفها عبد الملك بن قريب الأصمعي، الراوية الإخباري اللغوي المعروف المتوفى سنة ست عشرة ومائتين، وقد عُرف الأصمعي بسعة الشعر حتى لقبه الرشيد بـ " شيطان الشعر"، و"الأصمعيات" اسم أطلق على هذه المجموعة كما أطلق اسم "المفضليات" على مجموعة المفضل حتى تتميز الواحدة عن الأخرى⁴.

- جهمرة أشعار العرب: كتاب من المجموعات الشعرية القديمة منسوب لراوية مجهول، لا يعرف عنه شيء، ولا توجد له ترجمة في كتب الأدب، وهو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، وهو على ما ظهر للمؤرخين من سلالة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إذ أن اسمه يرد أحيانا في مقدمة الجهمرة كما يلي: " المفضل بن عبد الله بن المجبر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب".

¹ - المرجع السابق ص 99.

² - أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 299/9 وما بعدها.

³ - المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، هامش ص 94، وانظر كتاب نظرة تاريخية في حركة التأليف والتصنيف
لأمجد الطرابلسي ص 94-95.

⁴ - للمزيد من التوسع أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 305/9 وما بعدها.

تحتوي هذه المجموعة الشعرية على تسع وأربعين قصيدة مطولة من عيون شعر الجاهلية وصدر الإسلام، وقد وزعها المؤلف على سبع فئات، كل فئة منها تضم سبع قصائد وتحمل اسما خاصا، بالإضافة إلى الأسانيد التي أوردتها المصنف في مقدمته يُحمل على الاعتقاد بأن الكتاب من ثمرات القرن الثالث¹.

- ديوان الهذليين: هذه مجموعة شعرية أخرى تختلف عن المجموعات السابقة لكونها جاءت مقتصرة على قبيلة عربية بعينها، وهي مجموعة أشعار بني هذيل المسماة "ديوان الهذليين"²، وقد اهتم عدد من العلماء والرواة بجمع أشعار كثير من القبائل العربية كل منها على حدة في كتاب خاص، ومن أشهر هؤلاء الرواة أبو عمرو الشيباني، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن أبا عمرو هذا جمع شعر ما يزيد على ثمانين قبيلة، ولا ريب أن جمع الشعر العربي على هذا النحو - كما يقول الدكتور أمجد الطرابلسي- هو اتجاه مفيد للرواية لأنه يطلعنا على ما لكل قبيلة من خصائص فكرية ولغوية وفنية تتصف بها، ولم يصل مع الأسف من كل هذه المجموعات الكثيرة سوى ديوان الهذليين الذي يضم أشعار ما يقرب من ثلاثين شاعرا من بني هذيل، وهذيل قبيلة مضرية قريبة من قريش من حيث النسب، وتسكن قريبا من مكة والطائف، اشتهرت بكثرة شعرائها حتى نقل عن الأصمعي قوله: "إن فاتك الهذلي أن يكون شاعرا أو راميا لا خير فيه"³.

- الحماسات: وهي الفئة الثانية من المجموعات الشعرية، تختلف عنها لكونها لا تثبت القصائد المختارة إثباتا تاما وإنما تهتم بالمقطوعات والأبيات القليلة التي تختارها من المطولات، وتختلف عنها أيضا من جهة أنها مبوبة حسب المعاني الشعرية المشهورة⁴، وتسمى ب"الحماسات" لغلبة هذا الإسم عليها وإن سُمي بعض هذه الكتب باسم آخر، ومن أشهر مجموعات هذه الفئة كتاب الحماسة للشاعر الكبير أبي تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وتأليفها كما ذكر الخطيب التبريزي - وهو أحد شُراح الحماسة

¹ - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 108 وما بعدها.

² - أنظر ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية القاهرة، صدر سنة 1995 م.

³ - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 112 وما بعدها.

⁴ - المرجع السابق ص 115 وأنظر تاريخ آداب العرب للرافعي 310/2

- جاء صدفة جعل الدكتور أمجد الطرابلسي يشك في عامل الصدفة هذا الذي كان باعثا على تأليف هذا الإنتاج الضخم¹.

ويظهر أن أبا تمام كان من السابقين في التصنيف باتباع طريقة تنسيق المختارات بحسب الفنون الشعرية فتبعه المصنفون بعد ذلك، وساروا على نهجه، يدلنا على ذلك كثرة الحماسات التي ألقت بعده حماسة صنوه ومعاصره الشاعر البحري المتوفى سنة أربع وثمانين ومائتين، وحماسة الأخوين الأديبين الشعاعين محمد وسعيد ابني هاشم الخالدين وهما من رجال القرن الرابع الهجري، وحماسة أحمد بن فارس اللغوي المشهور وأحد رجال القرن الرابع، وحماسة أبي السعادات هبة الله بن الشجري المتوفى سنة اثنين وأربعين وخمسائة، وحماسة أبي الحجاج يوسف بن محمد الأندلسي المتوفى سنة ثلاث وخمسين ومائتين، وغير ذلك².

«ومما يدل على شهرة حماسة أبي تمام كثرة من تصدى لشرحها من جلة العلماء والأدباء كأبي هلال العسكري، والحسن بن بشر الأمدي، وأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، وأبي الفتح عثمان ابن جني في القرن الهجري الرابع، وكأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، وأبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي، وأبي الفضل الميكالي، والأعلم الشنتمري، وأبي المحاسن مسعود بن علي البيهقي في القرن الخامس، وأبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري في القرن السادس، وقل أن تجد في المكتبة العربية كتابا من كتب الأدب لقي من عناية الشراح والدارسين ما لقيه هذا الكتاب»³.

المطلب الثاني: كتب الثقافة العامة.

يتحدث ابن خلدون في مقدمته عن مدلول الأدب فيقول: «ثم إنهم أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف»⁴، فحسب ابن خلدون يكون للأدب معنيان: معنى خاص بالشعر والأخبار حفظا وإنتاجا، والثاني الأخذ من كل علم بطرف، ويبني الدكتور أمجد الطرابلسي على هذا التعريف صفتين أساسيتين وهما

¹ - أنظر كتاب نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 104.

² - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 118 وما بعدها.

³ - المرجع السابق ص 119.

⁴ - مقدمة ابن خلدون، فصل علوم اللسان العربي، الأدب ص 553..

من صفات كتب الأدب: الصفة الأولى فقدان الاختصاص، والثانية الاستطرد المستمر¹، ومن أشهر كتب الأدب في القرن الهجري الثالث التي تتصف بهذه الأوصاف:

- كتابان للجاحظ هما "الحيوان" و"البيان والتبيين"، ألفهما في أواخر حياته وهو مفلوج، ألف كتاب الحيوان قبل سنة ثلاث وثلثين ومائتين، وأهداه إلى وزير المعتصم والوائق الكاتب والشاعر الأديب محمد بن عبد الملك الزيات، وألف كتاب البيان والتبيين بعد ذلك التاريخ أي بعد مقتل ابن الزيات في مفتح خلافة المتوكل على الله، وأهداه إلى قاضي المعتصم والوائق والمتوكل المتكلم الشاعر أحمد بن أبي دؤاد²، وقد ارتبط تاريخ هذا الرجل بامتحان الإمام أحمد، فهو الذي وقف على المحنة في قضية خلق القرآن، وكان يملك مقاييس الزيادة والنقصان في تعذيب شيوخ السنة، مات هو الآخر مفلوجاً سنة اثنين وأربعين ومائتين.

أشار الجاحظ في البيان والتبيين إلى كتاب الحيوان في غير موضوع مما يدل دلالة قاطعة على أن الحيوان أسبق ظهوراً من البيان والتبيين، وتصنيف الجاحظ لهذين الكتابين يدل على قوته في تحدي مرضه، يقول ابن خلكان في ترجمته: «وكان الجاحظ في أواخر عمره قد أصابه الفالج، فكان يطلي نصفه الأيمن الصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الأيسر لو قرص بالمقاريض لما حس به من خدره وشدة برده، وكان يقول في مرضه: اصطلحت على جسدي أضداد، إن أكلت بارداً أخذ برجلي، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي، وكان يقول: أنا من جانبي الأيسر مفلوج فلو قرص بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن منقرس فلو مر بي الذباب لألمت، وبي حصاة لا ينسرح لي البول، وأشد ما علي ست وتسعون سنة»³

إن الدرس المستفاد من الجاحظ هو أن العطاء العلمي لا يحبسه المرض وإن اشتدت الآلمة، وهو يعلمنا أن الألم يمكن استثماره في العطاء المبتكر، وقد غدا الأديب الأكبر في العصر العباسي الأول وممثل ثقافة عصره.

هذا جانب صحته التي لم تقف حائلاً أمام البحث العلمي، كما أن ذلك لم يكن مانعاً من فرض شخصيته العلمية بين أقرانه ورجال العلم من طبقته، يروي ابن خلكان فيقول: «قال أبو القاسم السيرافي: حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل ابن العميد الوزير فجرى ذكر الجاحظ،

¹ - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 130.

² - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 132-133.

³ - وفيات الأعيان لابن خلكان، ترجمة الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر 473/3.

فغص منه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه، فلما خرج الرجل قلت له: سكتت أيها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك بالرد على أمثاله، فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو وافقته وبينت له النظر في كتبه لصار إنسانا...¹.

ويمكن أن نوجز أهمية الكتابين فيما يلي:

- البرهنة على قدرة الله عز وجل في مخلوقاته من خلال كتاب الحيوان.

- تقديم علوم البيان العربي من خلال البيان والتبيين، وإبراز قيمة العرب ومبادراتهم في هذا المجال لاسيما وأن عصر الجاحظ كان عصر المفاضلة بين العرب وغيرهم لمن أراد أن يبخسهم حقهم في هذا المجال.

- الكامل للمبرد: هكذا اختصارا، وإلا فهو "الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف"، أحد التحف الأدبية التي ظهرت في القرن الهجري الثالث، ومؤلفه هو أبو العباس محمد بن يزيد الثمالي الملقب بـ "المبرد"، وهو إمام العربية ببغداد كما يقول ياقوت، وزعيم المذهب البصري في اللغة والنحو في عصره، كان واسع الاطلاع على مختلف مناحي الثقافة العربية من لغة وشعر ونثر وأخبار، وله فيها مؤلفات من أشهرها كتابه هذا.

والكامل هو كتاب ثقافة أدبية عامة، أورد فيه نماذج مختارة من الشعر الجميل، والنثر البليغ، والأحاديث المأثورة، والأخبار الطريفة، وهو ككتابي الجاحظ الأنفي الذكر، كثير التنقل من موضوع إلى موضوع، لا يستقر طويلا على فكرة، يخلط بين الهزل والجد، ويتعمد الاستطراد، يقول أبو العباس: «هذا كتاب ألفناه، يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة»².

كانت وفاته سنة خمس وثمانين ومائتين للهجرة.

- عيون الأخبار لابن قتيبة: وهو لمؤلفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين، من كتبه "عيون الأخبار" هذا، وكتاب "الشعر والشعراء"، و"أدب الكاتب"، و"الإمامة والسياسة"، و"التسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب"،

¹ - انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ترجمة الجاحظ 473/3.

² - الكامل للمبرد ص 3، وانظر نظرة تاريخية في حركة التأليف لأمجد لطرابلسي ص 150 وما بعدها.

"مشكل القرآن" وكتاب "تأويل مختلف الحديث" الذي بسطت الكلام فيه في كتابي "علمية علم الحديث" ¹، وغير ذلك من المؤلفات.

ويحدد لنا ابن قتيبة في مقدمة "عيون الأخبار" منهج النقل أو الكيفية التي ينقل بها الخبر فيقول: «واعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث في الحدائث وفي الاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة، وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم، وعمن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحدائته، ولا عن الصغير قدرا لخساسته، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلا عن غيرها، فإن العلم ضالة المؤمن من حيث أخذه نفعه» ².

وهذه الطريقة هي طريقة الأديب في نقل الرواية الأدبية والأخبار والقصص، لا تعمم على كل العلوم فإن للمحدثين طريقتهم في النقل وكذلك القراء، وهو يدرك ذلك، وما ذكره يبين به الطريقة التي "النقط" بها مادة كتابه من جلسائه ومن إخوانه ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وقد تجمع لديه قدر عظيم، ثم شرع في تصنيف هذه المواد أبوابا، فجمع في كل منها الأخبار المتماثلة والأشعار المتشكلة فصارت في أربعة عشر كتابا، فأفرد منها أربعة، أخرج كل منها في كتاب مستقل، وهي كتاب "الشعر والشعراء"، وكتاب "المعارف"، وكتاب "الشراب"، وكتاب "تأويل الرؤيا"، ثم جمع عشرة كتب أخرى في هذا الكتاب الضخم الذي سماه "عيون الأخبار"، والأبواب العشرية التي يتكون منها الكتاب هي كتب صيغة على العناوين التالية: السلطان، الحرب، السؤدد، الطبائع والأخلاق، العلم، الزهد، الإخوان، الحوائج، الطعام، النساء، فالكتاب يمتاز من هذه الوجهة بشيء من التنظيم والتبويب ³.

- كتب الأدب المشهورة في القرن الهجري الرابع: نخص بالذكر هنا اهتمام أدباء المغرب والأندلس بكتب المشاركة، وأشهر كتب الأدب في هذا القرن اثنان قُدر لهما أن يبصرا النور في قرطبة حاضرة الأندلس وفي بغداد وهما: كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي.

- العقد الفريد: قلد فيه ابن عبد ربه عيون الأخبار لابن قتيبة، وهو جلي واضح فهناك سبعة أبواب مشتركة بين الكتابين، يروي ياقوت في معجم الأدباء قصة مضمونها ما يلي:

¹ - علمية علم الحديث ص «299-301».

² - عيون الأخبار لابن قتيبة، مقدمة المؤلف،

³ - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان 479/1.

«بلغني أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب "العقد" فحرص حتى حصل عنده، فلما تأمله قال: هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه، فرده»¹.

«قال الحميدي: وشعره كثير مجموع، رأيت منه نيفا وعشرين جزءا، من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الملقب بالناصر الأموي سلطان المغرب، وبعضها بخطه.

قال: وكانت لأبي عمر بالعلم جلالة، وبالأدب رياسة وشهرة، مع ديانتته وصيانتته، واتفقت له أيام ولايات للعلم فيها نفاق، فتسود بعد الخمول، وأثرى بعد فقر، وأشير بالفضل إليه، إلا أنه غلب عليه الشعر»².

- الأمالي لأبي علي القالي: هذا الكتاب كتبه القالي بحاضرة قرطبة وفي مسجد الجامع بالزهراء حيث كان يجلس فيها القالي ليملي من حفظه على طلابه، وهو اسم على مسمى، ومن هذا الكتاب تعلم ولي عهد الخليفة الأموي الناصر عبد الرحمن بن محمد³.

هذا ما ألف خلال القرنين الثالث والرابع في مشرق العالم العربي ومغربه، والاقْتصار على الكتب التي أشرنا إليها لا يعني أن حركة التأليف قد توقفت، بل استمر التأليف على هذا النحو حتى أواخر القرن الرابع والقرون التي تلتها، وظهرت مصنفات كثيرة معروفة وما أمالي السيد المرتضى وأمالي السيد الشجري وزهر الآداب للحصري القيرواني سوى دليل على ذلك، بل إن الموسوعات الأدبية الضخمة التي ظهرت في عصور الانحطاط مثل صبح الأعشى للقلقشندي - وهو من أدباء مصر في القرن الثامن وأوائل التاسع - ونهاية الأدب في فنون الأدب للنويري أخرجه في ثلاثين مجلدا، والنويري من أدباء مصر أيضا في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن، هذه المؤلفات ليست سوى امتدادا لحركة تأليف دواوين الأدب حسب الطريقة التي تم عرضها، وإن تمحيص واختبار العتيق والأصيل من هذه الكتب يقف في القرنين الثالث والرابع لأنها أقدم عهدا وأكثر أصالة مما ظهر بعده⁴.

¹ - معجم الأدباء لياقوت 464/1..

² - المصدر السابق.

³ - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 166 وما بعدها.

⁴ - المرجع السابق.

المطلب الثالث: كتب تراجم الأدباء

تشكل هذه الكتب مراجع مهمة لا يمكن الاستغناء عنها، وهي قوية الصلة بحركة التأليف الأدبي، يقول الدكتور أمجد: «وقد عني أسلافنا بتدوين تراجم الرجال على اختلاف عصورهم وأوطانهم وتنوع طبقاتهم واختصاصهم... لا نبالغ إذا قلنا بأن المكتبة العربية هي من أغنى مكتبات الأمم بكتب التراجم»¹، ولتسهيل البحث وتيسيره قسم الكتب المصنفة بحسب مضمونها ضمن ثلاثة أصناف، وهي:

1- الكتب المصنفة في تراجم الشعراء

2- الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة

3- الكتب المصنفة في تراجم الأدباء عامة دون تمييز في الاختصاص.

يكون الاقتصار هنا على أشهر الكتب في كل صنف من هذه الأصناف تماشياً مع الترتيب الزمني الذي تطور فيه التأليف.

1- الكتب المصنفة في تراجم الشعراء:

واهم عناصر الكتب المصنفة في تراجم الشعراء ما يلي:

- طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين لصاحبه محمد بن سلام الجمعي الذي تقدمت الإشارة إليه، وهو من مصادر الأدب الأولى التي وصلتنا في التراجم²، والكتاب هو من كتب الطبقات كما يظهر من عنوانه، وللطبقة مفهوم بيناه في موضعه³.

- الشعر والشعراء لابن قتيبة: تقدمت الإشارة إلى صاحبه، وهو من أقدم الكتب التي نجدها في تراجم الشعراء، ترجم فيه للشعراء الذين يعرفهم أهل العلم، ألفه صاحبه كما يقول في مقدمة كتابه للإخبار فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم، يقول ابن قتيبة في مطلعته: «هذا كتاب أفتته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون

¹ - المرجع السابق ص 175.

² - انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 368/9 وما بعدها.

³ - أنظر مقالنا المنشور في مجلة كلية الآداب بمراكش في موضوع "مدخل إلى علم الطبقات"، العدد 2، ص 249.

فأخذه عنهم المتأخرون، وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها، إلى غير ذلك مما قدمته في الجزء الأول»، ويضيف: «وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله ﷺ».

- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني: أبو الفرج هذا ليس فارسياً كما قد يفهم من لقبه، فهو عربي من سلالة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وهو إمام من أئمة الأدب في القرن الهجري الرابع، ولد سنة أربع وثمانين ومائتين في أصبهان، كانت وفاته في بغداد سنة ست وخمسين وثلاثمائة.

ويعتبر الكتاب من أغنى الموسوعات الأدبية القديمة الذي تعثر بها المكتبة العربية، ويعتبر أوسع مصدر نملكه في تراجم شعراء العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ومن عنوانه يتضح أن أبا الفرج الأصبهاني أراد أن يُثبت أشهر أغاني عصره بكلماتها وألحانها استجابة لطلب الخليفة الواثق «227-232هـ» الذي أمر إسحاق بن إبراهيم الموصلية المغني المشهور أن يعيد النظر في الأصوات المائة التي وضعت بطلب من جده الخليفة الرشيد «170-193هـ»، وكان الأصبهاني المستجيب الأول.

إلى جانب قيمة الكتاب الموسيقية فإنه ينطوي على ثروة أدبية كبيرة لأن المصنف كان يثبت الصوت ويسهب في ترجمة الشاعر الذي اختير هذا الصوت من شعره، كما أسهب في ترجمة المغني الذي وضع لحنه، وهكذا غدا الكتاب سجلاً ضخماً لتراجم أعلام الشعر والغناء في عصر أبي الفرج والعصور التي سبقتة، كما غدا سجلاً للحضارة العربية والإسلامية في كثير من مظاهرها.

جمع أبو الفرج بين سعة الجمع والحدق والتفنن في الإيراد، وكان يروي ما يرويه مرفقاً بالأسانيد الطويلة، وهي على طريقة أهل الأدب كما كان يشير إلى مصادره المكتوبة في أحيان كثيرة، وكل من تصفح هذا الكتاب لا بد أن يقدر الجهد الكبير الذي بذله أبو الفرج الأصبهاني، ولم يكن أبو الفرج من الغالين حين زعم بأنه أنفق خمسين عاماً في حياته في جمع مادة كتابه.

وصل الكتاب إلى شهرة عالية حتى أنك تجد الكاتب والوزير البويهي المشهور صاحب بن عباد والذي كان مولعاً باقتناء الكتب وإذا سافر استصحب معه من الكتب ما يحمل على ثلاثين جملاً فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى عنها، وروى ياقوت في معجم الأدباء في أخبار الأصبهاني أن صاحب بن عباد لما علم أن سيف الدولة بن حمدان كافأ أبا الفرج على كتابه

الأغاني بألف دينار قال: « لقد قصر سيف الدولة، وإنه يستأهل أضعافها، ولقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه »¹.

- معجم الشعراء للمرزباني والمؤتلف والمختلف للآمدي: هذان كتابان آخران من الكتب المصنفة في تراجم الشعراء خلال القرن الهجري الرابع، وهما يذكران معا غالبا حتى وإن اختلفت مضمونهما، والسبب في ذلك أنهما طبعا ونشرا في مجلد واحد، وهي الطبعة التي نشرتها مكتبة القدسي بالقاهرة عام أربع وخمسين وثلاثمائة بعد الألف بإشراف المستشرق كرنكو.

الكتاب الأول معجم الشعراء، وهو معجم رتبت فيه أسماء الشعراء على الحروف الهجائية مع مراعاة أوائل الأسماء بصرف النظر عن الألقاب والكنى، وقد حاول المرزباني -وهو أحد مؤرخي الأدب في القرن الرابع وله كتاب آخر اسمه الموشح - حاول فيه أن يبين كتب تراجم الشعراء باستقصاء، وقد ذكر الشعراء قاطبة حتى ضمنه ما لا يقل عن خمسة آلاف اسم كما يذكر ابن النديم في الفهرست، هذا المعجم الكبير لم يصل إلينا بتمامه إذ لم يعثر الباحثون إلا على قسمه الأخير الذي يتضمن أسماء الشعراء من حرف العين، من مادة عمرو حتى آخر الحروف الهجائية إلا أن آمدي جمع منه أسماء الشعراء وألقابهم وكناهم في زمر يسهل معها بيان ما كان منها مؤتلفا أو مختلفا أو متقاربا في اللفظ أو متشابهة في الاسم الواحد بين عدد من الشعراء، فما أكثر من يتسنى من الشعراء بامرئ القيس أو بالشماخ، وما أكثر من يلقب بالأعشى أو النابغة²، وقد اجتهد آمدي في أن يعرف كلا من هؤلاء الشعراء الذين اختلفت أسماؤهم حتى لا يختلط أمرهم على الباحث، كما أن هناك أسماء كثيرة وألقابا تتقارب في اللفظ أو في الخط فلا يفرق بينها إلا الشكل أو النقط، فمن الشعراء يزيد وبريد، والأشعر والأسعر، وسهم وشهم، وجريز وحريز، والبعيث والنعيث، وخباب وجناب، والأغر والأعز...لقد جمع آمدي في كتابه هذا كل لقب مشهور مع ما يشابهه لفظا أو رسما من الأسماء والألقاب، ثم ميز بين أصحاب هذه الأسماء ذاكرا نسب كل منهم، وطرفا من أخباره وشعره.

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي: وهو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المشهور بأبي منصور الثعالبي النيسابوري، كانت وفاته سنة خمسين وثلاثمائة، اقتصر فيه على شعراء عصره، أي أخبار شعراء المائة الرابعة وهو العصر العباسي الثالث، وقع في أربعة أجزاء، قص فيه الثعالبي الأسباب التي حملته على تأليف كتابه هذا مبينا المراحل التي مر بها.

¹ - ينظر نظرة تاريخية في حركة التأليف لأمجد الطرابلسي ص 171 و185، وانظر تاريخ آداب العرب 1/ 591-592.

² - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 191.

قسم الكتاب إلى أبواب باعتبار أقاليم الممالك الإسلامية في عصره، فخص الباب الأول لشعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس، والثاني لشعراء العراق، والثالث لشعراء فارس، والرابع والأخير لشعراء خراسان وما وراء النهر¹.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ألفه أبو الحسن علي بن بسام التغلبي الشنترى، ويعتبر من أعلام النقاد والكتاب الأندلسيين، ولد سنة اثنين وأربعين وخمسمائة، وتوفي سنة ستين وأربعمائة للهجرة، نسجه على منوال الثعالبي، وكما أن ابن عبد ربه ترسم في العقد الفريد آثار ابن قتيبة كذلك نهج ابن بسام نهج الثعالبي، ومن مزاياه أنه يعرض لحياة أهل الأندلس فضلا عن كونه يتضمن أسماء الكتاب والأدباء والشعراء الأندلسيين، ويتضمن أربعة أقسام، القسم الأول خصصه لأهل قرطبة، والثاني للجانب الغربي من الأندلس، والثالث لأهل الجانب الشرقي منها، والرابع لمن دخلها ووفد عليها من أهل الأقطار والأمصار الأخرى.

2- الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة:

يقول الدكتور أمجد الطرابلسي: «لقي اللغويون والنحاة من عناية مصنفي التراجم ما لقيه الشعراء، فألفت الكتب العديدة في أخبارهم وتعداد آثارهم وبيان مذاهبهم، واتجه المؤلفون أيضا في تصنيف تراجم هذه الفئة من العلماء، فمنهم من نهج في تأليفه نهجا زمنيا، ومنهم من أخذ بعين الاعتبار المواطن التي نشأ فيها هؤلاء العلماء، ومنهم من ذهب في التأليف مذهباً معجمياً فرتب التراجم على حرف المعجم، ولسنا نعرف على وجه اليقين أول من تصدى للتأليف في هذا الباب، غير أن من أقدم ما يذكره المؤرخون كتاباً لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة 286هـ عنوانه "طبقات النحويين البصريين وأخبارهم"².

ومن المؤلفات في هذا الباب "أخبار النحويين" لابن درستويه، وهو الذي قام بنقض كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وكذلك السيرافي في "طبقات النحاة البصريين"، و"مراتب النحويين" لأبي الطيب اللغوي، و"المقتبس في أخبار النحويين واللغويين" للمرزباني، ثم جاء جلال الدين السيوطي في القرن التاسع فصنف معجمه الجامع "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة".

¹ - أنظر تاريخ آداب العرب 595/1، ونظرة تاريخية في حركة التأليف ص 192 وما بعدها.

² - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 201.

ويرى الدكتور أمجد الطرابلسي أن الكثير من هذه الكتب قد فُقد، كما أن المحصل عليه مازال مخطوطا إلى اليوم.

3- الكتب المصنفة في الأدباء عامة.

ومنها: معجم الأدباء لياقوت الحموي، والعنوان الأصلي لهذا الكتاب هو " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، ولكنه اشتهر ب " معجم الأدباء" اختصارا، وصاحبه هو أبو عبد الله الرومي الحموي، توفي وهو في الخمسين من عمره سنة ست وعشرين وستمائة للهجرة.

لم يتضمن الكتاب تراجم للشعراء إلا من عُرف إلى جانب الشعر بالتصنيف والتأليف مثل أبي العلاء المعري، والبحتري، وابن عبد ربه الأندلسي وغيرهم، أما الشعراء الذين لم يعنوا إلا بقول الشعر ولم يتركوا من الآثار سوى دواوينهم فلم يأت ياقوت في معجمه هذا إلا على ذكر العدد القليل منهم، ويعود السبب إلى أن المؤلف صنف كتابا مستقلا في أخبار الشعراء المتأخرين والمتقدمين ذكر فيه كل المهتمين بالشعر¹.

المبحث الثاني: دراسة مكتبية حول ابن الحاجب والشافعية

– المطلب الأول: عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو بن الحاجب النحوي.

العنصر الأول: من هو ابن الحاجب؟

1- مصادر حياته:

أقدم المصادر التي ترجمت لابن الحاجب: "كتاب ذيل الروضتين" لابن أبي شامة المقدسي²، و"وفيات الأعيان لابن خلكان³ بحكم أن المترجمين معاصران له، فابن أبي شامة

¹ - نظرة تاريخية في حركة التأليف ص 211.

² - الشيخ الإمام المتقن شهاب الدين المقدسي الدمشقي أبو شامة، صاحب كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين"، ولد سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وتوفي سنة خمس وستين وستمائة(665هـ). انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى 5/ (61-63)، وكذلك راجع "كلمة عن ذيل الروضتين ومؤلفه ابن شامة" في مقدمة كتابه "تراجم رجال القرنين السادس والسابع" لمحمد زاهد بن الحسن الكوثري.

³ - وفيات الأعيان 3/ 248-249، حرف العين 413.

سمع به، وابن خلكان كان من المعاصرين له: سمع منه وسمع به ورآه¹، أما المصادر التي جاءت بعدهما فهي نقلت منهما وكررت ما قيل².

2- اسمه ونسبه ولقبه وأصله:

هو أبو عمر عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يوسف³ الكردي⁴ الإسناي⁵ الدويني الأصل⁶، وهو ابن الحاجب عز الدين الصلاحي⁷ ابن خال السلطان صلاح الدين

¹- نفسه 250/3، حرف العين 413.

²- ابن الحاجب النحوي: آثاره ومذهبه، لطارق عبد عون الجنابي، ص (31-33).

³- وفيات الأعيان 248/3 – الأعلام لخير الدين الزركلي 4/374، هدية العارفين 1/654، معجم المؤلفين 6/265، العمود الثاني – دائرة المعارف الإسلامية 1/126، طبقات القراء 1/508 – معجم المطبوعات العربية والمعربة ص 71-المختصر 81.

⁴- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 1/215 – شذرات الذهب 5/233- بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة 2/134- وفيات الأعيان 3/248- معجم المؤلفين 6/265- هدية العارفين 1/654، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان 5/308، طبقات القراء 1/508 – هدية العارفين 1/654.

⁵- نسبة إلى مدينة (إسنا)، وضبطها الشيخ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي بقوله: "بالكسر ثم بالسكون ونون وألف مقصورة، مدينة بأقصى الصعيد وليس وراءها إلا أوفر وأسوان، ثم بلاد النوبة وهي على شاطئ النيل من الجانب الغربي في الإقليم الثاني طولها...."، معجم البلدان 1/189، وترجم له بهذه النسبة عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين 6/265 – والبغدادي في هدية العارفين 1/654- والزركلي في الأعلام 4/374- والسيوطي في حسن المحاضرة 1/215، وفي بُغية الوعاة 2/134 – أخرج له وذكرها بهذا الوصف ابن العماد في شذرات الذهب 5/233، ونسبة إليها كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي 5/308، وطارق ابن عون الجنابي في دراسته الوافية: ابن الحاجب النحوي آثاره ومذهبه ص33، كما جاءت الترجمة نفسها في دائرة المعارف الإسلامية 1/126، وقال ابن الجزري في طبقات القراء: "الإسناي المولد".

⁶- نسبة إلى (دوين)، وضبطها ياقوت بقوله: "يفتح أوله وكسر ثانيه وياء مثناه من تحت ساكنة وآخره نون، بلدة من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تيفليس (...). ينسب إليها أبو الفتوح نصر الله بن منصور بن سهل الدويني الجيزي، كان فقها شافعي المذهب..." معجم البلدان 4/112.

وترجم له بهذه النسبة عمر رضا كحالة في "معجم المؤلفين" 6/265، وابن خلكان في وفيات الأعيان 3/248، والدكتور طارق بن عون الجنابي في ابن الحاجب النحوي... ص 33، والسيوطي في بُغية الوعاة 2/134 – وعند ابن كثير في البداية والنهاية 13/176 بالراء (الرويني)، والدارس في تاريخ المدارس 2/3.

⁷- سُمي بابن الحاجب لأن أباه كان حاجب موسك الصلاحي الكردي، انظر وفيات الأعيان 3/248 حرف العين 413- الأعلام 4/374 – شذرات الذهب 5/234- البداية والنهاية 13/176، بُغية الوعاة 2/134، المزهر 1/هامش 23، حسن المحاضرة 1/215.

الأيوبي¹، ولُقب بهذا بعد أن اشتهر بأبي عمرو جمال الدين ابن الحاجب².

3- ولادته ووفاته:

ولد ابن الحاجب في أواخر سنة سبعين وخمس مائة³، وقيل سنة إحدى وسبعين للهجرة⁴ بإسنا⁵، الموافق لأربع وسبعين ومائة بعد الألف للميلاد، وفجأه الموت ضاحي نهار الخميس السادس والعشرين من شوال⁶ سنة ست وأربعين وستمائة للهجرة⁷، الموافق

لكن الكنجي في تاريخ القدس نفى هذا بقوله: "سمعت الفقيه الإمام المفتي الخطيب عبد المنعم بن يحيى يقول: لم يكن أبوه حاجبا وإنما كان يصحب بعض الأمراء، فلما مات كان أبو عمرو صبيا فرباه الحاجب فعرفه به، والأول هو المشهور"، أنظر الطالع السعيد الجامع لأمرء نجباء الصعيد لكمال الأدفوي ص 130. والحجاب في اللغة "الستر(...)، والحجاب: البواب(...)، وحاجب الأميرة: معروف، وجمعه حجاب، وحجب الحاجب يحجب حجبا، والحجابه: ولاية الحاجب "لسان العرب 98/1 و299.

وحول هذه النسبة أيضا انظر طبقات القراء 508/1 - معجم المطبوعات 71 - الدارس في تاريخ المدارس 3/2.

¹ ابن الحاجب النحوي آثاره ومذهبه ص 33 - المختصر ص 81.

² - نفسه ص 34 - وفيات الأعيان 248/3 حرف العين 413 - معجم المؤلفين 265/6، الأعلام 374/4، بغية الوعاة 134/2 - حسن المحاضرة 215/1 - تاريخ الأدب العربي 308/5 - المختصر ص 81.

³ - وفيات الأعيان 250/3 حرف العين 413 - هدية العارفين 654/1 - الأعلام 374/4، شذرات الذهب 233/5 - محمد بن شنب في دائرة المعارف 126/1 - تاريخ الأدب 308/5 - الدارس في تاريخ المدارس 4-2/3 - الطالع السعيد ص 189 - المختصر ص 81.

⁴ - بغية الوعاة 134/2 - طبقات القراء 508/1.

جاء هذا الاختلاف - كما يذكر طارق عبد عون الجنابي في رسالته: "ابن الحاجب النحوي...." ص 33 - من كون ابن الحاجب نفسه لم يكن يعلم على وجه الدقة سنة ولادته، بين هاتين السنتين ينظر (معرفة القراء الكبار) 517/2.

أما عمر رضا كحالة فقد باعد في زمن ولادته إذ رجحها بين سنة 570 هـ و 751 هـ ينظر (معجم المؤلفين 265/6). وأظن أنه لهذا السبب سكت حاجي خليفة على سنة ولادته، واكتفى فقط بذكر سنة الوفاة. انظر كشف الظنون 1020/2، أما الزركلي في الأعلام فلم يأت على ذكر سنة الولادة ولا سنة الوفاة.

أما السيوطي في المزهري في الجزء الأول هامش ص 23 فقد رجحها بين سنة 570 وسنة 571 للهجرة بينما في حسن المحاضرة 215/1 اكتفى بذكر الوفاة فقط.

⁵ - سبقت ترجمتها.

⁶ - وفيات الأعيان 250/3، شذرات الذهب 235/5 - بغية الوعاة 135/2 - دائرة المعارف 127/1 - المختصر ص 81 - وفي ذيل الروضتين أنه توفي في شعبان، ص 182.

⁷ - وفيات الأعيان 250/3 - هدية العارفين 654/1 - معجم المؤلفين 265/6 - الأعلام 374/4 - كشف الظنون 1020/2 - حسن المحاضرة 215/1 - دائرة المعارف 127/1 - تاريخ الأدب 308/5 - حسن المحاضرة 215/1 -

لديسمبر¹ من سنة تسع وأربعين ومائتين بعد الألف للميلاد²، ودفن في خارج الإسكندرية³، خارج باب البحر قرب مئوى الشيخ الصالح ابن أبي شامة.

العنصر الثاني: علمه وعلومه

1- علومه وشيوخه:

أخذ ابن الحاجب علوم الدين والعربية من عدد كبير من الشيوخ، وكانت تلمذته على يد علماء الفقه والقراءات بارزة وواضحة.

فمن شيوخه في علم القراءات: القاسم بن فرة الشاطبي الضرير، صاحب منظومة "حرز الأمانى ووجه التهاني"، المتوفى سنة تسعين وخمسمائة⁴.

وأبو جود اللخمي الضرير المتوفى سنة خمس وستمائة للهجرة، وأبو الفضل الغزنوي المتوفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة للهجرة، وأبو الحسن الأبياري المتوفى سنة ثمانى عشرة وستمائة للهجرة⁵.

وقرأ على أبي الجود، وسمع من جماعة⁶.

ومن شيوخه في علم الحديث: أبو القاسم هبة الله البوصيري المتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة⁷، وإسماع بن صالح بن ياسين، وأبو عبد الله محمد بن حامد الأرتاحي،

المزهر 23/1 - بغية الوعاة 35/2. مغني اللبيب عن كتب الأعراب هامش ص 39- طبقات القراء 509/1 - الطالع السعيد ص 189- النجوم الزاهرة 646/6.

¹- تاريخ الأدب 308/5.

²- محمد بن شنب في دائرة المعارف الإسلامية 127/2.

³- الأعلام 374/4 - معجم المؤلفين 265/6- هدية العارفين 1/654 - ذيل الروضتين لابن أبي شامة المقدسي ص 182- البداية والنهاية 13/176.

⁴- أورد ترجمة حياته مع إشارة وجيزة إلى منظومته عبد القادر البغدادي في شرح شواهد الأستراباذي والجار بردي على الشافية، الجزء الرابع من شرح الأستراباذي على الشافية، القسم الثاني في شرح الشواهد 4/192 و195.

⁵- طبقات القراء 508/1 - الطالع السعيد ص 188 - دائرة المعارف 1/127 - بغية الوعاة 2/134 - ابن الحاجب النحوي.. (41-43)، معجم المطبوعات العربية والمعربة 71، حسن المحاضرة 1/251.

⁶- بغية الوعاة 2/134 - الطالع السعيد 188- طبقات القراء 508/1.

⁷- بغية الوعاة 2/134-135 - طبقات القراء 508/1.

والقاسم بن عساكر المتوفى سنة ستمائة للهجرة، وأبو الثناء حماد بن هبة الله الحراني، وأم عبد الكريم فاطمة بنت سعيد الخير الأنصاري¹.

ومن شيوخه في الفقه: أبو منصور الأبياري²، وعلى بن البنا³، وقال أبو السعادات اليافعي: "بلغني أنه كان محبا للشيخ عز الدين بن عبد السلام"⁴.

2- دروسه وتلاميذه:

كان ابن الحاجب فقيها مقرئا، أصوليا نحويا صرفيا وعروضيا⁵، درس بدمشق، وألقى دروسه على الناس في الزاوية المالكية بالجامع الأموي الكبير، وتخرج به الأصحاب⁶، ومن التلاميذ الذين أخذوا عنه علوم العربية:

- الرضى القسطنطيني المتوفى سنة خمس وتسعين وستمائة للهجرة⁷.

- زين الدين المعروف بابن العماد المتوفى سنة سبعمائة للهجرة⁸.

- جمال الدين بن مالك⁹

- أحمد بن محسن المتوفى سنة تسع وتسعين وستمائة¹⁰.

¹ - ابن الحاجب النحوي... ص 44 - الطالع السعيد ص 188-189.

² - دائرة المعارف الإسلامية 1/127 - بغية الوعاة 2/134-135 - معجم المطبوعات 71. الطالع السعيد 188.

³ - بغية الوعاة 2/134 - ابن الحاجب النحوي... ص 44.

⁴ - شذرات الذهب 5/234 حيث ذكر ابن العماد أنه درس وأخذ عنه العلم.

⁵ - بغية الوعاة 2/134-135 - البداية والنهاية 13/176 - حسن المحاضرة 1/215 - معجم المؤلفين 6/265-

طبقات الفراء 1/508-509 - ذيل الروضتين 182.

⁶ - الأعلام 4/374 - معجم المؤلفين 6/265 - بغية الوعاة 2/134-135 - شذرات الذهب 5/235 - دائرة المعارف 1/127.

⁷ - بغية الوعاة 2/134-135 - معجم المطبوعات العربية والمعربة ص 71.

⁸ - نقله طارق عبد عون الجنابي في رسالته ص 45 عن الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني 4/60.

⁹ - ويظهر تأثير ابن مالك بابن الحاجب تسميه ابن مالك منظومته الطويلة بـ "الكافية الشافية" في النحو

والصرف، أخذ هذه التسمية من مصنف ابن الحاجب "الكافية" و"الشافية"، ومن مظاهر هذا التأثير أيضا أن

ابن مالك شرح منظومته بشرح أطلق عليه اسم "الوافية" مثلما سعى ابن الحاجب نظم الكافية بالوافية. انظر

ترجمته ومن ترجم له ومؤلفاته وشروح مؤلفاته المخطوط منها والمترجم منها وغير المترجم مع المطبوع في تاريخ

الأدب العربي لكارل بروكلمان 5/275-296).

¹⁰ - أخذ النحو على ابن الحاجب، وتفقه على يد العز بن عبد السلام، ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي 5/13-14.

- الملك الناصر داود بن الملك المتوفى سنة خمس وخمسين وستمائة¹.
- كمال الدين بن الزملكاني²
- ومن التلاميذ الذين قرؤوا عليه:
- الموفق محمد بن أبي العلاء النصيبي المتوفى سنة خمس وتسعين وستمائة للهجرة³.
- ومن الذين رووا عنه الحديث:
- الحافظ عبد العظيم المنذري المتوفى سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة⁴
- والحافظ عبد المومن الدمياطي شرف الدين أبو محمد⁵
- والحافظ منصور بن سليم الإسكندري المعروف بابن العمادية المتوفى سنة سبع وسبعين وستمائة⁶.
- وأبو علي الحسن بن خلال⁷
- وروى عنه بالإجازة:
- العماد البالسي⁸
- ويونس الدبوسي⁹

¹ - مالك دمشق، توفي سنة 655هـ، تتلمذ على يد ابن الحاجب لأن ابن الحاجب نظم الكافية تلبية لرغبته العلمية، ثم شرح له نظمها، وقرأها الملك الناصر عليه، ثم التمس الملك من ابن الحاجب أن يلحق مقدمته في الإعراب بمقدمة أخرى في الصرف، وأخرى في الخط، فأجابته وكتب له الشافية، انظر شرح الأسترايادي على الكافية، الجزء الثاني، الصفحة الأخيرة، وانظر شرح السيد نقره كار على الشافية ص 3-4، وانظر كذلك ما نقله فاضل عصام من كلام ابن الحاجب في الشرح المنسوب لفاضل العصام على الشافية، مطبوعة بهامش شرح نقره كار على الشافية ص 4.

² - قدم نفسه بأنه تلميذ لابن الحاجب، نقله الجنابي في رسالته السابقة ص 48 من التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني ص 136.

³ - طبقات القراء 509/1.

⁴ - بغية الوعاة 135-134/2 - طبقات القراء 509/1.

⁵ - بغية الوعاة 135/2 - طبقات القراء 509/1.

⁶ - انظر الطالع السعيد 188.

⁷ - المصدر السابق.

⁸ - ذكره السيوطي في بغية الوعاة 135/2، وذكر بأنه روى عن ابن الحاجب بالإجازة.

⁹ - ذكره السيوطي في بغية الوعاة 135/2 وأفاد بأنه حدث عن ابن الحاجب بالإجازة.

- وزين الدين أبو محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي، قاضي قضاة المالكية بدمشق، المتوفى سنة واحد وثمانين وستمائة للهجرة¹.

3- مصنفاته حسب العلوم:

لابن الحاجب مصنفاً في أغلب علوم الدين واللغة، فقد صنف في الفقه والتفسير والأصول والنحو والعروض والجدل²، وكان الغالب عليه النحو³، صنف في الفقه جامع الأمهات في الفقه المالكي⁴، وصنف في علم الأصول مختصر المنتهى الأصولي⁵، و«الأمالي»⁶ النحوية⁷، والقصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية⁸، ورسالة في الشعر⁹، وفي علم التفسير له كتاب إعراب بعض آيات من القرآن الكريم¹⁰، كما أن له كتباً أخرى مثل كتاب «المفضل»¹¹،

¹- الدارس في تاريخ المدارس 3/2 - شذرات الذهب 374/5.

²- معجم المؤلفين 265/6 - حسن المحاضرة 215/1 - الدارس في تاريخ المدارس 3/2.

³- دائرة المعارف 127/1 - تاريخ الأدب 308/5 - بغية الوعاة 134/2-135- معجم المطبوعات 71.

⁴- كان أول فقيه جمع بين عقائد المالكية في مصر وعقائد المالكية في المغرب، أنظر دائرة المعارف الإسلامية 127/1 حيث جاء ذكره أنه مختصر في الفروع، ويعرف بالمختصر الفرعي، وهو موجز في الفقه المالكي مع التوضيح.

⁵- الأعلام 374/4 - ويعرف بالمختصر الأصولي، وهو موجز لكتاب "منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل"، انظر دائرة المعارف الإسلامية 127/1، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان 334/5-335، والكتاب مطبوع ومتداول.

⁶- أمالي الإيضاح في شرح المفصل، كذا في هدية العارفين 655/1- "الإيضاح شرح المفصل للزمخشري" كذا في معجم المؤلفين 265/6- ويقول السيوطي في بغية الوعاة: "وشرح المفصل بشرح سماه الإيضاح" 134/2-135، وربما هو الذي نعتته ابن خلدون في مقدمته الجامعة ص 547 ب "مقدمة له" انظر الطالع السعيد ص 189.

⁷- تاريخ الأدب 333/5 - محمد بن شنب في دائرة المعارف 127/1 - حسن المحاضرة 215/1- الأعلام 374/4 - المغني ص 126- الدارس في تاريخ المدارس 3/2.

⁸- القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة أو القصيدة في المؤنثات السماعية، وهي عن المؤنثات التي ليست فيها علامة للتأنيث - كارل بروكلمان في تاريخ الأدب 334/5- والقصيدة مطبوعة انظر دائرة المعارف 127/1.

⁹- دائرة المعارف 127/1 - تاريخ الأدب 334/5.

¹⁰- وهو تفسير نحوي، ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب 341/5 أنه في مكة، واعتمد في هذا على مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق 471/12 لكن طارق بن عبد عون الجنابي يشير بعد محاولة أنه لا وجود للمخطوط في مكة. انظر رسالته ص 51.

¹¹- إلى ابنه المفضل: كذا في تاريخ الأدب 334/5، وهي مخطوط، ويذكر بروكلمان أنها في الاسكوريال 1336.

و«المسائل الدمشقية»¹، و«شرح المقدمة الجزولية»²، و«شرح كتاب سيبويه»³، و«المكتفي للمبتدي»⁴، وهي كلها في علم النحو.

وفي علم الكلام كتب في ورقتين "عقيدة ابن الحاجب"، وهو خلاصة أفكار المتقدمين من المتكلمين في ذات الله وصفاته⁵، وصنف في "معجم الشيوخ"⁶، و"جمال العرب في علم الأدب"⁷، و"منظومة المقصد الجليل في علم الخليل"⁸ في علم العروض، وفي علم الصرف والخط ألف "الشافية"⁹، وشرحها¹⁰، وله شرح آخر اسمه "شرح الهادي" يرى العلماء بأنه لغير الشافية¹¹، وبما أن الشيخ اشتهر بالنحو على وجه خاص فله فيه عدة مؤلفات أشهرها كتابه «الكافية»¹²، وأردفها بشرح، ثم أردفها بنظم سماه «الوافية في نظم الكافية» ثم أردف نظم الكافية «الوافية» بشرح، وله على شرح المفصل للزمخشري كتاب «الإيضاح».

¹ - ذكرها بروكلمان في تاريخ الأدب 333/5 في الأمالي، وقال عنها: "مسائل عامة في القاهرة (...) ودمشق (...)".

² - تاريخ الأدب 342/5، وهو موجود في جامع القرويين بفاس 1188. أنظر تاريخ الأدب 350/5.

³ - هدية العارفين 655/1.

⁴ - وهو شرح "الإيضاح" لأبي علي الفارسي في النحو، انظر هدية العارفين 655/1.

⁵ - هدية العارفين 654/1 - تاريخ الأدب العربي 341/5 وهو مطبوع.

⁶ - هدية العارفين 654/1.

⁷ - المصدر السابق.

⁸ - قصيدة في العروض مطبوعة: أنظر معجم المؤلفين 265/6 - هدية العارفين 655/1 - وفي كشف الظنون دراسة موجزة عنها وعن شروحها 1134/2 - الأعلام 374/4 - ويذكر محمد بن شنب في دائرة المعارف الإسلامية 127/1 أنها منظومة من البحر البسيط قام المستشرق فريتاج بطبعها مع ترجمة لها.

⁹ - شرحها عدد كبير من الشراح، وترجمت إلى مختلف اللغات السامية والهند وجرمانية، وأهم شروحها شرح الرضي الأسترابادي الذي حقق من قبل محمد نور الحسن، ومحمد زفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد في أربعة أجزاء، وستأتي شروحها بتفصيل إن شاء الله.

¹⁰ - سيأتي.

¹¹ - هذا الكتاب قليل التداول في الكتب التي أخرجت لابن الحاجب، وأمام هذا الغموض فقد رجح العلماء أن يكون شرحا على كتاب (الهادي في القراءات لمحمد بن سفيان الهواري)، انظر ابن الحاجب النحوي... ص 50.

¹² - معجم المؤلفين 265/6 - مغني اللبيب هامش ص 39 - الطالع السعيد ص 189 "كافية ذوي الأدب في معرفة كلام العرب" كذا في هدية العارفين 655/1 - البداية والنهاية 176/13 لابن كثير حيث ينقل ابن كثير كلاما لابن أبي شامة المقدسي معاصر لابن الحاجب فيه ذكر لها، بيد انه لا وجود لها في "ذيل الروضتين" (ترجمة ابن الحاجب ص 182) لابن أبي شامة، وفي الأعلام للزركلي 374/4 أنه مطبوع، وقال محمد بن شنب في دائرة المعارف 127/1 أنه طبع عدة مرات بالقاهرة وشرح بالقسطنطينية، وأحسن شروحه شرح الرضي الأسترابادي، وهو مطبوع في جزئين، وسيأتي التعريف بالكافية في الباب الثاني من هذا البحث.

العنصر الثالث: شخصيته العلمية والخُلُقِيَّة

1- شخصيته العلمية من خلال آراء العلماء:

يقول يوسف بن ثغري بردي الأتابكي في النجوم الزاهرة: "وفي شهرته ما يغني عن الإطناب في ذكره"¹

وأشاد به أبو الفداء في المختصر، كما أشاد بمؤلفاته بقوله: "وكان الشيخ أبو عمرو متفننا في علوم شتى، وكان الأغلب عليه علم العربية وأصول الفقه، فطبق ذكر هذين الكتابين، أعني الكافية ومختصر في أصول الفقه جميع البلاد خصوصا بلاد العجم، وأكب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا...."²

ويذكر ابن خلكان -وهو أحد المعاصرين له- فيقول: "وجاءني مرارا بسبب أداء شهادات، وسألته عن مواضع في العربية مشكلة فأجاب أبلغ إجابة بسكون كثير، وتثبت تام، ومن جملة ما سألته عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط في قولهم: إن أكلت إن شربت فأنت طالق، لم تعين تقديم الشرب على الأكل بسبب وقوع طلاق حتى لو أكلت ثم شربت لا تطلق؟ وسألته عن بيت أبي الطيب المتنبي:

لقد اصطبرت حتى لات مصطبر

فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ما السبب الموجب لخفض مصطبر ومقتحم، وأن ليست من أدوات الجر، فأطال الكلام فيها، وأحسن الجواب عنها، ولولا التطويل لذكرت ما قاله"³.

ويقول ابن الجزري في طبقات القراء: "قال أبو الفتح عمر ابن الحاجب الأميمي: هو فقيه فاضل مفتي، مناظر مبرز في عدة علوم، متبحر مع ثقة ودين وورع وتواضع واحتمال تكلف. قلت: ومؤلفاته تُنبئ عن فضله "... ولا سيما أماليه التي يظهر منها ما أتاه الله من عظم الذهن وحسن

¹- راجع البداية والنهاية 176/13.

²- المختصر في حياء البشر 81.

³- وفيات الأعيان 250/3، وفي الكلام التباس لم يتبين لي معناه.

التصور إلا أنه أعضل فيما ذكره في مختصره حين تعرض للقراءات، وأتى بما لم يتقدم فيه غيره كما أوضحت ذلك في كتابي المنجد وغيره".¹

ويقول ابن العماد في عرض حوادث ست وأربعين وستمائة: "قال اليافعي: وبلغني أنه كان محبا للشيخ عز الدين بن عبد السلام، وأن ابن عبد السلام حين حبس بسبب إنكاره على السلطان دخل معه الحبس موافقة ومراعاة، ولعل انتقاله إلى مصر بسبب انتقال الشيخ ابن عبد السلام، وفيها أنهما اجتمعا على الإنكار"²

ويقول السيوطي في ترجمة ابن الحاجب: "ومصنفاته في غاية الحسن، وخالف النحاة في مواضع، وأورد عليهم إشكالات والزامات مفحمة يعسر الجواب عنها، وكان فقيها مناظرا، مفتيا مبرزاً في عدة علوم، متبحرا، دينا، ثقة، ورعا، متواضعا،....."³

وفي الديباج المذهب لابن فرحون اليعمري "وقد بالغ الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد -وهو أحد أئمة الشافعية- في مدح كتابه "جامع الأمهات"، ثم وكب من الشطط فقال: "جمال الدين كان وحيد عصره، علما وفضلا واطلاعا".⁴

وعقب الأدفوي على ذلك بقوله: "ما أحسن هذه الشهادة من إمام من أئمة الشافعية"⁵، بينما الذهبي زعم أنه كان من أذكى أهل زمانه، وأبلغهم بيانا⁶ حتى أن بعض المتأخرين غالى وقال: "كان من أذكى العالم".⁷

¹- طبقات القراء 509/1.

²- شذرات الذهب لابن العماد 234/5.

وابن الجزري في طبقات القراء لم يذكر حدث السجن، بل ذكر أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مع ابن الحاجب "أنكرا عليه -أي على صاحب دمشق - سوء سيرته، فأمرهما أن يخرجوا من بلده، فخرجا منها سنة 638هـ". طبقات القراء 509/1.

³- بغية الوعاة 135/2.

⁴- الديباج المذهب ص 190.

⁵- المصدر السابق.

⁶- طبقات النحاة ص 402.

⁷- مفتاح السعادة 139/1.

2- شخصيته الخلقية من خلال آراء العلماء:

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة¹: "كان من أذكي الأئمة قريحة، وكان ثقة، حجة، متواضعا، عفيفا كثير الحياء، منصفا، محبا للعلم وأهله، ناشرا له، محتملا للأذى، صبورا على البلوى، قدم دمشق مرارا..."²، وفي كلام ابن أبي شامة ذكر لأشهر مؤلفاته كذلك.

وأشاد به الأذفوي بقوله: "كان صحيح الذهن، قوي الفهم، حاد القريحة، قال الشيخ الإمام أبو الفتح محمد بن علي القشيري عنه: هذا الرجل تيسرت له البلاغة فتفيا ظلها الظليل، وتفجرت ينابيع الحكمة فكان خاطره ببطن المسيل، وقرب المرمى فخفف الحمل الثقيل، وقام بوظيفة الإيجاز فناده لسان الإنصاف ما على المحسنين من سبيل، وكان رحمة الله من المحسنين الصالحين المتقين...»، ولما مات رثاه الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن المنير بأبيات فقال:

ألا أيها المختال في مطرف العمر هلم إلى قبر الفقيه أبي عمرو
وتوقن أن لا بد يرجع مرة إلى صدف الأحداث مكنونه الدر

وذكره ابن مسدي وأثنى على علمه ودينه وعلمه، وقال أنشدني لنفسه قوله:

ولست أفنط من عفو الرحيم وإن أسرفت جهلا فكم عافا وكم غفرا³

ويقول الأذفوي عنه: "وخصه بثنائه ومدحه، وأعفاه من دمه وقدمه، وذلك من كراماته، وأحد بركاته رحمه الله تعالى"⁴.

¹ - هو من المعاصرين لابن الحاجب، لكنه سمع به فقط ولم يلقه، وترجمة ابن شامة لابن الحاجب تعتبر من أقدم الشهادات المصدرية المعول عليها كما سبق.

² - تراجع رجال القرنين السادس والسابع (ذيل الروضتين) لابن أبي شامة المقدسي ص 182، وعنه نقل ابن كثير في البداية والنهاية 176/13.

³ - الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد لأبي جعفر الأذفوي ص 190-191.

⁴ - المصدر السابق ص 191.

المطلب الثاني: منهج ابن الحاجب

العنصر الأول: منهجه عموماً

1- منهجه النقلي في اللغة، وموقفه من مشكل ثبوتها.

يقول السيوطي: " ولم يذكر ابن الحاجب في مختصره ولا الآمدي في الإحكام سوى الطريق الأول، وهو النقل المحض: إما تواتراً وهو ما لا يقبل التشكيك كالسما والارض والحر والبرد ونحوها، وإما آحاداً كالقرء ونحوه من الألفاظ العربية"¹.

"قال الإمام فخر الدين والآمدي: وأكثر ألفاظ القرآن من الأول أي المتواتر"²، ولم يخف ابن الحاجب رأيه في القول بتوقيفية اللغة جرياً على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، والظاهر من هذه الأقوال قول أبي الحسن الأشعري"³.

وأورد السيوطي مقالة لتاج الدين السبكي في شرح منهاج البيضاوي تشرح قوله ابن الحاجب السابقة، وتقضي بأن هذا الذي قال به ابن الحاجب مذهب لم يقل به أحد لأن ابن الحاجب يرى "القول بالوقف عن القطع بواحد من هذه الاحتمالات"⁴.

2- منهجه في الدراسات النحوية:

نظرة موجزة عن مؤلفاته النحوية والصرفية تبين لنا أن الرجل كان الغالب عليه النحو⁵، وجل المصادر التي أخرجت وترجمت له تحكى أن الغالب عليه هو هذا الاتجاه⁶، وبما أن الرجل ينتهي إلى المدرسة المصرية والشامية فلقد خالف نحاة البصرة في كثير من

¹ - المزهري في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي 57/1.

² - المصدر السابق.

³ - أورده ابن الحاجب في مختصره، ونقله السيوطي في المزهري 23/1، ونبه عليه في ص 25 من الكتاب المذكور.

⁴ - المزهري 23/1 و25 - وابن الحاجب النحوي آثاره ومذهبه 228-229.

⁵ - ذكره الدكتور عبد العال سالم مكرم ضمن أعلام مدرسة مصر والشام، انظر "القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية" ص 175-182.

⁶ - النجوم الزاهرة 360/6 - دائرة المعارف 127/1 - معجم المطبوعات العربية والمعربة ص 71 - هدية العارفين

654/1 - بغية الوعاة 134/2-135 - معجم المؤلفين 265/6 - شذرات الذهب 234/5-235 - البداية والنهاية 17/13.

المسائل النحوية¹ كما يقول السيوطي، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات مفحمة يعسر الجواب عنها²، وكان موقفه منها موقف الموفق بين المذهبين، إذ منهجه كان يقوم على الاختيار وانتقاء الأصح، فأصبح شخصية نحوية مستقلة، يقول طارق عبد عون الجنابي في رسالته:

"الشيء الذي أراه أن الفقه قد أثر في «ابن»³ الحاجب حتى جعله يوغل في التعليقات، وينطبع نحوه بطابع فقهي متمز، فيتفنن في مخالفة النحاة، وإيراد الإشكالات التي تتعذر الإجابة عنها"⁴.

"...سبيله في ذلك أسلوب المحاكمة العقلية، محاكيا المناطقة والفلاسفة، لاجئاً إلى التأويلات البعيدة، خاتماً كل رد يدحض به حجة أو رأياً بعبارة تشيع عنده هي «وليس بمستقيم»، وكثيراً ما تكون هذه العبارة منطلقاً لإبراز تلکم العلل والتأويلات.⁵

وإلى جانبها مدرسة متميزة في النحو سميت بالمدرسة "المصرية والشامية"، وقد جرى الخلاف بين العلماء حولها أي مدرسة مستقلة أم متأثرة بالنحو الكوفي؟ هذا الخلاف شبيه بما جرى بين العلماء حول المدرسة النحوية ببغداد، والأهم من هذا الخلاف هو ما يقدمه الدكتور عبد العال سالم مكرم في كتابه "القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية"، يقول:

1- وجهة متأثرة بالنحو البصري بمقاييسه وأصوله، وعلله وفروعه، وهذه يمثلها ابن الحاجب وأبو حيان الأندلسي.

2- ووجهة ثانية لا تنكر النحو البصري ولا تنكر النحو الكوفي لكنها مع ذلك لا تنكر نفسها ولا تنكر أن لها رؤيا في هذه المشكلات، وأن لها دلوا بين الدلاء، وهذه الوجهة يمثلها ابن مالك وابن هشام". ص 179.

¹ "إن اختلاف المدرستين النحويتين الكبيرتين: البصرية والكوفية تبرز خلال موقفين من القياس والسمع والإجماع، وتشدهما أو تساهلهما من هذه الأمور على اختلاف في المصطلح والعرض..." ابن الحاجب النحوي... ص 18.

² - بغية الوعاة 134/2-135.

³ - كذا في رسالة الجنابي ص 27.

⁴ - المصدر السابق ص 27.

⁵ - المصدر السابق ص 105.

إلى جانب هذا كله فابن الحاجب لم يكن يخفي منحاه البصري في الدراسة النحوية كما بين ذلك علماء النحو،¹ وكان يرد على لسانه ضمير «نا»، ولفظة «أصحابنا»، و«عندنا»، وهي واضحة في القصد إلى البصريين.²

وقد أشار إلى ما يشبه هذا عند الحديث عن الحذف قياسا في مواضع، إذ قال: "وإنما كانت هذه قياسا لأنه قد علم فيها ضابط كلي بالاستقراء، وعلموا أنهم يحذفون منه الفعل لزوما، وهذا معنى الاستقراء عندنا".³

3- تعريف الكافية في النحو:

"الكافية" اختصارا⁴، واسمها "كافية ذوي الأدب إلى معرفة كلام العرب"⁵، وهو مختصر تعليمي في النحو بلغت شهرته الآفاق⁶، قصر فيه ابن الحاجب على مسائل النحو وفصلها عن مسائل الصرف⁷، طلب منه الملك الناصر بن الملك عيسى الأيوبي صاحب الكرك⁸ أن ينظمها.

أما السلطان فقد جاء ذكره في الجزء الثاني من شرح الأسترابادي على الكافية ص 411 (الصفحة الأخيرة): "السلطان الخاقان الأفخم السلطان بن السلطان (...). السلطان الغازي عبد الحميد خان".

¹ - القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص 179- ابن الحاجب النحوي آثاره ومذهبه ص 26-27.

² - الجنابي في رسالته ص 123.

³ - المصنف على الكافية ص 28، نقل الجنابي في رسالته ص 123، راجع موافقاته ومخالفاته للمذهب البصري والكوفي عند طارق عبد عون الجنابي في رسالته، الصفحات (124-166).

⁴ - كذا ترد.

⁵ - كذا في هدية العارفين 655/1.

⁶ - تاريخ الأدب 308/5- معجم المطبوعات ص 27، راجع متنها في "مجموع مهمات المتون.. " ص 381 من دون مؤلف، متن الكافية لابن الحاجب، وهو كتاب تعليمي يحوي متون علم النحو والصرف.

طبع في روما سنة 1591، وكبور سنة 1888-1891، وقازان سنة 1889، وغير ذلك، وطبع عدة مرات بالقاهرة، وشرح بالقسطنطينية (انظر محمد بن شنب في دائرة المعارف الإسلامية 127/1)، أما بروكلمان فقد ذكر في تاريخ الأدب أماكن وجوده في كل جهات العالم مخطوطا أو مطبوعا.

⁷ - انظر نقرة كار على شرح الشافية في علم التصريف، وانظر كتاب خانه راشد لحكا كلرده نومرو 21 المحلى بهامشه ص 4، فيه ذكر لقيام الصرف علما قائما بذاته، ومنفصلا عن علم النحو.

⁸ - بغية الوعاة 134/2-135- حسن المحاضرة 215/1- تاريخ الأدب العربي 26/5.

له فنظّمها في منظومته سماها "الوافية في نظم الكافية"، ثم طلب إليه أن يشرحها فشرحها¹، ونظرا لهذه الشهرة فلقد أكب عليها النحويون بالشرح والتعليق والاختصار والإعراب حتى بلغت شروحها واحدا وسبعين شرحا² تقريبا عدا الاختصار والإعراب³، واتجهت شهرة الكافية شرقا، ولم يتردد لها صدى في المغرب إلا في الأعصر المتأخرة⁴، أشاد بها السيوطي⁵، ووصفها بروكلمان⁶، ومحمد بن شنب في دائرة المعارف الإسلامية⁷، وأهم شروحها شرح الرضي الأسترابادي⁸، ويذكر بروكلمان أنه من أحسن شروح الكافية بل من أحسن كتب النحو على العموم، وعلى الكتاب شواهد⁹، وللمؤلف نفسه شرح على الكافية¹⁰، وشرح آخر على نظم الكافية كما سبق بيانه.

العنصر الثاني: مكونات منهج ابن الحاجب

1- القياس والسمع

القياس والسمع أصلان أساسيان من أصول النحو، وقد اختلف موقف الكوفيين والبصريين

من هذين الأصلين، قيل إن "البصريين أصح قياسا لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع، ولا يقيسون على الشاذ، والكوفيون أوسع رواية"¹¹.

¹ - حسن المحاضرة 215/1 - بغية الوعاة 134/2-135- المغني للبيب هامش ص 612- وفي تاريخ الأدب لبروكلمان 327/5 أن هناك - غير شرح المؤلف - 30 شرحا للكافية، وثلاثة مختصرات، وثلاث منظومات.

² - ذكرها طارق عبد عون الجنابي في رسالته، وذكر شرحا للكافية أو صلها إلى سبعين شرحا مرتبة حسب سنة وفيات الشراح، وقد تتبعتها في تاريخ الأدب العربي، ووجدتها تنقص عن العدد الذي قال إذ فيها فقط 67 شرحا. انظر تاريخ الأدب 5/ (309-325).

³ - راجع المختصرات في رسالة عبد عون الجنابي ص 67-68، وتاريخ الأدب 5/326-327.

⁴ - رسالة طارق عبد عون الجنابي ص 57.

⁵ - بغية الوعاة 135/2.

⁶ - تاريخ الأدب 5/309.

⁷ - دائرة المعارف 1/127.

⁸ - مطبوع ومحقق في جزأين.

⁹ - تاريخ الأدب 5/310-311.

¹⁰ - حسن المحاضرة 215/1 - بغية الوعاة 134/2-135- وعلى الشرح شروح، انظر تاريخ الأدب لبروكلمان 5/309.

¹¹ - نقله الجنابي في رسالته عن "الاقتراح في علم أصول النحو... للسيوطي ص 64، انظر رسالته ص 233.

وقال الأندلسي في شرح "المفصل" فيما نقله السيوطي: "الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين"¹
وإذا كان ابن الحاجب لا يخف تأثيره بالبصريين كما سلف فإننا نراه يحدد القياس بأنه: "ضابط كلي بالاستقراء"²

أما الدكتور طارق عبد عون الجنابي فإنه يقوم ببيان منهج ابن الحاجب مع شيء من النقد المهيج يقول في رسالته "ابن الحاجب النحوي آثاره ومذهبه":

"إن منهج ابن الحاجب في القياس والنقل يعتوره شيء من الاضطرابات في بعض المواضع، ولكنه ألمح بوضوح خلل هذا الاضطراب روح التمسك بأقياس حين لا يجد من كلام العرب إذا كان شائعا مشهورا، فإذا وجده أقامه في المكان الأرفع، وعول عليه، وكان التأويل وسيلته المثلى لإثبات هذا أو ذاك".³

"وبعد، فابن الحاجب ينحاز في هذا المنهج إلى صف البصريين لأن البصريين والكوفيين جميعا يقيسون، ولكن هؤلاء أوسع قياسا إذا دخل في نطاق أقيستهم جماعات وأفراد لم يكن أولئك يؤمنون بفصاحتهم، وإن آمنوا بها ألزموها الشذوذ، إن لم يكن أقوالهم مما يجمعها القياس".⁴

ويضيف: "إن القياس تنظيم وتقنين عقلي محض، وتأثر ظاهر بالفقه، وابن الحاجب له يد طويلة في هذا العلم، ولا ريب في أن الفقه يتجه به اتجاهها قياسيا، لا يستطيع الخروج عليه إلا في الحدود التي يستساغ فيها ذلك، ويسمح له به طبع الفقيه الأصولي".⁵

2- التعليل والتأويل:

التعليل قديم قدم النحو ذاته، لكن الروابط التي ربطت بين النحو وعلوم المنطق

¹- من كتاب الاقتراح، الصفحات 234-235.

²- رسالة الجنابي في ص 235.

³- المصدر السابق ص 237.

⁴- المصدر السابق.

⁵- المصدر السابق ص 238.

والفقه أذكت ولع النحاة بالتعليل¹، لهذا نراهم ابتدعوا العلة وعلّة العلة أو ما أسموه بالعلل الثواني ثم العلل الثوالث، وقسموا العلل إلى: علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية²، نعلم بأن ابن الحاجب كان فقيها أصوليا ونحويا كما تذكر المصادر فلا غرابة أن تجده مغرما بهذه العلل إلى حد الإغراق³، وقد ذكر طارق عبد عون الجنابي نماذج من تعليلاته النحوية والصرفية يقول:

"إن بين يدي مجموعة كبيرة من هذه التعليلات، ولكنني اكتفيت بهذه النماذج بُغية الاستدلال بها على موقفه من التعليل النحوي الذي انتحى به جانب التأثير البين بالفقه والمنطق، فهذه التعليلات تغلف كل رأي، ويعول عليها في إثبات آرائه ودعمها، أو مناقشة آراء النحاة وتأييدها أو نقضها، وكأنني به لا يستطيع الإفلات من هذا الانجذاب نحو معالجة مسائل بأسلوب الفقهاء والأصوليين..."⁴

وبالتوغل في أعماق الدراسة لمحاولة الوقوف على مكنوناتها تتضح مختلف التأويلات، ويتضح موقفه من التأويل، وبما أن الرجل كان شديد الولع بالتعليل كما سبق فإن التأويل لا يمكن فصله عن التعليل عنده، ولا يقف عند آرائه الخاصة المتميزة بل تعداها إلى تأويل كلام العلماء، ومن ذلك أنه كان يجيب الزمخشري في بعض الأحيان بالتأييد والرد مستندا في ذلك إلى التأويل⁵.

المطلب الثالث: كتابه الشافية

العنصر الأول: التعريف بالشافية.

الشافية في علم التصريف⁶ تشمل مقدمة في التصريف والخط، وهي مشهورة في هذا

¹ - المصدر السابق ص 241-242.

² - المصدر السابق ص 242- وراجع ما كتبه ابن جني في الجزء الأول من الخصائص، الباب السابع، ذكر علل العربية أكلامية هي أم فقهية.

³ - رسالة الجنابي، "منهجه في الدراسة النحوية" ص 242.

⁴ - راجع هذه النماذج في الصفحات (242-245) من المصدر السابق.

⁵ - ابن الحاجب النحوي، الصفحات (243-245).

⁶ - سبقت ترجمتها في الحديث عن مصنفات ابن الحاجب.

الفن كمقدمته المشهورة في النحو¹، صنّفها ابن الحاجب للتعليم، ولتلبية رغبة الملك الناصر بن الملك²، يقول: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

وبعد، فقد التمس مني من لا تسعني مخالفته أن ألحق بمقدمتي في الإعراب مقدمة في التصريف على نحوها، ومقدمة في الخط، فأجبتة سائلا متضرعا أن ينفع بهما كما نفع بأختهما، والله الموفق"³.

ولم تُقصر الشافية كأختها الكافية في الشهرة فقد ذاع صيتها لأن ابن الحاجب فصل بها بين علم النحو وعلم الصرف بعد أن كانا من قبل علما واحدا⁴، وتناول فيها الجديد من المعرفة في مجال علم الصرف، وبذلك خالف النحاة بشواهد بليغة.

العنصر الثاني: الشافية ومكانتها العلمية:

لبيان مكانة الشافية بين كتب التصريف لابد من إشارة وجيزة إلى تاريخ الدراسات الصرفية قبل تأليف الشافية، ثم بيان الكيفية التي أصبح عليها علم الصرف في عهد الشافية مستعرضا أوجه الأقوال التي قيلت فيها وفي علم الصرف في عهدها، فلنحاول بإيجاز غير مخل.

كانت مباحث الصرف مندرجة في كتب النحو لأن موضوعات اللغة والنحو والصرف كانت تُحمل على أنها باب واحد⁵، هو علم اللسان العربي كما يقول ابن خلدون⁶، وإذا كان ابن الحاجب في الشافية حاول أن يُعطي لعلم التصريف استقلالية عن علم النحو لكون

¹- معجم المطبوعات 71 - كشف الظنون 1020/2.

²- اسمه لم يرد في نص ابن الحاجب ولكنه على وجه الظن الملك الناصر بن الملك المعظم عيسى الأيوبي صاحب الكرك على ما يظهر في ترجمة ابن الحاجب، لأن الملك كان من تلامذته، كما سبق بيانه.

³- الأستريادي على شرح الشافية ص 1/1.

⁴- وهذا يظهر في تصنيف ابن الحاجب للكافية وحدها وللشافية وحدها، فقصر الأولى على مسائل النحو في حين قصر الثانية على علم التصريف وفصلها عن مسائل النحو، لكنه لم يقل باستقلالية العلمين عن بعضهما استقلالية تامة، يقول: "اعلم أن الصرف جزء من أجزاء النحو بلا خلاف من أهل الصناعة" الأستريادي على شرح الشافية 6/1.

⁵- ابن الحاجب النحوي ص 74.

⁶- راجع مقدمة ابن خلدون - الفصل السادس والثلاثون.

المتقدمين من النحاة " يطلقون النحو على ما يشمل التصريف "¹ فإنه يعود ليعطي تحديدا دقيقا لعلم التصريف لا يُفهم منه الابتعاد الكامل عن علم النحو، فمحاولته لتأليف الشافية مقتصرة على التصريف وحده لها سندها لأن المتأخرين من النحاة - وابن الحاجب منهم - على أن التصريف قسم النحو لا قسيم منه ².

ولكي تأخذ الشافية مكانها اللائقة بها في تاريخ الدراسات الصرفية يجدر بنا أن نشير إلى أن أول كتاب في التصريف بمعناه العلمي بُحِثُ منه موضوعات ومسائل الصرف مستقلة في كتاب منفرد هو تصريف المازني وشرحه لابن جني ³ المسمى المنصف ⁴، ووضع ابن جني كتابا آخر سماه التصريف المملوكي ⁵.

يقوم تصريف المازني في بحثه على بحث الحروف الأصول، وحروف الزيادة والإبدال والإعلال، وباب المعتل وما لم يجرى مثاله من الصحيح...، وهو ما يسمى بـ "التمرين" ⁶، أما ابن جني فقد أجمل مباحث كتابه في قوله: "فليعلم أن التصريف ينقسم إلى خمسة أضرب: زيادة بدل، حذف، تغيير حركة أو سكون أو إدغام" ⁷، وحتى عصر ابن جني - كما نلاحظ في مبحث المازني وابن جني لعلم التصريف - كان النحو والصرف ينظمان جنبا إلى جنب حتى أن ابن جني اشتهر بالنحوي، لأن النحو بالمعنى العام ينتظم فيه الصرف ⁸، ثم جاء عهد جمال الدين بن الحاجب "الذي قيل أنه هذب مسائل الصرف، وأحكم بناءها، ورتب أبوابها، ووضع فصولها وضعا علميا سليما، جمع به ما تفرق من مسائله التي يعرفها، بحيث لم يشذ عن مبحث من مباحث التصريف التي تطرق إليها الباحثون منفردة، ومضمنة في كتب النحو واللغة، وصارت الشافية بذلك من خيرة كتب التصريف من حيث الإحاطة

¹- الأسترابادي على الشافية 6/1.

²- المصدر السابق 6/1.

³- أبو الفتح عثمان ابن جني، ولد قبل 830هـ، راجع ترجمته في مقدمة الخصائص، الجزء الأول.

⁴- ورد ذكره في الخصائص 285/2، وهامش ص 334.

⁵- يبدو أنه كتاب "مختصر التصريف"، مطبوع وعليه شرح لابن يعيش، وتوجد منه نسخة مخطوطة في دار الكتب، انظر مقدمة الخصائص 63/1.

⁶- المصنف (شرح تصريف المازني) 2/1، 267، 98، 242/7، عن رسالة الجنابي ص 75.

⁷- التصريف المملوكي ص 6-7، نقله الجنابي في رسالته ص 75.

⁸- انظر "ابن جني في النحو والصرف"، مقدمة الخصائص 48/1.

والتبويب"¹.

وإذا تصفحنا موضوعات الشافية وجدنا الاختلاف بينه وبين من سبقه في تناول موضوعات علم التصريف ظاهراً جداً، فابن الحاجب بعد تعريفه لعلم التصريف² أدرج في كتابه وجوه معرفة القلب، وأنواع الأبنية وأحوالها في الاسم والفعل المضارع والماضي والصفة المشبهة، وأوزان المصدر وقياساته، ثم تناول فيه أسماء الزمان والمكان والآلة والتصغير والاسم المنسوب³، وأنواع الإسم الدال على الجمع وحكم كل نوع، وجمع التكسير والتقاء الساكنين والابتداء؛ همزة الوصل والوقف والمقصور والممدود، وذو الزيادة⁴ والإمالة، وتخفيف الهمزة، والإعلال والإدغام، ومسائل التمرين ثم القسم الأخير من الشافية وهو مقدمة في الخط⁵، وبهذا يكون جمال الدين ابن الحاجب قد جمع في الشافية "زبدة فن التصريف في أوراق قليلة، غير تارك مما يجب علمه ولا يجمل بالمتأدب جهله شيئاً، مشيراً فيها إلى اختلاف العلماء أحياناً، وإلى لغات العرب ولهجاتهم أحياناً أخرى"⁶.

وبعد عصر ابن الحاجب بقيت الشروح تترسم الخطى وتقتفي الأثر، يُسجل عن هذه الشروح أنها لم تكن لها مذاهب واضحة في الإبداع لأنها لم تخرج عن المنهج إلا نادراً.⁷

العنصر الثالث: شروح الشافية

صنف ابن الحاجب الشافية وصنف في شروحها⁸، واعتنى بشأنها بعده جماعة من الشراح أوفوا الغاية في دراسة الصرف، ولم يخرجوا عليها في المنهج ولا في المادة

¹ - أبنية الصرف في كتاب سيبويه لخديجة الحديثي ص 34-39-40.

² - راجع ص (7-1) في الجزء الأول من شرح الأسترابادي على الشافية.

³ - شرح الأسترابادي على الشافية الجزء الأول.

⁴ - شرح الأسترابادي على الشافية الجزء الثاني.

⁵ - شرح الأسترابادي على الشافية الجزء الثالث.

⁶ - مقدمة المحققين لشرح الأسترابادي على الشافية 2/1.

⁷ - ابن الحاجب النحوي... ص 66-67-76.

⁸ - شرح المصنف أثير حوله الشك كما سيأتي.

المدروسة، تجاوزت شروحها الثلاثين، وزادت الحواشي على ذلك كثيراً¹، فيها المكتوب بالعربية، وفيها المنقول إلى الفارسية، وفيها المنظوم والمنثور، وفيها الشرح المباشر على المتن، وفيها الشرح على الشرح، وفيها الشرح الممزوج بالمتن والمستقل عنه، وكل ترجمة من الترجمات التي سأسير إليها تحمل في طياتها وصفا لا يخرج عما تقدم بيانه.

1- شروحها بالعربية:

أ- شرح ابن الحاجب لمؤلفه².

ب - شرح رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي النحوي المتوفى سنة ست وثمانين وستمائة للهجرة³، وهو شرح جامع، أوله: "أما بعد، حمدا لله تعالى على توالي نعمه إلى آخره"⁴. طبع عدة مرات في القاهرة سنة 1345هـ بتحقيق جماعة، كما طبع في اسطامبول⁵، وذكر له كارل بروكلمان في تاريخه العديد من الأماكن التي طبع فيها مع تخريج أرقام مخطوطاته⁶.

ج- شرح السيد ركن الدين حسن بن محمد الأستراباذي، صاحب المتوسط، المتوفى سنة سبع عشرة وسبعمائة للهجرة⁷هـ، توجد منه نسخة في برلين وبطرسبرغ ورامبور⁸.

د- شرح أحمد بن الحسن فخر الدين الجاربردي المتوفى سنة ست وأربعين وسبعمائة للهجرة، أوله: "نحمدك يا من بيده الخير والجود الخ...، قال: لما كانت مع صغر حجمها مشتملة على فوائد شريفة لم يتفق لها صعباها، وأشار علي جمع من الفضلاء أن أكتب لها شرحا ينحل به ألفاظها حتى توسلوا إلي بما لا تسعني مخالفته، وهو الوزير محمد بن الوزير

¹- في كشف الظنون 1020/2-1022 - واحد وعشرون شرحا عدا شرح المؤلف، وفي تاريخ الأدب 327/5-331 ستة وعشرون شرحا بشرح المؤلف عدا الحواشي والمنظومات، وفي رسالة طارق عبد عون الجنابي الصفحات (76-79) ثلاثة وعشرون شرحا بشرح المصنف.

²- سبقت ترجمته.

³- اختلف في سنة وفاته : طارق عبد عون الجنابي في رسالته جعلها 686هـ، وبروكلمان في تاريخ الأدب 327/5 جعل وفاته سنة 684هـ، أما حاجي خليفة في كشف الظنون فإنه أشار إلى السنة من دون ذكرها كالمتردد في ذلك.

⁴- كشف الظنون 1021. وذكر بروكلمان أنه توفي سنة 713هـ.

⁵- انظر رقم المخطوطات في تاريخ الأدب 328/5.

⁶- المصدر السابق.

⁷- كشف الظنون 1021/2، وذكر بروكلمان أنه توفي سنة 713هـ.

⁸- أنظر رقم المخطوطات في تاريخ الأدب 328/5.

علي الساوي، فشرعت متوسطا في الإيجاز والإكثار¹، وشرح الجاربردي مطبوع عليه حاشيتان لابن جماعة، والثالثة للعلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني المتوفى سنة خمس وخمسين وثمانمائة للهجرة، والرابعة لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة إحدى عشر وسبعمائة للهجرة²، أخرج له بروكلمان عددا كثيرا من أماكن طبعه وأرقام مخطوطه في كافة جهات العالم التي هو موجود بها³.

هـ- شرح تاج الدين أبو محمد بن عبد القادر مكتوم الحنفي المتوفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة⁴.

و- شرح للحسن بن محمد النظام الأعرج النيسابوري المتوفى حوالي سنة عشرة وسبعمائة للهجرة⁵، طبع في إيران طبعة حجرية سقيمة⁶، وأخرج له بروكلمان في تاريخ الأدب أرقام مخطوطاته في كافة الجهات⁷، وهو شرح ممزوج.

ز- شرح لمحمد بن قاسم الغرابيلي المتوفى سنة ثمان عشرة وتسعمائة للهجرة، مخطوط بمكتبة جمعية المستشرقين الألمان 74 بيطرسبرغ ثالث 483⁸.

ح- شرح لعز الدين محمد بن أحمد المعروف بابن جماعة، وهي حاشية على شرح الجاربردي، طبع في اسطنبول، ومخطوطه في الإسكندرية ورامبور⁹، أولها: أحمد الله على نعمه¹⁰.

ط- وحاشية أخرى لابن جماعة أولها: "نحمدك على ما صرفت الجنان بأشرف طرف الجنان" الخ، سماها "الدرر الكافية في حل شرح الشافية"، ذكر فيها أنه وجد نسخة الشارح

¹- كشف الظنون 1021/2.

²- رسالة الجنابي ص 76-77 وذكر بروكلمان بأن له خمس حواشي، انظر تاريخ الأدب 328/5.

³- تاريخ الأدب 328/5.

⁴- كشف الظنون 1021/2.

⁵- تاريخ الأدب 328/5.

⁶- رسالة الجنابي 78.

⁷- تاريخ الأدب 328/5.

⁸- حاشية على شرح الجاربردي على الشافية - تاريخ الأدب 328/5.

⁹- كشف الظنون 1020/2.

¹⁰- المصدر السابق.

وعليها هامش منه، وقد ترك تفصيل مجملاته وتفسير مهماته لغاية وضوحها عنده، فأخذها بعينها، وأضاف الفوائد إلى المواضع التي تحتاج إلى تنبيه وتحرير وإيضاح وتقرير.¹

ي- "الدرر الكافية" لحسين الكلاني الرومي، ألفه سنة خمس وثمانين وتسعمائة للهجرة، طبع في مجموعة باسطامبول سنة 1310هـ، ومخطوطه بالإسكندرية 12 أدب قوله 28/2.²

ك- شرح للخضر اليزيدي، أكمله في سنة عشرين وسبعمائة من الهجرة، ثان 61/2، مشهد 17/12 رقم 56.³

ل- شرح للمولى عصام الدين الإسفرايني المتوفى سنة أربع وأربعين وتسعمائة، سليم أغا 1197⁴ وهو شرح بالقول⁵، قال بروكلمان بأنه حاشية على شرح الجاربردي على الشافية⁶.

م- شرح لسيد عبد الله بن محمد الحسيني المعروف بنقره كار، المتوفى حدود سنة ست وسبعين وسبعمائة للهجرة، ذكر فيه أنه ألفه للأمير الجائي من أمراء مصر، أوله: "الحمد لله الذي علا بحوله ودنا بطوله"، وهو شرح ممزوج، حلي هامشه بالشرح المنسوب إلى فاضل العصام رحمه الله⁷، طبع بالحجر في اسطامبول سنة 1276هـ، وطبع فيه كذلك سنة 1306هـ، وسنة 1310هـ، وسنة 1320هـ، وله ترجمة بالتركية، وأخرج بروكلمان أرقام مخطوطاته في كافة الجهات الموجود بها.⁸

¹- المصدر السابق.

²- تاريخ الأدب 329/5. وهذا الشرح وجدته منسوباً لابن جماعة بنفس العنوان في كشف الظنون، وهو حاشية على شرح الجاربردي، أنظر تاريخ الأدب 329/5.

³- المصدر السابق.

⁴- المصدر السابق.

⁵- المصدر السابق 1022/2.

⁶- تاريخ الأدب 329/5.

⁷- شرح الشافية لسيد جمال الدين الحسيني المعروف بنقرة كار- الطبعة الثانية بإسطامبول، طبع في مطبعة أحمد كامل في الأستانة، حلي هامشه بالشرح المنسوب إلى فاضل العصام، كتب في وسط الصفحة بحروف غليظة - كتاب بخانه راشد حكا كلرده نومرو 21.

⁸- تاريخ الأدب 329/5.

ن- شرح للعلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني، مات سنة خمس وخمسين وثمانمئة للهجرة، وهي حاشية على شرح الجاربردي على الشافية كما سبق¹.

س- شرح للسيوطي المسعى بالطراز اللازوردي، ذكرها في فهرس مؤلفاته².

ع- شرح لجمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام النحوي، صاحب المغني اللبيب عن كتب الأعراب، وهو شرح في مجلدين، سماه "عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب"³، توفي سنة اثنين وستين وسبعمائة.

ف- شرح "المناهل الصافية في كشف معاني الشافية" للطف الله بن محمد بن الغياث المتوفى سنة ألف وخمس وخمسين للهجرة، المكتب الهندي 954، باريس 6643، القاهرة ثان 470/2.

ص- شرح لأبي جمعة سعيد بن مسعود المراكشي الصنهاجي، سماه "كنز الطالب في شرح شافية ابن الحاجب"، الإسكوريال ثان رقم 20⁵.

ق- "كفاية المفرطين" لمحمد طاهر بن علي المولوي نظام الدين بحر الكجراتي، من علماء القرن العاشر الهجري، آصفية 834/2، 7، 77، نشر في دلهي سنة 1283 هـ⁶.

ر- شرح لأبي بكر بن شهاب الدين الشنواني المتوفى سنة تسع عشرة بعد الألف الأولى من التقويم الهجري، القاهرة ثان 70/2⁷.

ش- ومن شروحها شرح ممزوج لقرة سنان، وهو يوسف عبد الملك بحشايش الرومي المتوفى سنة اثنين وخمسين وثمانمئة للهجرة، المسعى ب"الصافية"، وهو سهل المأخذ، صاحبه صاحب "المضبوط في شرح المقصود" على ما ذكره في شرح قوله: "وقد ذكرنا المخارج

¹-كشف الظنون 1021/2.

²-المصدر السابق، وهي حاشية على شرح الجار بردي على شرح الشافية كما سبق.

³-المصدر السابق، وانظر الجنابي في رسالته ص 77.

⁴-تاريخ الأدب 330/5- وكمل اسم النسخة الجنابي في رسالته ص 78.

⁵-المصدر السابق، واسم الشرح انفرد به طارق عبد عون الجنابي في رسالته ص 79.

⁶- المصدر السابق.

⁷- المصدر السابق.

في الصافية شرح الكافية" ¹، توجد منه نسخة في برلين رقمها 6610، قولة 44/2، بولون 319، كمبردج، ثالث 824، القاهرة ثان 63/2².

ت- وشرحا إبراهيم بن أحمد الملا الجي، المتوفى سنة عشرين وألف، وقيل في السنة الثالثة بعد الألف، وصل فيه إلى الخط، سماه "الغنية الكافية في بغية حل الشافية"، مجلد ³.

ث- "المناهج الكافية في شروح الشافية" للشيخ زكريا بن محمد الأنصاري المصري، توفي سنة اثنين وستين وتسعمائة للهجرة، أوله: "الحمد لله الذي تفضل وتكرم" ⁴، وهو شرح ممزوج، ذكر له بروكلمان بعض أماكن الطبع مع بعض أرقام مخطوطاته.

خ- "مفتاح الشافية"، ألفه عرفان الدين السواتي معتمدا على أحمد جي شاهقل ركن أبادي، ونشره محمد سعيد داغبندي. ⁵

ذ- "فوائد الشافية" لحسين بن أحمد زيني زاده، حوالي سنة خمسين ومائة وألف من الهجرة، نشر في نوفمبر سنة 1291هـ. ⁶

ض- شرح لأحمد بن عبد الكريم الحاج عيسى المعروف بالترمانيني، سماه "شرح الشافية بالعباير الوافية"، منه نسخة بخط المؤلف في دار الكتب رقمها 158⁷.

ظ- شرح شواهد شروح الشافية لعبد القادر البغدادي المتوفى سنة ثلاث وتسعين وألف للهجرة، جميع فيه شرح الرضي الأسترباذي، وشرح الجاربردي على الشافية، القاهرة ثان 62/2 لندن 193⁸.

¹- كشف الظنون 1022/2.

²- رسالة الجنابي ص 77 - كشف الظنون 1020/2-1022 - تاريخ الأدب 320/5.

³- كشف الظنون 1022/2- رسالة الجنابي ص 77. تاريخ الأدب 329/5-330.

⁴- كشف الظنون 1022/2 - تاريخ الأدب 329/5-330.

⁵- كذا في تاريخ الأدب 331/5.

⁶- المصدر السابق.

⁷- المصدر السابق، رسالة الجنابي ص 79.

⁸- تاريخ الأدب 330/5، وهو كتاب مطبوع من ثلاثة أجزاء من شرح الأسترباذي على الشافية، جزء مستقل (الجزء الرابع) يضم شرح شواهد الجاربردي والرضي الأسترباذي لعبد القادر البغدادي، من تحقيق السادة الأستاذة: محمد زفراف - محمد محيي الدين عبد الحميد.

غ- شرح العافية لرضي الدين محمد أمين القرشي، آصفية 894/2 رقم 13¹.

أ- شرح لعبد الباسط بن رستم على القنوجي المتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين بعد الألف للهجرة، أنظر حقائق الحنفية 464 - بوهار 375².

ب- وشرحها أحمد بن محمد المعروف بابن المنلا الحلبي المتوفى في حدود سنة تسعين وتسعمائة من الهجرة³.

2- شروحها بالفارسية:

ج- شرح لمحمد هادي بن محمد صالح المازندراني المتوفى حوالي سنة ثمان وثمانين وألف من الهجرة المحمدية، المكتب الهندي Ethé 2435، الجمعية الآسيوية بالبنغال 553/2، بنكيبور 779/9، طهران سیه سالار 352/2، وطبع بالمجر في طهران سنة 1268 هـ⁴.

د- شرح بعنوان "العافية" لمحمد سعد غالب، توفي حوالي ثمان ومائة وألف للهجرة، طبع بالحجر في اسطامبول سنة 1302 هـ، وكونيور سنة 1278 هـ⁵.

هـ- شرح لغلام محمد بن عبد الله يار الميردي الامر وهاوي المتوفى سنة ثمان وتسعين وألف من الهجرة المحمدية، ألفت لبنت أورانك زيب زيب السماء، الجمعية الآسيوية بالبنغال 561/2⁶.

و- شرح لمحمد علي كربلائي، مشهد 17/12، رقم 58⁷.

ز- شرح لمحمد ظهور الله بن محمد نور الله، آصفية: 898/2 رقم 46⁸.

ح- شرح علاء الدين علي بن محمد المعروف بقوشجي، توفي سنة تسع وسبعين وثمانمائة للهجرة⁹.

¹- المصدر السابق.

²- المصدر السابق ص 331.

³- كشف الظنون 1022/2.

⁴- تاريخ الأدب 330/5.

⁵- المصدر السابق.

⁶- المصدر السابق ص 331.

⁷- المصدر السابق

⁸- المصدر السابق

⁹- كشف الظنون 1022/2

ومن المنظومات أرجوزة للمواهي المتوفى سنة تسع عشرة ومائة وألف من الهجرة¹، و"نزهة الألباب" لمصطفى بن محمد بن إبراهيم بن زكري الطرابلسي في آخر ديوانه²، و"فرائد الملك" لإبراهيم بن حسام الدين الجرمانى الشريفي المتوفى سنة ست عشرة وألف من الهجرة، مع شرح باسم الفرائد الجميلة، اعتمد فيه على الجاربردي³، وهناك تسعة شروح وتعليقات وأربع منظومات لدى آلورت⁴.

المطلب الرابع: وصف الشافية

مقدمة مشهورة في فن التصريف كمقدمته المعروفة في النحو⁵، وهو كتاب تعليمي في الصرف⁶، ألفها ابن الحاجب وشرحها⁷.
والشافية كتاب صغير حجمه عباب علمه⁸، تحتوي على مقدمتين: مقدمة في التصريف، ومقدمة في الخط⁹.

المطلب الخامس: موضوع الشافية

يقول ابن الحاجب:

"فقد التمس مني من لا تسعني مخالفته أن ألحق بمقدمتي في الإعراب¹⁰ مقدمة في التصريف على نحوها¹¹، ومقدمة في الخط".

¹- تاريخ الأدب 331/5

²- المصدر السابق

³- المصدر السابق ص 331-332.

⁴- المصدر السابق ص 332.

⁵- كشف الظنون 1020/2-1022- معجم المطبوعات ص 71.

⁶- تاريخ الأدب العربي 327/5.

⁷- حسن المحاضرة 215/1- بغية الوعاة 135/2- الطالع السعيد ص 189- تاريخ الأدب 327/5، وقد وضع بروكلمان علامة استفهام أمام هذا الشرح، وأحال على كشف الظنون 3/4-9.

أما طارق عبد عون الجنابي في رسالته ص 50 فيرى بأن العلماء أخذوا هذا الاستفهام من شرح أحمد بن الحسن فخر الدين الجاربردي«ت 746»، انظر ترجمته وشرحه في كشف الظنون 1021/2. يرى في شرحه على الشافية أنه سمع هذا الشرح ليس من مصنفاته بل كان قد أملى عليه أشياء متفرقة فتصرفوا فيها بالزيادة والنقصان، وجمعوها.

⁸- نقره كار على شرح الشافية ص 3.

⁹- انظر نص ابن الحاجب في التعريف بالشافية، سبق.

¹⁰- يقصد بمقدمته في الإعراب كتابه.

¹¹- راجع الشرح المنسوب إلى فاضل العصام رحمه الله على الشافية، مطبوع بهامش شرح نقره كار على الشافية ص 3.

وفي مقدمة التصريف تناول المباحث التالية:

- 1- تعريف التصريف¹.
- 2- أنواع الأبنية².
- 3- أبنية الفعل الماضي³.
- 4- أبنية الفعل المضارع⁴.
- 5- الصفة المشبهة⁵.
- 6- المصدر⁶.
- 7- اسم المدة والزمان والمكان والآلة⁷.
- 8- التصغير⁸.
- 9- المنسوب⁹.
- 10- جمع التكسير¹⁰.
- 11- التقاء الساكنين¹¹.
- 12- الابتداء¹².
- 13- الوصف¹³.
- 14- المقصور والممدود¹⁴.

-
- 1- شرح الأستراباذي على الشافية 1/1-7.
 - 2- المصدر السابق.
 - 3- المصدر السابق 1/67-113.
 - 4- المصدر السابق 1/114-143.
 - 5- شرح الأستراباذي على الشافية 1/«143-148».
 - 6- المصدر السابق 1/«148-151».
 - 7- المصدر السابق 1/«160-189».
 - 8- المصدر السابق 1/«189-294».
 - 9- المصدر السابق 2/«4-85».
 - 10- المصدر السابق 2/«89-210».
 - 11- المصدر السابق 2/«10-250».
 - 12- المصدر السابق 2/«250-270».
 - 13- المصدر السابق 2/«324-330».
 - 14- المصدر السابق.

- 15- ذو الزيادة¹
 16- الإحالة²
 17«الإعلال»³
 18- الإبدال⁴
 19- الإدغام⁵
 20- الحذف⁶
 21- مسائل التمرين⁷.

ثم تناول موضوع الخط، وفيه جمع بين الخط والصرف والنحو، لأنها كلها من علوم العربية المسماة بـ "علم الأدب" وإن كان علم الخط من الفروع⁸.

هذه المقدمة قصيرة جدا بالمقارنة مع مقدمته في الصرف، محدودة المواضيع، وتتناول:

- 1- الأصل في الكتابة تصوير اللفظ بحروف هجائية⁹.
 2- الأصل في الكتابة أن تكون بالنظر للابتداء والوقف¹⁰.
 3- كتابة الهمزة أولا ووسطا وآخر¹¹.
 4- الفصل والوصل¹².
 5- الزيادة¹³.

¹- المصدر السابق 2/ «330-397».

²- المصدر السابق 3/ «4-63».

³- المصدر السابق 3/ «66-197».

⁴- المصدر السابق 3/ «197-233».

⁵- المصدر السابق 3/ «33-292».

⁶- المصدر السابق 3/ «292-294».

⁷- المصدر السابق 3/ «294-311».

⁸- شرح فاضل العصام على الشافية ص 3.

⁹- شرح الأستراياذي على الشافية 3/ «312-313».

¹⁰- المصدر السابق 3/ «315-319».

¹¹- المصدر السابق 3/ «319-325».

¹²- المصدر السابق 3/ «325-327».

¹³- المصدر السابق 3/ «327-332».

6- النقص¹.

7- البديل².

المطلب السادس: بحث الشواهد

العنصر الأول: القرآن الكريم

تأثر ابن الحاجب بالقرآن الكريم وعلومه تأثراً بالغاً³، وكانت صحبته للقرآن منذ الصغر⁴، فتخرج ركنا من أركانه بالعلم والعمل⁵، ولم يكن تأثير القرآن الكريم ينحصر في أخلاقه وسلوكه وحسب بل انعكس على مجمل آرائه ومصنفاته العلمية، وتذكر المصادر بأن له فوائد مجموعة تكلم فيها على آيات وأحاديث⁶، كما تشير بعض المصادر الأخرى أنه كان "مفسراً"⁷.

ومما يدل على أنه تأثر بالقرآن تأثراً كبيراً مباحثه النحوية والصرفية التي جاءت مطبوعة بطابع قرآني في الاستشهاد والتأييد، وما دام أن القرآن هو الذي فتح له الحياة العلمية على مصراعها فإنه جعل من مصنفاته وسيلة لخدمة كتاب الله تعالى.

إذا تفحصنا كل قاعدة من قواعد الصرف في مؤلفه الشافية فإننا نلمس هذه الغاية، وقد يقول قائل: إن الشافية تكاد تخلو من الشواهد القرآنية، أقول: إن جل الموضوعات التي يتناولها كتاب الشافية إنما هي لخدمة القرآن الكريم حيث إن بعض موضوعاتها متصلة بعلم القراءات أما استدلالاته بالقرآن خارج الشافية فكثيرة جداً طغت على الشواهد الشعرية عنده، فمثلاً في كتابه الإيضاح بلغت شواهده القرآنية سبعة وتسعين شاهداً على حين كانت شواهد الشعرية واحداً وسبعين، وفي أماليه على المفصل بلغت تسعة عشر

¹ - المصدر السابق 3/ «328-332».

² - المصدر السابق 3/ «332-333».

³ - جل المصادر التي تعرضت لحياة ومؤلفات ابن الحاجب تحكي ذلك، راجع على سبيل المثال كتاب "القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية" للدكتور عبد العالم سالم مكرم، الصفحات «173-185»

⁴ - المختصر ص 81 - بغية الوعاة ص 134 - محمد بن شنب في دائرة المعارف 1/ 126 - طبقات القراء 1/ 508 - الطالع السعيد ص 188.

⁵ - تراجم رجال القرنين «ذيل الروضتين» ص 182.

⁶ - الطالع السعيد ص 190.

⁷ - الدارس في تاريخ المدارس 3/2.

شاهدا على حين كانت شواهد من الشعر ستة عشر، أما في شرح الكافية فبلغت الشواهد القرآنية ثلاثة وستين ومائة شاهد في حين وصلت شواهد من الشعر ثمانين شاهدا¹.

أما نصيب الشافية من شواهد القرآن فهي منعدمة لأن انطلاقة ابن الحاجب في هذا المؤلف كانت انطلاقة المقعد المنظر الذي يتجاوز الأسلوب المشحون بكثرة الأسئلة والاستدلالات².

العنصر الثاني: الحديث الشريف:

سبق لي أن أشرت إلى أن الشافية خالية من الاستدلالات بالشواهد من القرآن الكريم، وهذا ما ينطبق على الحديث النبوي الشريف.

لقد تتلمذ ابن الحاجب في صغره على يد علماء كبار في علوم الدين والعربية³، وثبت أنه روى الحديث إجازة⁴، وروى له عدد كبير من العلماء، ويقول ابن الجزري في طبقات القراء: "وروى عنه الحافظان المنذري والدمياطي والحسن الخلال، وبالإجازة جماعة من الشيوخ الموجودين اليوم"⁵، لهذا كان أسلوب الرجل في الشافية أسلوب المتقن المتمكن الذي يقرب الكلام على وجوه العقلية المحتملة والتي لا تحتاج إلى بيان أو استدلال.

العنصر الثالث: القراءات القرآنية:

كان أول ما اهتم به ابن الحاجب اهتماما كبيرا "القراءات القرآنية"، فقرأ في أوائل مراحل تعليمه على الشاطي، وسمع منه التيسير والشاطبية⁶، ثم قرأ جميع القراءات على

¹ نقله الجنابي في رسالته ص 107 وقال: "اعتمدت في هذا الإحصاء على مصورة جامعة الرياض".

² أسلوب ابن الحاجب في الشافية يكاد يكون خال من الشواهد بنصوص القرآن الكريم، لهذا نجد شراح الشافية كالأسترباذي مثلا اهتموا بتوضيح كلام ابن الحاجب في شرح موضوعات الصرف بالإكثار من الشواهد لتقريب المعنى، لأن مسلك ابن الحاجب في التأليف كان مسلكا معقدا كما أسلفت الذكر، لكن الغاية التي يرمي إليها ابن الحاجب بالشافية هي خدمة القرآن واللغة العربية.

³ راجع ما ذكرناه في "علمه وشيوخه".

⁴ الطالع السعيد اللادفوي ص 189-190.

⁵ طبقات القراء 509/1.

⁶ طبقات القراء 508/1- شذرات الذهب 233/5- حسن المحاضرة 215/1- بغية الوعاة 134/2.

أبي الفضل الغزنوي وأبي الجود اللخمي¹، وسمع من البوصيري، وابن ياسين، ومن القاسم ابن عساكر²، وجماعة³.

خلفت هذه التلمذة على هؤلاء المشاهير تأثيرا علميا بالغيا في ثقافة ابن الحاجب مدى حياته، فهو وبعد أن استقام عوده يقوم ليؤلف كتابه الشافية ليرجم فيه هذا التأثير الذي يقوم على تناول وبحث موضوعات مباشرة في علم القراءات، يقول في موضوع الوقف مقعدا:

"الوقف: قطع الكلمة عما بعدها، وفيه وجوه مختلفة في الحسن والمحل، فالإسكان المجرد في المتحرك، والروم في المتحرك وهو أن يأتي بالحركة خفيفة، وهو في المفتوح قليل، والإشمام في المضمون، وهو أن تضم الشفتين بعد الإسكان"⁴.

ويقول في موضوع الإمالة:

"الإمالة أن ينحي بالفتحة نحو الكسرة، وسببها قصد المناسبة لكسرة أو ياء أو صائرة ياء مفتوحة، وللفواصل أو الإمالة قبلها على وجه..."⁵

ومثل هذا التعميد لا يمكن أن يصدر عن شخص لا علم له بقراءة القرآن الكريم، مستصحبا إياه في العلم والعمل.

المطلب السابع: الشواهد الشعرية

الشافية تخلو من الشواهد لأن منحنى ابن الحاجب فيها كان منحنى المقعد والمنظر الذي يبلغ المعنى بأقصر لفظ وبأقل تكلفة نظرية، لهذا غلب على هذا الكتاب لفظ "المختصر"⁶، ولفظ "المقدمة"⁷، ونظرا للاختصار الشديد الذي يطوي "زبدة فن التصريف"⁸ تولى ابن

¹ - الطالع السعيد ص 188 - طبقات القراء 508/1.

² - طبقات القراء 508/1.

³ - بغية الوعاة 134/2 - سبقت ترجمتهم «أنظر علومه وشيوخه»

⁴ - راجع موضوعات الشافية.

⁵ - شرح الأسترايازي على الشافية 271/2.

⁶ - شرح الأسترايازي على الشافية 4/2.

⁷ - أنظر شرح نقره كار على الشافية، ص 3، يقول " وإن المختصر للإمام العلامة أفضل المتقدمين جمال الملة والدين أبي عمرو بن الحاجب"، ويقول ابن الحاجب: "...أن ألق بمقدمتي في الإعراب مقدمة في التصريف على نحوها ومقدمة في الخط..." 1/1.

⁸ - مقدمة المحققين لشرح الأسترايازي 3/1.

الحاجب نفسه شرح مؤلفه¹، وتوالت عليها شروح كثيرة اهتمت بالشواهد لتقريب المعنى المراد²، وأشهرها شواهد محمد بن الحسن الأسترابادي النحوي المتوفى سنة ستوثمانين وستمائة للهجرة في شرحه على الشافية³، وقد عني بشواهد الأسترابادي على الشافية الشيخ عبد القادر البغدادي صاحب "خزانة الأدب" المتوفى في عام ثلاث وثلثين وألف من الهجرة.

كانت شواهد الأسترابادي ستة وتسعين ومائة شاهداً، وأضاف إليها عبد القادر البغدادي أبيات شرح المحقق العلامة أحمد بن الحسن الجاربردي المتوفى سنة ست وأربعين وسبعمائة⁴، وهي اثنان وخمسون بيتاً.

فكانت مجموعة كتاب البغدادي مائتين وثمانية وأربعين شاهداً من الشعر⁵.

يقول البغدادي: " فلما فرغت بتوقيف الله من شرح شواهد الكافية لنجم الأئمة الشيخ الرضي الأسترابادي رحمه الله وتجاوز عنه، رأيت أن ألحق به شرح أبيات شواهد الشافية له أيضاً، وهي مائة وستة وتسعون بيتاً لكونهما ككتاب واحد متنا وشرحا، فكذلك ينبغي أن يكون شرح أبياتهما"⁶.

ويضيف: "وأشار علي بعض الأفاضل بأن أضف إليها أبيات شرح المحقق العلامة أحمد ابن الحسن الجاربردي التي انفرد بها لمسيس الحاجة إليها لكثرة تداولها تدريساً ومراجعة حتى يعم النفع، وهي اثنان وخمسون بيتاً، فأجبتة إلى ذلك"⁷.

¹ - انظر وصف الشافية، وهذا الشرح أثير حوله الشك كما سبق.

² - سبق، راجع "شروح الشافية".

³ - وهو غير ركن الدين حسن بن محمد الأسترابادي، صاحب المتوسط، المتوفى سنة 717هـ، لأن هذا الأخير له شرح على الشافية، انظر كشف الظنون 1021- وتاريخ الأدب 327/5-328.

⁴ - له شرح على الشافية، انظر كشف الظنون 1021/2.

⁵ - أنظر شرح شافية ابن الحاجب من تأليف محمد بن الحسن الأسترابادي، الجزء الرابع، وهو القسم الثاني من المجموع، خاص بشرح الشواهد، من تحقيق وضبط وشرح الأساتذة: محمد نور الحسن- محمد الزفزاف- محمد محي الدين عبد الحميد.

⁶ - المصدر السابق 3/4.

⁷ - المصدر السابق.

لقد تصفحت الشواهد الشعرية التي جمعها البغدادي وشرحها فوجدتها كلها لا تخرج عن بحور الشعر العشرة التالية:

البسيط، الطويل، المنسرح، الرجز، السريع، المتقارب، الوافر، الرمل، الخفيف، وأخيرا الكامل¹.

خلاصة:

كان سبيل ابن الحاجب في الشافية سبيل أسلوب المحاكمة العقلية والتقعيد الذي يبتعد عن الاستشهاد والتمثيل، تاركا للقارئ فرصة بذل الجهد العقلي لاستنباط المعنى المراد، واستخراج الغاية المقصودة من القاعدة، لهذا السبب توالت الشروحات لتقريب المعنى وإفهامه، معتنية بالشواهد كثيرا.

وتسجل الدراسات العلمية في تاريخ علم اللغة والنحو والصرف أن الشافية كانت أول محاولة سعى بها ابن الحاجب إلى فصل علم النحو عن الصرف دون إبعاد الشقة بينهما، يظهر ذلك من تعريفه لعلم التصريف مع تحديد موضوعاته، ومخالفته لمن سبقه ولمن عاصره.

لم يكن ابن الحاجب يخفي منحاه البصري، كما أنه لم يكن يخفي انتماءه إلى مدرسة مصر والشام، المدرسة التي جمعت بين المذهب الكوفي والمذهب البصري، مع كل مظاهر تأثيراته كانت شخصيته العلمية والخلقية شخصية مستقلة، جمعت من كل علم طرفا وخرجت بالجديد.

¹- راجع شرح شواهد الشافية في الجزء الرابع من شرح الأستراياذي على الشافية.

الفصل الثالث:

دراسات مكتبية في كتب ثقافية عامة



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: دراسة لكتاب " نضالات مراكش عبر أحداث القرن العشرين "
- المبحث الثاني: نظرات في جهود العلامة محمد بلقزيز من خلال كتابه الحيوان.
- المبحث الثالث: نظرات علمية ومنهجية من خلال كتاب " النحو والتفسير: أصول نظرية ونماذج تطبيقية".
- المبحث الرابع: كتاب " خواطر متكاثرة حول أفكار متناثرة... " في إطاره العلمي

- المبحث الأول: دراسة لكتاب " نضالات مراكش عبر أحداث القرن العشرين "

المطلب الأول: حول الكاتب والكتاب

العنصر الأول: حول الكاتب

هو الأستاذ العلامة إبراهيم الهلالي، المعروف بالاطلاع الواسع والتأليف الغزيرة، والتصانيف الهادفة والمعبرة، عرفته شيخا لكنه في سن الشباب، وشابا لكنه شيخ تجاوز السبعين، كنت أقرأ على عينيه أن الكبر لا يؤثر على العلم، والطعن في السن لا يزيد المرء إلا إقبالا على التأليف فيما ينفع ويفيد، كلما دخلت عليه المكتب وجدته يطالع ويؤلف، جلساته جلسات علم ومذاكرة، ومعارفه معارف فهم واستشارة، يستشير من هو دونه ومن هو مثله ومن هو فوقه، فلم لا ينبل؟

ما رأيت أحرص على مراكش وحضارتها وجامعة ابن يوسف وطلبها منه، يسابق العمر في سفر الدنيا العريض، يستعجل الأمر بالحاح وكأنه سيموت غدا، ويعمل ويؤسس ويبنى وكأنه سيعيش أبداً، عرفته بالاخلاص في العمل، والصدق في القول فلا أعلم له مثيلا في ذلك، وعرفته بالوفاء للأخوة والصدقاة فلا أعلم له نظيرا في هذا المجال، لا أعلم له عيبا غير سرعة الغضب في الحق، والرد السريع لأجل التصويب والتصحيح، بشوش، طلق الوجه، كريم، بيته مفتوح ومكتبه مفتوح وكذلك قلبه.

يتطلق في وجهك بابتسامة بريئة على الرغم من لدغات الماضي وأعطاب الحاضر، دخلت عليه مرة فأخبرني أنه صنف كتابا بعنوان "نضالات مراكش عبر أحداث القرن العشرين"، هذا بعد أن ناولني كتابا من إصداراته قبل شهور قليلة بعنوان: "نحو تحقيق الوطن العربي المتقدم والموحد"، ومن هذا الكتاب عرفت صدق الرجل وغيرته على الأمة، ومن يجرؤ اليوم على الكلام في وحدة العالم العربي؟ ومن هو المفكر والزعيم والفقير والباحث الذي يتناول في صفحات تجاوزت الأربعمئة صفحة موضوع وحدة الأمة؟ وها هو يقدم إصدارا آخر في نضال مراكش يخبر عنه بأنه من أهم ما ألف في حياته، وقد شرفني حين طلب مني قراءة الكتاب ووضع مقدمة له، لم أمانع في ذلك لأنني سأكون المستفيد الأول منه، وكنت أظن أن ذلك سيستغرق وقتا قصيرا، وأن المقدمة ستشغل صفحات قليلة،

لكني لما تتبعت الكتاب وجدته خضما زاخرا بالمعلومات والفوائد، فتابعتة صفحة بعد الأخرى، وقد أفضت هذه المتابعة إلى تسجيل عدة نقاط جمعتها ورتبتها وقدمت بها لهذا العمل الذي أرجو أن يكون نافعا إن شاء الله.

وقد يتساءل القارئ: ما علاقة إدراج هذه القراءة ضمن كتاب يتناول منهج الدراسة الجامعية وأفاق البحث والتكوين؟

أجيب فأقول بأن هذه القراءة هي قراءة تقديمية، تقدم منهاجا في كيفية تقديم الكتب وقراءتها، فإذا كانت القضايا المعرفية تخص فئة معينة من الناس فإن الخطة المنهجية تخص الطلبة والباحثين على العموم، لذلك أرجو أن تتحول النظرة إلى الزاوية المنهجية بالأساس، ومن أراد المعرفة فالكتاب سجل لذلك، ولست في حاجة إلى التذكير بأن الكاتب كان رجلا أكاديميا، تولى التدريس في كلية الحقوق بمراكش والدار البيضاء، وحاز على جائزة محمد السادس في الفكر والدراسات الإسلامية لعام 2015م/1436هـ، كما أنه في الوقت نفسه رئيس لجمعية إحياء جامعة ابن يوسف والتي رافقته فيها منذ سنة 2006 إلى لحظة وفاته.

العنصر الثاني: حول الكتاب

الكتاب هو خلاصة تجربة مركبة، مركبة من: تجربة نضالية سياسية وأخرى فكرية علمية:

أ- التجربة النضالية: هي ما سعى الكاتب أن يجسدها في هذا الكتاب، إنه رجل مناضل ومقاوم، ف «النضال» كلمة نقابية، و«المقاومة» نعت سياسي يُعنى بمكافحة الاستعمار، وقد اختار الأستاذ إبراهيم الهلالي نعت «المناضل» لأن النضال ينطلق من المرحلة الاستعمارية ويمتد فيما بعدها، ولذلك اختار أن يضع في عنوان هذا الإصدار كلمة «النضال»، كما اختار الوصف نفسه لكتاب سابق عنونه ب "قصة مناضل من مراكش"، ولم يكن المؤلف يتكلم على تجربته الشخصية بل تناول تجربة النضال الوطني وكفاح الشعب ضد المستعمر لاعتباره أن النضال في هذه المرحلة كان مشتركا.

ب- التجربة العلمية: وهي تجربة لم يكن الأستاذ يخفيها، لأنه أحد خريجي الجامعة اليوسفية التي عشقها وعشق طلبتها ونظامها التعليمي، فهو يلجج بذكرها لأنه عز عليه أن تُقبر في الظلمات، فطالب بإحيائها، ويكفيه فخرا أن يتولى رئاسة جمعية إحياء الجامعة.

إن هذه التجربة مع التجربة السابقة هي التي مكنت المؤلف من أن يصحح صورة مدينة مراكش فيقدم الصورة السليمة لها، فمراكش في الثقافة العولمية المعاصرة ليست سوى مدينة سياحية بالدرجة الأولى، يُعنى بشكلها كعروس تزف إلى السائح الأجنبي، هذا الكتاب قدم الصورة الحقيقية لمدينة مراكش، نعم إنها مدينة الجمال والجبال وسحر الطبيعة الأخاذ، لكنها إلى جانب هذا هي مدينة الأمجاد التاريخية، ومدينة المقاومة والتصدي مع النضال والتحدي، إنها مهد الجامعة اليوسفية واليوسفيين، ومسجد الكتبية، وأضرحة العلماء والشهداء، وهي عاصمة المغرب قديما، وقد اختصر المؤلف ذلك في كلمة «مراكش النضال».

العنصر الثالث: طبيعة الكتاب

الكتاب هو سجل لطبيعة المقاومة في الجنوب، وبصفة خاصة في مراكش ونواحيها، وسيصبح لحظة إصداره وانتشاره مرجعا مهما للباحثين والدارسين، لكن الذي تجب الإشارة إليه هو أن الأستاذ إبراهيم الهلالي لا يطبع من كتبه إلا نسخا محدودة لا تتجاوز الألف، وأغلبه يوزع على الأصدقاء والأحبة والرفقاء هديةً مما يقلل من حظوظ وصوله إلى شريحة كبيرة من القراء.

إن كثيرا من الأحداث والوقائع التي أتى المؤلف على سردها في هذا الكتاب عاشها وحضرها هو بنفسه، ومن تواضعه لم يهتم بنفسه، ولا أتى على شيء يتعلق بشخصه ولو بالتلميح، باستثناء بعض الإشارات التي ذكرها في الخاتمة مع العلم أنه كان مشاركا بصفة فعالة في جل ما ذكر.

في ثنايا التحليل والعرض تظهر صورة الأحزاب الوطنية جلية واضحة، ولا سيما تلك المعروفة بالنضال الوطني أيام الاستعمار والمقاومة، جلية في صورتها وبنيتها وهيكلها، وواضحة في مراميها وأهدافها، فهو بعمله هذا يجعلك تقف على أسباب تأسيس الحزب، والمرامي والغايات التي وُجد من أجلها، حزب يلد حزبا، وتنظيم نضالي يلد تنظيما آخر، والحدث ينفجر منه آخر، وكتلة نضالية تنبثق منها أخرى، ومناضل يلد مناظلا، تلك هي صورة التوالد المفترض التي يرسمها الكتاب، وهي لعمرى طبيعة المقاومة في المغرب، لذلك لا تجب الاستهانة بأي حدث مهما تناهى في الصغر لاحتمال أن يتولد عنه ما هو أكبر، لأن

الكبير لا يبدأ إلا صغيراً، لهذا السبب كان المؤلف لا يحيد عن الجزئيات، يعيد ذكرها مرات، يحللها ثم يبني عليها ليمر بعد ذلك إلى غيرها.

الكتاب هو عقد تراست فيه الأحداث والوقائع فأعطت قلادة من نوع فريد، فهو خليط متجانس من القضايا الاجتماعية، والأحوال الشخصية، والعادات والأعراف التقليدية، وقضايا سياسية ونقابية واقتصادية... تزامت فيه الأحداث واختلطت فيه الوقائع، فهو يؤرخ لأسر ولزعامات ولأحداث بالوصف والسردي فيجعلك تعيش حرارة الحدث مع فواته زماناً.

المطلب الثاني: حول منهجية الكتاب

العنصر الأول: خطة الكتاب

اختار الكاتب لعرض مادته العلمية خطة عجيبة وهي خطة «الفقرات»، فقد بناه على ثلاثة وعشرين فقرة، كل فقرة استقلت بعنوان، وكل عنوان أدرج تحته ما يلزمه من معلومات وفوائد، والفقرة في استعمال الكاتب هي حلقة تاريخية تنطلق من فترة زمنية وتنتهي بفترة أخرى، ولا عبء بتباعد الزمن أو تقاربه بل العبء بالحدث، كل فقرة تستقل بحدث في فترة تاريخية معينة.

العنصر الثاني: عنوان الكتاب

اختار الكاتب أن يضع على عنوان هذا الإصدار: «نضالات مراكش عبر أحداث القرن العشرين»، وهو عنوان يوحي بأشياء عديدة أقواها أنه يجسد موسوعة علمية من نوع فريد، موسوعة مرتبطة بصاحبها، فصاحبها علامة "موسوعي"، ذو تجارب ومشاركات، جسد ذلك في إنشاء مركب من كلام تاريخي وأدبي واجتماعي ونقدي وسياسي واقتصادي... وحسب اعتقادي أن القضايا التي أثارها لها صلة بالموضوع الذي تصدى لمعالجته، فالموضوع لا يخص التعليم وحده ولا السياسة ولا الاقتصاد فحسب بل يخص قضايا كثيرة، لذلك جاء هذا العنوان شاملاً.

وبما أن الأستاذ بنى كتابه على خطة «الفقرات» كان الأجدر أن يأخذ الكتاب العنوان الآتي: «فقرات في نضال مراكش عبر أحداث القرن العشرين».

العنصر الثالث: اللغة والأسلوب

صاغ المؤلف معلوماته القيمة بأسلوب أدبي نقي، فجاءت لغته سليمة وعلمية، فهو يتناول الحدث بالأسلوب الذي يصلح، وباللغة التي تبلغ الفكرة، والغرض من هذا كله هو تقريب القارئ من الحدث الذي يجذبك عبر إنشاء تتخلله الاستعارة والكناية والمجاز...، فالكتاب سجل حافل بالحقائق والمعطيات التاريخية التي مر منها المغرب، والمعلومات الموجودة فيه ليست كالمعلومات الموجودة في غيره، إنها معلومات دقيقة، وجزئيات مبسطة موعلة في الرقة، فالحدث الذي يختاره المؤلف يبدو عاديا وبسيطا، لكن بساطته تصبح مركبة حين يسرد عليك شتى الأحداث المنسية والمختلفة والنادرة، كل هذا تَمَّ بلغته، وعن طريق أسلوبه الشيق الجذاب.

صحيح أن هناك بعض الاستطرادات في سرد بعض القضايا الشخصية لبعض العائلات والأعلام لكننا نلتمس للمؤلف العذر في ذلك لأسباب منها:

- صلته القوية التي ربطته بالعائلات المقيمة في مراكش ولا سيما المناضلة منها، وهذه الصلة ولدت عنده عاطفة قوية وغيره شديدة.

- صلته الواسعة والمتنوعة مع قادة حركة المقاومة في مراكش وفي غيرها.

- ترسخ مجمل تلك الوقائع والأحداث في ذهنه لأنه كان شاهد عيان، فصور كل ما كان يجري أمامه بأمانة علمية لارتباط تلك الوقائع بحدث النضال الوطني.

- يقدم المؤلف كل ذلك درسا للأجيال اللاحقة، ولا سيما شباب مرحلة الاستقلال، والأسر التي تشكلت في هذه المرحلة التي لا تعرف عن طبيعة مقاومة الأفراد والأسر شيئا.

العنصر الرابع: المصادر والمراجع

لا مجال للحديث عن مصادر المؤلف في هذا الإصدار، فمصدره الأول هو تجربته التي امتدت عدة سنوات كان المؤلف خلالها يعاشر ويخالط ويتولى المهام ويلقن ويتلقن، وهو هنا يبدو حاضرا بعقله ووجدانه، بفكره وثقافته، يعايش الأحداث ويتأملها، ولا مانع من الرجوع إلى بعض المراجع التي كان ينتقي منها انتقاء، وقد تنوعت إلى خمسة أنواع:

- نوع من تأليفه وإنجازه ذلك أن هذا الإصدار ليس هو الأول من نوعه بل هناك كتب أخرى منها «ملحمة مراكش الخالدة في العصر الذهبي للعلويين»، وكتابه: «قصة مناضل من مراكش» وكتب أخرى.

- ونوع آخر من تأليف أصدقائه ورفقائه منها مؤلفات الأستاذ عبد الله إبراهيم رحمه الله مثل: «نداء الحرية»، ومؤلفات الأستاذ أبو بكر القادري: «محمد الخامس ملامح من حياته وصور من جهاده»، وغير ذلك.

- نوع من الإصدارات السياسية التي تنتقد الوضع السائد بعد تصويره وتحليله، وهذه الإصدارات بعضها عربي من مثل كتاب: «نحن وأمريكا بين الحضارة والهيمنة» للسفير المصري الأسبق في الولايات المتحدة الأمريكية الذي ضمنه حقائق مهمة عن سياسة أمريكا العدوانية تجاه العالم الإسلامي. وبعضها غربي من مثل كتاب: «الدولة المنحرفة» L'Etat Voyou للمفكر الأمريكي وليام بلوم، وكتب أخرى.

- نوع من التأليف الجامعة للنصوص والوثائق والخطب من مثل كتاب: «الشرق الأوسط الجديد والهيمنة الإسرائيلية» للأستاذ علاء عبد الوهاب، وكتاب: «جامعة الدول العربية» للدكتور مجدي عابد وغير ذلك.

- ونوع آخر هو من الجرائد والمجلات، لا سيما تلك التي واكبت الحدث مثل مجلة «الأيام»، و«العلم»، و«الصحيفة»، و«الرأي»...

كان المؤلف يختار نصوصه من هذه المراجع بدقة، نصوص معبرة وجيدة، منتقاة بطريقة منهجية كلها تشهد للموضوع المعالج.

العنصر الخامس: الرسائل والشعارات والحوار...

هذه مادة مرجعية مهمة تغذى منها الباحث فأكسبت كتابه تنوعا وغزارة، وهذه المادة متنوعة الأشكال، منها المراسلات، والشعارات، والخطب، والكلمات، والحوارات، والقصائد الشعرية، والأناشيد...، وقد تضمنت جميعها حقائق مهمة في التأريخ لهذه المرحلة، أستطيع أن أقول إن جزئية واحدة منها تصلح لأن تكون موضوعا للبحث والدرس.

أ- الرسائل: نذكر منها رسالة المناضل عبد الله الفيلاي إلى ابنته لبنى وزوجته جولبيت التي غيرت اسمها بعد إسلامها، يبعث بها من مقر منطقة مساندة الشعب الفلسطيني

والعراقي في عمان بشرق الأردن، يخبر فيها عن وضع المقاومة للغطرسة الصهيونية والأمريكية، وهي قابلة للتحليل على أكثر من مستوى، أقتبس منها هذه الفقرة للتدليل: «ونحن نساهم بشراء الأسلحة وتقديمها للمجاهدين، وبعض نساتنا وبناتنا يساعدن رجال المقاومة...» وإن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وإن النصر على الظالم لقريب كما قال الله تعالى في كتابه: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير"، وختاماً أرجو من ابنتي العزيزة أن تبلغ تحياتي الصادقة إلى زوجتي ليلي «جوليت سابقاً» وإلى إخوتي بمراكش وفي مقدمتهم أخي المناضل الأستاذ عبد الكبير الفيلاي حفظه الله» إلى أن يقول: «هذا وسأوافيكم بكل خبر جديد، أرجو أن يكون سارا ولخير الأمة العربية والإسلامية».

ومما يدخل في هذا النوع أيضا الرسائل التي كتبها المقاومون وحرروها وقدموها إلى المسؤولين ضمّنها حقوقهم ومطالبهم.

أقول في التعليق على هذه الرسائل إنه ليس كل ما وقع من كفاح ونضال قد كُتب ونشر، فالكثير من المقاومين والمجاهدين في داخل الوطن وخارجه ما زالوا يحتفظون في سجلات ذكرياتهم المحفوظة والمكتوبة بعدد كبير من الحقائق لكن العزة والأنفة حيناً والغفلة والتواضع أحيانا أخرى يجعل هذه المواد تضيع وتطويها أيادي النسيان، وما نحن بصدد دليل على ذلك، فلولا محاولة الأستاذ إبراهيم الهلاي إخراج بعض هذه النصوص لضاعت حقيقة مهمة، حقيقة المقاومة في داخل البلد، ثم امتدادها خارجه مع عنصر التواصل الجاري بين أفراد المقاومة وعائلاتهم.

ب- الشعارات: وهي مادة مهمة أيضا، لأنها تعبير صادق عن الوضع، وهي في هذا الكتاب على أنواع: نوع يقال في الهتافات مثل شعار "اللطف"، وهو أدعية ومطالب، ونوع يُكتب ويُرفع في العارضات التي تحمل مع الرايات الوطنية في المظاهرات الكثيرة، يكتب عليها عبارات نضالية مختصرة ومعبرة، وهذه العارضات أشار إليها المؤرخ الغربي شارل أندري جوليان في كتابه *L'Afrique du Nord en marche*.

ج- الوثائق: وهي أشبه ما تكون بالرسائل لكنها أوثق من الرسالة لتوفر عنصر «الثقة» فيها، لأنها صيغت من قبل جماعة من المناضلين يستحيل تراجع أحد منهم عن توقيعه، ثم إنها ميثاق ملزم، ووثيقة شاهدة حية وناطقة على الملتزمين بها، فلها قدسية وشرف، نذكر

من هذه الوثائق الوثيقة المشهورة ب «وثيقة المطالبة بالاستقلال» المحررة في ثلاث نسخ بتاريخ 11 يناير 1944م، وجهت الأولى إلى جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله، والثانية إلى الإقامة العامة الفرنسية، والثالثة إلى مجلس الأمن بهيئة الأمم المتحدة، ولم تغب مراكش عن هذه الوثيقة إذ كان من الموقعين عليها الأستاذ عبد الله إبراهيم وعبد القادر حسن ومولاي أحمد المنجرة ومبارك الغراس والحسين الورزازي وغيرهم .

د- الخطب: وهي مادة علمية مهمة، حية ومباشرة، نقل المؤلف طائفة طيبة أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: خطاب صاحب الجلالة محمد الخامس رحمه الله أثناء عودته من المنفى بتاريخ 18 نونبر 1955م، وخطب زعماء الحركة الوطنية وأقطاب المقاومة بمراكش على وجه الخصوص، وهذه الخطب تنوعت حسب طبيعة تنوع الظروف والأحوال.

هـ- القصائد الشعرية والأناشيد الوطنية: تضمن الكتاب نصوصا وفيرة من القصائد الشعرية ذات الصلة بالموضوع، ذلك أن الشعر كالنثر، واكب الأحداث وصور الوقائع ودون الحقائق، وأغلب قصائد الشعر من البحور العتيقة المعروفة بالشعر الخليلي، يختلف حجم القصيدة كما يختلف موضوعها من أربعة أبيات فما فوق، من ذلك مثلا شعر لطلبة جامعة ابن يوسف لما خرجوا لتنفيذ عملية اغتيال الباشا الكلاوي أثناء خروجه من الصلاة في مسجد الكتبيين، وهي قصيدة تحريضية وتنظيمية «انظر الفقرة العاشرة»، وقصيدة طويلة لأبي إسحاق المراكشي ألقيت بمناسبة حصول المغرب على الاستقلال بجنان الحارثي «انظر الفقرة الحادية عشرة»، وقصيدة للأستاذ عبد الكبير الفيلاي بمناسبة صدور ظهير 1 دجنبر 1938م والذي أعطى الصفة الجامعية لابن يوسف «انظر الفقرة الثالثة عشرة»، وقصيدة أخرى في رثاء الدكتورة سعيدة المنهبي بعنوان «شهيدة الظلم»، وهي من الشعر الحر «انظر الفقرة الرابعة عشرة» وقصائد أخرى.

ويُضاف إلى الشعر الأناشيد الوطنية، هذه الأناشيد التي شكلت رافدا مهما من الروافد المرجعية للتأريخ لهذه المرحلة، وقد عرض المؤلف لطائفة طيبة من الأناشيد التي كان الشعب المغربي يتغنى بها في البوادي والمدن، يرددتها التلاميذ في المدارس، والطلبة في الكليات والمعاهد في مناسبات معينة، مثل عيد العرش الذي يقام في 18 نونبر من كل سنة «انظر الفقرة الثامنة»، كان المؤلف يشير إلى ما تضمنته هذه الأناشيد من حب للوطن والتغني بالأمجاد.

و- الحوار: طغى الأسلوب الحوارى على الكتاب فقدم مادة علمية دالة ومعبرة، حيث تقرأ فى هذا الحوار الموضوعية الكاملة، والتصوير الدقيق، وإننى لأعجب كيف صور الأستاذ إبراهيم الهلالي تلك الأحداث عن طريق الحوار، وكيف جسّد به حركات النضال، وهذا دفعنى إلى التساؤل: هل الحوار الجارى فى الكتاب كله صحيح؟ إذا لم يكن صحيحاً فلم أجراه؟ وإذا كان صحيحاً كيف عقله وضبطه؟ لكننى عدتُ فقلتُ: حَقٌّ للأستاذ إبراهيم الهلالي فعل ذلك، لأن تلك الأحداث قد انتهت إليه بتفاصيلها، وقعت أمامه، فكان شاهداً وسامعاً ومصوراً، فسجل ذلك فى ذاكرته القوية، فدونها بقوة عقلية استحضرت كل شيء من أهم شيء، من نماذج هذا الحوار: حوار عبد الهادي المنصوري مع عبد الكبير الفيلاي «انظر الفقرة الثامنة». وحوار الأستاذ عبد الله إبراهيم مع الحاج أحمد الفيلاي، وحوارات بين أفراد عائلة الحاج أحمد الفيلاي التي تكررت وتنوعت فى مواطن عدة من الكتاب، وحوار بين زعماء المقاومة للتداول فى كيفية تقرير الكفاح المسلح ضد الاستعمار بين الأستاذ عبد الله إبراهيم والفقير البصري والمهدي بنبركة وعبد الكبير الفيلاي ومحمد بنشقرن، «انظر الفقرة التاسعة»، وحوار جلالة الملك محمد الخامس مع المقيم العام الفرنسى حين طالبه بتوقيع مرسوم الخلع «انظر الفقرة الثامنة»، والحوار الذي جرى بين ضباط من وزارة الخارجية المغربية والدكتور عبد الكبير الفيلاي يخبرونه بنبأ استشهاد أخيه السيد عبد الله الفيلاي «انظر الفقرة ما قبل الأخيرة».

ثم استعرض المؤلف المرافعات فى الجلسات القضائية التي عُرض فيها المقاومون فى حوارات مفتوحة تُحس وكأنها تجري حية أمامك «انظر الفقرتين السابعة، والسابع عشرة».

المطلب الثالث: مكونات الكتاب:

نعين فى هذه الفقرة ثلاثة مكونات: الأول مكون المضمون أو الموضوع، والثاني مكون الرجال أو الأعلام، والثالث مكون الجهة أو المكان.

العنصر الأول: مكون المضمون أو الموضوع

نعني به الموضوع الأساس الذي اختار الكاتب معالجته وهو «النضال فى مراكش»، والنضال لغة من نَضَلْتُهُ أَنْضَلْتُهُ نَضَالاً: سبقته فى الرما، ونَضَلْتُ فلاناً فَنَضَلْتُهُ إذا غَلَبْتُهُ، ونَضَلْتُ عنه نَضَالاً: دَافَعْتُ، ويقال فلان يُنَاضِلُ عن فلان إذا نَضَحَ عنه ودَافَعَ وتكلمَ عنه

بعذره وحاجج، ذلك ما دلت عليه المادة اللغوية من لسان العرب، فالنضال بهذا المعنى هو منازلة الآخر للمطالبة بالحق الضائع والمغتصب.

هذا عن معنى النضال، أما صورته وأشكاله وطرقه فالكتاب حافل بذلك، ولا تخلو فقرة من فقراته من الحديث عن ذلك.

ما الهدف من النضال؟ وما الغاية منه؟

النضال غير مقصود لذاته، وإنما المقصود تحقيق أهداف سامية ونبيلة، منها أولاً المطالبة بالإصلاحات السياسية والتعليمية، وإطلاق سراح المقاومين، والتخفيف من وطأة القمع أو توقيفه، وتزويد المطالب كلما زاد الظلم وزاد هدر حق المواطن المغربي في وطنه.

وقد تابع المؤلف قضية محاكمة المناضلين فقدم صور حية وناطقة عن طبيعة الحكم تحت الإدارة الاستعمارية، وعن الظلم الذي طال كثيراً من الرواد، يعرض الكاتب ذلك بتأن وثبات، وبثقة قوية في النفس.

أما المقصد الثاني فهو المطالبة باستقلال البلاد عن المستعمر الفرنسي استقلالاً تاماً، فيكون هذا المقصد هو ثمرة النضال المرجوة، وهو الغاية النهائية التي تريد المقاومة أن تحققها، تستطيع أن تقرأ ذلك في الفقرة الخامسة «الوطنيون المغاربة الواعون بواجبهم الوطني يطالبون باستقلال المغرب»، وفي الفقرة الحادية عشرة «المغرب يسترجع سيادته واستقلاله بفضل كفاح المناضلين وجلالة السلطان محمد الخامس».

ومن الأمور الأساسية التي تجب الإشارة إليها في معرض الكلام عن «النضال» عنصران اثنان: التنسيق والاستفادة من التجارب.

أ- التنسيق: يتحدث الكاتب عن التنسيق المتنوع من قبل أفراد المقاومة الذي أصبح مفترضاً، فرضته طبيعة الأحداث والتحديات، تنسيق متعدد ومتنوع، بين الطلبة والعمال والمنخرطين في الأحزاب الوطنية والهيئات النقابية والقانونية، بل يتم بين أفراد العائلة الواحدة، ويؤرخ الأستاذ إبراهيم الهلالي للأسر المراكشية المناضلة مثل أسرة الشيخ أحمد الفيلاي، وأسرة المصلوحي، وأسرة ابن فضيل وغيرهم.

ب- الاستفادة من التجارب: لقد أبان الكاتب عن حقيقة نضالية ومنهج فدائي متميز هو الاستفادة من التجربة واستخدام الخبرة ولو كانت من عند الخصم، من ذلك مثلاً أن

الشهيد حمان الفطواكي نقل أسلوب المقاومة المسلحة من تجربته السابقة كجندي في الجيش الإسباني، ومثله القبطان المراكشي محمد بنشقرون الذي كان عاملاً في إحدى الكتائب العسكرية الفرنسية يساهم بخبرته في تشكيل المقاومة المسلحة في المغرب انطلاقاً من مراكش.

العنصر الثاني: مكون الأعلام.

يضم الكتاب ثروة من الأعلام تتميز فهم بين نوعين: نوع مناضل، مقاوم ومجاهد، ونوع مأجور، خائن.

النوع الأول على صنفين: صنف من المشهورين والمعروفين، وصنف من المغمورين غير المشهورين. أما النوع الثاني فهو نوع عميل لفرنسا وخائن للوطن، وهؤلاء على صنفين أيضاً: صنف من الفرنسيين المحتلين، وصنف من المغاربة الخائنين والمتعاونين مع الفرنسيين ضد وطنهم والمنفذين لسياسته.

من النوع الأول رجال استشهدوا في ساحات المواجهة، ورجال انتقلوا إلى رحمة الله، ورجال ما زالوا أحياء إلى اليوم، والمؤلف حين يركز على بعض الأعلام دون آخرين فإنما يبرز مساهمة مراكش في النضال الوطني ليعطي بهم المثال والقدوة، وإلا فهم كثر جداً.

لقد تكلم عن دور المحامين في المرافعات القضائية عن المناضلين المظلومين في سجون الاحتلال، وعن الأعلام البارزين الذين أسسوا الخلايا وشكلوا فرع الحزب الوطني لمراكش من أمثال الأستاذ عبد الله إبراهيم وعبد القادر حسن والحاج أحمد الفيلاي وغيرهم ممن تقدمت أسماؤهم، وبنقّس وطني قوي تكلم عن جلالة الملك محمد الخامس حين طالبته يد الغدر لعزله وتنصيب عميل مكانه، مع ما تبع ذلك من مظاهرات ونضالات جابت قرى المغرب ومدنه، شارك فيها النساء والرجال والشيوخ والأطفال على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والمهنية والمعرفية، وأبلى طلبة جامعة ابن يوسف فيها بلاءً حسناً.

أما النوع الثاني فهم العملاء والخونة من الباشاوات والقواد والجواسيس من المغاربة، التابعون لفرنسا في كل شيء، طالع مثلاً الفقرة التاسعة «الثورة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي وأعوانه من المغاربة المأجورين»، والفقرة الثانية «مراكش في فجر الحماية وحكم الباشا الكلاوي»، والفقرة الثالثة «مراكش في صراعها ضد الاستعمار وأعوانه».

كما تعرض لذكر جنيرالات القمع الفرنسي، أولئك الجلادين الذين تعاقبوا على ظلم الوطنيين والزج بهم في السجون، ومن هؤلاء مثلاً الجنيرال كيوم الذي سخر القضاء والقانون لخدمة فرنسا.

ولأهمية هذا الموضوع وَدِدْتُ لو أن الأستاذ وضع فهرسة للأعلام مرتبة على حرف المعجم تتضمن ترجمة مختصرة عن كل واحد.

العنصر الثالث: مكون المكان.

المكان المقصود هنا هو «مراكش»، المدينة التي خصها الكاتب بالنضال، مراكش المناضلة والمجاهدة، لكن ما معنى مراكش؟ هل هي المناخ والطقس؟ أم هي الحقول والجبال والسهول؟ أم هي العمران والبنيان والإنسان؟ أم هي التاريخ والحضارة والآثار؟

إن مراكش المقاومة هي كل هذا، وحتى السياحة تصبح مقصودة هنا، لأن الاستعمار الفرنسي ما قصد المغرب إلا ليسيح في مدنه وقراه، ويتمتع بجماله وخيراته ما ظهر منها وما بطن.

لم تعد مراكش في هذا الكتاب المدينة الواحدة التي يُتكلّم عنها بشكل مُجمل، بل هي عند الكاتب أزقتها وشوارعها ونواحيها وضواحيها وكل ما هو منها، ويحق للكاتب أن يقصد ذلك لأنه يعرفها كما يعرف أصدقاءه وأهله، فكل جهة من جهاتها شاهدة على حدث نضالي تاريخي متميز، فمثلما يُعيّن الحدث ويحدد تاريخه يُعيّن مكانه أيضاً، ولذلك فُصِّلَت مدينة مراكش بأزقتها وساحاتها ودروبها: ساحة جامع الفناء، والسمارين، وقصر الباهية، وساحة باب فتوح، وتسلطانت، وحتى المنازل والمتاجر والأسواق والمحلات وأماكن التجمعات العامة، والإدارات والمصانع كلها كانت أمكنة للقاءات والتجمعات والمظاهرات والتنديدات والاصطدامات... تلك هي المدينة المناضلة.

المطلب الرابع: القضايا الأساسية في الكتاب

وهي خمسة:

العنصر الأول: قضايا تاريخية

القضية الأساس في الكتاب هي «التاريخ»، ذلك أن حسن التعامل مع التاريخ هو حسن التعامل مع الأحداث، التاريخ مقبرة كبيرة للوقائع والأحداث، وهو سجل حي لماضي المغرب لا

يعطي نفسه إلا لمن يُحسن التعامل معه، ومن خلال فقرات هذا الكتاب يتبين أن الأستاذ إبراهيم الهلالي عرض المادة العلمية في تدرج زمني «كرونولوجي» بدءاً بالفقرة الأولى التي هي لصورة مراكش في فجر القرن العشرين، مروراً بالفقرة الثانية التي هي لمراكش تحت عهد الحماية وحكم الباشا الكلاوي، وبالفقرة الثالثة التي هي لمراكش وصراعها ضد الاستعمار وأعدائه... وهكذا يسترسل بك في تدرج زمني إلى الفقرة الأخيرة التي خصصها للنضال الوطني العربي في فجر القرن الواحد والعشرين، وهذا يدل على أن المؤلف غطى قرناً بكامله. حين ركز الباحث على قضايا تاريخية إنما ليبحث في سبب أزمة تخلف الأمة، كيف كان الغرب يومئذ وكيف أصبح اليوم؟ وكيف كان العالم الإسلامي وكيف آلت الأمور اليوم؟ لهذا السبب يخلق بك في سماء العالم كله ثم يرجع بك إلى المغرب، ثم ينزل بك إلى مدينة مراكش ثم إلى موقع من مواقعها الشاهدة على حدث تاريخي معين.

العنصر الثاني: قضايا سياسية

عالج الكاتب قضاياها بلغة سياسية، لأن الأحداث سياسية، والمستعمر ذو حنكة سياسية، والمواجهة كانت سياسية فلا بد من أن تكون اللغة سياسية، وكذلك التحليل، فالمعالجة السياسية تفرض نفسها في هذا السياق.

لم يكن المؤلف يتعسف في ذلك أو يتكلف بل ذلك هو مجاله، إنه رجل سياسي بالدرجة الأولى، تعلمها ومارسها وتولى مسؤوليات تتعلق بها وما زال إلى اليوم يتعاطى للمهنة الحقوقية والقانونية «ولا ينبئ مثل خبير»¹.

يمكن التمييز في القضايا السياسية التي جاء بها الكتاب بين نوعين: نوع في مرحلة الاستعمار وآخر في مرحلة الاستقلال، لقد شغلت القضايا السياسية التي تنتهي إلى المرحلة الأولى حيزاً كبيراً، إذ امتدت عبر فقرات عديدة، ومن هذه القضايا: انطلاق شرارة الكفاح ضد المستعمر بعمل تنظيمي سري وجهري، فالسري هو في الخلايا والتنظيمات السرية، والجهري هو في كتلة العمل الوطني التي طالبت باحترام بنود الحماية والتي تأسست سنة 1934م، وتحدث عن الأحزاب الوطنية والجمعيات مثل جمعية شباب محمد، والحركة الوطنية وزعمائها مشيداً بالدور الذي قام به حزب الاستقلال في الكفاح الوطني عبر إعلامه

¹ - سورة فاطر الآية 14.

ومنابره وجمعياته وتجمعاته وذلك منذ تأسيسه في 11 يناير م1944، كما تحدث عن عريضة الاستقلال، وعن النقابات المغربية التابعة للاتحاد المغربي للشغل، كما تحدث عن المظاهرات والاعتصامات والاعتقالات والمحاکمات والاعتقالات...

وفي الفقرة الحادية عشرة ينتقل بك إلى مرحلة الاستقلال فيسرد عليك أهم الأحداث السياسية التي عرفها المغرب، وأقوى هذا الحدث هو تشكيل أول حكومة بعد الاستقلال، وفي الفقرة التي تليها «المغرب المستقل يحقق مكاسب وطنية ويتابع مسيرته التقدمية في عهد محمد الخامس»، ويأتي الكاتب على بعض الأحداث المهمة، وهي إشادته بحكومة عبد الله إبراهيم التي قامت بإنجازات باهرة، وزيارة محمد الخامس التاريخية إلى مدينة مراكش، وتأسيس حزب جديد هو الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وزيارة محمد الخامس إلى المشرق العربي ولقائه بجمال عبد الناصر، وحدث الوفاة وتولي ولي العهد آنذاك الحسن الثاني رحمه الله لمقاليد تسيير الأمور بعد والده الراحل مشيرا إلى بعض الإنجازات الديمقراطية التي تحققت في عهد الملك الراحل.

وتبقى مدينة مراكش حاضرة في كل ما قيل، توأكب الأحداث وتنخرط في الوقائع، من ذلك دورها في تحقيق الديمقراطية وانتخابات سنة 1976م، وحين يتكلم الأستاذ إبراهيم الهلالي عن انتخابات سنة 1976م، ودور مراكش فيها إنما ليؤكد القضية ونقيضها، ويثبت الحالة ومعاكسها، فمن النزاهة إلى التزوير، ومن الهدف النبيل لخدمة اللوطن إلى الترشح للاستغلال وطلب الجاه والمال، ويبقى المؤلف ناقدا لأحداث هذه المرحلة كما كان ناقدا لأحداث المرحلة السابقة.

العنصر الثالث: قضايا اجتماعية

لا كلام عن مدينة مراكش من دون التعرض للمجتمع المراكشي في أفراحه وأتراحه، في مسراته وأحزانه، فالمجتمع المراكشي هو كباقي مجتمعات كل مدينة مغربية، الكل كان يقاوم، والكل كان في جبهة واحدة، وما المقاومون والمناضلون إلا أبناء المجتمع، لهم زوجات وأولاد وأهل وعشيرة، فهم من المجتمع وإلى المجتمع... ولذلك لم يُغيب المؤلف المجتمع المراكشي من خطابه، إنه حاضر بكل مكوناته، بعاداته وتقاليده وأعرافه، فالكتاب سجل للعادات والتقاليد والولائم والحفلات والأعراس كيف تدار وتقام في المجتمع المراكشي المناضل، ولا أقدم على هذه الحالة شاهدا فالكتاب حافل بذلك، وكنْتُ أتساءل بين الحين

والآخر - قبل إتمام مطالعة الكتاب طبعاً- لماذا يسرد الكاتب مظاهر الاحتفالات والكلمات المتبادلة بين الأزواج والأصدقاء؟ فهل مثل هذا يُحكى في كتاب مُخصص للكلام عن نضالات مراكش؟ لكن في النهاية تبين لي أن كل ذلك هو وسيلة لغرض سطره المؤلف سلفاً وأراد الوصول إليه وليس مقصوداً لذاته، ناهيك عن الأمانة في التصوير والصدق في الحكاية.

إن كلامه عن التعارف والخطبة والزواج وتفاصيل ذلك لا يتم إلا في ثنايا تشكيل خلايا نضالية تضم الأسر والأفراد من مختلف الجهات، ثم إن طبيعة المقاومة والكفاح تولد هذا النوع من الزواج والتعارف، لقد تم ذلك تحت ضغط الأحداث، ولم يكن نتيجة نزوة أو متعة.

دَلَّ الكتاب على أن الزواج بالأجنبيات تم في مرحلة مبكرة، في مرحلة الكفاح المسلح وتحت وطأة الاستعمار، ويقدم المؤلف صورة عن ذلك الشاب العصامي ابن التاجر الكبير الذي انخرط في سلك النضال وتزوج بأجنبية تسلم وتغير اسمها من جولبيت إلى ليلي، ثم تنجب رجالاً مقاومين، كل هذا له دلالاته هنا، يفعل الكاتب ذلك ليستخلص نتائج طيبة من سرد الحدث.

العنصر الرابع: قضايا أخلاقية

في بلد مُستعمر لا بد أن تتفشى فيه ظواهر أخلاقية مذمومة من أخطرها العمالة والخيانة وبيع الوطن، وهي ظواهر نتجت عن ضعف في الدين، وضعف في الإيمان، وقلة الوعي المطلوب بوضع المرحلة.

لقد لا حظ العملاء أنهم بين خيارين لا مكان لهم فيه للحياد، إما الانضمام إلى صفوف المقاومة وإما الانضمام إلى فرنسا، فالانضمام إلى المقاومة يدفع إلى النضال بالأموال والأرواح، والانضمام إلى فرنسا يدفع بهم إلى الانخراط في سياستها لخدمة مصالحها وأهدافها، وهذا يضمن لهم في المقابل الحكم والجاه وتحقيق المصالح والمآرب، وبين الاتجاهين تناقض على مستوى التوجه والأهداف.

وقد نتج عن الوضعية الاستعمارية تفشي ظواهر خطيرة منها الغش والكذب والخيانة وخرق المواثيق والتمويه وبيع الحشيش والمخدرات والمسكرات رغبة في تدمير عقول وأموال الشعب المغربي البطل، وهي فيالق لا تقل خطورة عن الفيالق العسكرية الفرنسية.

لقد عاش المغرب - كباقي بلاد العالم الإسلامي- تحت سياسة تفريخ الجمعيات والجماعات والهيئات والأحزاب، وكثرت القوانين والقرارات، وركبت هذه التكتلات على سلوكات منحرفة في الوصول إلى سلطة القرار مثل الرشوة وتفشي الزبونية والمحسوبية والغش والسرقة... وقد عرض الباحث لمجمل هذه الظاهرة في الفقرة السادسة عشرة حين تكلم عن انتخابات سنة 1976م وما تلاها.

العنصر الخامس: قضايا علمية

وقوع المغرب تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية كان نتيجة تخلف علمي، ففرنسا لم تتمكن من بسط نفوذها على المغرب إلا بالثقافة والعلم، الثقافة تتمثل في المعارف الإنسانية التي استخدمتها لهذا الغرض، والعلم يتمثل في الآليات التقنية العسكرية، لم ينس الأستاذ إبراهيم الهلالي أن يشير إلى أثر غياب التطورات التقنية والمعدات الحربية على المقاومة، فلو كانت هذه الإمكانيات متوفرة لما تمكنت فرنسا من دخول المغرب، ولو سُمح برواجها ونقلها إلى المقاومين لكان خروجها أسرع والتنكيل بها أقوى.

إن غياب التكنولوجيا الحربية هي الكتف المأكولة من جسد العالم الإسلامي برمته، ما زال يئن منها إلى اليوم.

لقد بذلت الإدارة الاستعمارية مجهودات كثيرة في نقل التقنيات الحديثة والآليات المتطورة إلى المغرب، هذه الآليات والتقنيات كانت تخدم الرغبة الاستعمارية أكثر مما كانت تخدم الرغبة الشعبية الوطنية، من ذلك الإنارة والسكك الحديدية والسيارات ووسائل الاتصال مثل الراديو والإذاعة وبناء المطارات والموانئ وحفر آبار الفوسفات ومد الطرقات مع ما يتبع ذلك من بناء الإدارات الحديثة والمعاهد والمدارس والسجون...

القضية العلمية والتقنية عانى منها العالم الإسلامي برمته، وما زال يعاني من غيابها إلى اليوم، وغيابها سبب تخلفا مطبقا، وظلما متزايدا، واستعمارا من نوع جديد، وبدأت المعادلة المتعكسة تظهر: كلما زاد الغرب تطورا زاد العالم الإسلامي تدهورا... «انظر الفقرة الأخيرة».

المطلب الخامس: الأبعاد الأساسية في الكتاب

يجسد الكاتب في الكتاب أربعة أبعاد أساسية: بعد وطني وهو المنطلق الأساس مع ما يتضمنه من بعد إسلامي إيماني كان له دور أكبر في نضالات الشعب المغربي بصفة خاصة ونضالات شعوب العالم الإسلامي بصفة عامة، وبعد اقتصادي ونعني به التجارة وما لها من دور في ممارسة الكفاح الوطني لأن النضال بالمال يتقدم، وبعد ثقافي ودوره في الكفاح الوطني لا ينكر، وبعد دولي عالمي يتمثل في رصد ظلم الدول الكبرى للدول الصغرى، وأن هذا الظلم انتقل من دول إلى أخرى على رأسها أمريكا وإسرائيل مع ما يتبع ذلك من خرافة «النظام الدولي الجديد»، و«الشرق الأوسط الكبير»...

العنصر الأول: البعد الوطني:

كل ما وقع من أحداث منذ عهد الحماية إلى عهد الاستقلال هو للوطن، وكل ما ساهمت به مراكش في النضال، وما قدمته من بطولات هو للوطن أيضا، ولذلك جاء هذا الكتاب حافلا بالأحداث الوطنية، أحداث الكفاح المسلح والمقاومة المشروعة المتعددة والمتنوعة، ثم ما تحقق من إنجازات باهرة على يد السلطان محمد الخامس رحمه الله، وكيف واصل جلالته الملك الراحل مسيرة البناء والتشييد.

لم يتوقف الكلام عن الوطن في المرحلة الاستعمارية، بل تابع المؤلف رصد الحالة السياسية والحقوقية والاجتماعية للمغرب في عهد الاستقلال، هذه المرحلة التي شهدت ظهور أحزاب وجمعيات ونقابات طلابية وعمالية ذهب ضحيتها عدد من المناضلين والمناضلات، ويعطي نماذج من ذلك، «انظر الفقرة الرابعة عشرة».

مثلا يعرض عليك الأحداث السارة في الخطبة والزواج يعرض عليك أيضا الأحداث المحزنة التي تبدو مؤلمة ثلاث مرات: الأولى أنها أصابت طالبة طيبة ومثالا لنضال الشباب في العهد الاستعماري لمكافحة الأمية والجهل بطلب العلم والمعرفة، فحازوا على أعلى الشهادات، وكلهم أمل لخدمة الوطن الجريح، والثانية أنها ابنة وخطيبة لأسر مقاومة، عانت من الظلم والاضطهاد الاستعماري، والثالثة أنها استشهدت في مرحلة الاستقلال، وهنا تزدهم الأحداث وتكثر الدلالات.

ليس من «الوطنية» الكلام عن الوطن في مرحلة الاستعمار والتكتم عن الخروقات التي طالت حقوق الإنسان في المغرب، بل من الوطنية الكلام عن كل شيء يسيء للوطن

وللمواطنين من قريب أو من بعيد، لكن الإصلاح والبناء يأتي بالتدرج، فقد انتهت مسيرة البناء الديمقراطي إلى جلالته الملك محمد السادس الذي حقق إنجازات قوية أهمها إنشاء هيئة الإنصاف والمصالحة الوطنية، فكملت أفواها كانت مفتوحة لغربيين وشرقيين ومحليين. «انظر الفقرة الثامنة عشرة».

العنصر الثاني: البعد الاقتصادي

نتكلم هنا على جانب واحد من الجوانب الاقتصادية، هذا الجانب هو جانب التجارة التي تُبْنَى على الزراعة والفلاحة لأنه هو الجانب المكون لاقتصاد المغرب في هذا التاريخ، وقد تمثل هذا الجانب في هذه المدينة المباركة، فقد ساهمت بزراعتها وفلاحتها في دعم المقاومة في جهة الجنوب، ذلك أن أغلب المناضلين كانوا تجارا، وبأموال بعضهم كانت تُشترى الأسلحة، وبأموالهم فُتحت الكتاتيب القرآنية وأقيمت التجمعات ومُولت اللقاءات...

إن الكلام عن مزرعة السيد الفيلاي له دلالاته هنا، فهو من كبار المزارعين والملاكين المنافسين لعملاء فرنسا، وجزء من مداخل المزرعة كانت تمول به المقاومة، تأمل هذا الجواب الذي أجراه المؤلف بين الحاج أحمد الفيلاي صاحب المزرعة وولده عبد الكبير حيث يقول هذا الأخير: "حفظك الله يا والدي وأطال عمرك، ومتعك بالصحة والعافية حتى ترى أحفادك وأبناء أحفادك، وهم يتمتعون في خيرك وثروتك في حياتك، وبعد أن تكون خصصت جزءا كبيرا من ثروتك لصدقة جارية، كبناء مدرسة أو مسجد أو مستشفى أو أي مشروع ثقافي أو خيري يعود بالمصلحة والفائدة على الفقراء والمساكين، والطلبة والمجاهدين، واليتامى وغيرهم من أبناء الوطن العربي المحتاجين للمساعدة المادية..." من الفقرة الثالثة.

لقد كان للتجارة دور كبير في انطلاق العمل النقابي، فعن طريق النقابة للمطالبة بتخفيض الضرائب على التجار انطلقت شرارة الكفاح، وكل الذين انخرطوا في العمل النضالي إنما دخلوا من موقع العمل النقابي الذي كان للأستاذ عبد الله إبراهيم دور كبير في تكوينه.

العنصر الثالث: البعد الثقافي

هذا البعد هو الذي أعطى للمقاومة طابع التنظيم والتأطير، والتخطيط والتععيد، فالمقاومة لم تنشأ من فراغ ولا هي تكونت بالجهل والتلقائية بل كونها أساتذة وعلماء،

وقادها طلبة ومعلمون فضلا عن الشريحة الأخرى من المجتمع المغربي¹، لهذا السبب كان هذا البعد حاضرا في الكتاب كله، ومما زاد من حضوره أن المؤلف رجل مثقف وباحث، عَلَّمَ وَلَقِّنَ أجيالاً من أبناء الوطن، ولذلك أعطى لهذا البعد أولوية بالغة سواء في هذا الكتاب أو في غيره.

من خلال المادة العلمية المقدّمة تستطيع أن تميز في المثقفين المناضلين بين صنفين: صنف من المتعلمين في وطنهم، وصنف بدأ تعليمه بالوطن وأكمل دراسته بالخارج، وبالضبط في فرنسا، غير أن

إرادة الصنفين كانت متحدة في بداية الأمر، وهي مواصلة النضال ضد المستعمر، وهذا ما أشار إليه المؤلف في الفقرة الرابعة حين عنوانها بـ «مواصلة النضال الوطني في مراكش مع التقدم الفكري».

الصنف الأول هو جيل من الطلبة والدارسين والشيوخ الذين انخرطوا جميعا في نضالات الحركة الطلابية، ومن هؤلاء طلبة الجامعة اليوسفية بمراكش، وعندهم تكلم في الفقرة العاشرة «نشاط المقاومين الفدائيين من جامعة ابن يوسف»، حيث أشار بأمانة علمية إلى المواد العلمية التي تغذى منها المقاومون، وهي لم تكن سوى الدروس المفتوحة، والعلوم والمعارف التي كانت تُلقن في جامعة ابن يوسف مثل: النحو والبلاغة والعروض والفقه والأصول والتفسير والتاريخ الإسلامي والمنطق وعلوم السنة والحساب والتوقيت والرياضيات... هذه العلوم هي مرجعية المناضلين والمقاومين، لذلكبادلها المستعمر العداء، واصفا إياها بثقافة التخلف والإرهاب.

أما الصنف الثاني فيتمثل في طائفة من الشباب ذهبوا إلى أوروبا لاستكمال دراستهم، ويخص الكاتب هنا شبابا بعينهم سافروا إلى فرنسا لهذا الغرض جاعلين من السفر تحصيل نوع آخر من الثقافة ترى الحركة الوطنية أنها في حاجة إليه، هذه الثقافة هي الثقافة الحقوقية والقانونية الفرنكوفونية، وحول السفر إلى أوروبا وأهميته يجري الحوار

¹ - انظر نص مشاركتنا في الندوة الوطنية التي نظمتها جمعية إحياء جامعة ابن يوسف بالتعاون مع المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بتاريخ 27 شتنبر 2003م، والمقال منشور بالعدد الثالث من مجلة جامعة ابن يوسف لسنة 2004 تحت عنوان: "جيش التفكير وجيش التحرير وجهان لمقاومة وطنية واحدة".

بين الصديق وصديقه، وبين الأخ وأخيه، والابن وأبيه عن قضايا مهمة مثل التعليم والهجرة والانخراط في العمل الوطني، حوار واقعي وحقيقي، لأن الكاتب سَمَّى المتحاورين بأسمائهم، فكان يعين السائل والمجيب والمتكلم والمعقب... «انظر الفقرة السابعة والثامنة».

ولا ننسى - في هذا السياق- أن نشير إلى دور الصحافة الوطنية المتمثلة في الجرائد الحزبية مثل جريدة "الرأي والعلم"، اللتين كانتا تنشران أخبار الوطنيين وتقييمان لقاءات وحوارات مع زعماء الحركة الوطنية، وتبثان تصريحات الزعماء الوطنيين من مختلف أقطار العالم الإسلامي بما في ذلك الدول العربية مثل: الجزائر وتونس وليبيا ومصر...

العنصر الرابع: البعد العالمي

لم يحبس الكاتب الكلام عن النضال في المغرب انطلاقاً من مراكش وحدها بل كان يتكلم عن الوضع العالمي والكفاح في بلاد عربية أخرى، فأوربا خرجت كلها للاستعمار، وما أصاب المغرب أصاب بلاداً أخرى، لذلك كان الاستعمار بلاءً مشتركاً غير أن النضال ضده كان يختلف من بلد لآخر بحسب القدرات والإمكانات وطبيعة الموقع والأحداث.

لقد عرض الكاتب للقضايا المصيرية للأمة الإسلامية، وهي الكفاح والنضال ضد الاستعمار بمختلف أشكاله، وبناء الوطن بناءً ديمقراطياً، والتأكيد على وحدة الأمة الإسلامية وهو الموضوع الذي غاب الكلام عليه في الكتابات الإصلاحية المعاصرة، وعرض للصراع العربي الإسرائيلي والأمريكي الغربي وقضايا كثيرة تستطيع أن تقرأ بعضها في الفقرتين الأخيرتين من الكتاب، ولم يكن الكاتب يفتعل ذلك بل كان يربط بين الأحداث ومجريات الوضع في المغرب، لأن المغرب كان يتأثر بما يجري حوله فيكون مدفوعاً للانخراط في الأحداث العالمية، من ذلك مثلاً توقيع معاهدة الدفاع العربي المشترك في سنة 1951م و1952م رغبة في توحيد دول الجامعة العربية، وعرض لتنامي الأيديولوجيات العقدية والسياسية عبر أحداث من الانقلابات العسكرية التي طالت العالم الإسلامي، والتي وصل على إثرها عدد من القادة إلى سدة الحكم من ذلك مثلاً ثورة الضباط الأحرار بمصر سنة 1952م بزعامة محمد نجيب وجمال عبد الناصر، هذه الثورة التي أطاحت بالنظام الملكي للملك فاروق، ثم توالى الانقلابات في العالم العربي خصوصاً وقد طالت عرش البلاد في المغرب نذكر من ذلك انقلاب 10 يوليوز 1971م الفاشل، وعاش العالم العربي تحت وابل من الشعارات الثورية الزائفة لم تزد العالم الإسلامي سوى التخلف والتقهقر والتراجع على

جميع الأصعدة، كل هذا والاستعمار يتفنن في التقتيل والتقسيم والتجويع والتركييع، وافتعلت للمغرب قضية في وحدته الترابية، وهي قضية الصحراء التي دارت فيها حرب استنزاف طويلة وذلك بعد المسيرة الخضراء الضافرة.

إن جدلية التأثير والتأثر تبدو واضحة في بعض فقرات الكتاب، من ذلك مثلا الربط بين هزيمة 1967م بالوطن العربي، وظهير الانتخابات المغربية لسنة 1967م «انظر الفقرة الخامسة عشرة».

على الرغم من العوائق والعراقيل المفتعلة كان المغرب حاضرا في المحافل الدولية لا سيما في الأحداث المؤلمة التي تطال الأمة الإسلامية، هذا كله ومراكش حاضرة في كل كلام، وفي أية مناسبة، لقد ساهمت في مساندة الكفاح الفلسطيني بتمثيلية السيد عبد الله الفيلاي الذي جعل من مقره بباريس مكاناً لهيئة مساندة الكفاح الفلسطيني، وفي الوقت نفسه مقرا للدفاع عن مصالح الشعب العراقي إلى أن انتهت به المقاومة إلى الاستشهاد في إحدى فصائل المقاومة الفلسطينية بأرض فلسطين، وقد بين الكاتب ذلك وكشف عنه في فقرات من كتابه، من ذلك الفقرة الثالث عشرة «المغرب يرتقي إلى صف الدول الديمقراطية ويسهم في تأسيس جمعيات مغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني»، وفي الفقرة العشرين «المقاومة العربية العراقية تتصدى بشجاعة للعدوان الأمريكي، والمواطنون العرب من مراكش إلى القاهرة يستنكرون العدوان الأمريكي على العراق»، وفي الفقرة السابعة عشرة «المراكشيون والمغاربة عموما يقومون بتأسيس لجان تابعة لجمعية مساندة الكفاح الفلسطيني»، وفي الفقرة الواحدة والعشرين «استشهاد بعض المقاومين المغاربة في معركة تحرير الشعب الفلسطيني»، ثم توجهها بالفقرة الأخيرة وهي آخر ما أضاف إلى الكتاب «من العدوان على فلسطين والعراق إلى عدوان إسرائيل على لبنان»، ومع كل ذلك فإن مراكش لم تغب عن هذا الحدث.

خلاصة

فكما تقدم، هذه قراءة تقديمية متواضعة لهذا الكتاب، بُنِيَتْ على خمسة محاور أساسية، أتت على الموضوعي والمنهجي، والشكلي والوصفي، والعلمي والتقني كما كشفت عن التاريخ والجغرافيا واللغة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة... ومدار هذا كله على

رصد حركة النضال في مدينة مراكش عبر التحولات التاريخية والمراحل السياسية وسط هزّات الأحداث العالمية التي كان المغرب يتفاعل معها بشكل إيجابي.

وتبقى "مراكش" حاضرة في كل فعل وفي أية حركة، حاضرة في فقرات الكتاب، تُعطي وتأخذ، تبني وتُشيد، ولا لوم على الأستاذ إبراهيم الهلالي فيما قاله ويمكن أن يقوله عن مدينة مراكش لأنه ابن بيئته، وكفى بالأمصار فخراً أن تشتهر بعلمائها، وكفى بهم عزة وغيره أن يُدودوا عن حياض أوطانهم، وأن يدافعوا عن عز أقطارهم، ولولاهم لما عُرفت الأقطار، ولما اشتهرت الأمصار، وأمامنا مئات النماذج على ذلك، هذا وقد حررت هذا الكلام والأستاذ إبراهيم الهلالي حي يرزق، وقد جعلته اليوم أحد مباحث كتابي هذا، وذلك بعد رحيله إلى دار البقاء وفاء للعهد وإخلاصاً للأمانة العلمية.

- المبحث الثاني: نظرات في جهود العلامة محمد بلقزيز من خلال كتابه الحيوان¹.

المطلب الأول: المغزى من التكريم

بين الحين والآخر ينبري مجموعة من الباحثين والدارسين والمهتمين إلى إقامة يوم دراسي تكريمي علمي تُهدى مجمل البحوث والعروض إلى الشخص المحتفى به تعبيرا عن جهوده في خدمة العلم والمعرفة، وبرهاننا على الحب والوفاء والتقدير له.

التكريم هو ثابت في نصوص كثيرة من القرآن والسنة الصحيحة، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾².

وقد ثبت في السنة الفعلية والقولية الصحيحة أن النبي كان ينزل صحابته منازلهم، وكل واحد منهم كان يضعه في المكان الذي يناسبه، ومن القولية قوله ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»³.

¹ - كلمة احتفائية أنجزت خصيصا للمشاركة بها في الندوة التكرمية التي أقامها المجلس العلمي المحلي والمندوبية الجهوية للشؤون الإسلامية وجمعية أصدقاء الكتاب بمراكش للأستاذ العلامة محمد بلقزيز تقديرا لجهوده، وتعبيرا عن الوفاء لشخصه.

² - سورة الإسراء الآية 70.

³ - أورده الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة ؓ: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نزل الناس منازلهم». بصيغة التعليق، وهو موصول.

وهذا اليوم الدراسي التكريبي تشارك فيه هيئات ومؤسسات وأعلام فكر وثقافة كلهم اجتمعوا ليقولوا كلمات علمية في حق الأستاذ محمد بلقزيز، وفي حق جهوده العلمية. وإذا كانت هذه المناسبة احتفاء بالمعنى بالأمر يجعل كل العروض هدية له، تكريماً لجهوده الطيبة فإنها تعني أموراً أخرى مهمة يجب تحديدها فيما يلي:

أ- الاعتراف بفضل الرجل، وبجهوده في خدمة العلم بصفة عامة، واللغة العربية بصفة خاصة.

ب- تشجيعه على المضي قدماً في سلك هذا السبيل، فأهل العلم اليوم هم في حاجة إلى التشجيع، أكثر مما هم في حاجة إلى شيء آخر.

ج- تقويم الجهد، ببيان إيجابياته ومنافعه، والكشف عن سلبياته إذا كانت هناك من سلبيات.

د- ترويح هذا العمل، وضمان الشهرة له بالقدر الذي يعرف به بين الدارسين والباحثين المهتمين حتى يزيد الإقبال عليه ليعم به النفع وتتحقق به الفائدة.

هـ- الوقوف من خلال هذا التكريم أو بمثله مع معالجة مظاهر الأزمة التي تلحق البحث العلمي وتصيب بنيته.

و- اجتماع هذه الثلة من الباحثين والمهتمين الذين لهم غيرة على العلم وأهله لا يدل إلا على منزلة رفيعة تبوأها الرجل في سلم المعرفة.

ذلك هو الوجه الشرعي والدلالة العلمية والمعرفية لما يصطلح عليه بـ«التكريم».

المطلب الثاني: عالم وعلم

لثقافة الإسلامية خاصية لا توجد في غيرها وهي أن العلم لا يفصل عن صاحبه، فتناول العلم والعالم بالبحث والدرس من أساسيات الثقافة الإسلامية، ويبدأ بالعلم قبل العلم، حتى إذا عرفت شخصيته من جميع النواحي، وعرفت أقوال العلماء فيه بالتعديل والتركية نظروا في علمه فإذا صح وسلم قُبل، وإذا طعنوا في العالم رُفض علمه ولو صح.

نحن اليوم أمام عالم وعلم، فالعالم هو الأستاذ محمد بلقزيز، والعلم هو هذه الذخيرة من الكتب التي أصدرها.

- وبخصوص الرجل فقد جالسته واشتغلت معه في جمعية إحياء جامعة ابن يوسف، فهو رجل أعرفه عن قرب، ولا أزكيه على الله عز وجل.
- لقد تحلى بخصال حميدة، وأخلاق رفيعة، منها:
- أ- التواضع: فتواضعه رفعه وحببه إلى الناس.
- ب- الالتزام والمواظبة، إذا التزم طبق، وإذا استدعى استجاب.
- ج- العفة وصون اللسان، لا يتكلم إلا فيما يعنيه، وفيما له صلة بالموضوع، ما سمعته يغتاب أحدا قط، أو يذكر أحدا بسوء.
- د- البشاشة والتطلق في الوجه، وهذه من سماته، وهي من جاذبية شخصيته.
- أما بخصوص العلم على الإجمال:
- هـ - علمه علم متنوع، يدور في حقول علمية مختلفة، يطغى عليها الاهتمام باللغة العربية.
- و- صاغ إنتاجه بالعلم والإيمان مع الغيرة عن الذات والهوية والتراث.
- ز- الازدواجية اللغوية جعلته يسخر اللغة الفرنسية لخدمة التراث الإسلامي واللغة العربية لا العكس كما هو شائع ومعروف.
- ح- له نفس علمي قوي، فهو يقدم أبحاثا علمية في مشاريع أخذت منه الوقت والجهد والمال.
- إذا جمعنا كل هذا وقسناه على عمره وكبر سنه أدركنا جسامة تضحياته.

المطلب الثالث: المجال العام لجهد الأستاذ بلقزيز

أعني بذلك المجال العلمي العام الذي تحرك فيه الأستاذ محمد بلقزيز، هذا المجال هو مجال اللغة العربية. لقد عشق اللغة العربية، وصاحبها طيلة حياته، تعلمها فدرسها ثم درّسها وأصدر فيها إنتاجات علمية قيمة، أبان فيها على أستاذية متميزة، إيماننا منه أن اللغة هي منطلق الإصلاح.

اللغة أداة للتواصل مع الماضي، لولاها لما ربطنا الجسور مع الماضي، وهي أداة للتواصل في الحاضر، لولاها لانقطع حبل التواصل الاجتماعي والحضاري.. وبها يتم التواصل مع المستقبل أيضا.

لقد لاحظ الأستاذ بلقزيز بأن أزمة الأمة تبدأ من اللغة، ومن خلال اللغة، فساهم مساهمة بنائية في هذا المجال، مؤصلاً ومؤثلاً، وقد توزعت جهوده في هذا المجال على النواحي التالية:

أ- بحث اللغة في ذاتها، وأصدر في بنائها كتباً من ذلك: «الطريقة العربية الجديدة للتحليل اللغوي»، و«مدخل للطريقة العربية الجديدة للتحليل اللغوي»، وغير ذلك.

ب- ربط اللغة العربية بالمجال العام حين سخرها لخدمة التراث العربي الإسلامي، إيماناً منه أن عزل اللغة العربية عن هذا المجال هو قتلها والقضاء عليها، فاللغة هي مفتاح التراث، والتراث العربي الإسلامي هو حقلها الواسع والعريض، لننظر مثلاً إلى كتابه: «مصطلحات العلاج في المراجع العربية الأصلية»، أو «مصطلحات العلل».

ج- سعى إلى ربطها بأصلها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وهذا الربط كان هما يحمله الأستاذ محمد بلقزيز ما فتئ يذكره في مقدمات كتبه، يقول في هذا النص الجامع: «إنه لا سبيل إلى دراسة علمية لا تعتمد ثقافة عامة، ومصطلحات عامة، وهي متوفرة في المراجع العربية الأصلية، لكن البرامج العلمية التي تعني الثقافة الأصلية بقيت تقريباً على ما هي عليه منذ عدة قرون، ولم تتخذ ما يكفي من التدابير لنشر الإنتاج العلمي لأبائنا الكرام الأعمى المرموقين، أولئك الذين ألهمهم العلي الكريم خدمة لغة القرآن، فسادت بهم أمتنا قديماً وحاضراً بما تركوه لنا من تراث علي نفيس هو الذي نسعى لامتلاكه من جديد رغم انقطاع أواصر التعليم بيننا وبينهم جزاهم الله خيراً، وجعلنا على سنتهم وقدمتهم»¹.

د- سعى إلى خدمة العلوم البحتة باللغة العربية، وذلك بالترجمة والتعريب، ليبين أن اللغة العربية قادرة على حمل المفاهيم العلمية، وقادرة على أن تكون لغة العلم التقني بامتياز، وقد أحس بأن اللغة العربية تعاني من هذا التهميش فبادر بإعادة حرة أساسها الغير العلمية، والحماس المعرفي، يقول: «لأن المصطلحات الأجنبية أصبحت أكثر تداولاً في البحوث العلمية، وهي مأساة عربية ينبغي أن ترفع»².

¹- كتاب الحيوان - المقدمة - ص 10.

²- كتاب الحيوان ص 10.

المطلب الرابع: نظرات حول معجم الحيوان

العنصر الأول: نظرة عامة:

هذا الكتاب هو واحد من إصدارات الأستاذ محمد بلقزيز، صدر في 255 صفحة عن المطبعة الوطنية بمراكش في طبعته الأولى لسنة 2005 م.

ومن مواصفات هذا الكتاب أنه معجم ازدواجي أو ثنائي كباقي الكتب الأخرى، «عربي فرنسي»، وهو ليس كالمعجم الفردي أو الأحادي لأنه كلما زاوجت كانت الصعوبة أكبر، لأن التحدي يزداد والصعوبة تتضاعف.

الكتاب هو معجم، والمعجم صناعة، وصناعته لا تكتسب بمعرفة واحدة، ولا بعلم واحد، بل بمعارف وعلوم، وهذه ميزة هذا المصنف.

ثم إنه نظام من القواعد والضوابط بدون هذا النظام ينقلب القصد إلى ضده، والناظر في الكتاب يجد أن الأستاذ بلقزيز قطع مسيرة علمية شاقة، فعمله هو مغامرة صاحبها السلامة من كل الوجوه، وأقوى وسيلة اعتمدها هي خصلة الإخلاص للعلم مع القدرة عليه.

لقد جمع المصنف في هذا الكتاب كل ما يتعلق بأخبار الحيوان، سالكا في ذلك المنهج الاصطلاحي ونعني به البحث في المصطلحات التي تتعلق بالحيوان من جهة: البدن، والأعضاء، وأسنان الحيوان، وألياف الحيوانات، ومصطلحات التناسل واللقاح، ومصطلحات أفعال الحيوان، وأصواتها وجماعتها وسيرتها وإفرازاتها وفضلاتها، مع ذكر أنواعها مثل الحيوان الطائر، والحيوان البري مثل الزواحف والأفاعي، وحيوان البحر، وقد يدقق في بعض مكونات بدن الحيوان مثل مصطلحات الرأس مثلا..

فالكتاب سجل للمصطلحات المتعلقة بالحيوان تفوق ألفي مصطلح.

العنصر الثاني: نظرة تقويمية

أهم ما تتسم به هذه الدراسة ما يلي:

أ- الجودة: فالكتاب جديد في معلوماته ومنهجه.

ب- المقابلة: يقابل المادة الاصطلاحية بنظيرتها في اللغة الفرنسية.

ج- التأصيل: يطغى على هذا العمل الطابع التأصيلي، وهذا ما كان الأستاذ محمد بلقزيز يثبته في ظهر الغلاف مثلما فعل في هذا المصنف وفي المصنفات الأخرى، لا يخلو كتاب من كتبه من مثل قوله: «... في المراجع العربية الأصيلة»

د- الترجمة: من العربية إلى الفرنسية، وهذا يعطي قيمة كبيرة لعريبته، ولأستاذ باع قوي في «التعريب»، ومن شروط تحقيق هذا المطلب: تحصيل المعرفة العلمية، والتمكن من المعرفة اللغوية التي هي ذات بعدين: بعد أصيل وهي العربية، وبعد دخيل وهي اللغات الأجنبية.

ولا يظن ظان أن معرفة اللغة العربية وحدها كافية في إنجاز مثل هذا العمل، أو أن إتقان اللغة الفرنسية أو أي لغة أجنبية يكفي في تحقيق هذا الإنجاز، لا بد من المزاجية بين العربية وغيرها من اللغات الحية.

وقد لاح لي وأنا أنظر في كتاب «الحيوان» أنه كان ملما باللغتين العربية والفرنسية، كما أنه كان على دراية بالمعرفة العلمية مع الثقافة الواسعة، وهذه كلها شروط أساسية لإنجاح هذا المشروع.

هـ- التكامل والامتداد: نعني بذلك أن مؤلفات الأستاذ بعضها يكمل بعض، وبعضها ممتد في بعض، وهذا يجعل من الصعب الوقوف عند كتاب واحد، فكتاب الحيوان مثلا هو امتداد لكتابه «مصطلحات التشريح في المراجع العربية الأصيلة»، ثم إنه مدخل عام لعمل سيصدر في ثلاثة أجزاء يتناول «المصطلحات الخاصة»، مما يجعل من الكتاب مدخلا للمشروع القادم.

و- العلم الطبيعي: وهو هاجس الأستاذ محمد بلقزيز الأول، فجعل المصطلحات التي بحثها لها صلة بالعلوم الطبيعية، وتستطيع أن تلاحظ أن كتبه توزعت على العلوم البحتة مثل الطلب والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا..

ز- الموسوعية: وهذا جانب تميز به أيضا، فمجمل أعماله هي عبارة عن موسوعات، ولذلك قدم المادة العلمية في معاجم أطلق على بعضها «Dictionnaire» بالفرنسية.

وعلى العموم، فالكتاب تقني صرف، وهو لا يساعد على كثرة الكلام، لأن الكلام قد لا تكون له مزايا إيجابية خاصة مع القضايا العلمية التقنية، لأن العلوم البحتة تحتاج إلى كلام

علمي بحث، كلام يتابع الجهود العلمية التقنية، ويستوعب القضايا الاختبارية في تطوراتها التطبيقية.

العنصر الثالث: خاتمة وتوصيات

وأخيرا

فإن كتب الأستاذ محمد بلقزيز هي عبارة عن رسائل التزام إلى جهات محددة:

أولاً: هي رسالة إلى إنسان اللغة العربية، هذا الإنسان الذي بدأ يعيش حالة من الانفصام مع هذه اللغة فتركها ومال إلى غيرها، إن الأزمة ليست في اللغة بل في إنسان هذه اللغة، وقد كشف الأستاذ بلقزيز على أن اللغة قادرة على التواصل، وعلى الاستيعاب وعلى الانفتاح، قادرة على أن تكون لغة «العلم» إذا كان «العلم» من صنع إنسانها.

ثانياً: هي رسالة إلى الجهات المسؤولة عن التعليم في بلدنا وفي سائر البلاد العربية، أولئك الذين أبعدها العربية عن المعاهد التقنية، وكليات العلوم والطب والهندسة والإعلاميات.. إلخ، حتى أصبح الطبيب لا يعرف لغته، وكذلك الصيدلي والمهندس والبيولوجي والكيميائي والفيزيائي...

ثم إن هذه الرسائل تضمنت الإشارة إلى ما يلي:

ثالثاً: إن المشكلة الحقيقية هي مشكلة تكنولوجية وعلمية بحثية، وهي ليست مشكلة لغوية، فالتخلف هو في التكنولوجيا، لأن هذا سيعكس المعادلة التي تقول: أوجد التكنولوجيا وسماها بالعربية تتطور العربية لا أن تستورد التكنولوجيا بمسمياتها اللاتينية ثم تلتبس لها تعريفاً من لغتك!.

رابعاً: ثم إن التعريب لم يحل المشكلة منذ نصف قرن من الزمن، فإذا كان نقطة انطلاق وبداية فلا يجب أن يصبح نقطة نهاية.

أما التوصيات فنجملها فيما يلي:

أولاً: البداية بمصطلح «الحيوان»، ودراسته دراسة مصطلحية تأخذ بعين الاعتبار دلالة المصطلح في مصادر اللغة العربية وفي الأصول الشرعية، ثم مقابلته باللغات الحية.

ثانياً: النظر في بعض الإصدارات الحديثة في بحث موضوع «الحيوان» بطريقة معجمية ومصطلحية مثل: «مصطلحات في تصنيف الحيوان» وهو معجم إنجليزي - عربي،

للدكتور يحيى محمد عزة، منشور في جملة اللسان العربي، العدد 23، و«معجم الحيوان» عربي - إنجليزي، من إعداد وزارة التربية «ج-ع-م»، تنسيق المكتب الدائم للتعريب، منشور في مجلة اللسان العربي، المجلد الثامن، الجزء الثاني، يناير 1971 م.

ثالثًا: إدخال هذا العمل إلى شبكة الأنترنت ليتحول إلى معجم إلكتروني تكسييرا للحصار المضروب على الكتاب العربي.

رابعًا: مواصلة البحث في موضوع المعجم حسب الاهتمامات العلمية مثل «المعجم عند الأدباء»، و«المعجم عند الأصوليين والفقهاء»، و«المعجم عند المحدثين»، والمعجم في الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس... إلخ.

- المبحث الثالث: نظرات علمية ومنهجية من خلال كتاب " النحو والتفسير: أصول نظرية ونماذج تطبيقية " ¹.

يسعدني أن أشارك هذه الكوكبة من الباحثين في قراءة هذا الكتاب، شاكرين لمنظمي هذا الملتقى جهدهم وسعيهم في خدمة العلم والمعرفة.

بادئ ذي بدئ أقول بأنني أمام عمل علمي سمين، سمن بفعل التأني والتؤدة، وهو يعطي درسًا للكتابات المستعجلة والتي يجب أن تدخل إلى قسم المستعجلات لكثرة الخروم والكسور والتشوه الذي تنطوي عليه، إنتاج يظهر فيه تعب السنين، وهو عمل ليس كل من هب ودب يتذوقه، لا يتذوقه إلا من صفت سليقته، واستبان في العلم فهمه.

هذه المحاولة تنفض الغبار عن علم أصيل، أصبح اليوم للأسف يُتجاوز ويُعتدى عليه، يُتجاوز بمزاحمته بغيره من علوم أخرى، ويُعتدى عليه باللحن والخطأ المتفشي في اللغة العربية، كل من تكلم العربية فتعمد الخطأ واللحن، أو ظهر له الصواب فتجاهله فقد اعتدى على النحو العربي، ولا أتكلم هنا عن محاربة اللغة العربية بنحوها وصرفها وبلاغتها وقرآنها...

يُعتدى على النحو مع العلم أنه علم تجريبي، تطبيقي، جاء هذا الكتاب ليلفت الانتباه إلى هذه القضية، لكن بصيغة علمية ومنهجية.

¹ - أنجزت هذه القراءة بمناسبة الاحتفاء بكتاب " النحو والتفسير: أصول نظرية ومعالم تطبيقية " للدكتور مصطفى أبوحازم، نظم الملتقى بكلية الآداب بمراكش بتاريخ 2016/12/03م.

أراد المؤلف من هذا الموضوع في هذا الكتاب أن ينبه إلى "العلاقة" الموجودة بين النحو والقرآن، هذه العلاقة هي علاقة اتحاد، اتحاد في كل شيء، لأن القرآن لما نزل نزل به، فالقرآن نزل بالنحو المضمن في القرآن بالترتق قبل الفتق، قبل الانفجار العظيم كما يقول أستاذنا الدكتور الشاهد البوشيخي، انفجار العلوم من شمس القرآن، من هنا جاءت "الشواهد القرآنية" عند سيبويه وغير سيبويه، وإلا فما معنى "الشاهد"؟

وحق هذا الشاهد له دلالاته في سياق تحدي القرآن للعرب للإتيان بمثله على ما هم عليه من معرفة للنحو العربي، وحتى نظرية "الإعجاز بالصرفة" التي ذهب إليها النظام تبقى لا معنى لها في سياق التحدي، فالله تعالى لم يصرف العرب للإتيان بمثله، بمعنى لم يسلبهم القدرة على الإتيان بمثله لأنه لو سلبهم القدرة لما بقي للتحدي معنى، ولذلك نقد الباقلائي وغيره نظرية الصرفة، وفي هذا السياق نقول إن القرآن تحدى العرب على الإتيان بمثله وهم على حالهم من المعرفة بالنحو العربي الذي هو سليقة وجبلة قبل أن يكون صناعة، ويبقى التحدي أكثر جسامة وأبلغ في التأثير عبر الزمن لأن النحو استقر في الصنعة.

ولما كان للنحو العربي أثر كبير في النص القرآني - وهو أثر كمون - امتد في العلوم الأخرى التي متحت من القرآن الكريم مثل القراءات القرآنية والتفسير والإعجاز...

السؤال المطروح: هل وضعية النحو العربي هي وضعية شفاهية صوتية أم وضعية كتابة نصية؟

وضعه الحالي هو كتابة نصية، والتطبيق هنا مزدوج الوجود: إما استفادة القواعد النحوية من أي القرآن، وهذه تخدم النحو بشواهد القرآن، وإما ببيان معاني الآيات بفعل النحو وهذه تخدم التفسير بالنحو العربي، وكلاهما من التطبيقات، وهذا يبين أن النحو العربي كان ضمن الوحي الموحى به إلى النبي ﷺ، فالقرآن هو وحي بكل ما فيه لغة ونحوا، وهذا كله كان شفاهاً، وهذا يتماشى مع سليقة العرب.

إن اتخاذ معرفة النحو شرطاً من شروط المفسر له دلالاته هنا، وقد أغلظ المحدثون في ذلك ومنهم شعبة بن الحجاج العتكي حين قال: "من طلب الحديث ولم يبصر العربية فمثله مثل رجل عليه برنس ليس له رأس"¹، ومثله قول حماد بن سلمة: "مثل الذي يطلب

¹ - ينظر التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، النوع السادس والعشرون: في صفة رواية الحديث وشرط أدائه وما يتعلق بذلك، ص 229.

الحديث ولا يعرف النحو مثل الحمار عليه مخالاة شعير لا شعير فيها" ¹ ، وهو وصف غليظ ونعت شديد على النفس، وله ما يبرره لأن الجاهل بالنحو يمكنه أن يلحن في الوحي، ومن لحن فهو كمن كذب على النبي ﷺ، ومن كذب عليه بهذه الصفة دخل في الوعيد الغليظ " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " ² ، إذا كان هذا في كلام النبي فكيف بكلام الله تعالى، والكذب على الله أشد لقوله: " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين " ³ .

السؤال الآخر: هل القرآن تقوى بالنحو أم أن النحو هو الذي تقوى بالقرآن؟

جوابه في حديث الصحابي الجليل عياض بن حمار عند الإمام مسلم ⁴ ، وفي حدث البعثة المحمدية، وهو أمر يحتاج منا إلى شرح طويل.

لقد تكلم المؤلف عن المرويات في التفسير، وقد صدق فإن مدار التفسير على المرويات، المرويات من السنة في تفسير السنة للقرآن، ومرويات من تفسير الصحابة والتابعين، وهو ما يطلق عليه التفسير بالمأثور، لكن النحو خضع هو أيضا مع اللغة للرواية، العربية رواية يأخذها الآخر عن الأول، وهي كلها من العلوم النقلية التي نعمل فيها العقل بالتحليل والشرح والبيان والتفكيك، والرواية في اللغة تخضع للسند، وقد شمل اللغة ما شمل السنة والقرآن من الجمع والكتابة والتدوين، وفيها السماع، والسماع من أرقى درجات التحمل، ولذلك أقول للدكتور مصطفى أبوحازم إن هذا الكتاب حاليا هو أعزب لا بد من تزويجه بعمل آخر يكون عنوانه " النحو والحديث أو السنة أصول نظرية ونماذج تطبيقية " ، وأنا أدعو الأستاذ للقيام بذلك لأنه يمتلك أدوات كل ذلك.

يقولون من صاحب الفحول تفحل، لقد صاحب الأستاذ مصطفى أبوحازم سيبويه ردحا من الزمن، وتأثير سيبويه عليه ظاهر جدا.

¹ - المصدر السابق.

² - حديث متفق عليه، أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النباحة على الميت، انظر الفتح 160/3 رقم 1291، ومسالم بن الحجاج في صحيحه، في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، حديث رقم 4.

³ - سورة الحاقة الآية «44-46».

⁴ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، 2197/4 رقم الحديث 2865.

لقد جمع الكتاب بين تخصصين من التخصصات الجامعية: الدراسات اللغوية والدراسات الإسلامية، وهذه الصلة غير مفتعلة لأنها موجودة بين العلوم، تحتاج من يتذوقها ويكشف عنها الغطاء، وهذه المحاولة هي بادرة طيبة نحو بحث تكامل العلوم والمعارف.

وقبل أن أختتم كلامي أشيد بهذا الكتاب من النواحي الآتية:

أولاً: الموضوع من جهة الاعتبار السابقة.

ثانياً: بالمنهجية المتبعة في بحث الموضوع، فالكتاب يقدم منهجية في البحث قبل المعارف والأفكار.

ثالثاً: باللغة والأسلوب المسلوك في البحث، ومن يمتلك لغة البحث العلمي لا تخف عليه في أي بحث.

رابعاً: بالتساؤلات العلمية، وهي مهمة جداً¹.

خامساً: أشيد هنا بالحدس العلمي للمؤلف، وهو كثير جداً².

سادساً: أشيد بتوليد المصطلحات، حين يصل الباحث إلى التوليد فهذا من الإبداع، ويدل على أن الباحث يتحكم جيداً في المادة العلمية³.

- المبحث الرابع: كتاب "خواطر متكاثرية حول أفكار متناثرة... " في إطاره العلمي⁴

توقع المناقشات من هذا النوع لا محالة في الحرج العلمي بسبب أننا لا نناقش مؤلفاً في التفسير أو العقيدة أو علوم القرآن أو الحديث - وهي القضايا التي درجنا من موقع التخصص على إثارتها - إننا نناقش مؤلفاً من نوع مغاير، كتاب لم يوضع للمبتدئين، ولا للمتعلمين بل للمكابدين وللمجربين، يمكن للمبتدئ أن يقرأه لكنه لا يضعه في إطاره الذي

¹ - أنظر ص 70 من الكتاب.

² - أنظر ص 119 من الكتاب.

³ - على سبيل المثال لا الحصر أنظر الصفحات 71-72-102-103 من الكتاب.

⁴ - نص المداخلة التي تمت المشاركة بها في الملتقى العلمي الذي نظّمته مؤسسة البشير للتعليم الخصوصي بمراكش احتفاءً بالكتاب المذكور، وهو للأستاذ حامد البشير بلخالفي بتاريخ 19 ماي 2012م.

يجب أن يوضع فيه، ولذلك يجب وضع هذا الكتاب في إطاره العلمي، وهذا ما ننشده في هذه المداخلة.

تساءلت تساؤل الباحث الأكاديمي: في أي فن من فنون التصنيف يدخل هذا الكتاب؟ هل في الشعر أم في القصة؟ أم في الفكر الإسلامي؟ إذا كان في الأدب أو في الفكر - وقد حدد المؤلف توجهه حين كتب على الغلاف في العنوان الفرعي "مقالات أدبية وفكرية" - ففي أي صنف من فنون التأليف هو؟

الواقع أن هذا الكتاب ينتسب إلى أسرة موجودة لكنها غير مجموعة وغير معينة تعيينا يجعل منها قائمة الذات والنعته والصفات، إنه يدخل في فن موجود لكنه غير مؤطر تأطيرا علميا.

التأليف في هذا الفن يسود فيه منهج معين، منهج لا حدود له، ولا قيود، يتكلم في كل شيء ولا يتحدد بأي شيء، منهج يتحدد برؤية ذات بعد عميق في التجربة، برؤيته ومنهجه يشكل خميرة المعاناة والتحصيل، تصاغ بصياغة القطف بالأنامل الذكية، أنامل ساهرة، سابعة في فضاء التعايش الذاتي والاجتماعي اليومي، ترصد العبر من الواقع والخبر، عمل مثل هذا هو موجود في التراث الإسلامي، لكنه قليل لسببين: الأول قليل من صنف فيه، والثاني أن القلة الموجودة قليلة التداول في التناول العلمي والمعرفي داخل العلوم الشرعية وحتى خارجها.

من قدماء من صنف فيه أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى سنة سبع وتسعين وخمسائة للهجرة، وضع فيه مؤلفا بعنوان «صيد الخاطر»، كسره على حوالي ثلاث مائة وسبعين فصلا، كل فصل له عنوان يعالج في حوالي سبعة سطور، وقد يصل إلى صفحة أو صفحة ونصف: كل فصل هو موضوع جذاب ومثير، ليست العبرة بالكثرة، بل العبرة بالإثارة وقوة الكلمة والعبارة، يقول ابن الجوزي في مقدمته التي لا تتجاوز سبعة أسطر: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والحمد لله حمدا يبلغ رضاه، وصلى الله على أشرف من اجتباه، وعلى من صاحبه ووالاه، وسلم تسليما لا يدرك منتهاه، لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها لم تعرض عنها فتذهب، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكليلا ينسى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «قيدوا العلم بالكتابة»، وكم قد خطر لي شيء فأتشاغل عن إثباته فيذهب فأتأسف عليه، ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكير

سبح له من عجائب الغيب ما لم يكن في حساب فأنتال عليه من كتيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيذا لصيد الخاطر، والله ولي النفع، إنه قريب مجيب».

وممن صنف فيه من القدماء الإمام العلامة ابن قيم الجوزية المتوفى سنة واحد وخمسين وسبعمائة للهجرة، صنف فيه رسالة بعنوان «الفوائد» حين تطالعه يسمو بك فوق الزمان والمكان، نَوَّعَ في تصنيف المادة العلمية، تارة تدرجها تحت مسمى «قواعد»، وتارة تحت مسمى «فصل»، وتارة أخرى تحت مسمى «عبر وعظات»، بلغت هذه القواعد والفوائد حوالي ثلاث وثمانين ومائة فائدة وقاعدة وتقييد شاردة، لم يضع له مقدمة بل بدأه بقاعدة يصفها بأنها «جلييلة»، وهي «شروط الانتفاع بالقرآن» لا يكثر من الكلام لأنه يعالج الموضوع في نصف صفحة، وإذا أطال في بعضها لا يتجاوز الثلاث صفحات، ثم أردف في الموضوع مصنفًا لطيفا سماه «فوائد الفوائد»، أجاد فيه وأفاد وأربى عن المطلوب وزاد.

وممن صنف فيه أيضا الحافظ ابن رجب الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة خمس وتسعين وسبعمائة للهجرة، وضع في كتاب «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف»، وهو أشبه ما يكون بكتاب «عمل اليوم والليلة» للإمام النسائي لكنه بطريقة أخرى، وهو كتاب مليء بالمعاني ومشحون بالآثار المحققة، كسره على مجالس ووظائف، طول الكلام في المقدمة، نقتبس منه هذا الكلام: «وقد استخرت الله تعالى في أن أجمع في هذا الكتاب وظائف شهور العام وما يختص بالشهور ومواسمها من الطاعات كالصلاة والصيام والذكر والشكر وبذل الطعام وإفشاء السلام وغير ذلك من خصال البررة الكرام، ليكون ذلك عوناً لنفسي وإخواني على التزود للمعاد، والتأهب للموت قبل قدومه والاستعداد، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد»، ولا تخفى الأهمية التي تجنى من مطالعة الكتاب، يقول: «ويكون أيضا صالحا لمن يريد الانتصاب للمواعظ من المذكرين، فإن من أفضل الأعمال عند الله لمن أراد به وجه الله إيقاظ الراقدين، وتنبيه الغافلين قال الله تعالى " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"»، ثم ذكر منهجه في الكتاب، والخطة التي اتبعها في سرد مضامينه.

وصنف فيه من القدماء الفقيه العلامة نصر بن محمد السمرقندي مصنفًا بعنوان «تنبيه الغافلين»، يوجد بهامشه كتاب له بعنوان «بستان العارفين»، ضمن فيه شوارد ومعاني وحكم جلييلة، أغلها قضايا في المعاملات ممزوجة بالعبادات والرقائق والرغبات...

ويدخل في هذا الفن أيضا كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، كسره على أبواب، وضمن في بعض الأبواب فصولا وصلت إلى حوالي خمس وخمسين ومائة موضوعا.

وقد تجد التصنيف في هذا الفن ذائبا عند بعض القدماء في مواضيع عامة، يحتاج منك إلى تأمله وجرده مثلما نجد عند الإمام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة خمس مائة وخمسة من الهجرة في موسوعته الكبيرة «إحياء علوم الدين»، وهي موسوعة شملت فنونا عديدة يدخل هذا الفن ضمنها.

هذا عند القدماء، أما المحدثين والمعاصرين فقد اهتموا به أيضا، إلى أن رسائلهم فيه قليلة جدا، يحضرني منها:

أولا: كتاب العلامة المحدث الطنجي عبد الله بن الصديق الغماري، صنف فيه رسالة بعنوان «خواطر دينية» في جزأين، وهي خواطر مستوحاة من الإيمان والعقيدة والشريعة، تضمنت فوائد علمية واقعية.

ثانيا: كتاب لأستاذنا الراحل الدكتور المهدي بن عبود بعنوان «رصد الخاطر»، طبعت طبعة في حياته، والطبعة الثانية صدرت بعد وفاته مذيبة بسيرة من حياته في جزأين، قُسمت مقالاته إلى ثلاثة مجموعات، كل مجموعة يندرج تحتها عدد من الموضوعات:

- المجموعة الأولى: خواطر وأفكار حول أزمة الحضارة المعاصرة.

- المجموعة الثانية خواطر وأفكار حول الصراع العقائدي في الوجود.

- المجموعة الثالثة حول التطلع إلى مستقبل الإنسانية.

ثالثا: ما صنفه الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في بعض رسائله المسماة بـ «رسائل النور»..

أيها الإخوة والأخوات:

ما ذكرته هو غيض من فيض عليه يتنزل ما صنفه أخونا الأستاذ حامد البشير بلخالفي، ومما يدل على أن هذا الإنتاج والإنتاجات السابقة كلها تخرج من مشكاة واحدة ما يلي:

أ- أن بعض الموضوعات والقضايا يتقاطع فيها الكلام بين القدماء والمحدثين لكن المعالجة تختلف.

ب- القصد من التصنيف هو تسجيل الشوارذ حتى لا تضيع، مع تنبيه الغافلين والراقيدين بها فهي أداة للإصلاح، إصلاح النفس، وإصلاح الواقع، ولم لا فقد تكون للإصلاح الشامل، الإصلاح السياسي والإصلاح الديني والإصلاح التربوي...

ج- اختلاف اللغة والأسلوب باختلاف التخصصات والميولات العلمية، فقد كتب الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري رسالته بأسلوب فقهي، وكتب الراغب الاصفهاني بأسلوب منطقي وفلسفي، وكتب الدكتور المهدي بن عبود بأسلوب فكري وقد تجد في الكتاب خليطا من الموضوعات المتجانسة بلغة أدبية وفكرية وصوفية مثلما فعل المصنف، فالكتاب يعالج قضايا متعددة، هذه القضايا تجر كل مهتم بأي اهتمام إليه، فالكتاب يطرح شبكة متعددة المناحي والتوجهات، تتضمنها القضايا التالية:

- 1- قضايا تعبدية
- 2- قضايا أخلاقية
- 3- قضايا لغوية
- 4- قضايا سياسية
- 5- قضايا تربوية
- 6- قضايا اجتماعية
- 7- قضايا صوفية روحية
- 8- قضايا مهنية
- 9- قضايا إنسانية
- 10- قضايا من السيرة الذاتية وحكاية التجارب، وهي أمور مهمة جدا.

«تلك عشرة كاملة» عولجت بلغة أدبية مبسطة، سهلة جدا، وبلغة فكرية بعيدة عن التقييد والتعقيد، بدأ كتابه بمقدمة، وسرد الموضوعات بطريقة تلقائية ومن دون تكلف، لم يضع فصولا أو أبوابا ولا حتى أرقاما للقضايا، وصلت الموضوعات بالمقدمة والفهرس إلى حوالي 45 قضية، منها ما عولج في صفحة واحدة، ومنها ما عولج في أربع صفحات أو خمسة، والكتاب في عمومه يقدم حياة متكاملة، ومطالعة هذا النوع من الكتب يضيف إلى حياة المرء رصيذا إضافيا من التجارب والعبر.

الباب الرابع:
تطبيقات منهجية ومعرفية
في حقول علمية

بُني هذا الباب على ثلاثة فصول، وهي:

- **الفصل الأول: طرق في التعامل التقني مع القرآن الكريم**
- **الفصل الثاني: خطة السياق ومحاولة تطبيقها على النص الحديثي**
- **الفصل الثالث: علم الكلام وعلم أصول الفقه: العلاقة والامتداد**

الفصل الأول:

طرق في التعامل التقني مع القرآن الكريم



ويتكون من العناصر الآتية:

أولاً: مدخل منهجي

ثانياً: التوثيق من القرآن الكريم

أولاً: مدخل منهجي

لا خلاف في كون القرآن أصل من أصول العبادة والاعتقاد والتشريع، ويجري الكلام عن كونه كذلك من دون التوقف عند كونه أيضا مصدر من مصادر البحث والعلم والمعرفة، وهو الجانب الذي لم يتم التوقف عنده كثيرا، مع العلم أن مجمل المنافع والمزايا التي تستخلص من القرآن وتستنبط منه هي في ميزان المعرفة الشرعية لا يمكن أن تتحقق إلا بالعلم، نعني بذلك أن الأحكام وغير الأحكام لا يمكن استمداها منه إلا بطرق علمية وبقواعد منهجية، صحيح أن للقرآن علوما أنشئت لهذا الغرض يتم استخدامها جزئيا أو كليا في التعامل معه لكن الجانب الغائب هو كيف يتعامل الطالب المعاصر مع القرآن الكريم، وما هي الخطة المنهجية التي يجب أن يسلكها في استخلاص الآية من السورة والسورة من المصحف؟ هل يتعامل الطالب مع القرآن كما يتعامل مع سائر المصادر بدعوى أن القرآن مصدر كباقي المصادر؟

نحاول هنا أن نؤكد لطلبة العلم على جانبين مهمين يخصان القرآن في دائرة البحث العلمي، الأولى في خارج العلوم الشرعية التي تهتم القيام بأبحاث علمية تستخدم فيها مناهج العلوم الإنسانية، والثانية في داخل العلوم الشرعية التي تخص طريقة الاستفادة والتوثيق ومحاولة الاستفادة الآية بأبسط جهد وبأقل تكلفة.

مما يؤسف له أن هناك أبحاثا كثيرة تعتمد توظيف مناهج العلوم الإنسانية مثل تلك التي تنطلق من البيولوجيا باحثة عن أصل الإنسان، وتلك التي تنطلق من الأركيولوجيا والجيولوجيا والكوسمولوجيا والتي تبحث في طبقات الأرض وفي الأزمنة الجيولوجية القديمة، مع البحث في الكواكب والمجرات والأقمار والشموس، وكذا تلك التي تنطلق من علم التاريخ فتبحث في حضارات الأمم البائدة، وتلك التي تنطلق من الطب العلاجي للإنسان ولاسيما في مجال التغذية، وما ينفع الإنسان وما لا ينفعه... كل تلك البحوث وغيرها - وهي كثيرة ومتعددة- تتكلف في جمع العينات والآثار القديمة والمخطوطات البالية والنقوش على الجدران وتأمل بقايا الإنسان، فتأخذ من هنا وهناك من دون أن تجعل من القرآن مصدرا من مصادرها، ووثيقة من وثائقها، مع العلم أنك تجد أشياء مأخوذة من التوراة والإنجيل علما بأن القرآن يُسعف مجمل تلك النظريات من وجهين مهمين:

الأول: أنه يتضمن من الحقائق العلمية المفيدة للإنسانية بصفة عامة ما يجعلها إن نزلت عليه أن تجد ضالتها من دون حيرة ولا تيه.

الثاني: أن القرآن الكريم هو الأصل الباقي على أصله من دون تحريف ولا تزيف، أحيط بعناية علمية فائقة جعلت منه وثيقة - إن أرادوا منه ذلك- سليمة وصحيحة، والوثيقة تتضمن عنصر الثقة، والثقة هي سمة ما تبحث عنه البشرية في علومها المتعلقة بالقول والخبر، ولا أريد أن أؤكد على دور «الثقة» في حفظ الرواية والخبر.

تلك هي رغبة هذه المحاولة المتوجهة للباحثين الجدد ولأسيما المتخصصين منهم في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، لأن الإعراض عن القرآن بدعوى أنه يهيم الدين ولا يخص العلم هو ضرب من العلمانية الأكاديمية المستحدثة، وهو نوع من أنواع هجران القرآن الكريم المذموم شرعا وعقلا.

ثانيا: التوثيق من القرآن

1- تقديم

نقدم هنا درسا في كيفية التوثيق من القرآن الكريم، ومعلوم أن التوثيق من القرآن الكريم هو ثقافة ومعرفة تُتعلّم، ولها خطة منهجية تُلقن، فهي علم من علوم القرآن الكريم، تدخل في طرق التعامل مع القرآن الكريم، برز فيها أعلام، وكُتبت فيها كتب لا بد أن نُعرِّج الطالب عليها حتى يكتسب صورة علمية أولا ثم يأخذ قسطا تطبيقيا ليتدرب على كيفية استفادة الآية من المصحف.

بما أن القرآن هو كلام الله تعالى، وبما أنه هو الأصل الأول في العبادة والعقيدة والتشريع فهو أيضا أصل في العلوم والمعارف، فلا يستقيم أن نرجع إليه في مجال العقيدة والتشريع دون أن نرجع إليه في مجال العلم والمعرفة. وقد يتوهم البعض أن القرآن مجاله هو المجال الأول فحسب، وهو خطأ، وإذا وقع ذلك عمدا فهو إثم دون شك، لأن الفصل بين المجال الأول والثاني لا مبرر له في سياق هذه الثقافة، لأن استفادة العقيدة والتشريع والأخلاق هي أمور لا تتم إلا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، وإذا كانت العقيدة

والتشريع وغيرهما لا تستفاد إلا لعبادة الله فإن عبادة الله لا تتم إلا بالعلم، يقول تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾¹، فإذا تأكدت ضرورة الرجوع فماذا نستفيد من القرآن إذن؟

نستفيد من القرآن أهم ما فيه وهي الآيات الكريمة بصفتها أدلة للأحكام الشرعية، فالآيات القرآنية هي القرآن الكريم لأنها هي التي تُكوّن السور الكريمة، والسور تُكوّن الأحزاب، والأحزاب تُكوّن الأجزاء، وهذه الاستفادة يجب أن تكون علمية، نعني بذلك: أن يكون النقل صحيحا وسليما لا يعتربه الخطأ، لأن القرآن لا يعتربه الخلل مطلقا، وصفه الله تعالى فقال: ﴿وَإِنَّ لِكِتَابِ عَزِيزٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَلَاغُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾²، وهي حالة القرآن الطبيعية، يجب المحافظة عليها، يؤجر فاعلها ويؤتم مخالفتها، فلا مناص من النقل السليم، ومادام القرآن هو آيات في سور، وكل آية لها رقمها في المصحف، وجب التأكد إذن من توثيق الآية من سورتها وبيان رقمها، وهذا ما أصبح اليوم جاريا في التوثيق، كان العلماء الأقدمون يكتفون بعزو الآية إلى السورة، أما اليوم وبعد المحسنات التي دخلت على المصحف مع جماليات العرض والطباعة والعناية الفائقة بكتاب الله أصبح لازما على الباحثين أن يُشيروا إلى رقمها في محاولة روم الدقة المنهجية، فتوثيق الآية بالسورة والرقم يسهل على الباحث الرجوع إليها، أما الاكتفاء بالإشارة إلى السورة ورقم الآية من دون ذكر الآية فهو أمر لا نجوزه لأنه يفوت على فاعله أجر القراءة.

بناء على ما تقدم كيف يتم تحقيق ذلك؟

لا بد إذن من وسيلة من الوسائل التقنية والمنهجية لضبط الآية بالكيفية المشار إليها، والوسيلة الطبيعية التي سادت هي "الحفظ" التي تعني حفظ القرآن كاملا، حفاظ القرآن كانوا يهتدون إلى الآية في السورة لكن لا يهتدون إلى رقمها في السورة، وحتى عملية استحضار السورة كانت تأخذ منهم وقتا، هذا بالنسبة للحفاظ، أما الذين لا يحفظون أو لا يحفظون إلا القليل فإن عملية الاستحضار تتعذر عليهم، وإذا تعذرت أصبح التوثيق صعبا، لذلك فكر العلماء في إيجاد وسيلة تُسهل عليهم عملية التوثيق، وتيسر عليهم عملية الوقوف على الآية، وذلك في محاولة لاختصار الجهد والوقت، هذه الوسيلة هي "كتب المعاجم والفهارس".

¹ - سورة محمد الآية 19.

² - سورة فصلت الآية 41-42.

المعجم لغة من عجم الشيء عجمًا إذا امتحنه واختبره، وأعجم الكتاب: إذا أزال إبهامه بالنقط، والمعجم هو كتاب للمفردات اللغوية يُرتب على حروف الهجاء، وجمعه معجمات ومعاجم¹، ويدور المعنى المراد للمعجم على الاعتناء بالقرآن الكريم وخدمته بترتيب مفرداته على حروف الهجاء، أما كتب الفهارس فهي التي تجعل للكتاب فهرسًا، ويقال الفهرس والفهرست، وهو الكتاب الذي تجمع فيه موضوعات الكتاب أو أعلامه أو مصطلحاته أو مصادره ومراجعته فترتب على معيار معين²، وقد يطلق إسم المعجم على الفهرس أيضًا وقد يجمع بينهما في إطلاق واحد كما سنرى في بعض النماذج التي نذكر منها:

2- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم:

فكرة وضع معجم للقرآن الكريم هي فكرة قديمة جدا، فقبل أن تستقر في دماغ فلوجل الألماني فقد استقرت في دماغ الراغب الأصبهاني المتوفى سنة ثلاث وخمسمائة من الهجرة، فقد رأى الراغب الأصبهاني أن الحاجة العلمية تدعو إلى ذلك فبادر بوضع معجم لألفاظ القرآن، جمع فيه ما بين اللفظ اللغوي والمعنى القرآني، فبواب الألفاظ القرآنية تبويبا معجميا، يقول في بيان خطته: «وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد، والإشارة فيه إلى المناسبات التي بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات حسبما يحتمل التوسع في هذا الكتاب، وأحيل بالقوانين الدالة على تحقيق مناسبات الألفاظ على الرسالة التي عملتها مختصة بهذا الباب»³.

أما قيمة الكتاب والفائدة منه فبينها بقوله: «وذكرتُ أن أول ما يُحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللين في كونه من أوائل المعاون في بناء ما يريد أن يبينه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع»⁴.

¹-انظر المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ص 408، طبعة يوليو 1980، مادة "عجم".¹

²-انظر المصدر السابق ص 483.²

³- انظر معجم مفردات الفاظ القرآن، مقدمة المؤلف، ص 8.³

⁴- المصدر السابق.⁴

إذن بحسب تصنيف العلوم، وبحسب ما يجب على المتعلم معرفته من القرآن بعد حفظه هو معرفة ألفاظه، والتي نعتها الراغب الأصبهاني بالعلوم اللفظية، وقد مثل لها بالبناء، فمثلما ان اللبن زاد البناء فإن الألفاظ هي زاد لكل مقبل على كتاب الله تعالى، ثم إنها تفيد في كل العلوم الشرعية، يفصل في ذلك بمزيد من البيان فيقول: «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزُبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم»¹.

لقد تناول الراغب الأصبهاني ألفاظ القرآن مستعينا في شرحها وبيانها بالشواهد القرآنية الدالة عليها، ثم من الأحاديث النبوية الشريفة، ثم من الأمثال السائرة، وبآيات من الشعر العربي، ولم تكن هذه المحاولة منه هي أول محاولة علمية لها صلة بالاهتمام العلمي بالقرآن بل له تجربة علمية سابقة، وأخرى ستكون لاحقة لهذا الجهد العلمي والمنهجي كما بين ذلك في مقدمته، فمن أعماله السابقة "رسالة منبهة على فوائد القرآن"، و"مقدمة في تفسير القرآن الكريم"، وذكروا بأن له تفسيرا كبيرا للقرآن الكريم لم يكمله، ومن أعماله التي وعد بإنجازها بعد هذا المعجم كتاب "تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة".

3- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم «1»:

صورة هذا المعجم أنه ظهر على يد المستشرق الألماني فلوجل تحت عنوان "نجوم الفرقان في أطراف القرآن"، طُبع في ليبسك بألمانيا عام 1842م، ومعلوم أن الثقافة الاستشراقية اهتمت بالتراث الإسلامي كله، وفي مقدمته "القرآن الكريم"، ولم يكونوا يحفظون القرآن ولذلك وضعوا هذا المعجم لييسر عليهم عملية الرجوع إلى المصحف الشريف، ثم قام الملك فؤاد الأول الذي حكم مصر ما بين سنة 1917م و1922م بطبع مصحفا لأول مرة في العالم الإسلامي برواية حفص عن عاصم، وكانت قد سبقته عدة طبعات للقرآن الكريم أوجدها المستشرقون للغرض ذاته، وهي مصاحف شابتها أخطاء كثيرة.

¹ - المصدر السابق.

طبع مصحف الملك فؤاد في المطبعة الأميرية، وروجع عدة مرات تحت إشراف لجنة من العلماء من شيوخ الأزهر أصبحت فيما بعد طبعة مصححة ومنقحة، جاء في نهاية التعريف به: «تم بفضل الله وتوفيقه طبع هذا المصحف الشريف بمطبعة وزارة الأوقاف، وأخذت كليشياته من المصحف الذي طبعته مطبعة المساحة بدار الكتب سنة 1378هـ/فبراير سنة 1959م، وكان الذي خطه هو محمد جعفر بك المتوفى سنة 1916م».

لكن الذي يظهر من هذا التعريف ومن بعض التنبيهات حول الموضوع أن الملك فؤاد الأول وضع مصحفا خاصا به، كان هذا المصحف بخط الشيخ عزيز، وتوجد منه نسخة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، ثم وُجد بعده مصحف آخر وضعته الحكومة المصرية، وهذا للناس عامة، وهو الذي خطه جعفر بك الذي تقدم ذكره، ويُعرف هذا المصحف بـ "المصحف الأميري"، أو بمصحف "بولاق" أو بمصحف "دار الكتب" أو المصحف "المصري"، لقد ساهمت المطبعة التي ظهرت في مصر في إخراج هذا المصحف لأول مرة في العالم الإسلامي، وبهذا يكون العالم الإسلامي قد دخل عالم المنافسة في طبع المصاحف.

ما العلاقة بين معجم فلوجل ومصحف الملك فؤاد؟

العلاقة هي علاقة تكاملية تصحيحية، فقد تمت مراجعة جهود فلوجل في ضوء المصحف المصري، فتصححت في المعجم أخطاء كثيرة، وكان الذي نهض بهذا العمل هو الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، يحكي هذه التجربة فيقول: «ولما أجمعت العزم على ذلك، راجعت معجم فلوجل مادة مادة على معاجم اللغة، وتفاسير الأئمة اللغويين، وناقشت مواده، حيث أرجعت كل مادة إلى بابها، ولم أقنع من نفسي بذلك بل اخترت من أجلة العلماء المغايير، وصفوة الأصدقاء المخلصين، لجنة عرضت عليهم فيها مواده مادة مادة، فما كان بادي الصحة أقروه، وما خفي عليهم وجه الصواب فزعنا إلى المعاجم نستوضحها، وإلى التفاسير نستلهمها، فلئن كان كتاب من غير الله له أوفر نصيب من الصحة، لقد كان هذا الكتاب»¹.

لما أنهى الشيخ العمل عرضه على المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية، وتشكلت لجنة لفحصه، وطالبته اللجنة بتقديم المنهجية المتبعة فقدمها، يحكي فيقول:

¹ - أنظر مقدمة كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ج.

«...» أولاً: أن الطريقة التي اتبعت في ترتيب مواد المعجم هي طريقة الزمخشري في الأساس، والفيومي في المصباح، والتي اتبعها أصحاب المعاجم العصرية: كمحيط المحيط وقطره للبستاني، وأقرب الموارد للشرتوني، والمنجد والبستان إلخ، وهي ترتيب أصول الكلمات على حسب أوائلها فثوانها فثوالثها، فافتتح المعجم بمادة "أ ب ب"، واختتم بمادة "ي وم".

ثانياً: الطريقة التي اتبعت في مشتقات الكلمة "المادة" هي الابتداء بالفعل المجرد المبني للمعلوم، ماضيه فمضارعه فأمره، ثم المبني للمجهول من الماضي والمضارع، ثم المزيد بالتضعيف، فالمزيد بحرف إلخ إلخ ثم باقي المشتقات من المصدر واسم الفاعل والمفعول، فباقي الأسماء، متبعاً في ترتيب كلمات كل باب من هذه الفروع نفس الطريقة التي اتبعت في ترتيب المواد الأصلية، وهي ترتيبها أيضاً حسب أوائلها فثوانها فثوالثها وهلم جرا¹.

خرج الكتاب إلى الوجود تحت عنوان «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» عن دار الحديث بالقاهرة، وطبع عدة طبعات، كانت الطبعة التي عولنا عليها هنا هي طبعة سنة 1427هـ / 2007م، صدرت بتقديم الدكتور منصور فهيم وبكلمة واضع المعجم التي اقتبسنا منها ما تقدم، وتلتها كلمة بعنوان "مفتاح الكتاب" ومقدمة الناشر وصورة من الترخيص مسلمة من الأزهر الشريف، وهي طبعة أنيقة في مجلد واحد في حوالي 872 صفحة، طبع في وسطها من جهة الأعلى المصحف الشريف لمن أراد أن يجمع بين المصحف والمعجم في كتاب واحد.

والواقع أن الكتاب وإن كان لفوجل الألماني في الأصل فإن الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي راجعه وأدخل عليه تحسينات كثيرة وتصويبات عديدة، تقبل الله منه.

4- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم «2»

وهو عمل آخر ومحاولة أخرى قام بها السيد محمد صدقي العطار، طبع بدار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت، صدر في طبعته الأولى سنة 1431هـ / 2010م، ومما يُلاحظ عليه أنه بنفس عنوان معجم فؤاد عبد الباقي ولذلك وضعنا امامه رقم «2»، لم يغير في العنوان شيئاً، وبنفس حجمه، وعلى شكل صورته تقريبا، وقع في حوالي 712 صفحة،

¹- المصدر السابق ص ز.

رتب هو الآخر المادة على حرف المعجم، يحوي في صدره أيضا المصحف الشريف، صدر بمقدمة صاحبه التي يقول فيها: «ومن العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن وآياته، وهو علم قائم بذاته، وذو أهمية بالغة لكل مسلم سواء كان عالما أو طالب علم، أو رجلا عاديا لأنها تدل الإنسان على الآية التي يفتش عنها، فتوفر وقته وتوصله إلى مبتغاه بسرعة، كما تدله على الآيات التي تشابهت ألفاظها، واختلفت بلفظة أو أكثر، ومكانها في كتاب الله، وبذلك تبعد الباحث عن الخطأ، فلا يخلط بين آية وأخرى»¹.

وعلق على التجارب السابقة فقال: «ولقد كثرت تجارب علمائنا لحل هذه المشكلة، وتعددت وجهات نظرهم واهتماماتهم للتوصل إلى هذا العلم الشريف فألفوا في أعصر سابقة بعض الكتب، ومنها مفتاح للآيات الشريفة اسمه "ترتيب زيبا" مطبوع في الأستانة، ومفتاح آخر لكلمات القرآن الكريم اسمه "نجوم الفرقان في أطراف القرآن" مطبوع في ألمانيا، ذكرت في ألفاظ القرآن بكلمات عربية، أما الأرقام فكتبت بالفرنجية، لكن هذين الكتابين لم يفيا بالغرض لصعوبة استعمالهما، ومن ثم جاء كتاب اسمه "فتح الرحمن لطالب آيات القرآن" وهو كتاب صغير اعتمد رموزا لأسماء السور، وحاول مؤلفه أن يقدم كل ما لديه من جهد، فجاء كتابه سهل المطالعة إلى حد ما، ومن ثم توالت المحاولات ومنها محاولة من ألف معجما مفهرسا، وشرح بعض الكلمات الضرورية الواردة في الآية المستخرجة، وأهم كتب هذا النموذج "معجم ألفاظ القرآن الكريم" لمجمع اللغة العربية، وقد طبع في بيروت من قبل الهيئة العامة للكتاب، واعتمد الكتاب في استخراج الكلمات على إرجاعها إلى جذورها، ومن هذه المعاجم معجم فؤاد عبد الباقي، واعتمد جذر الكلمة لكنه لم يشرح معاني الكلمات»².

قلت: وتعليقه على تجربة محمد فؤاد عبد الباقي تبقى غير مقنعة لكن الكتاب معجم، ولم يوضع لشرح المعاني، وما طالبه به لم يعتمده هو نفسه في معجمه.

¹ - أنظر المعجم المفهرس لمحمد صدقي العطار، المقدمة.

² - المصدر السابق.

5- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم

أعدّه السيد حسان عبد المنان، وصدر عن بيت الأفكار الدولية في رمضان 1420هـ/يناير 2000م، صدر في طبعة أنيقة في 594 صفحة، تصدرته مقدمة للمؤلف وبفهرس للمحتويات، والمحاولة التي نحاها تختلف عن نهج السابقين، فقد رتبته حسب الموضوعات العلمية، وتحت كل موضوع ما يندرج تحته من آيات قرآنية، يذكر الآية كاملة برسمها وشكلها مع إسم السورة أمامها ورقم الآية، فمثلا موضوع الدعوة إلى الله تندرج تحته كل الآيات التي تخص الدعوة إلى الله، موضوع الصدق تذكر تحته كل الآيات التي تتناول الصدق من مختلف الأوجه، فهو ترتيب موضوعي، يقول السيد حسن منان في مقدمته: «لهذا كله توجهنا إلى المعجم الموضوعي للقرآن، والذي كثر عرضه في الآونة الأخيرة، فاطلعنا على ماكتب أولا وأخرا، فرأيت من أوسعها تصنيفا وإحاطة ما ذكر في آخر طبعة دار الرشيد للمصحف، إذ أوردوا فيه تقسيما جيدا لموضوعات القرآن، أحالوا ذلك كله إلى رقم السورة ورقم الآية دون ذكرها اختصارا، فاعتمدناه وكان نواة عملنا هذا، فأجريناه عليه التبديل والتغيير والفهرسة، وما يلزم من طريقة تعين القارئ والمطالع، وجعلنا الآيات مسرودة على طريقة المعجم، فكل أمر يذكر حسب حروف الهجاء، جزئيا كان أو كليا، وخففنا من التكرار بأن أحلنا مواضع إلى مواضع أخرى، ذُكرت بمعناها وغير لفظها، أو فصل فيها لأمر كثيرة منها هذا الأمر الجزئي، فأحيل الجزء إلى الكل.

«ولا شك أن هذا العمل رديف لعملنا الآخر، وهو المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، الذي فسرنا فيه الألفاظ واختلافها وتباينها عند ذكرها، وبيننا الفروق بين السياقات، فأفاد مقارنة بين الألفاظ ومعانيها، وأغنى عن شرح المفردات، والإحاطة والسبر في الرجوع إلى آيات كثيرة لمعرفة معانيها والفروق التي بينها، وهو وشيك الصدور مع هذا الكتاب إن شاء الله تعالى»¹.

لقد بين المصنف أن هذا المعجم اعتمد فيه على طبعة دار الرشيد للمصحف، كما أخبر بأن له معجما مفهرسا لألفاظ القرآن الكريم سيكون رديفا لهذا المعجم الموضوعي، أما المعجم الموضوعي فهو بحق معجم علمي، فصل فيه تفصيلا وهو مفيد للباحثين والدارسين

¹ - أنظر المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم ص 6-7.

في الموضوعات العلمية المنسوبة إلى الدراسات الإسلامية بصفه عامة وإلى القرآن الكريم بصفة خاصة.

6- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية:

أعدّه السيد محمد إسماعيل إبراهيم، صدر عن دار الهنا للطباعة، ودار الفكر العربي بالقاهرة في طبعته الثالثة، قدم له الدكتور عبد الصبور شاهين بكلمة مؤرخة في يوليو من سنة 1968م، وهو في مجلد من 600 صفحة.

أما محتويات محتويات المعجم ومنهجه فحصرها المؤلف في أسس سبعة، وهي:

- جرد الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم من موادها، وسردها على حرف المعجم وكما وردت أصولها في المعاجم اللغوية.

- ذكر مادة كل لفظة، وعدد المرات التي وردت بها في القرآن على اختلاف صيغها ومعانيها.

- شرح كل مادة وبيان ألفاظها التي اشتقت منها بما يتطابق مع المعنى اللغوي، ويتوافق مع السياق القرآني.

- الإشارة إلى الأساليب البيانية والمعاني الدلالية.

- تفسير ما جاء في القرآن من بعض التعابير الخاصة.

- توضيح بعض معاني الألفاظ التي جاءت في القرآن بمعان لم تكن مألوفة ولا معروفة.

- التعريف بالأعلام الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم.

ويقدم المؤلف طريقة التعامل مع المعجم فيقول: «كل من يريد البحث في هذا المعجم ليعرف مكان أي لفظ في القرآن ومعناه، عليه أولاً أن يتأكد من مادة اللفظ اللغوية: أي الأصل المأخوذ منه، وسيجد المادة في سياق ترتيبها الهجائي، وإلى جانب المادة وبين قوسين عدد مرات ورود الألفاظ المشتقة من هذه المادة في القرآن، وبعد ذلك يأتي الشرح اللغوي العام للمادة، وبلي ذلك المعاني الموافقة لمقاصد الألفاظ في الآيات، ويتبع هذا كله نصوص

الآيات التي جاءت فيها الألفاظ على اختلاف صورها وصيغها، وإلى جوار كل نص منها اسم السورة التي جاء فيها اللفظ، ورقم آيته»¹.

والكتاب مفيد ونافع في بابيه، ذلك أن وضع المعاجم اللغوية من مثل هذا الصنف لا ينهض به إلا من توفر على قدرة تزيد على التأليف والكتابة، وتتمثل هذه القدرة في التمكن من اللغة العربية أولاً، ومن كتاب الله حفظاً وتفسيراً، ومن منهج يسهل على الباحثين الوصول إلى مبتغاهم بأبسط جهد وبأقل تكلفة.

7- التقنيات الإلكترونية الحديثة:

مع كل ما تقدم فإن لشبكة الأنترنت والأقراص المدمجة مزايا كبيرة في توثيق الآية من المصحف وفي بحث الموضوعات من القرآن الكريم، فيكفي أن يضع الطالب الباحث طرفاً من الآية في GOOGLE مثلاً فيعطيه الآية بتوثيقها من المصحف، وبتفسيرها من مختلف مصادر التفسير، وكذلك الموضوعات العلمية التي تتواجد فيها بطريقة سريعة ودقيقة، فشبكة الأنترنت مهمة جداً إذا ما تمَّ حسن استغلالها وتوظيفها في هذا المجال.

مغزى التوثيق من القرآن الكريم:

يتحدد المغزى من التوثيق من القرآن الكريم بما يلي:

-سلامة نقلها من المصحف الشريف، الذي يجب أن يكون مصحفاً معتمداً أقرته الهيئات الشرعية تحت رقابة لجنة من العلماء المتخصصين.

-سلامة نسبة الآية إلى القرآن الكريم لكونها من كلام الله، وليست من كلام نبيه، أو من كلام الناس.

-سلامة توثيقها من السورة، بذكر السورة ورقم الآية، وهذا يسهل أكثر.

-والتوثيق في النهاية هو تحصيل الاطمئنان في النفوس، وتمكين الثقة بين الموثق وقرائه، وبيان أن هذه العملية هي من المتفق عليه في عملية التوثيق من كتاب الله تعالى، صونا لكلام الله تعالى حتى لا يُحرّف أو يختلط بغيره.

¹ - معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص 12.

الفصل الثاني:

خطة السياق ومحاولة تطبيقها على النص الحديثي



ويتكون مما يلي:

- مقدمات منهجية

- المبحث الأول: السياق: محاولة تأصيلية في اللغة والاصطلاح.

- المبحث الثاني: منهجية السياق وتطبيقاتها على النصوص

- المبحث الثالث: خطة السياق والنص اللغوي

- المبحث الرابع: محاذير حول تطبيق خطة السياق على النص الحديثي

- المبحث الخامس: خطة السياق والنص الحديثي

- مقدمات منهجية

عنوان هذا العرض هو: «خطة السياق ومحاولة تطبيقها على النص الحديثي»، ومناسبته أنه بحث مقدم إلى الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء في موضوع: «أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام»¹. وطلبا لرؤية شمولية لخطة السياق تنطلق من منهجية التخصص في العلوم الشرعية وبالضبط في علم الحديث فقد استهدفت هذه المحاولة الكلام عن خطة السياق بصفة عامة ومحاولة تطبيقها على النص بصفة خاصة وعلى النص الحديثي منه بصفة أخص، فهو يندرج من العام إلى الخاص إلى الأخص.

أما من حيث الإشكال العام للموضوع فإن منهجية التحليل بالسياق هي منهجية وغنكانت قديمة فقد تبلورت مع المدرسة العقلية الحديثة، هذه المدرسة التي تولي قيمة كبيرة للنظر في المنهج قبل الرؤية، وفي الكيف قبل الكم، وتثير الإشكالات الكبرى معرفيا للتصدي لمعالجتها منهجيا، ولذلك فإن العمل بهذه المنهجية مازال في الطريق، والجهود فيه ما زالت فردية كما أنها لم تغط كل النصوص بل تعرضت لبعضها فقط، وقد شملت بصفة خاصة النصوص اللغوية والقرآن الكريم، أما نصوص السنة النبوية فالنظر إليها من هذه الزاوية يكاد يكون منعزلا.

لهذه الأسباب أثرنا اختيار هذا الموضوع لأهميته، ذلك أن السنة النبوية لا تعاني من فقر في النصوص والمصادر، ولا من غياب الرجال والأعلام، ولا من كساد في الأهداف والغايات والمصطلحات بل تعاني من أزمة «فهم».

إن طرق التعامل مع السنة النبوية لتقريبها وفهمها واستنباط الأحكام منها لم تتطور بالقدر الذي يذيب الأزمة ويزيلها، واعتقد أن منهجية التحليل بالسياق ستسمح - إن استخدمت كما يجب - بتقليص الهوة بين السنة النبوية والمشتغلين بها في هذا العصر، ذلك أنها ستقف حائلا أمام سلبيتين: الأولى: الاستيراد الكمي للنصوص، من دون فهم ولا تدبر، والثانية التعامل العشوائي مع الأحكام الشرعية المستمدة منها.

¹ - أقيمت الندوة أيام 10-11-12 جمادى الثانية 1428 هـ الموافق ل 26 - 27 - 28 يونيو 2007م بمركز الاستقبالات والندوات شارع الصنوبر - حي الرياض - الرباط.

أما العرض من حيث المكونات فينبني على فهرسة ومقدمة وستة مباحث و خلاصة، تتصدر الفهرسة واجهة المقال لكونها تكشف عن الخطة العامة للبحث وتجلي عناصرها، وتتناول المقدمة الكلام عن العنوان والمناسبة ومكونات العرض مع بسط الإشكال العام للموضوع، ويعرض المبحث الأول لمحاولة تأصيلية لمفهوم السياق في اللغة والاصطلاح، ويتعرض المبحث الثاني لسلطات النص الستة، وهي: السلطة الصورية والفاعلة والمادية والغائية والمنهجية والاعتبارية، ويستهدف المبحث الثالث الكلام عن منهجية السياق وتطبيقاتها على النصوص بصفة عامة والنص الشرعي منه بصفة خاصة، يعرضها في قسمين اثنين: قسم نظري وقسم تطبيقي، وأُفرد المبحث الرابع خالصاً للكلام على خطة السياق والنص اللغوي وذلك من جهة الربط والنظام النحوي وما يتعلق به من السياق المقامي والمقالي، ونبه المبحث الخامس مطبقي خطة السياق على النص الحديثي إلى مجموعة من المحاذير المعرفية التي جاءت منحصرة في خمسة: رواية الحديث بالمعنى، وإصلاح الساقط، والنقصان من الحديث، واختصار الحديث في سنده ومتمنه، وتحري الصحة، وتصحيح النية.

أما المبحث الخامس فعرض لخطة السياق والنص الحديثي وحصرها في خمسة أنواع من السياقات: السياق الروائي والسياق اللغوي، والسياق الموضوعي، والسياق المالي أو المقاصدي، والسياق العلمي.

والعرض في جملته هو مساهمة علمية تستحضر أزمة بُعد الأمة عن السياق الحضاري الإسلامي الذي ينطلق من النص، وأزمة الوقوع في السياقات الافتراضية والمتوهمة، والتجول في سياقات ضدية تناقض سياقات النص الشرعي وتضاده مما أوقع خلا في عنصر التواصل مع النصوص، والله نسأل أن ينفع بهذه الندوة العلمية الطيبة وينفع بعروضها المنهجية، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه.

المبحث الأول: السياق: محاولة تأصيلية في اللغة والاصطلاح.

المطلب الأول: التأصيل اللغوي لمفاهيم السياق.

السياق مشتق من مادة «سوق»، إذ أصله لغة هو السواق فقلبت الواو ياء لكسرة السين، والسياق والسواق مصدران من ساق يسوق،¹ ولهذه المادة في اللسان عدة دلالات انتقينا منها أربعة وجوه من وجوه المعاني يمكن أن نرتب الدلالة الاصطلاحية عليها، وهي:

1- سوق: من السوق، يقال: ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق وسواق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾².

وليس المعنى الاصطلاحي ببعيد عن هذا المعنى اللغوي، فقد سُمي السياق سياقا من تساقق الألفاظ والعبارات في النص، فهي تنساق وتتساقق تساققا في إشارة إلى تتابعها، فالتتابع يصبح مقصودا في النص، فلا يُعد النص نصا إلا إذا تتابعت ألفاظه، بحيث يحدث التتابع زيادة في المعاني، والسياق من هذا المعنى تتحكم فيه الألفاظ التي يسوق بعضها بعضا، والكل مأخوذ حسا وتجربة من الإبل حين تتساقق وتتتابع، وقد اشتهر عند العرب قولهم «ساق إليها الصداق والمهر سياقا» لأن أصل الصداق عندهم يكون من الإبل لكونها الغالبة على أموالهم، فلا غرابة أن تجد مجمل المعاني اللغوية لمفهوم السياق تدور على صورة الإبل في تساققها.

وأما السائق فهو الذي يسوق، ويطلق عليه السواق في إشارة إلى صاحب النص الذي يسوق الكلام سوقا وانسياقا، فيكون هو قائده، ولذلك يقولون: «تقاودت الإبل فهي متقاودة»³.

2- سوق: من السوق، وهو موضع البيع، والجمع أسواق، وفي التنزيل: «ألا إنهم لياكلون الطعام ويمشون في الأسواق»⁴.

¹- لسان العرب لابن منظور 435/6.

²- المصدر السابق 434/6 - 435. والآية من سورة ق 21.

³- لسان العرب 435/6.

⁴- لسان العرب 435/6، والآية من سورة الفرقان 20.

ويمكن أن ينبني على هذا المعنى معنى آخر من المعاني الاصطلاحية، ذلك أن النص بالنسبة للباحث هو سوق للبيع والشراء تسود فيه طريقة معينة، فأنت حين تذهب إلى السوق إنما تختار ما أنت في حاجة إليه، فتأخذ شيئاً وتترك أشياء، والكل يقع بطريقة قانونية وشرعية وأخلاقية وفق قانون وشرع وآداب السوق، كذلك النص فالعلاقة بيننا وبينه هي علاقة انتقاء واختيار، وفحص وسبر وتقسيم، وتنظير وتحليل وتطبيق... الخ، وهذه جميعاً تتحكم فيها قواعد علمية، وأساليب منهجية، وضوابط قيمية وأخلاقية، فالمعاني هي بضائع معروضة متعددة المناحي، وهي تحتاج إلى من يجيد تطبيق منهجية السياق على النص بشروطها العلمية، وكثيراً ما يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال في محكم التنزيل بالتجارة وعالمها، لأن عالم التجارة هو أقرب عالم إلى الإنسان، والأمثال فيه تكون واضحة.

3- السوق من ساق، يقولون ساق بنفسه سياقاً أي نزع بها عند الموت، تقول العرب: «رأيت فلاناً يسوق سوقاً، أي ينزع نزعاً عند الموت»، ويقول: «فلان في السياق أي في النزع» ويعنون به: «نزع الروح من الجسد»¹.

هذا المعنى اللغوي له دلالة قوية في الاستعمال، فالروح بالنسبة للجسد كالمعنى بالنسبة لسياق النص، فمثلما تستخلص الروح من الجسد بنوع من الشدة والقوة يستخلص المعنى من سياق النص، ولذلك أطلقوا على النزع نعت السياق، لأن المعنى يحتاج فيه إلى بذل الجهد واستفراغ الوسع.

4 - والسياق لغة من الساق، وهو لكل دابة وطائر وشجر وإنسان، ويختلف حجمه وشكله ومحتواه بين هذه العناصر جميعاً، وهو مؤنث لقوله تعالى: ﴿والتفت السلق بالسلق إلى ربِّ يومئذ المسلق﴾²، وله في اللغة دلالات ثلاثة: دلالة ما يوقف عليه، ودلالة الإصابة، ودلالة الشدة والقوة.

فأما الأولى فيشهد لها ما تقدم، فهي ما يوقف عليه، وفيه إشارة واضحة إلى أن النص إنما يوقف على سياقه، والنص يتحرك بسياقه من مجال إلى مجال، ومن زمان إلى زمان،

¹ - المصدر السابق 435/6.

² - لسان العرب 436/6، والآية من سورة القيامة 29.

ومن مكان إلى آخر، ومن عزل النص عن سياقه جعله أعرج، يقول ابن منظور: «وإنه إنما قيل ذلك لأن الساق هي الحاملة للجمله، والمنهضة لها فذكرت هنا لذلك تشبيها وتشنيعا».

وأما الدلالة الثانية فمأخوذة من قولهم: «ساقه: أصاب ساقه، وسقته، أصبت ساقه». و«ساق النص» أصاب سياقه¹: أي أصاب استنباط المعاني والأحكام من دلالة النص.

وأما الدلالة الثالثة فمأخوذة لغة من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾²، كناية عن شدة الأمر وهوله كقولهم: «قامت الحرب على ساق»³.

المطلب الثاني: التأصيل الاصطلاحي لمفاهيم السياق.

عرف السياق بتعاريف متعددة، كل نظر إليه من زاوية، وهذا الاختلاف إن دل على شيء فإنما يدل على أن الموضوع ما زال بكرا في بابه، وقد ضربت صفحا عن كل هذه التعاريف لأنها جميعها مقنعة في بابها لأن الجمع بينها هو أنجح أسلوب لضبط المعنى الاصطلاحي لمفهوم السياق، وقد آثرت في هذه المحاولة أن أطل على الموضوع بإطالة تأصيلية تحاول أن تجمع المفرق وتؤلف بين المختلف، انطلاقا مما جاء في اللغة لبناء الاصطلاح عليه.

لقد انحصرت المعاني اللغوية السابقة في ستة دلالات:

- الأولى: دلالة تجارية، من البيع والشراء، حيث يصبح النص في مجموع مكوناته سلعة معروضة في عالم سوق العلم والمعرفة.
- الثانية: دلالة التتابع والتساق، فالسياق - من هذا المقياس - هو تساقق الأسماء والحروف والأفعال في جمل ترتبط فيما بينها ارتباطا متجانسا تكون في مجموعها النص المساق.
- الثالثة: دلالة القيادة والسياسة: وذلك أن صاحب النص ساقه في مقام معين ليقدم من خلاله للقارئ معنى معيناً.

¹ - لسان العرب 437/6.

² - الآية من سورة القلم 42.

³ - لسان العرب 436/6.

- الرابعة: دلالة الاستخلاص والاستنباط، وهذه تخص الباحث عن المعاني من سياق النص، فالمعنى لا يقدم نفسه للقارئ بسهولة إلا إذا بذل جهداً في استنباطه، وطلبه بأسبابه.

- الخامسة: دلالة الشدة والقوة، وتعني شدة الاستنباط وقوة الاستخلاص.

- السادسة: دلالة الإصابة، وتعني أن من أجاد المعاملة مع النص على مستوى «التسوق»، وتدرج من ألفاظ النص لفظاً لفظاً، ومتناً متناً، لا يغادر من ذلك شيئاً، لأن أي انتقاص من ألفاظه يؤثر سلباً على السياق، ثم استخدم المنهجية المطلوبة في استخلاص المعنى فقد أصاب «سياق النص»، وإذا أصاب السياق أصاب المعنى.
تلك هي الدلالات الستة التي نرى أنها تُكوّن المفهوم الاصطلاحي لمعنى السياق.

المطلب الثالث: سلطات النص.

السلطة التي نتكلم عنها هنا ليست بالمعنى القانوني أو الفقهي للكلمة، فلا هي بمعنى فرض سلطة التسيير والتدبير والحكم، ولا هي بمعنى الامتلاك والحيازة، ولم يأت النص ليمتلك القارئ امتلاكاً يجعله أسيراً عنده، بحيث يجعل القارئ يلغي عقله وذاته أمامه، كلا، ليس هذا هو المراد، إنما المراد أن لا يتسلط القارئ على النص من مواقع محددة، ويدعي امتلاكه للنص امتلاكاً عبودياً، يفعل به ما يشاء، ويتصرف فيه بما يريد.

إن للنص «حرمة» وللمتعامل معه «قدرة»، ويجب أن تتناسب تلك «القدرة» مع تلك «الحرمة»، ولدرء هذا التباين، ولتحقيق عنصر الانسجام بين القارئ والنص جاءت طريقة التحليل بالسياق وسيلة من الوسائل العلمية والمنهجية لفهم المعنى المراد واستنباط الأحكام المطلوبة واستخلاص الدلالات من مواقعها بطريقة صحيحة وسليمة، ثم تصحيح المعاني غير المرادة، ودفع الطرق غير السليمة التي تتسلط على النص من مواقع علمية معادية.

لقد اتضحت لنا هذه السلطة من موقع الدلالات الستة السابقة، فهي تستقي منها مبررات وجودها، ويمكن تشقيق هذه السلطة إلى ست سلط:

1 - السلطة التصويرية: وهي صورة النص في مقامه، هل هو نص شعري أم أدبي أم تاريخي أم فلسفي أم شرعي، والنص الشرعي على ثلاثة صور: نص القرآن، ونص الحديث،

ونص فقهي أو أصولي أو تفسيري... الخ وكل صورة من هذه الصور تفرض منهجا معيناً من التعامل، فلا نتعامل مع النص الشرعي بالطريقة التي نتعامل بها مع النص الشعري...

2 - السلطة الفاعلة: ونعني بها كاتب النص ومنشئه، وهو سائق النص، ولسائق النص سلطة، فإذا كان لكل نص كاتب يجب معرفته، ومعرفة ظروفه الزمانية والمكانية فإن للنص الشرعي خصوصية في هذا الباب، فمعرفة الراوي من أوجب الواجبات في هذا العلم، والجهل به هو علة قاذحة في السند، وما قاله الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم والحديث القدسي، وما قاله النبي ﷺ في الحديث الصحيح لا يوازن بكلام البشر.

فلا يجب التعامل مع منثني النص الشرعي كتعاملنا مع النص الثقافي العادي، فسلطة الأول من هذه الناحية أقوى.

3 - السلطة المادية: ونعني بها المواد التي يتقوم بها النص، وهما عنصران اثنان:

الأول: المصدر الذي يوجد فيه، حيث يشكل المصدر مجالاً آخر من مجالات السياق، فالنص الحديثي الموجود في بابه، والباب الموجود في كتابه، والكتاب الموجود في مصدره¹، هي كلها عناصر مساعدة على ضبط المعنى بالسياق، سياقات النص الشرعي ولذلك يقولون: إن فقه المحدثين في تراجمهم.

الثاني: مكونات النص من لغة وسند وألفاظ، وهذه المكونات هي مادته التي يتقوم بها، وهي التي تعطيه صفة الاكتمال، فالسند في النص الحديثي يشكل مطلع النص، وهو منطلق السياق، إذا سلم السند كان ذلك هو بداية الرحلة إلى عالم النص، عالم سياق ألفاظ متن النص، ونطلق على هذا النوع من السياق «السياق الروائي»، ونعني به فحص مكونات السند في علاقته بالمتن.

4- السلطة الغائية: ونعني بها المقصد الكلي من النص، فصاحب النص «السلطة الفاعلة» أراد من ذلك النص إيصال معنى أو معاني محددة، لهدف أو أهداف محددة، وهذه الأهداف قد تكون ظاهرة وبينية لا يحتاج فيها إلى تكلف، وقد لا تكون ظاهرة ويحتاج فيها إلى بذل جهد أكبر لاستنباط المعنى من النص، وقد يكون لصاحب النص هدف عام هو الأساس وهو الظاهر، وأهداف أخرى خفية تحتاج إلى تحديد وتعيين لإلحاقها بالتبع.

¹ - نعني بذلك كتب الصحاح مثلا التي تصنف على الكتب، والكتب على الأبواب.

تلك سلطة مستقلة يفرضها النص على القارئ كيفما كان هذا القارئ، ومن الضياع والتلف توجيه النص إلى غاية لم يقصدها صاحب النص، ولربما تكون معاكسة لتوجهه!.

5 - السلطة المنهجية: ونعني بالسلطة المنهجية أن النص الموجود أمام القارئ لم يأت من فراغ، ولا هو حل بالمقام بلا قواعد منهجية بل خلص بطريقة منهجية، هذه الطريقة يجب أن تُراعى في طرق التعامل مع النص بل يجب أن تكون في حسابان القارئ أيا كان هذا القارئ، فالحديث النبوي الشريف خلص إلينا بجهود منهجية حتى استقر بين أيدينا صحيحا أو حسنا أو ضعيفا أو موضوعا، وهذا من جهة الصحة وعدمها التي يترتب عليها إما القبول أو الرد، أو خلص إلينا أحادا أو مشهورا أو متواترا من جهة عدد الرواة في الطرق والأسانيد، أو خلص إلينا موقوفا أو مرفوعا أو مقطوعا من جهة الرفع أو عدمه.

يجب على المتعامل مع النص الحديثي استحضار الخطة المنهجية التي أفرزت النص على هذا المستوى، وإن محاولة تغييب هذه المنهجية من شأنها أن تجعل النص عاريا عن المنهج، وهي آفة تسيء إلى النص وإلى البحث العلمي، ولذلك نقول: لا معنى لعزل النص عن سياق منهجيته، لأن السياق المنهجي يشكل سلطة بحد ذاته.

إن القصد الأساس من هذا المنهج هو التعامل مع نص الحديث من جهة كونه رواية تحمل خبرا يرجع إلى السلطة الفاعلة وهي: «قال الله، وقال رسول الله ﷺ»، ومن هنا يتباين نص السنة النبوية مع سائر النصوص الثقافية التراثية أو غير التراثية الأخرى.

إن الخبر الذي يحمله النص يحتمل أحد أمرين: إما أن يكون صادقا وإما أن يكون كاذبا، فكان المقصد الأساس من أعمال المنهج هو تحري الصحيح لاعتماده، وتعيين الضعيف والموضوع لاجتنابه، ولذلك فالمقبل على سياق النص الحديثي يجب أن يأخذ هذه الاعتبارات في الحساب.

6 - السلطة الاعتبارية: وهي من أهم السلط وأعلاها، يفرضها النص الحديثي مثل أي نص شرعي آخر، هذه السلطة هي سلطة الاعتبار به، أي سلطة التقدير، ذلك أن النص يطالبنا ب «العض عليه بالنواجذ»، ويحثنا على الاعتصام به من قواصم النصوص ذات الحمولات الفاسدة، الضالة عن الهدى والبيئات، والمضلة عن الصراط المستقيم، فأساس الاعتبار بالنص هو الإيمان به، ولنا في تجربة المستشرقين مع النص الشرعي أدلة كثيرة على صرامة التعامل ووقاحة التسلط، وسبق الرؤية على تطبيق المنهج.

- المبحث الثاني: منهجية السياق وتطبيقاتها على النصوص

كثر الكلام في الآونة الأخيرة عن منهجية السياق وتطبيقاتها على النصوص، وهو كلام اتكأ في مستنداته على بعض الاستعمالات المعروفة في اجتهادات السلف وفي تقديماتهم للنصوص واستنباطاتهم للأحكام منها، غير أن المنهجية لم تكن واضحة المعالم بالقدر الذي يجعلها تشيع في الثقافة الإسلامية، ويُضاف إلى هذا أن بعض القواعد الإجرائية للاهتمام بالسياق كانت قد تبلورت في الثقافة الغربية مع الدراسات اللغوية واللسانيات الحديثة مما يمكن من الجزم من دون تحفظ أن الاهتمام بالسياق بالصورة التي يقدم بها اليوم تبلور مع المدرسة العقلية الحديثة، هذه المدرسة التي تسعى إلى أن تطور نظرتها إلى مناهج العلوم ومسالك القواعد قبل المعطى المعرفي، ولأجل ذلك فهي تحاول جادة إعمال قواعد المنهج وآلياته في تحليل النص لمحاولة فهمه بطرق علمية دقيقة، محاولة تقليص هوة الخلاف والاختلاف في الفهم، وتقريب المسافة بين العقل والنص¹، وقد تولد عن هذا كله خطة «التحليل بالسياق» أو «منهجية السياق» التي انقسم الكلام بشأنها إلى قسمين:

المطلب الأول: القسم النظري، وهو على أنواع:

- نوع تنظيري، تحليلي، ينظر لخطة السياق ويستعرض قواعدها وآلياتها مع التعريفات السائدة في الموضوع، وأهم ما يمكن رصده في هذا النوع أن نعوت السياق تختلف من باحث إلى آخر، فمن معضلة التحديد والتعريف إلى معضلة النعت، فتارة هو «نظرية»، وتارة هو «علم»، وتارة هو «تحليل»، وتارة هو «منهجية»، وتارة أخرى هو مجرد «دلالة» أو «خطة»،... الخ، ولا مشاحة في هذه النعوت فهي تتباين من موقع الأرضية المنطلق منها، ومن موقع المقصد المراد الوصول إليه²، ومنهم من لا يخفي أن قضية السياق هي قضية إشكالية قديمة في أضواء جديدة³.

¹ - انظر على سبيل المثال: «السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة» للدكتور سعيد بن محمد الشهراني، رسالة مقدمة إلى كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى - عام 1427هـ / 2006م.

² - ينظر على سبيل المثال: رسالة الباحث ردة الله الطلحي، مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام 1424هـ والرسالة طبعها الجامعة في نفس السنة، وهي بعنوان «دلالة السياق».

وينظر أيضا رسالة دكتوراه للباحث فوزي إبراهيم عبد الرزاق، قدمت إلى كلية الآداب بجامعة بغداد عام 1416هـ 1996م، في موضوع: «السياق ودلالته في توجيه المعنى»، ورسالة الأستاذ عبد الرحمن بودرع «منهج السياق في فهم النص» كتاب الأمة 111، السنة السادسة والعشرون - طبعة وزارة الأوقاف - قطر.

³ - ينظر مقال د. محمد الولي المنشور في مجلة الإحياء، العدد 25 - يوليو 2007.

- ونوع يدخل في المقارنات، يتعرض لخطة السياق بين القدماء والمحدثين، وتارة يعتمد المقارنة بين الداخل والخارج فيقارن بين تطبيقات الخطة على النص في التراث العربي والإسلامي وتطبيقاتها في المدرسة الغربية¹.

المطلب الثاني: القسم التطبيقي:

وهذا القسم يُعنى بتطبيق منهجية السياق على النص، لكن ما نوع هذا النص؟

النص الذي هو مجال تطبيق منهجية السياق على نوعين:

- نوع ثقافي عام مثل النص اللغوي والنص الأدبي والفلسفي والكلامي والتاريخي...

- ونوع شرعي ديني، وهو على نوعين أيضا:

* نوع له صلة بالثقافة الإسلامية وعلومها مثل النص الأصولي والنص الفقهي والتفسيري والعقدي...

* ونوع يشكل أصول هذه الثقافة ومرجعيتها الوحيدة، ونعني به النصين المعترين: القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

لقد شوهدت عملية الاهتمام بالسياق في ثلاثة قطاعات أساسية من قطاع المعرفة الإسلامية: في القرآن الكريم، واللغة العربية وعلم أصول الفقه، فكانت هذه المجالات من أخصب المجالات في الكلام على خطة السياق، وبخصوص القرآن الكريم فإن القرآن هو النص المعتر في مصادر التشريع الإسلامي، لذلك حظي بعناية كبيرة من جهة تطبيق هذه المنهجية عليه أو استخلاصها منه أو من أحد التفاسير المعتمدة التي استهدفتها، وانطلاقا مما جرى به العمل فإن كل الخطط المنهجية والقواعد والضوابط تبدأ بالقرآن أولا ثم اللغة العربية ثم سائر النصوص الأخرى وفي مقدمتها النصوص الأصولية.

هذا ما يمكن ملاحظته في محاولات تطبيق خطة السياق التي نرى أنها نحت منحنيين

منهجين اثنين:

¹ - انظر على سبيل المثال «نظرية السياق بين القدماء والمحدثين» للدكتور عبد المنعم عبد السلام خليل، رسالة دكتوراه مقدمة إلى الجامعة الأردنية - 1411هـ «دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث» للدكتور عبد الفتاح عبد الحليم البركاوي - كتاب مطبوع بدار المنار بالقاهرة - الأولى 1411هـ

- المنحى الأول هو منحى استنباطي، يستنبط من تطبيقات العلماء السابقين: سواء كانوا مفسرين¹، أو أصوليين²، أو مقاصديين³، أو علماء موسوعيين⁴، مع ما يصاحب ذلك من جوانب التعريف والتنظير والتقييد لخطة السياق.

- المنحى الثاني هو منحى تطبيقي وإن شابه شيء من النظر، وهو على صور: فمن الباحثين من استهدف القرآن كله⁵، ومنهم من اعتمد على قصة من القصص القرآني مركزا على بيان المتشابه اللفظي في قصة موسى معتمدا في الترتيب على ترتيب السور في القرآن بحسب ورود القصة فيها⁶، ومنهم من اعتمد على سورة واحدة من سور القرآن الكريم مثل سورة البقرة⁷.

عند النظر في التنظيرات والتطبيقات لخطة السياق تبين أنها استهدفت نوعين من النص: النص اللغوي والنص التشريعي، ويتعذر علينا معرفة أيهما حظي بعنصر السبق من جهة الاشتغال بهما من هذه الزاوية أهو النص اللغوي أم النص القرآني الذي يأتي في مقدمة

¹ - من مثل محاولة د. محمد بنعددة«السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري»، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة محمد بن عبد الله لعام 1418 هـ، ومحاولة الشيخ عبد الحكيم القاسم «دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير من خلال تفسير ابن جرير»، رسالة جامعية مقدمة إلى قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام لعام 1420 هـ.

² - انظر محاولة دة. فاطمة بوسلامة في بحثها الجامعي لنيل الدكتوراه: «السياق عند الأصوليين» (1418 هـ 1997م) وانظر مقالها المنشور بمجلة الإحياء - العدد 25 يوليو 2007م - «السياق عند الأصوليين: السياق والمفهوم». ص: 38- 51.

³ - انظر محاولة ادريس مقبول: «السياق في تداوليات أبي إسحق الشاطبي» مقال منشور في مجلة الإحياء - العدد 25 يوليو 2007م - ص «105- 112».

⁴ - من أمثال ابن تيمية مثلا، انظر محاولة دة. فريدة زمرد: «السياق عند ابن تيمية: قراءة جديدة» منشور بمجلة الإحياء - العدد 25 - ص: 25 - 104.

⁵ - انظر محاولة د. زيد عمر عبد الله في مقال علمي بعنوان: «السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني» منشور في مجلة جامعة الملك سعود، الجزء 15 - عام 1423 هـ - الرياض - السعودية، ومحاولة د. عبد الرحمن بودرع: «أثر السياق في فهم النص القرآني» مقال منشور بمجلة الإحياء، العدد 25 ص: «72 - 84».

⁶ - من مثل محاولة الشيخ فهد بن شتوي الشتوي في رسالته «دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام» - رسالة ماجستير مقدمة لقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى لعام 1426 هـ، 2005م.

⁷ - من ذلك محاولة د. خلود ابراهيم سلامة العموش: «الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق من سورة البقرة»، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية عام 1408 هـ - 1998م..

نصوص التشريع؟ لكن الذي يمكن الجزم به أن خطة السياق طُبقت عليهما، وقد يكون من باب المنهجية والتلازم أن تَسْتهدف النص القرآني ولو كانت الدراسة لغوية، وتَسْتهدف النص اللغوي ولو كانت الدراسة تشريعية وذلك للعلاقة القوية الموجودة بين الحقل اللغوي والحقل الشرعي في الثقافة الإسلامية، وهذا لا يعني إلغاء فوارق التمييز بين النصوص، فلكل نص مجاله ولكل نص سلطاته، ونبدأ بالنص اللغوي لأهميته في كل دراسة تشريعية لكن بطريقة مختصرة تأخذ بعين الاعتبار ماله صلة بالموضوع الأساس.

- المبحث الثالث: خطة السياق والنص اللغوي:

تستهدف خطة السياق دراسة النص اللغوي من عدة جهات:

1 - جهة «الربط في سياق النص»¹، فالسياق ليس معطى انفراديا منعزلا بل هو موجود في «نص»، والمقصود من النص سياقه، والمقصود من السياق روابطه، والمقصود من الروابط المعاني والدلالات، ولذلك فمدار المعنى على الروابط، والروابط من الربط وهو عملية الحزم والشد، وهو من الرباط، ويقال - لغة - تربط الماء في مكان معين إذا لم يبرحه ولم يخرج منه، فهو ماء مترابط أي دائم لا ينزح، وربط جأشه رباطة: اشتد قلبه ووثق وحزم²، وهذا يدل على أن الربط في سياق النص لا يدل إلا على نظام دقيق يسود بين مكونات النص، تشكله مواد معينة مثل الأسماء والحروف والأفعال والحركات والعلامات والنقط والفواصل... الخ.

2- جهة «النظام النحوي» بصفة عامة مع تطبيق ذلك على مصدر من مصادر التراث النحوي واللغوي³، حيث يتم التركيز فيه على الإعراب ونظرية العامل والمعاني اللغوية، ونظام الجملة، وللسياق أثر كبير في الإعراب والعامل ومعاني الأدوات والحروف وعود الضمير، والحذف والتقدير والتعلق، كما له أثر على الكلمة المفردة والمركبة وأصول الألفاظ والبنية الصرفية ... الخ.

¹ - عنوان لبحث جامعي تقدم به الباحث محمد حماد ساعد القرشي إلى جامعة أم القرى - كلية اللغة العربية بتاريخ 2006/09/05م، عنوان البحث: «الربط في سياق النص العربي».

² - انظر لسان العرب 112/5-113 - مادة «ربط».

³ - من ذلك مثلا: «أثر السياق في النظام النحوي مع تطبيقات على كتاب السياق في غريب القرآن لابن الأنباري»، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى لعام 1426هـ - 2006م.

3 - من جهة «الدرس اللغوي» بصفة عامة¹، وقد يقارن بالدرس الشرعي²، في صيغة مقارنة دقيقة تعالج القضايا والإشكالات وتستخلص المعاني والدلالات.

لقد كان لمثل هذه الدراسات والأبحاث أثر كبير على دراسة خطة السياق وتطبيقاتها على النصوص الشرعية، لأن النص الشرعي ذو حمولة لغوية، ولا يمكن النفاذ إلى معانيه إلا عبر اللغة، ولذلك لفتت هذه الدراسات الانتباه إلى قضايا منهجية، فقد قامت بتجلية حقيقة مفاهيم بعض المصطلحات الأساسية مثل مصطلح «السياق»، و«النص»، و«الخطاب»، و«المعنى»، و«الدلالة»، و«المقام»... الخ، ثم كيف يتحدد المعنى من السياق، والسياق من النص، وروابط السياق والعلاقات التي تسود بين هذه العناصر جميعاً.

4- السياق المقامي والمقالي.

وبخصوص السياق فقد قسموه إلى قسمين:

- قسم أطلقوا عليه «السياق المقالي» ويضم: الدلالة الصوتية، والدلالة الصرفية، والدلالة المعجمية والنحوية.

- وقسم أطلقوا عليه «السياق المقامي» ويضم: المرسل والمتلقي، والبعد الزمني والبعد المكاني، وقد تُضاف إلى هذه العناصر عناصر أخرى بحسب طبيعة النص، فإن كان نصاً قرآنياً أُضيف إليه أسباب النزول، وقصص الأنبياء وأخبار الأمم، وإن كان نصاً حديثياً أُضيفت إليه عناصر أخرى.

¹ - من ذلك محاولة د. ابراهيم محمود خليل في دراسته: «السياق وأثره في الدرس اللغوي». وقد أنجز هذا الموضوع في ضوء علم اللغة الحديث، وهي رسالة دكتوراه قدمت إلى الجامعة الأردنية عام 1411هـ، ومثلها محاولة د. علي عزت في مقال له بعنوان: «اللغة ونظرية السياق»، مقال منشور في مجلة الفكر المعاصر - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - العدد 76 - السنة 1971.

² - من ذلك محاولة د. ابراهيم أصبان في مقاله المنشور بمجلة الإحياء - العدد 25 يوليو 2007، بعنوان: «السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة» - ص: 52-61، وهو من المتخصصين في الموضوع.

- المبحث الرابع: محاذير لتطبيق خطة السياق على النص الحديثي.

لا يمكن اعتماد منهجية السياق لاستنباط المعنى من النص ما لم يكن النص كاملا، وقد تقدمت معنا الإشارة إلى السلطة المادية للنص، وهي التي تعني من بين ما تعنيه صفة «الاكتمال».

إن اكتمال النص ونقصانه له تأثير على السياق، فالسياق يكون تاما بتمام النص، ويكون ناقصا بنقصانه، وهذه ظاهرة معروفة في علم الحديث، فيإراد نص الحديث كاملا من طرفه ومخارجه مع جمع كل أطرافه يقدم أمام الدارس سياقا كاملا يساعد على استنباط المعنى كاملا، فإذا حصل النقص في النص حصل النقص في المعنى.

توجد في علم الحديث مجموعة من القضايا محسوبة على العلم، لأنها جزء من صناعته، وهي ليست قدحية أو ذات دلالة مخلة بالحديث بصفة مطلقة لأنها ظهرت معها ضوابطها، ونحن نسوق هذه القضايا التي ستتحول إلى محاذير عند من يريد تطبيق خطة السياق على نصوص السنة النبوية، وهذه المحاذير نحصرها في خمسة مطالب:

الأول في رواية الحديث بالمعنى، والثاني في النقصان أو التقطيع من الحديث، والثالث في اختصار الحديث، والرابع في تحري الصحة، والخامس في تحري صدق النية.

المطلب الأول: رواية الحديث بالمعنى:

نعلم جميعا أن القصد من تطبيق الخطة هو لأجل المعنى لا غير، وقضية المعنى كانت حاضرة عند المحدثين منذ القرون الأولى: هل تجوز رواية الحديث باللفظ أم بالمعنى؟ وشرعية هذا السؤال تكمن في أن الحديث ليس قرآنا لأن القرآن هو قرآن باللفظ والمعنى، أما الحديث فالغرض منه هو المعنى لا اللفظ في حد ذاته، ومن تشدد في اللفظ إنما قصد المعنى لا غير، فإذا فهم الناس ماذا أراد النبي ﷺ من ذلك الحديث حصل التبليغ وبلغ المراد، لأن لفظ الحديث لا يفيد في التعبد، وليس في قراءة الحديث بلفظه حسنة أو حسنات لمجرد قراءته، فهذا يوجد للقرآن لا للحديث، ومن صلى بالحديث ولو كان قدسيا صحيحا فصلاته باطلة بالإجماع، وطلبا للضبط، وتحريا للسلامة والصحة اشترطوا لذلك شروطا كما يلي:

أ- إذا أراد المحدث أن يروي ما سمعه على المعنى دون اللفظ فيجب أن يكون عالما بالألفاظ، وعارفا بها وبمقاصدها، خيرا بما يحيل معانيها، بصيرا بمقادير التفاوت بينها،

ومن كان هذا حاله اختلفوا فيه منهم من جوز ومنهم من منع، يقول الحافظ ابن الصلاح: «والأصح جواز ذلك في الجميع إذا كان عالما بها، قاطعا بأنه أدى معنى اللفظ الذي بلغه لأن ذلك هو الذي شهد به أحوال الصحابة والسلف الأولين، وكثيرا ما كانوا ينقلون معنى واحدا في أمر واحد بألفاظ مختلفة وما ذلك إلا لأن معولهم كان على المعنى دون اللفظ»¹ ومع ذلك كانوا يتحرون إتيان الحديث بلفظه.

وقد دخلت عملية رواية الحديث باللفظ في مراتب العدالة، وأدرجت في المراتب العليا من سلم التعديل فجعلوا من يأتي بالحديث على وجهه في قمة الحفظ والضبط والإتقان فكان ذلك من مواصفات «الحافظ» عندهم²، حتى كان الحفاظ يمتحنون بذلك.

ب - أما إذا لم يكن عالما بذلك فلا يجوز له، وعليه ألا يروي ما سمعه إلا على اللفظ الذي سمعه من دون زيادة ولا نقصان وإلا ضعفوه، وأسقطوا عدالته من جهة عدم الضبط، وردوا بذلك روايته.

المطلب الثاني: إصلاح الساقط:

وتكلموا في إصلاح الساقط فوضعوا لذلك شروطا، يقول ابن الصلاح: «إذا كان الإصلاح بزيادة شيء قد سقط فإن لم يكن في ذلك مغايرة في المعنى فالأمر فيه على ما سبق، وذلك كنعو ما روي عن مالك رضي الله عنه أنه قيل له: رأيت حديث النبي صلى الله عليه وسلم يُزاد فيه الواو والألف والمعنى واحد؟ قال: أرجو أن يكون خفيفا»³.

المطلب الثالث: النقصان من الحديث:

ويدخل في هذا العنصر تقطيع الحديث والاستشهاد به في مواطن من الأبواب، وقد تكلموا في ذلك وجوزوه لكنهم قيدوه بضوابط، في هذا يقول مجاهد بن جبر المكي: «انقص من الحديث ما شئت ولا تزد فيه»⁴.

¹ - انظر هذا الشرط في مقدمة ابن الصلاح بشرح الحافظ العراقي «التقيد والإيضاح» ص: 226 - النوع السادس والعشرون، «في صفة رواية الحديث وشرط أدائه وما يتعلق بذلك».

² - انظر ما حررناه في الجزء الثالث من كتاب «أبو حاتم الرازي وجهوده في خدمة السنة النبوية: التحصيل - الضبط - الأداء» - ص: 136 وما بعدها.

³ - مقدمة ابن الصلاح ص: 231.

⁴ - رواه الحافظ ابن الصلاح في المقدمة ص: 227.

لقد جوز المحدثون النقصان من الحديث في مقابل التشدد في الزيادة، لأن الزيادة إذا لم تكن أصلية، ولم تكن من ثقة، فهي كذب على النبي ﷺ، لكن إذا أخذنا المقولة على ظاهرها، ونقصنا من الأحاديث، ورويناها أطرافاً مجزأة بدعوى النزول على موطن الشاهد فهذا لا يعطي حديثاً شاملاً، وبالتالي لا يكون السياق كاملاً، وهذا لا شك أنه يؤثر على المعنى المراد استنباطه من النص، وقد رويت أحاديث كثيرة في السنة النبوية على هذه الصفة أتعبت بعض شراح الحديث في جمع الأطراف والطرق، وليس على الرواة أي عيب فيما فعلوا لأنهم رووا ما انتهى إلى سمعهم من حديث النبي ﷺ، وهم ثقات لا يمكنهم أن يقولوا على النبي ﷺ ما لم يقله، ومنهم من كان يتورع في الزيادة على ثقته، يعلق الحافظ ابن الصلاح على قول مجاهد السابق فيقول:

«الصحيح التفصيل، وانه يجوز ذلك من العالم العارف إذا كان ما تركه متميزاً عما نقله غير متعلق به، بحيث لا يختل البيان، ولا تختلف الدلالة فيما نقله بترك ما تركه فهذا ينبغي أن يجوز»¹.

المطلب الرابع: اختصار الحديث:

الاختصار له انعكاس كبير على معنى الحديث، وقد كان المحدثون يختصرون المتون والأسانيد بما قل من ألفاظ الأسانيد والمتون، لكن النقاد تنبهوا لذلك، فأعلوا أحاديث وصوبوا أخرى..

1- اختصار الحديث في سنده:

هذا الاختصار على نوعين: نوع مغل، يجعل من السند منقطعاً إذا لم يكن محفوظاً من جهة أخرى، فلا شك أن هذا ضعف في السند وهو مردود، وهو ما يطلقون عليه الانقطاع والإرسال والإعصال والتعليق... الخ، ونوع غير مغل وهو ما يطلقون عليه التجويد والتقصير أو الوصل والنقص.

ومعنى التجويد والتقصير أن يروي الحافظ الثقة حديثاً بسند متصل رجاله عدول، ليس فيه شذوذ ولا علة ثم يروي الحديث من قبل حافظ ثقة فيسقط من السند رجالاً أو رجالاً طلباً للاختصار من دون أن تصاحب هذه العملية علة أخرى تقدر في الحديث، فيكون

¹ - المصدر السابق

الراوي الأول قد جود والثاني قد قصر، علق أبو حاتم الرازي على حديث من هذا النوع كان قد سئل عنه فقال: «جميعاً صحيحين، حماد قصر به، وجريير جوده»¹.

فإن قال قائل: كيف اهتدى أبو حاتم لذلك؟ ولماذا حكم على السند الأول بالصحة وهو معلول بالانقطاع؟ كان الجواب أنه اهتدى لذلك من سياق سند الحديث المحفوظ من رواية الثقات.

2- اختصار الحديث في متنه:

شاهد ذلك أن أبا حاتم الرازي سئل عن حديث رواه مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ صلى ركعتين حين طلعت الشمس².

قال أبو حاتم معلقاً: «غلط مروان في اختصاره، إنما كان النبي ﷺ في سفر فقال لبلال من يكلاًنا الليلة؟ فقال: أنا، فغلبه النوم حتى طلعت الشمس فأمر بلالاً أن يؤذن، وأمر الناس أن يصلوا ركعتي الفجر، ثم صلى بهم الفجر، فقد صلى السنة والفريضة بعد طلوع الفجر»³.

فانظر كيف أخل الاختصار بالمعنى، لأن الناظر فيه يحسبه حديثاً تاماً وكاملاً وهو ليس كذلك.

المطلب الخامس: تحري الصحة:

يجب تحري الصحة في الحديث كما تحراها المحدثون، ولم تتأسس القواعد والضوابط والفنون التي يجمعها جميعها «علم الحديث» إلا لتعيين الحديث الصحيح، وفرزه عن مئات الألوف من الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ، فلما خلص صحيحاً وجب قصده، ووجب تطبيق خطة السياق عليه حتى لا تقع فيما وقع فيه بعض الأصوليين والفقهاء حين بنوا اجتهاداتهم على أحاديث ضعيفة أو موضوعة، فالضعيف يجب أن يطرح

¹ - انظر كتاب العلل لابن أبي حاتم 237/1 رقم النص 688 دار المعرفة - لبنان - 1985.

² - المصدر السابق 91/1 رقم النص 244.

³ - العلل 91/1 رقم النص 244، والواقعة مبسطة في كتب السنة، انظر سنن أبي داود 122/1، كتاب الصلاة - باب في من نام عن الصلاة أو نسيها - رقم الحديث 447، والتمهيد لابن عبد البر 5/ «252-254».

من الحساب لضعفه، ولنا في الصحيح ما يغني عنه، أما الموضوع فيحرم الاشتغال به، لأنه اختلاق وكذب على النبي ﷺ.

المطلب السادس: سلامة القصد.

هذا القصد هو قصدهم، وعليه بنوا علمهم وعملهم، فصححوا النية في طلب العلم، لأنه من لوازم العلم في العلوم الشرعية لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ مَا يَتْلُونَ﴾¹، وقد تنبه المشتغلون بالآثار إلى هذا القصد فصدروا به أعمالهم، وصدروا في مقدمة شروط آداب طلب العلم²، فيجب قصده، لأن العلم لحقه فساد كبير بسبب فساد النيات، وفي الحديث الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...»³.

- المبحث الخامس: خطة السياق والنص الحديثي

المطلب الأول: السياق الروائي:

نريد به لفت انتباه القارئ إلى أن النص المتعامل معه ليس كباقي النصوص، إنه من نوع مغاير، إنه نص يخضع في أساسه للرواية، فالرواية هي التي تتحكم فيه، ولذلك كان العمدة فيه هو «السند»، وللسند سلطة على النص كله، إذا سلم السند استمرت الرحلة في عالم النص، وإذا لم يسلم حصل التوقف.

يمكننا السياق من التعرف على «المرسل» للنص، والمرسل هنا ليس واحدا كما هو الحاصل في بقية النصوص بل جماعة، تبدأ بالمخرج للحديث الذي هو المصنف وتنتهي بصاحب النص الذي هو النبي ﷺ، وما بين هذا وذاك رجال تتوفر فيهم المشيخة والتلمذة، فشيوخ الراوي لا يعرفون إلا من سياق النص، ويضبطون بلفظة التحمل والأداء التي تختصر إلى رموز اصطلاحية معروفة لا تخل بالمعنى.

ثم إن السياق - وأعني به الروائي- يساعد في ضبط السند من جهة الاتصال أو الانقطاع، ويكشف على التدليس وأنواعه والمدلسين وأصنافهم، كما أنه يساهم في ضبط

¹ - سورة البقرة الآية 282.

² - انظر ما كتب الحافظ ابن الصلاح في مقدمته ص: 250، النوع الثامن والعشرون «معرفة آداب طالب الحديث»

³ - أخرجه البخاري وصدر به جامعه، كتاب بدء الوحي - انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري. 9/1 رقم 1.

أحوال الرواة من جهة الجرح والتعديل مع معرفة الأسماء والأنساب والكنى والألقاب مع الأصول والسن ومعرفة الطبقات، يقول أبو حاتم الرازي - محمد بن ادريس بن المنذر المتوفى سنة سبع وسبعين ومائتين للهجرة: «حدثنا عبيس»، كذا في إطلاق، وفي رواية قال: «حدثنا عبيس بن مرحوم العطار»، وفي أخرى ثالثة قال: «حدثنا عبيس بن مرحوم وكان ثقة»، فاتضح من سياق الأسانيد أن هذا الرجل من شيوخه، وأن اسمه ونسبه هو «عبيس بن مرحوم»، وأن لقبه «العطار»، وأنه «رجل ثقة»، وأن صيغة تحمله عنه كانت تحديثا كما بينه¹.

ويمكن السياق أيضا من معرفة البعد الزمني والمكاني، فكثيرا ما كانت الأسانيد تفصح بذلك².

المطلب الثاني: السياق اللغوي:

وهو النظر في الحديث بوصفه حمولة لغوية، لأن الناطق به هو أفصح من نطق بلغة الضاد، وقد جمع الفصحاء والبلغاء وأرباب اللغة العربية حديث النبي ﷺ فوجدوا فيه من الفصاحة والبلاغة والبيان الشيء الذي أذهلهم، وقد بسط الكلام في هذا كل من أبي عمرو الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"³، والسيوطي في "المزهر في علوم اللغة"⁴، فقد أخذ الجاحظ جملا من الحديث الصحيح وحلف جازما أنه ما أراد بفعله ذلك أن يتكلف في الامتداح والتشريف أو التزيين والتجويد مما لا يوجد عند النبي ﷺ، وإنما أراد أن ينزل الكلام منزلته، ويقومه بسعة اطلاعه في اللغة العربية ليشهد شهادة خبير في المجال، قال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»⁵.

¹ - انظر «أبو حاتم الرازي وجهوده في خدمة السنة النبوية: المشيخة والرحلات» - الجزء الثاني - ص: 47.

² - انظر المصدر السابق - الفصل الثالث - 341/2.

³ - البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - 18/2 وما بعدها.

⁴ - انظر المزهر في علوم اللغة العربية وأنواعها لجلال الدين السيوطي - دار الفكر بيروت - 35/1..

⁵ - أورده الجاحظ في البيان والتبيين 18/2.

ليس غرضي هنا التأسيس لحضور البلاغة والفصاحة وجودة البيان في الخطاب النبوي فالكلام في هذا الموضوع يطول جدا، لكن الغرض هو لفت الانتباه إلى أن السياق اللغوي يحضر أكثر في نص الحديث كما هو حاصل في نص القرآن الكريم، لأن نص الحديث هو منسوج على منوال لسان العرب، وما صدر هذا النص إلا ليحمل معاني إلى الناس، وهذه المعاني دلت عليها ألفاظ جاور بعضها بعضا، واتسقت فيما بينها بدقة عالية في استخدام الأسماء والحروف والأفعال، وهذا هو الذي يطلق عليه في الصناعة الحديثية «المتن»، ولهذا السبب نهى المحدثون الإقبال على الحديث من موقع الجهل باللغة العربية، فعابوا على المصحفين والملحنين وضعفوا أكثرهم، وأخبارهم من هذا الجانب ماثورة في كتب الطبقات والمصطلح.

لقد أقبل الناس على نص الحديث يتأملونه ويتأولونه، وانقسموا بشأنه إلى ثلاث طوائف:

- طائفة وقفت على ظاهر اللفظ، معتبرة أن الوقوف على ظاهر الألفاظ هو أساس إدراك المعاني.
- وطائفة نفذت إلى باطن النص، معتبرة أن التوغل في أعماق النص هو السبيل الوحيد لتجلية المعاني.
- وطائفة خرجت عن روح النص ونظرت إليه من خارجه معتبرة أن النظر إليه من الظاهر أو الباطن لا يجدي نفعا، بل يجب النظر إليه من مواقع أخرى، وهذه الطائفة أسقطت على النصوص المناهج والطرق والأساليب التي تسمى في عمومها بـ «القراءات الجديدة».

وكل طائفة تدعى أنها هي الأقرب إلى معاني النص، وأنها هي الجديرة بالتعامل معه، لأن منهجها يقرب من الفهم أكثر، حتى دخلت في خصام وشجار فكري وصل إلى حد الاتهام.

أعتقد أن منهجية التحليل بالسياق اللغوي من شأنها أن تعدل من هذه المواقف، فتجرها من مواقعها المتطرفة والغالية إلى الموقع العلمي العدل، وهو الموقع الذي يريده النص ويفرضه بسياقه، وبسلطاته الستة السابقة، وفي الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى هذا، يقول: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه

تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»¹، فلا أحسب هذا الحديث إلا أشار إلى هذه الطوائف الثلاث، والله أعلم.

المطلب الثالث: السياق الموضوعي.

يقدم السياق الموضوعي الصورة العامة عن موضوع النص، فكل نص يحمل موضوعاً، وجمع النصوص ذات الموضوع الواحد من شأنها أن تقدم صورة عامة وكاملة عن الموضوع، ومن خلال سياق تلك النصوص التي تشهد لذلك الموضوع تنبثق معاني كثيرة جداً ذلك أن النصوص ذات الموضوع الواحد بعضها يكمل بعضها، وبعضها يفسر بعضها، وقد فعل شراح السنة النبوية والمصنفون في الحديث النبوي الشريف أشياء كثيرة جداً حين أخرجوا الروايات وجمعوا بينها في موضوع واحد، فكان هذا أحد الضوابط العلمية التي اهتموا بها في فهم السنة، ذلك أن التصنيف في موضوع واحد هو من الفقه، يقول علي بن المديني المتوفى سنة أربع وثلاثين ومائتين للهجرة: «إذا رأيت المحدث أول ما يكتب يجمع حديث الغسل وحديث من كذب فاكتب على قفاه لا يفلح»².

وقد تتبع شراح السنة النبوية وبخاصة شراح الصحاح والسنن والمسانيد هذا النهج إذ كانوا يأتون بما انتهى إليهم من آثار في شرح موضوع الحديث الواحد، فترى السياق يتسع مجاله أكثر بما كتبه الشارح للحديث، وبما صنفه المصنف من أحاديث في الباب، وبما اشتمل عليه الكتاب الواحد من أبواب تشهد للموضوع الواحد، وهذه المادة العلمية هي عون للباحث للنهوض بـ «علم تفسير السنة»³، وهو علم لا يمكن أن يقوم إلا بتفعيل خطة السياق على نصوص السنة النبوية.

¹ - أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل 17/2 - باب في عدول حاملي العلم - والحديث رواه جماعة من الصحابة منهم معاذ بن جبل، وأبو هريرة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن مسعود، أخرج الخطيب البغدادي أحاديثهم في «شرف أصحاب الحديث» انظر ص: 11 - فقرة 14، وص: 28 - فقرة «52-53-54» وص: 29 - فقرة 55 و56- تحقيق محمد سعيد أوغلي - دار إحياء السنة النبوية - منشورات كلية الإلهيات - جامعة أنقرة - 1972 م.

² - مقدمة ابن الصلاح ص: 256.

³ - فصلت الكلام في هذا الموضوع في كتابي: «كشف الخفي في فهم سنة النبي»، الأحمدي للنشر - الأولى 1421هـ / 2001م ص: 151 - «في الدعوة إلى علم تفسير السنة».

المطلب الرابع: السياق المآلي أو المقاصدي:

هذا السياق فتحه الاهتمام الواسع بعلم المقاصد الذي أنضح عنصر التعامل مع النصوص الشرعية بصفة عامة، وكثر التنظير لموضوع المقاصد، ووضعت لذلك قواعد وضوابط¹، لكن تفعيلها على مستوى نصوص السنة النبوية نصا بنص ما زال غير متحقق إلى اليوم، وأعني بذلك «التفسير المقاصدي لنصوص السنة النبوية من خلال خطة السياق».

إن حسن استخدام هذا النوع من السياق من شأنه أن يوجه النظر إلى الهدف الذي أراده النبي ﷺ بإطلاق ذلك الحديث، وهذا المعنى يجب قصده، إذ لا يجوز قصد ما لا يقصده الشارع، فمن قصد غير ما قصد الشارع فقد ابتدع، وفي الحديث الصحيح: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»²، ومن قصد ما قصد الشارع فقد امتثل لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾³.

ولا بأس أن نميز بين مقاصد الشارع من خلال سياق نصوص السنة النبوية، لنحدد القصد العام الذي هو «العبادة»، وما يندرج تحتها من المقاصد الجزئية التي يحملها كل نص نص في حكمة حكمه، كقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»⁴، قصده هنا ربط الأعمال والأقوال بالنية، ولا تكون نية المؤمن إلا في العبادة.

وهذا الحديث مع حديث «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» مع آية سورة الحجرات كلها أصول عظيمة من أصول الإسلام، وموجهات كبيرة نحو السياق المقاصدي، فهي كالمميزات في الأعمال في ظاهرها وباطنها فحديث «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو

¹ - انظر مقالنا «المقاصد الشرعية من النظرية إلى العلم»، منشور في مجلة إحياء جامعة ابن يوسف - العدد الثاني - السنة 2003م.

² - حديث عائشة ؓ متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الصلح- انظر فتح الباري 301/5 حديث رقم 2697، ومسلم في صحيحه في كتاب الأفضية 1343/3 رقم الحديث 1718.

³ - الآية 1 من سورة الحجرات.

⁴ - حديث تقدمت الإشارة إليه، وراجع «المقاصد والنية» في مقالنا «المقاصد الشرعية من النظرية إلى العلم»- المعطيات السابقة.

رد» هو ميزان للأعمال في ظاهرها، وحديث «إنما الأعمال بالنيات» هو ميزان للأعمال في باطنها، والآية تشملهما معا¹.

المطلب الخامس: السياق العلمي

ونعني به السياق الذي يسمح للباحث المتخصص استخلاص قواعد منهجية وآليات وطرق إجرائية للعمل بها في النص نفسه، وهذه القواعد والطرق المنهجية ترافقت مع النص، وسافرت معه عبر أطوار التاريخ وأدواره، فلا بد من إعمالها فيه، وهي لا تتجلى إلا من خلال سياقه، وقد تأخذ هذه القواعد صبغة علوم قائمة لمن وسع فيها الكلام، وحررها بقواعد وضوابط منها:

- 1- علم ناسخ الحديث ومنسوخه.
- 2- علم مختلف الحديث.
- 3- علم أسباب ورود الحديث.
- 4- علم غريب الحديث.
- 5- علم المحكم والمتشابه في نص الحديث.
- 6- علم المكي والمدني من نصوص الحديث.

خلاصة:

وبعد:

فهذا العرض تضمن ستة مباحث عكست حقيقة موضوع «خطة السياق ومحاولة تطبيقها على النص الحديثي»، كان لابد من الكلام عن السياق من الجانب النظري قبل الكلام عليه من الناحية التطبيقية، كانت المحاولة هي بيان حقيقة السياق وأهميته في جانب التعامل مع النصوص بصفة عامة والنص الحديثي بصفة خاصة.

لقد تفاعل المحدثون مع سياق نصوص السنة، وبالسياق ضبطوا الحديث من جهة الصحة والضعف، وبالسياق ضبطوا القواعد والضوابط وآليات التعامل مع النص،

¹ - انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص: 176/1. تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة 1412 هـ - 1991 م.

فتذكروا في سياقات الأسانيد وتناظروا في أحكامها ودلالاتها، وراعوا جانب الألفاظ والمعاني، والزيادة والنقص، والاختصار والتجويد والتقصير...

وإذا كانت الثقافة الإسلامية في حاجة إلى منهجية السياق في التعامل مع النصوص الثقافية التراثية فإنها اليوم في أمس الحاجة إليه في التعامل مع نصوص السنة النبوية لاعتبارات تمت الإشارة إليها.

الفصل الثالث:

علم الكلام وعلم أصول الفقه: العلاقة والامتداد



ويتكون من العناصر الآتية:

أولاً: حول الملتقى

ثانياً: طبيعة موضوع الملتقى

ثالثاً: الثقافة الإسلامية والمجتمع

رابعاً: المنطق والعلوم الإسلامية

خامساً: العقل والتراث

سادساً: العلوم الإسلامية والتراث

سابعاً: توجهات علمية للطلبة الباحثين

أولاً: حول الملتقى¹:

أتقدم بالشكر الجزيل إلى اللجنة المنظمة على دعوتهم لإلقاء هذه الكلمة التوجيهية والختامية، لايسعني في بداية هذه الكلمة إلا أن أبدي ثنائي على خطة هذا البرنامج من جهة أنها خطة خفيفة ومتوازنة، ومن جهة أن الإشراف على هذا النشاط هو للأساتذة المدرسين في الماستر، وهذا يعطي لهذا النشاط طعماً منهجياً، ومن جهة أن العروض العلمية كلها للطلبة ذكورا وإناثا، من داخل الوطن ومن خارجه، أما الرسم المختار الذي هو شعار الملتقى فكان معبراً جداً، ودالا كل الدلالة، سفينة أصول الفقه تسبح فوق محيط علم الكلام، تتقاذفها أمواجه هنا وهناك، وأعتقد أننا بحاجة إلى قراءة فنية لهذه اللوحة المعبرة. هذا اليوم هو يوم دراسي احتفالي أقيم حول تخصصات مهمة في الشعبة وهما: علم الكلام وأصول الفقه، يوم يهيم سلك الماستر والشعبة والكلية والجامعة، يهيم الطلبة والأساتذة.

الكل يحتفل بطريقته، حين ينتهي موسم الحصاد يحتفل الناس على طريقتهم، وها هي السنة قد مرت، مُكللة بأشغال وأعمال غنم منها من غنم وغرم من غرم، وأيتم إلا أن تجعلوا من هذا اليوم يوماً علمياً احتفالياً، سننتم به سنة لمن سيأتي بعدكم، فلکم أجركم وأجر من يعمل بها بعدكم، وإن تمنيت أن يكون هذا الموضوع في ندوة عالمية، لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله أو بعضه.

ثانياً: طبيعة موضوع الملتقى:

اخترتم لهذا الملتقى موضوعاً علمياً بعنوان: «علم الكلام وعلم أصول الفقه: العلاقة والامتداد»، وهو موضوع خطير من وجوه:

- إنه موضوع مفتوح، يلجج المناطقة واللسانيون والفلاسفة بالإضافة إلى اللغويين والأصوليين والفقهاء.

- ثم إنه موضوع تتجاذبه تيارات فكرية ومذهبية، بعضها من داخل الحقل وأخرى من خارجه.

¹ - ملتقى يوم دراسي نظمه طلبة ماستر "المجتمع والمستجدات الفقهية" التابع لشعبة الدراسات الإسلامية بتاريخ 3 يونيو 2009م بقاعة الاجتماعات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش.

الموضوع من هذا الوجه خطير جدا، وحسب معرفتي بالأساتذة المشرفين على هذا النشاط أنهم من أصحاب التخصص، وأنهم اختاروا هذا الموضوع لوضع أيديهم على موطن الداء، إن كان هناك علاج فهذا هو الربح الكبير وإن لم يكن فتكفي فيه الإشارة، لأن معرفة الداء هي نصف العلاج أو هي المقدمة السليمة للوصول إليه.

خطورة هذا الموضوع أنه سعى إلى بحث عنصرين منهجيين مهمين هما: "العلاقة" و"الامتداد" كما هو مبين في العنوان الفرعي للملتقى، لضبط العلاقة والامتداد يجب التوقف عند الحدود، حدود علم الكلام من جهة وعلم أصول الفقه من جهة أخرى، وهذا يتطلب ضبط الاصطلاحات وأمور الصناعة للعلمين.

الامتداد لا يعطيك ذاته إلا بمعرفة الأطراف، ولذلك قلت إن الموضوع ليس سهلا، قد تقف على امتداد علم الكلام في علم أصول الفقه، وقد تقف أيضا على امتداد علم أصول الفقه في علم الكلام، وهنا تخرج بحكم آخر هو طابع التأثير والتأثر الذي يحدثه أحدهما في الآخر، إنه التجاذب القائم - ليس بين علم أصول الفقه وعلم الكلام - بل بين أغلب العلوم الإسلامية.

العلم يسافر عبر الزمن، فهو كالإنسان حين يتدرج في عمره من مرحلة إلى أخرى، تطرأ على جسده تغيرات في المخبر من جهة النمو وتزايد كتلة الجسد، وفي المظهر حين يضطر تحت ضغط تعاقب الفصول وزيادة العمر أن يغير من كسوته بما يتلاءم مع هذه الظروف، وهذه ظاهرة طبيعية وبيولوجية تلاحظها في ريش الطيور وجلود الزواحف الخ، العلوم هي على هذا الشكل تماما، علم أصول الفقه مع الإمام الشافعي ليس هو عينه مع الغزالي أو عند المتأخرين من زماننا، إن تغيير هذه الخصوصية في العلوم تجعل البعض حائرا هل يبقى العلم على ما كان عليه في قرن من القرون أم يزيل منه ما دخل فيه أم يضيف إليه ما استجد من لسانيات وجدليات ومنهجيات... لا يجب النظر في العلم بحد ذاته بل النظر في الموضوع الذي يستخدم العلم لأجله هل هو بحاجة إلى هذه الزوائد والطوارئ أم يكتفى به كما وصل؟.

ثالثاً: الثقافة الإسلامية والمجتمع:

لا بد من توضيح نقطتين أساسيتين: الأولى ما المراد بـ "الثقافة الإسلامية"؟ والثانية: ماذا نعني بـ "المجتمع"؟

المراد بـ «الثقافة الإسلامية» العلوم الشرعية التي ندرسها داخل الجامعة ويتلقاها الطلبة في جميع أسلاك شعبة الدراسات الإسلامية، ومنها سلك الماستر الذي تنتمون إليه.

ونعني بـ «المجتمع» المجتمع المدني الذي نحيا فيه ونعيش، ولا يلزم من الثقافة أن تكون لها صلة بالمجتمع المدني إذا كانت اجتماعية، كل ثقافة هي ذات مفاهيم اجتماعية حتى الثقافة البابلية والآشورية، لكن لا يلزم من ذلك أن تكون لها صلة بـ «المجتمع المدني»، المجتمع شيء والمجتمع المدني شيء آخر، ومسلكنا في بحث وتدريس العلوم الشرعية أننا لم نستحضر خصوصية المجتمع المدني ومتطلباته وحاجياته من العلوم الشرعية، بل رحنا نعالج موضوعات العلوم كما اتفق، حتى الشواهد هي قديمة وبالية.

إذا كنا بحاجة إلى مثال فلنختر الموضوع الذي نحن بصددده، نحن نتكلم اليوم في موضوع بعيد، نتكلم في موضوعات من علم الكلام لا تفيد واقعنا في شيء، من مثل الحسن والقبح، وخلق القرآن، والمنزلة بين المنزلتين، والجبر والاختيار إلى غير ذلك من القضايا التي كانت صالحة لوقتها لكنها لا تصلح لهذا الوقت، ومخاصمتها في وقتها يدل على أنها لم تكن صالحة حتى لذلك الوقت، أو هي صالحة لفئة على حساب أخرى، لقد تعرضت لقضية خلق القرآن في الجزء الأول من بحثي حول أبي حاتم الرازي وجهوده في خدمة السنة النبوية، ومازلت أتساءل عن الباعث الذي حرك المعتزلة للقول بأن القرآن مخلوق، هل بدافع سياسي أم بدافع مذهبي طائفي أم بدافع التأثير بالوافد الأجنبي ومن أهل الكتاب بخاصة، يقول اليهود بقدم الكلمة والنصارى بحدوثها، أم أنه مجرد اتباع الهوى والرياضة العقلية، فإن كان الأمر كذلك فلم لم يقولوا أو تقول طائفة منهم بموت القرآن، على اعتبار أن كل مخلوق يموت، وهل تصل هذه الدوافع كلها إلى توليد هذه الظاهرة التي فرقت الجموع وشتتت الصفوف، فُقطعت بها أرزاق وأزهقت بها أرواح، وتلاعن القوم بسببها حتى كفر بعضهم بعضاً، وما محنة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري والإمام أحمد بن حنبل إلا دليل على ذلك.

ذكرت هذا الكلام في مقام بيان أن قضايا كثيرة مما نردده ونجتهد في تحليله لم تكن صالحة حتى لواقعها فكيف نتبناها ونجتهد فيها؟ ثم حين ندخل في نقاشات وحوارات نستعمل مصطلحات لا يفهما الناس، السؤال هو: كيف نقرب مفاهيمنا إلى المجتمع، وكيف نجعل من مشاكله موضوعات بحث؟

يقول قائل: العالم لا يجب أن ينزل إلى المجتمع بل على المجتمع أن يصعد إليه، أقول إن الذين قالوا هذا الكلام وعملوا به رحلوا من دون أن يستفيد منهم المجتمع، بل منهم من مات مجهولاً، والمجتمع لا يعرف سوى من يهتم به وبهمومه ولو كان مغنياً أو فكاهياً، وكثير منهم يلوم مجتمعه في انزواء وانطواء، ثم إن عجرفة العالم وغروره خولت لغيره أن ينزل، فها هو المجتمع المدني يشكو من أمراض كثيرة سببها الهجوم الكاسح والنزول المريب لثقافة الهدم، أعتقد أنه يجب إعادة النظر في اللغة التي نتكلم بها، الكثير منا اختار لغة الرموز والطلاسم، ظناً منه أنها لغة العلم والفهم، والناس لا تفهم ما يكتب، ربما قصد من ذلك إبعاد الناس، أو ربما هو نفسه غير فاهم لما يكتب، أو ربما مال مع أذواق بعض القراء أولئك الذين يصفقون للذين يقولون ما لا يفهم أو يكتبون بهذا النمط من الكتابة، حتى أشاعوا أن فلانا يكتب بلغة صعبة، وأنه عليك أن تقرأ العبارة مرات عديدة لتفهم.

إن الإغراب على القراء في الكتابة هو ضرب من الابتعاد عن الواقع وعن المجتمع.

علينا أن نعيد النظر في اللغة التي نكتب بها، وفي الأسلوب الذي نحرر به الموضوع، وفي المنهج الذي نعتمده في البحث، وفي الأفكار التي نستحضرها التي أغلبيتها مكرور عبر الزمن، ويحلو للبعض أن يهاجم الثقافة الإسلامية من موقع صلتها بالتنمية، وهو ينطلق من تنمية واحدة، أو من مفهوم ضيق لها، التنمية هي متعددة وليست واحدة، ففي المفهوم العام للتنمية: التنمية العلمية والمعرفية، والتنمية التربوية، والتنمية الروحية وهذه جميعها تدخل في التنمية الشاملة المراد تحقيقها والعمل لأجلها، ولم يثبت تاريخاً ولا واقعاً أن شعباً ما حقق التنمية بعيداً عن العناصر المشار إليها سلفاً، وأعتقد أن الثقافة الإسلامية تحقق التنمية بالمعنى الذي أوضحناه على شرط أن تكون عناصر التنمية هي غاية نهاية أبحاثنا ودراساتنا، ثم أن نعمل جاهدين على تحقيق قدر كبير من انفتاح العلوم الإسلامية على العلوم الإنسانية، ونود أن نرى في المستقبل - مثلما شاهدنا اليوم علاقة علم الكلام بعلم

أصول الفقه - علاقة الفقه بعلم الاجتماع، وعلاقة علم الحديث بالتاريخ، وعلاقة التشريع الإسلامي بالقانون، وعلاقة اللسانيات بعلوم العربية وبالقرآنية...الخ.

رابعاً: المنطق والعلوم الإسلامية

لا أريد التوقف عند هذا الموضوع كثيراً، فهو فرعي من جهة ومن جهة أخرى أن الكلام فيه لا تسعفه هذه الكلمة التوجيهية القصيرة، ولولا أن الإشارة إليها تكررت في ثنايا بعض العروض لما توقفت عندها، ومرد هذا كله يكمن في التوفيق بين معارف النظر ومعارف العمل، صحيح أن من العلماء من يُخاصم المنطق ويرده فنطير بكلامهم بطريقة مجحفة، ونصدر عليه أحكاماً مقرفة من دون تأن ولا روية، والواقع أن التقدير الذي نوليه للمنطق يجب أن نوليه للمعارف والفنون التي تم نقد المنطق من منظورها، فلا نسل النقد من سياقه العلمي والموضوعي ثم نصدر بشأنه أحكاماً جزافاً، فنقد ابن الصلاح للمنطق وغيره ممن لا يشتغلون به لا يعني الرد الكامل والمطلق للمنطق، وإنما هو غير صالح لهم. ولذلك فنقد القدماء للمنطق من المحدثين وغيرهم إنما تم بموجب أمرين:

الأول: أنه ليس من مسائل صناعتهم، وعلمهم لا يتوقف عليه، فردوا على من عمم دعوة سيادة المنطق على كل العلوم، فابن الصلاح وسائر المحدثين يرون أن صناعة علم الحديث لا تتوقف على المنطق اليوناني، فمن هذا الوجه ردوه.

الثاني: أنهم ردوه وعارضوه باعتبار ما تؤول إليه نتيجة البحث به، ولما ثبت لديهم بالاستقراء أن كل من استخدم المنطق في مسائل العقيدة فأفضت به النتيجة إلى معاكسة مقاصدها عارضوه ومنهم من حرمه، ومن هنا جاءت عبارتهم المشهورة «من تمنطق تزندق». هذا كله عند من لم يكن في حاجة إليه، أما من كان في حاجة إليه فقد تبناه ودافع عنه، من أمثال الغزالي في المستصفى وغيره.

خامساً: العقل والتراث:

لمست في كلام بعضكم مدحاً للنقل وذماً للعقل، وإن كنت أتفهم أن العقل المقصود هنا هو الاستخدام المفرط المؤدي إلى التصادم مع النقل، لكن الكثير من الباحثين يقعون في التفريق بين العقل والنقل، أرجو من الطلبة الباحثين - وكلامي إليهم - أن لا يقعوا في هذه

الورطة، ذلك أن كثير منهم انساقوا وراء دعوة معاداة العقل فجلبوا إليهم انتقادات كثيرة، أخطرها مهاجمة النقل بدعوى أن أصحابه يعادون العقل.

للعقل ضرورة في الوجود، الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان عاقلا، وجعل العقل مناط التكليف، ومجد العقل ونوه به، ودعا إلى استخدامه في نصوص النقل من مثل قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾... فلم هذا التباين المصطنع بين العقل والنقل، وهل يستقيم نقل بلا عقل، وما وظيفة العقل في الوجود إذا لم يفقه الإنسان خطاب الشارع، ويعلمه ويتفكر فيه ويعمل به؟

للعقل في الإسلام مكانة عظيمة، ومرتبة شريفة، وقد تجاوب العقل الإسلامي مع تراثه تجاوبا تاما، لا توجد أمة تجاوبت مع ثوابتها وأصولها كالأمة الإسلامية. وهذا التراث الهائل المتنوع المتعدد ظهر إلى الوجود بسبب هذا التجاوب، نسأل العقل المسيحي كيف تجاوب مع أصوله، وكذلك العقل اليهودي، لو كان التجاوب قائما وتاما لما تسلل التحريف والتزييف إلى الأصول والثوابت.

يحلو للبعض أن يميز بين المنقول والمعقول فيضع القرآن والسنة في دائرة النقل، وما سواهما في دائرة العقل، أقول أن هذا تصنيف اعتباري، صحيح أن القرآن نقل محض، لأنه قطعي الوجود، لكن نصوص السنة النبوية الصحيحة كلها تمت بالعقل، ولولا العقل لما خلصت صحيحة أو حسنة، فاصطلاحهم في تعريف الحديث الصحيح تم بالعقل، أعني بذلك العقل المعمل في النقل بمعايير عقلية مستوحاة من النقل ذاته.

صحيح أن العقل المعمول به في النقل على ضربين:

- ضرب من هذا النوع الذي أشرت إليه، عقل يحترم قدسية النص، ويخضع لسلطانه، فيتعامل معه بكل علمية وموضوعية من دون أن يخالف النص الشرعي ويتخالف معه.

- ضرب لا يحترم قدسية النص الشرعي، ولا يخضع لسلطته بل يتسلط عليه من موقع التعامل المباشر، رافضا للقيود والحدود، يفرغ عليه ما يراه مناسبا لمنهج معين من القواعد العقلية المحضة، هذا الضرب هو الذي جوبه بمواجهة شديدة من أصحاب الضرب الأول، ووقعت بينها معارك نظرية وكلامية تطورت إلى نوع من الجفاء والشتم، يصور الإمام محمد بن إدريس الشافعي ذلك في الآيات الآتية فيقول:

ومنزلة الفقيه من السفية * كمنزلة السفية من الفقيه
فهذا زاهد في قرب هذا * وهذا أزهده منه فيه¹

سادسا: العلوم الإسلامية والتراث

التراث الإسلامي هو مجال العلوم الإسلامية، من فصل العلوم عن التراث هو كمن يفصل الشجرة عن تراب الأرض، مثلما تتغذى الشجرة من تراب الأرض فإن العلوم الشرعية تتغذى من التراث، ذكرت ذلك حتى لا نستهن بما نقوم به اليوم، وقد يقول قائل: إن الموضوع الذي كثر كلامنا عليه لا جدوى منه، ولا يفيد في شيء علمي وعملي، الجواب فيما يلي:

أ- إن الموضوع الذي يثار حوله الكلام يهيم علمين شامخين من العلوم الإسلامية، وهما: "علم أصول الفقه" و"علم الكلام".

ب- إن العلاقة بينهما ثابتة، والامتداد موجود، والاختلاف حولهما لا يلغهما بل يثبت وجودهما، والاختلاف يكمن في تأويل القضايا، من كان هواه مع علم الكلام مال إلى علم الكلام، ومن كان هواه مع أصول الفقه مال إلى أصول الفقه، وقد يكون ذلك بحسب ما سبق إلى العقل من معارف، تلك التي يطلق عليها الإيستيمولوجيون المعارف القبلية.

التراث الإسلامي واسع وعريض، فيه الغث غير النافع، والسمين النافع، فيه النصرانيات والإسرائيليات والباطنيات، وهذا ليس من العيب في شيء بل من التسامح الذي تميزت به هذه الثقافة، الكل يساهم ويعطي حسب رغبته ووفق خصوصيته، لكن الغرلة موجودة، والفحص والنقد مع مراقبة المعارف الدخيلة هي سمة العلوم الإسلامية، لو لم يكن الكذب لما كان علم الحديث، ولو لم يشع اللحن في اللسان لما كانت علوم العربية، ولو لم يكن الخلل في الاستنباط لما كان علم الفقه وأصوله، وكذلك والأمر بالنسبة للعقيدة والقراءات القرآنية...

صحيح جدا أن هناك قضايا ماتت وانتهى دورها لكن هذا لا ينطبق على كل التراث، مادامت الشريعة الإسلامية غير متحركة في الواقع فالحكم على كل ما في التراث بأنه غير نافع لا يقبل، لأنه يشبه القول بأن الشريعة الإسلامية لم تعد نافعة، وانتهى دورها.

¹ - طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي 298/1.

سابعاً: توجيهات علمية للطلبة الباحثين:

فبل أن أختتم كلمتي هاته أوجه للطلبة الباحثين بعض النصائح التي أخالها ضرورية في ميدان البحث العلمي:

- قد يتوهم البعض منكم أنكم بهذا الحفل العلمي أنهيتم العمل في العلم، ما أنتم فيه الآن هو بداية وليست نهاية.

- نحن أساتذة باحثون وأنتم طلبة باحثون، وما نقوله لكم نوجهه لأنفسنا، فنحن وإياكم نشترك في كوننا من " الباحثين ".

- أنتم تعينتم على العلم والمعرفة والبحث كما تعينا نحن أيضاً، مسألة البحث العلمي تخصصنا جميعاً ومن الخطأ الاعتقاد أن الأستاذ يمكنه أن يقوم بالبحث العلمي بمفرده، كما يصبح من المستحيل أن يباشر الطالب البحث بمفرده من دون أستاذ باحث موجه ومشرف.

- لا تخلطوا بين أوراق العلوم الشرعية، لكل علم أهدافه ومقاصده وأعلامه ومنهجه ومصادره وقواعده وفنونه، وباختصار فإن لكل علم صناعته، معرفة صناعة العلم من الأولويات في البحث العلمي، فلا تقرأ علماً من موقع علم آخر فتعيش مُخلطاً، لا ذوق لك ولا طعم لبحثك.

- التخصص في علم واحد هو الأساس، لكن لا تنحبس فيه، بل شارك في معرفة العلوم الإسلامية الأخرى حتى تفهم ما كتبه الأوائل فإن معارفهم كانت شاملة ومستوعبة، وكذلك يجب أن يكون بحثك، إن التفوق في تخصص واحد يضر بك ويعلمك، والتخصص هو سمة العلوم الطبيعية لا الشرعية.

- لا تخلط بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية، ولا تسقط خصوصية الثانية على الأولى، فالبحث في العلوم الشرعية ليس هو عينه البحث في العلوم الإنسانية لأن خصوصية العلوم الشرعية ليست هي خصوصية العلوم الإنسانية، ولا أريد الإطالة في هذه النقطة.

- وبالمثل لا يجب الانحباس في العلوم الشرعية بل لا بد من فتح نوافذ وجسور على العلوم الإنسانية، فهي نافعة من كل الوجوه، وحتى غير النافع منها معرفته نافعة من جهة تجنبه والتحذير منه، ثم إن معرفة هذه العلوم متحتمة عليك لا بحكم التعايش المعرفي

الواقعي والعالمي المفترضين بل بحكم التجاور الأكاديمي القائم بين شعبة الدراسات الإسلامية والشعب الأخرى داخل كلية واحدة، وجامعة واحدة.

- لا تأخذ موقفا من علم معين، فالمشتغلون بعلوم النظر يعادون العلوم النقلية، والمهتمون بالعلوم النقلية يعادون العلوم العقلية والنظرية، وهي آفة من تلبس إبليس على أهل العلم والمعرفة، ومهما كنت في أي موقع فإن العلم الذي تعاديه اليوم ستكون في حاجة إليه غدا، والموضوع الذي أنت بصدد بحثه هو الذي يملي عليك ماذا تأخذ من هذا العلم وماذا تترك من ذلك.

- لا يجب على الباحث منا أن يكون وصافا للعلوم، يظل على تاريخ العلم من القرن الذي يعيش فيه ثم يصف ما كان، يجب أن يستثمر الوصف في البناء، وأن يكون مصحوبا بالنقد والمراجعة والتقويم.

- فلتتسم بحوثكم بالغيرة على المعرفة الإسلامية، وبالإحساس بمسؤولية الكلمة الهادفة والمعبرة، وقوموا بتمثيلها في المنتقيات العلمية الدولية والوطنية والمحلية أيضا، واعلموا أنه إذا غاب العلماء حضر الجهلة، فقد ابتليت المعرفة بالتسلط عليها من موقع الجهل والإساءة.

- واحرصوا على اختيار الموضوعات العلمية النافعة، والجديدة في بابها، وتجنبوا التكرار والاجترار، ابحث في غير المبحوث، حقق ما يجب أن يحقق، وانقد ما يجب أن يُنقد، وقارن بين ما يجب أن يقارن، ولا تسود الصفحات بما هو موجود.

- أكثر من المطالعة في الموضوع الذي ترغب البحث فيه فإن حسن اختيار الموضوع هو نصف إنجاز، وبالمطالعة تكتسب كل شيء في العلم والمعرفة، ولا سيما كتب المناهج وطرق البحث.

- ابدأ من حيث انتهى من بحث الموضوع قبلك ولو كان من القدامى، وحاول أن تستوعب أطروحته جيدا، فإن معارف السابقين ومقترحاتهم في هذه العلوم دين يلزم الوفاء به، واجتنب البداية من الصفر، فإن هذا إحدى آفات بحوثنا المعاصرة، ولن تحقق شيئا إذا طلبت المخالفة فإن العمر قصير والزمن يسير.

- فلتتسم عبارتك بالوضوح، وأفكارك بالبيان، وأسلوبك بالسلاسة، وليتسم منهجك بالنقد والغريبة والمراجعة، واسع إلى التركيب لتؤدي معاني كثيرة بمجهود أقل، فتلك هي صفة من مضى من أعلام هذه الأمة، ثم إنها إحدى خصوصية ثقافتك.

- كن مؤدبا، متواضعا، لا تغتر بما لديك من معارف، استفد ممن هو أكبر منك، ومن هو مثلك ومن هو دونك، تلك هي نصيحة الإمام يحيى بن زكريا بن معين رحمه الله، وقد أصاب فيها، وما أحوجنا إلى تمثيلها والعمل بها.

- لا تركن إلى تجربة أستاذ واحد، اجعل من تجارب أساتذتك في البحث العلمي أوراشا، خذ من كل ورش أحسن ما فيه، وارسم لطريقك مشروعا علميا تعيش فيه وتموت عليه، وهنيئا لمن أنجز مشروعه العلمي قبل أن يموت، وإذا انتهيت من مشروع فارسم لنفسك آخر...

- طالع قبل أن تحكم، ولا تتسرع فإن للسرعة سلبيات، ونافس بالمنافسة المشروعة، وإذا أخطأت فصحح، وقديما قال أبو حاتم الرازي ناصحا وموجها طالب العلم: «اكتب أحسن ما تسمع، واحفظ أحسن ما تكتب، وذاكر بأحسن ما تحفظ»¹.

وفي الختام أشكركم على حسن الاستماع، وأشكر السادة الأساتذة على هذا المجهود الطيب الذي بذلوه في هذا اليوم الدراسي، والحمد لله رب العالمين.

¹ - تاريخ بغداد 77/2 ترجمة رقم 55.

الباب الخامس:

في التوجيه وكيفية البحث والإرشاد الأكاديمي

بُني هذا الباب على الفصول الثلاثة الآتية:

- الفصل الأول: في كيفية تقديم الكتب وإنجاز العروض
- الفصل الثاني: أخطاء الطلبة في الامتحانات الجامعية: عرض وتقويم
- الفصل الثالث: الدراسة الجامعية: المنهج، الأخلاق، التكوين والبيداغوجيا.

الفصل الأول:

تقنية تقديم الكتب وإنجاز العروض



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: ورقة تقنية في كيفية تقديم كتاب
- المبحث الثاني: ورقة تقنية في كيفية إنجاز عرض علمي

- المبحث الأول: ورقة تقنية في كيفية تقديم كتاب

تقديم الكتب يختلف بحسب حاجة الباحثين من الكتاب، من الباحثين والقراء من يقدم الكتاب لنقده، ومنهم من يقدمه للتعريف به، وفي كل الأحوال لا بد -أولا- من " معرفة " ما في الكتاب من مواد علمية، والمعرفة هنا تعني معرفة المحتويات والمضامين التي تتطلب بذل الجهد واستفراغ الوسع في سبيل تملك المادة العلمية للكتاب، ولتحقيق ذلك لا بد من توفر ما يلي:

المطلب الأول: الشروط القبلية.

أولاً: الرغبة في القراءة، فالقراءة لا تتأتى من دون رغبة، فالمقبل على القراءة مثله مثل المقبل على الطعام، إذا لم تكن الشهية موجودة لا يتحقق النفع.

ثانياً: الصبر وحبس النفس على قراءة الكتاب، هناك كتب تقرأ في يوم، وأخرى في شهر، وأخرى في أكثر من ذلك.

ثالثاً: التحلي بالموضوعية سواء في العرض أو النقد، ومن إحدى خصوصيات الموضوعية التحلي بأخلاق المتعلمين، فللعلم أخلاق تجب مراعاتها والوقوف عند حدودها، طالع مثلاً مختصر كتاب " أخلاق العلماء " للأجري الذي وضعناه بين يديك.

رابعاً: اكتساب الكفاءة العلمية، لأن الإقبال على الكتاب يتطلب شرط اكتساب الصنعة العلمية التي ينتمي إليها الكتاب المراد قراءته.

من هذا المنطلق أقدم بعض التوجيهات المنهجية للطلبة المقبلين على تقديم كتب مختارة، وهي توجيهات خاصة بالمترجمين في الميدان وإلا فإن للمتخصصين طرقاً أخرى في نقد الكتب وتقويمها وتقديمها، من ذلك:

1- على القارئ أن يتساءل أولاً وقبل كل شيء لماذا يُقبل على هذا الكتاب؟، ولأي هدف؟، حتى إذا عرف القصد وجه جهده إليه.

2- أن يعرف أن ما يقوم به هو مجرد " تقديم كتاب "، وأنه هو المستفيد الأول منه، لذلك عليه أن يروم الاختصار بلغة سهلة وميسرة، تنقل فكرة صاحب الكتاب بوضوح تام، فإذا ضبب الفكرة أو عتمها لم يكن الاختصار ذا فائدة.

3- يحاول أن يفهم ما فهم صاحب الكتاب، فإذا لم يفهم لا يتحقق المراد.

4- يضع في الحسبان أن محاولته هي تدريب على الاختصار، والتدريب على الاختصار هو في الحقيقة تدريب على الفهم، وفي التدريب على الفهم ترويض النفس على القراءة والمطالعة، النفس بطبيعتها لا تصبر لكن تصبرها يجعلها تتعوذ على ذلك.

5- يروم الاختصار المركز الذي هو من أساسيات التقديم، فهو يسهل على القراء تفادي التطويل والإكثار، فإذا كان حجم تقديمه بحجم الكتاب لا يُسى هذا تقديمًا ولا اختصارًا.

المطلب الثاني: خطة التقديم

أما الخطة فيجب أن يلتزم فيها بتقديم ما يأتي:

أولاً: مؤلف الكتاب: تُذكر نبذة مختصرة عنه، إذا كان من المتقدمين تُذكر ترجمته معتمدة من كتب الطبقات والأعلام الخاصة بأصحاب الفن الذي ينتمي إليه، ينتخب منها ترجمة جامعة مع توثيقها من مصادرها.

أما إذا كان من المحدثين والمعاصرين فيكتفي فيها بالمشهور من سيرته، ولا بأس من الاعتماد على ما ينشر في شبكة الأنترنت إذا كانت المعلومة لا توجد إلا فيها.

ثانياً: وصف الكتاب وتوثيقه، ويتناول فيه:

أ- وصف حجم الكتاب هل هو من النوع الكبير أو المتوسط أو الصغير، ويعتمد البعض قياس الطول والعرض.

ب- عدد صفحاته.

ج- عدد طبعاته مع الإشارة إلى الطبعة الأخيرة، وتعيين الطبعة المعتمدة.

د- ذكر مكان الطبع، ونعني به البلد الذي طُبِع فيه الكتاب.

هـ- ذكر إسم المؤسسة التي تولت طبعه.

و- السنة التي طبع فيها الكتاب، ومن الأفضل أن تكون بالتقويمين الميلادي والهجري.

ثالثاً: خطة الكتاب، أي بيان الخطة المنهجية والتصميم العام للكتاب كما وضعه المؤلف، من ذكر للأبواب والفصول والمباحث والمطالب والفروع... إلخ، ويُستحسن نثره عوض عرضه على شكل فهرس عام للموضوعات.

رابعاً: عرض مضامين الكتاب، وهذه الفقرة هي أهم ما في التقديم والاختصار، إذ على

الطالب الباحث أن يولها عناية فائقة، ويتطلب هذا القيام بما يلي:

أ- القيام بقراءة كلية ومركزة للكتاب.

ب- إذا كان الكتاب مكسورا على الأبواب يُؤخذ كل باب على حدة، يقدم المختصر وصفا للباب بذكر عنوانه أولا، وما اندرج تحته من فصول، وما اندرج تحت الفصول من مباحث وهكذا.
ج- يشرع بعد ذلك في تقديم مختصر للباب.

خامسا: تقويم الكتاب، وذلك من النواحي الآتية:

1- اللغة والأسلوب:

أ- من حيث اليسر وعدمه، أو السهولة وعدمها، هل أسلوبه سهل أم صعب؟...

ب- من حيث التخصص، هل أسلوبه أسلوب فقهي أم أصولي أم أدبي أم فكري فلسفي..

ج- من حيث الأفكار، هل الأفكار واضحة أم غامضة، هل هي مبسطة أم مركبة؟

د- من حيث الأخطاء، هل توجد في الكتاب أخطاء نحوية أو أسلوبية أو مطبعية...

2- المصادر والمراجع المعتمدة، وذلك من النواحي الآتية:

أ- عددها على الإجمال، وقياسها على عدد صفحات الكتاب.

ب- نوعها من حيث الفنون العلمية إذا كانت كثيرة، وما هي هذه الأنواع، وما الذي يغلب منها، هذا إذا وُجدت في الكتاب فهرسة للموضوعات، إذا لم توجد يستحسن التماسها في هوامش الصفحات.

3- الشواهد القرآنية والحديثية: وذلك من النواحي الآتية:

أ- الشواهد القرآنية: عدد الشواهد على الإجمال، وسلامتها من الأخطاء، سلامة توظيفها، نوع القراءة المعتمدة....

ب- الشواهد الحديثية: عددها على الإجمال، حسن تخريجها من مصادرها، سلامتها من الضعف والوضع، حسن توظيفها في الموضوع...

4- الفهارس العامة في الكتاب:

و تأتي في المقدمة الفهارس الضرورية مثل:

أ- فهرسة المصادر والمراجع، كيف رُتبت؟ وما هو معيار الترتيب؟ هل هو المعيار الزمني، أو المعجمي، أو حسب الأهمية؟ وهل بدأ المصنف باسم المؤلف أم بعنوان الكتاب؟...

ب- فهرسة للموضوعات، ونعني به التصميم الكلي للكتاب، هل التصميم فيه تنسيق بين الأبواب والفصول، هل يوجد تناسب بين فصول الكتاب ومباحثه؟ هل راعي المؤلف عنصر الانسجام بين الفروع والمطالب والنقط؟ هل يوجد توازن بين الأبواب والفصول؟ إلخ.

وتليها الفهارس الحاجية مثل:

ج- فهرسة للآيات القرآنية، كيف رُتبت، وبأي معيار؟....

د - فهرسة للأحاديث النبوية: هل اقتصر فيها على المرفوع أم تضمنت الفهرسة حتى الأحاديث الموقوفة وأثار التابعين؟ بأي معيار رُتبت؟...

ملحوظة: هذه الفهارس - فهرسة الآيات والأحاديث - يمكن أن تكون من صنف الفهارس الضرورية، ويمكن أن تكون من صنف الفهارس الحاجية، والمعيار في التمييز طبيعة الموضوع، وذكرها في هذا الترتيب لا يعني تأخيرها، لكنها إذا اعتمدت تأخذ الصدارة من بين الفهارس، وستأتي الإشارة إلى ذلك.

وتليها الفهارس التحسينية، مثل:

هـ- فهرسة للأعلام، ونعني بهم الأعلام المذكورة في الكتاب، وذلك من حيث حسن الترتيب، وسلامة عرض أسمائهم، وأنسابهم، وكناهم، وألقابهم، وأصولهم من التصحيف الذي يعتري أسماء الأعلام في الغالب.

و- فهرسة للأماكن، إن وُجد هذا النوع من الفهرسة يحقق فيها أيضا.

ز- فهرسة للأشعار: وهذا يكون في كتب اللغة والأدب، إن وُجد يُحقق فيه أيضا من الوجوه التي تمت الإشارة إليها.

ح- فهرسة للمصطلحات الفنية، وهذا النوع من الفهارس يكون مطلوباً في بعض الدراسات والأبحاث تيسيراً على القراء والباحثين، ويجب التأكد من هوية المصطلح هل هو مصطلح فعلاً؟ وهل له صلة بالفن الذي يعالجه الكتاب؟ ثم طريقة التصنيف والعرض؟...

المطلب الثالث: التقويم العام.

هذه مساحة يأخذها صاحب المختصر لنفسه، فقد صاحب الكتاب وقلّب صفحاته، وعرض ما فيه من معارف وأفكار، ولا شك في أن هذه المصاحبة تترك بصماتها على الفكر والوجدان مما يولد للمختصر انطباعات معينة على شكل استدراقات أو تعقيبات أو

انتقادات أو ما شاكل هذا، يوردها مختصرة من دون أن ينسى الملاحظات المنهجية المتعلقة بعملية التقديم أو الاختصار، من مثل:

- هل الكتاب خال من الفهارس أم يوجد فيه بعضها فقط؟

- هل التزم المصنف بوضع الفهارس في أماكنها مرتبة أم خالف النهج، تبدأ الفهارس بفهرسة الآيات القرآنية ثم الأحاديث النبوية، وتنتهي بفهرسة للمصادر والمراجع ثم فهرسة لموضوعات البحث.

- هل تتطابق أرقام الإشارة إلى الصفحات في الفهارس مع الأرقام الموجودة في الكتاب؟

- هل تتطابق عناوين الأبواب والفصول والمباحث والمطالب المذكورة في الفهرس العام للموضوعات مع نظيرتها الموجودة في الكتاب؟

- هل المقدمة تتطابق مع محتويات الكتاب وإشكالاته العامة؟ وهل الخاتمة تعكس ما تم عرضه؟ وهل توصياتها هي توصية علمية ودالة؟

- ما الجديد الذي يحمله الكتاب؟ هل ينفع في معالجة قضايا المجتمع والواقع؟ وقضايا المنهج والمعرفة المتعلقة بوضع العلوم والمعارف الإسلامية التي تتوقف عليها عملية سيرورة الحياة؟ أم هو سفر في رحلة الزمن البعيدة؟

- المبحث الثاني: ورقة تقنية في كيفية إنجاز عرض علمي

أقدم في هذا المبحث حُطاطة عامة تساعد - إن شاء الله - على كيفية إنجاز عرض علمي يكون محدود الصفحات، فأقول وبالله التوفيق:

المطلب الأول: في الشكل

ونعني به صورة العرض من الناحية الشكلية، هذه الناحية يجب أن يتحقق فيها ما يلي:
أولاً: لا يتجاوز العرض من حيث الكم إثني عشرة صفحة، قد تزيد أو تنقص بصفحة واحدة أو صفحتين، ويجب التزام سقف معين وبصفحات محدودة حتى لا يتحول إلى بحث عريض، ثم إن هذا السقف يساعدنا في ضبط تصميم الموضوع كما سنبينه في النقطة الموالية.

ثانياً: إذا كان البحث في حدود إثني عشرة صفحة مثلاً فالمطلوب ما يلي:

1- ترقيم الصفحات.

2- رغن البحث، واعتماد خط واحد في كل الصفحات باستثناء الهوامش والعناوين، وتوضيح بعض أسماء الأعلام أو الأماكن أو المصطلحات الفنية أو بعض النصوص المختارة أو الآيات والأحاديث.

3- توحيد حجم الخط، ويفضل أن يحرر ب 14 أو 16، وتكتب الهوامش ب 12.

4- الصفحة رقم 1 تكون للغلاف، يكتب في جهة منها شعار الجامعة واسمها، وفي الجهة المقابلة في أعلى الصفحة المستوى الجامعي، يكتب في وسط الورقة بخط بارز وجليظ عنوان البحث، ويوجد أسفله اسم الطالب واسم الأستاذ المشرف، وفي أسفل الصفحة: السنة الجامعية.

5- تخصص الصفحة الثانية للمقدمة، والصفحة رقم 10 للخاتمة، ورقم 11 لفهرس المصادر والمراجع، ورقم 12 لفهرس الموضوعات.

المطلب الثاني: مقدمة العرض.

1- لا تتجاوز صفحة واحدة.

2- تبدأ بالبسملة، ويشير فيها الطالب إلى ما يلي:

أ- تحديد الموضوع بذكر العنوان كاملاً.

ب- سبب الاختيار.

ج- أهداف البحث أو مقاصده.

د- الدراسات السابقة.

هـ- منهجية البحث وخطته.

و- الإشكال العام للبحث

كل هذه العناصر تُذكر على سبيل الاختصار.

المطلب الثالث: خاتمة العرض

تشغل نصف صفحة تقريبا، يذكر فيها الطالب ما تم إنجازه لتذكير القارئ بما فات متكلماً بصيغة الماضي، لا يبحث فيها قضايا جديدة حتى لا تتحول إلى فقرة من فقرات البحث كما لا يصوغها بصيغة المقدمة، يستحسن أن يشير فيها إلى نتائج البحث، وبعض الخلاصات والاستنتاجات، وكذلك بعض التوصيات إن وُجدت.

المطلب الرابع: فهرس للمصادر والمراجع.

يذكر فيه الطالب كل المصادر والمراجع التي اعتمد عليها ورجع إليها في عرضه، وأهمها تلك المذكورة في الهامش، وإذا أشار إلى بعضها في المتن يذكرها أيضا، وبما أنه لا يستغني عن القرآن الكريم فالقرآن يُذكر في أعلاها، مشيرا إلى روايته وتوثيقه، ثم يسرد المصادر والمراجع مرتبة على حرف المعجم، إما أن يُرتب على عنوان الكتاب أو على اسم المؤلف، يذكر عنوان الكتاب كاملا، واسم المؤلف كاملا، وتاريخ الطبعة، ويعين هل هي الأولى أم الثانية أم الرابعة، واسم المطبعة والبلد الذي طُبِع فيه الكتاب، وإذا لم يجد هذه المعلومات مثبتة في الكتاب يكتفي بما هو مثبت.

المطلب الخامس: فهرس للموضوعات

وهو بمثابة كشاف لفقرات البحث وعناوينه الموثقة على صفحاته، وله فائدتان: الأولى أن يتعرف القارئ على الموضوعات المعالجة في البحث من أول نظرة سريعة، والثانية أن يهتدي إليها بأبسط جهد، بحيث يتوجه إلى الصفحة مباشرة.

لذلك فكل المباحث والمطالب والفروع والعناصر المذكورة في البحث يجب أن يذكرها الطالب في الفهرس، يجب أن يذكر الموضوعات بأبوابها وفصولها وما اندرج تحتها من عناصر التصنيف، ويُستحسن أن يشير إلى صفحاتها، كل مطلب وصفحته، وكل مبحث وصفحته، ومن الشروط المطلوبة في هذه الفهرسة التطابق التام بين ما يوجد في البحث وما يوجد في الفهرس، يبدأ الفهرس بالمقدمة وينتهي بالفهرس نفسه.

المطلب السادس: عدد الصفحات.

إذا أزلنا صفحة الغلاف و صفحة المقدمة و صفحة الخاتمة والفهرسين ستبقى للطالب 7 صفحات، ماذا يفعل فيها؟

هذه الصفحات تُعالج فيها المادة العلمية التي اجتهد الطالب في جمعها من المصادر والمراجع، يرتبها على مباحث ومطالب وفروع متدرجا من أعلى إلى أسفل، لا يقدم ما حقه التأخير، ولا يؤخر ما حقه التقديم، إذا لم تُسعف المادة العلمية لترتيبها على الفصول يرتبها على المباحث، وإذا لم تسعف على المباحث يرتبها على المطالب، وإن بحثا في حجم هذه البحوث القليلة الصفحات ليجتاح إلى ما هو أقل من ذلك، كأن يرتب على الطريقة الآتية: أولا، ثانيا، ثالثا... ويذكر تحت "أولا" 1، 2، 3... وتحت "1" أ، ب، ج، ...

المطلب السابع: المصادر الأساسية والتوثيق منها.

يتطلب منهج البحث التركيز على المصادر والمراجع المباشرة في الموضوع، كل موضوع يفرض نوع المراجع والمصادر التي على الطالب أن يرجع إليها ويبحث فيها، فهو لا يستغني عن القرآن الكريم لأنه في حاجة إلى آيات منه، كما لا يستغني عن كتب السنة لأنه في حاجة إلى أحاديث صحيحة منها، كما أنه في حاجة إلى كتب التفسير لتفسير معاني الآيات التي أخذها، وكتب شروح السنة لشرح معاني الأحاديث التي اعتمدها، وكذلك كتب اللغة لأنه سيحدد منها المعاني اللغوية والدلالات الاصطلاحية، وقد يستعين ببعض الكتب في هذا التحديد، وكتب الأعلام والطبقات للتعريف بالأعلام، وبعض كتب المعاجم لضبط بعض المصطلحات الفنية أو أسماء الأماكن... إلخ، ثم الكتب المصنفة في الموضوع والتي تعالجه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

إلى جانب هذا كله لا يجب على الطالب أن يكون ناقلاً وموثقاً فقط بل متحكماً في المادة العلمية التي يعرضها، يقدم لها ويعلق عليها، ويشرح ما يجب شرحه، وينقد ما يجب نقده، وقد يقارن ويلاحظ ويستنتج...

المطلب الثامن: السلامة من الأخطاء وضبط المنقول.

يجب الانتباه إلى الأخطاء المطبعية، يراجع الطالب نسخته قبل التسليم النهائي، ينتبه إلى الفواصل والنقط والحركات، وإلى القفز على بعض الموضوعات المقررة بفعل السقط الحاصل، ينتبه إلى جمالية العرض والكتابة وسلامة الأسلوب من الأخطاء اللغوية والأسلوبية، يثبت التصليحة على النبي ﷺ، والترضية على الصحابة الكرام، يتأكد من سلامة المنقول من المصادر، لا يغير ولا يُصحف، ولا يُثبت في بحثه إلا ما فهمه، إذا نقل نصاً يضعه بين مزدوجي الاقتباس، ويُسند الأفكار إلى أصحابها، الآيات تُشكل وكذلك الأحاديث، ويُستحسن الاعتماد على المصحف الإلكتروني لنقل الآيات برسمها، وتوثق الآيات من المصحف كما توثق الأحاديث من مصادرها، ويجب أن يكون التوثيق كاملاً، مثل: "سورة البقرة الآية 20"، ومن كتب السنة مثل: "أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب العلم، باب مجالسة العلماء، الجزء، الصفحة، ورقم الحديث"، وإذا لم يخرج الحديث من الصحيحين يَبْنِ درجته.

الفصل الثاني:

أخطاء الطلبة في الامتحانات الجامعية: عرض وتقويم



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: أهداف المحاضرة وطبيعتها
- المبحث الثاني: مؤثرات هامشية
- المبحث الثالث: أخطاء في القرآن والحديث والأعلام
- المبحث الرابع: في الخط والتحرير والتسويد والألوان والفراغات
- المبحث الخامس: في المحافظة على المكان والزمان وخطط الطلبة في الإجابة
- المبحث السادس: طرق التحرير ونماذج من الأخطاء

- المبحث الأول: أهداف المحاضرة وطبيعتها.

أولاً: لماذا هذه المحاضرة؟

طبيعة هذه المحاضرة أنها تعليمية وتكوينية، تعليمية لأنها تعلم الطلبة كيف يقفون على أخطائهم، ويحددونها، ويعرفونها ويعتقدوا بأنها فعلاً أخطاء تستوجب التوقف عندها بالبحث والدرس، ثم إنها تكوينية لأنها تصحح الخطأ، وتدعوهم إلى استبداله بالصواب. إن الوصول إلى الصواب يفترض ما يلي:

أ- إما أن تصل إلى الصواب من دون الوقوع في الخطأ، وهذا هو المطلوب، وهو ما يأتي في المقدمة.

ب- وإما أن تقع في الخطأ، ومنه تصل إلى الصواب، وهنا تكون قد استثمرت الخطأ للوصول إلى الصواب، وهذا موقع الكثيرين، وهؤلاء لهم مثل في الذين اجتهدوا في الحسنات حتى استبدل الله سيئاتهم حسنات، نمثل للأخطاء بالسيئات، وللصواب بالحسنات، وقياساً على الحديث نقول: "اتبع الصواب بالخطأ يمحه، وعليك بالعلم".

ج- وإما أن تُخطئ، وتقع في الخطأ، وتبقى فيه، وهذا حال الجهلة والأميين والمعاندين. نتكلم هنا على أخطاء لا يراها الطلبة، ولا يقفون عليها لأنهم لا يراجعون أوراق الامتحانات، فهم لا يطلبونها للوقوف على ملاحظات الأساتذة ولكنهم يطلبون الأوراق لأجل النقطة فقط، لهذا السبب لا يعرف الطلبة أخطائهم، والطلبة الذين يتعرفون على أخطائهم هم الذين يواصلون الدراسة بعد الإجازة، لأن طلبة ما بعد الإجازة تتاح لهم فرص التعرف على أخطائهم بخلاف الذين غادروا الكلية بعد الحصول على الإجازة.

نتكلم في هذا الموضوع لأنه مهم للطلاب وللاستاذ الجامعي، وتكمن أهميته في كونه يتعلق أولاً بورقة الامتحان، والامتحان الكتابي كفيلاً بأن يكشف عن الوضعية العلمية للطلاب، وثانياً لأنه المرحلة الأولى للبحث والتكوين، فالطالب يبذل فيه قصارى جهده واجتهاده للحصول على درجة تؤهله للنجاح في المادة. وأعتقد أن ورقة الامتحان هي أول ما يبدأ به الطالب من حيث تحرير إنشاء علمي.

هذه الأخطاء لا يتحمل الأستاذ الجامعي مسؤوليتها لأسباب موضوعية منها أن الطالب دخل بها إلى الجامعة، أخطاء حملها معه من مرحلة ما قبل الدراسة الجامعية، من المرحلة

الابتدائية والإعدادية والثانوية، وانطلاقاً من شيوع هذه الآفة ورغبة في معالجتها نلتمس من الوزارة الوصية وهي الآن أصبحت وزارة واحدة أن تضع خططا وإجراءات لتكوين التلميذ تكويناً جيداً قبل دخوله إلى الجامعة، فالجامعة مؤسسة ذات استقطاب مفتوح، فلا بد من وضع معايير لانتقاء الطلبة حفاظاً على عنصر الجودة داخل الجامعة.

ثانياً: طبيعة المحاضرة:

المحاضرة هي رصد لنماذج من أخطاء الطلبة على أوراق الامتحانات الكتابية، وهي تجربة تراكمت عبر سنين عدة، أخطاء تتكرر وتتشابه، وقد ثبت بالاستقراء ثباتها وهي كثيرة أخذنا منها بعض النماذج فقط وإلا فإن الأمر يتطلب وضع معجم لأخطاء الطلبة، تجمع وتصنف حسب الأنواع والتخصصات، فالأخطاء في اللغة الفرنسية ليست هي نفسها في اللغة الإنجليزية، ولا هي في اللغة العربية أو في التاريخ والجغرافيا إلخ، ثم تصحح ليرجع إليها الطالب سواء المنتهي للجامعة أو الذي سيلتحق بها، فالأخطاء أصبحت راسخة في أذهانهم، وهي تتكرر في كل امتحان تقريبا، فإذا لم تطوق وتحارب أصبحت صواباً، وما تكرر تقرر، ونحن هنا لا نريد استخدام المسلاط الضوئي لتقديم الأمثلة حفاظاً على عدم التشهير بالطلبة، لنكن على يقين بأن ما نقوله في هذه المحاضرة هو صحيح لا غبار عليه.

المبحث الثاني: مؤثرات هامشية.

قلت هنا: "مؤثرات هامشية" لأن الأخطاء المرتكبة هنا لا تتعلق بطبيعة الأوراق من حيث إجابات الطلبة، ولكنها تتعلق بالأوراق الثبوتية المراد استصحابها من قبل الطلبة في وقت الامتحان، فبعض الطلبة لا يستصحبون أوراقهم الثبوتية فيتذرعون بالنسيان أو التلف، ومعلوم أن هذه الأوراق هي التي تثبت للأستاذ ولحراس القاعة هوية الطالب، فالأوراق توضع على جانب الطاولة ويتصفحها المراقب، وهذا حق إداري وحق عيني للطلاب لدفع شبهة الغش حتى لا يجتاز طالب الامتحان مكان طالب آخر، ثم إن الطالب في حاجة إليها للملئ خانة المعلومات الكاملة من حيث الاسم والنسب كاملاً باللغة العربية والفرنسية، والشعبة التي ينتهي إليها والسنة الجامعية والفصل والمادة ورقم الامتحان ورقم الفوج مع الرقم الترتيبي، وهي معلومات توجد في الوثائق الثبوتية، فإذا غابت هذه المعلومات فكيف تُنسب ورقة الامتحان لصاحبها، فهذا من الأخطاء الأولى، وهو من الأخطاء الكبيرة التي

يتوجب الانتباه اليها، ولنسأل الأساتذة عن الأوراق التي فيها إجابات لكن لا أسماء عليها، وإذا وُجدت أسماء -وبعضها يتشابه - فلا أرقام عليها...

- المبحث الثالث: أخطاء في القرآن والحديث والأعلام

أولاً: أخطاء في القرآن الكريم.

الخطأ في القرآن ليس كأبي خطأ، وخطأ الطالب المنتهي إلى الدراسات الإسلامية في القرآن ليس كخطأ غيره من طلبة التخصصات الأخرى، فالخطأ في القرآن هو من النوع الثقيل على الطالب لأنه يدل على أنه لا يحفظ القرآن.

الخطأ في الآية يصيرها غير قرآن لأن القرآن لا خطأ فيه، وهو من كلام الله، وهذا النوع من الأخطاء يأتي في مقدمة ما يلحظه الأستاذ، وهو مؤشر على ضعف الطالب، فمن أخطأ في القرآن أخطاء في غيره.

ومن أنواع الخطأ في القرآن الخلط بين الحديث والقرآن، فقول النبي ﷺ يصيره الطالب قرآناً بقوله: "قال تعالى" ونحو ذلك، أو يخطئ في كلم القرآن باستبدال لفظة بلفظة أخرى، أو الخلط بين الآيات، أو الخطأ في الرسم أو في النحو والإعراب، أو يأتي بها في غير سياقها...

والنصيحة التي نقدمها للطلبة في هذا الباب بعد مطالبتهم بحفظ القرآن أن الآية إذا لم يكن متيقن منها أو لا تشهد للمقام لا يذكرها.

ثانياً: أخطاء في الحديث.

ما قلناه عن القرآن نقوله عن الحديث، فلا يجوز الخطأ في الحديث، وبعض الطلبة يصيرون الحديث قرآناً أيضاً، ومن أتى الحديث بلفظه فعليه باللفظ، ومن أراد المعنى فليقل أو كما قال رسول الله ﷺ، ويجب الاستشهاد بالحديث في مقامه وفي سياقه، ففي التصحيح يشطب الأستاذ على الحديث ولو كان صحيحاً، ولا يشطب عليه لذاته بل لكونه خارج السياق، الموضوع في جهة والحديث في جهة أخرى.

فالخطأ في الحديث يصبره غير حديث مثل «لا نكاح إلا بولي»، فالنبي ﷺ لم يقل ذلك لأن زيادة الألف في الحديث غيرت المعنى تماما، وهذا الضرب من الخطأ أدخله العلماء في الكذب على النبي ﷺ.

ثالثا: في التعامل مع الأعلام.

تعامل الطلبة مع الأعلام هو تعامل فوضوي، لا يراعي العلم والأخلاق، وهما عنصران أساسيان في التعامل مع أعلام الإسلام، فمن الناحية العلمية مدار الثقافة الإسلامية على الأعلام، فالثقافة الإسلامية تُبنى على "قال نبي الإسلام" و"قال الصحابي" و"قال التابعي" وقال "الشافعي" و"الغزالي" و"ابن رشد" إلخ، إذا غاب الأعلام من هذه الثقافة غابت الثقافة وانهارت، فمعرفة من العلم.

ومن الناحية الأخلاقية فأعلامنا ليست كأعلام الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ، هؤلاء إذا ذكرناهم بأسمائهم يكفي، أما أعلام الإسلام فلا بد فيها من قرائن، فإذا ذكّر الطالب اسم النبي محمد فلا يسأم من الصلاة والسلام عليه، لأن الصلاة والسلام عليه عبادة، ويجب أن تُثبت كاملة غير منقوصة، فلا تهمل ولا تُكتب «ص» أو «صلعم» كما يفعل بعضهم، وإذا ذُكر الصحابي نترضى عليه، فلا نبخل بكتابة «ﷺ»، وبعض الطلبة يرمزون إليها ب «ص»، وإذا ذُكر علم من التابعين أو تابعيهم نترحم عليه، وإذا ذُكر علم من المحدثين أو المعاصرين إذا كان ميتا نرحمنا عليه، أو حيا أثبتنا له صفة الشيخ أو الأستاذ أو العلامة أو الدكتور مستعملين اللقب الذي يليق بمقامه، فكتابة فلان مجردة هي قلة أدب ولا تعكس الاحترام المطلوب.

- المبحث الرابع: في الخط والتحريف والتسويد والألوان والفراغات

أولا: الخط

يجب على الطالب أن ينتبه إلى أن العلاقة بينه وبين الأستاذ هو "الخط"، كلما كان الخط واضحا بيّنا وسليما كان التواصل بين الأستاذ وأفكار الطالب جاريا، وكلما كان الخط رديئا وغير مقروء فإن التواصل ينقطع، وسيُضَيِّع الطالب نفسه.

مثلا نوصي الطلبة بالاجتهاد على أنفسهم لتلقي الأفكار وحفظ الدروس وفهمها نوصيهم بالاجتهاد على أنفسهم في تحسين الخط، فالخط ليس فطرة أو جبلة يولد بها

الطالب من بطن أمه بل يُكتسب هو الآخر بالتعلم، فالخط فن يحتاج إلى مهارات تدريبية، صحيح أن الجامعة لا تعلم الخط، ولا توجد مجزوءة خاصة بذلك إنما على الطالب إذا أدرك ضَعْف خطه عليه أن يأخذ حصصا تدريبية في تعلم الخط حتى يستطيع أن يوصل أفكاره إلى غيره، نقول هذا الكلام لأن مسار الحياة العلمية والمهنية للطلاب مبنية على الخط، فالكلمات في بعض الخطوط متداخلة، والحروف غير واضحة، فمثلا «العقد» تقرأه «الحقد»، و«بتاتا» تكتب «بثاتا»، و«إن شاء الله» تكتب «إنشاء الله» وهكذا...

ثانيا: التحرير والتسويد.

يتوصل الطلبة عند بداية الاختبار بورقتين: واحدة للتسويد والأخرى للتحرير.

أ- التحرير.

تكلّمنا عن ورقة التحرير من حيث ملء المعلومات المطلوبة، أما الآن فسنتكلم على هذه الورقة من حيث المحافظة على أناقتها وجمالها، الجمال مقصود في كل شيء، والأناقة مطلوبة، وكل طالب وطالبة هو يحافظ على أناقته وحسن جماله، لذلك أقول: إن من حُسن جمالك وروعة أناقتك أناقة ورقتك، فمن العيب أن تحافظ على مظهرك وتوسخ ورقتك.

ب- التسويد

الغرض من الورقة الثانية هو التوسيح والتسويد، ولذلك نسميها " ورقة الوسخ"، معناه: أن التشطيب والمحو والضرب والإعادة... كل هذا يكون في هذه الورقة، ورقة يكتب فيها الطالب ماشاء مما له صلة بالموضوع لكن حين يحزر عليه أن يُحسّن ويجمّل ويجوّد، ومما نأسف له أن بعض الطلبة لا يلتفتون إلى هذه الورقة، يكتبون عليها ولا يكتبون فيها، جاعلين من ورقة التحرير هي ورقة التسويد، في حين تبقى ورقة التسويد نقية، وهذا خلل.

ومن المشاكل التي تنضاف إلى ما نحن بصدهه مشكل البلانكو «BLANCO»، فجل

الطلبة يتعاملون بالبلانكو الذي تتحدد مشاكله فيما يلي:

- الطلبة جعلوا منه ضرورة من ضرورات التحرير، والسبب أنهم لا يستخدمون ورقة

التسويد.

- بعض الطلبة لا يحضرون معهم البلانكو فيطلبونه أثناء الامتحان بحيث تجد الأستاذ ينتقل من صف إلى آخر، أو عوض أن يتفرغ الحارس للمراقبة يصبح متجولا بالبلانكو بين الصفوف، وهذا مشوش جدا.

-ليس العيب في استخدام البلانكو حين يتعلق الأمر بمحو كلمة أو كلمتين ولكن المشكل حين يمعي به الطالب سطرا أو سطرين وربما فقرة كاملة مما يزيد الورقة توسيخا.

ثالثا: في الألوان والفراغات.

أ-الألوان.

يستخدم بعض الطلبة الألوان على ورقة الامتحان بالكتابة بالأقلام الملونة ويزوقون أحيانا، لا مانع من استخدام الألوان لأن الألوان تُضفي على الورقة جمالا وتزيدها بهاء إذا تم احترام مجالها وحسُن استخدامها، وننصح بعدم استخدام اللون الأحمر لأنه اللون الذي يختاره غالبية الأساتذة للتصحيح، وعلى الطالب أن يجتنبه حتى لا يُحسب من الخطأ.

لا بأس بالألوان إذا كُتبت الآيات والأحاديث باللون الأخضر مثلا، والتحرير باللون الأزرق، والعناوين مع الأسئلة والأرقام باللون الأسود أو الأصفر... هذا مع سلامة المعلومات الملونة وصحتها ومطابقتها للمطلوب، أما إذا كانت على غير هذه الصفات فلا تشفع لها الألوان.

ب-الفراغات.

أتكلم هنا عن الفراغات داخل الورقة والتي تستوقفنا كثيرا مما يجعلنا نستفهم عن وجودها من دون حاجة ولا مبرر، وهي عند النظر تتنوع إلى ثلاثة: فراغ في أعلى الورقة، وفراغ في وسط الورقة، وفراغ في أسفل الورقة، وهو فراغ لا معنى له، ونحتار في النازلة أكثر إذا وجدنا الطالب يترك فراغات ويكتب في ورقة ثانية للتحرير.

- المبحث الخامس: في المحافظة على المكان والزمان وخطط الطلبة في الإجابة

أولاً: المكان والزمان

نعني بـ "المكان" المكان الذي سيقام فيه الامتحان وسيُختَبَر فيه الطالب، ونعني بـ "الزمان" الوقت المخصص للامتحان.

أ- المكان.

معلوم أن الطلبة ينقسمون إلى أفواج، كل فوج والقاعة أو المدرج الذي سيختبر فيه، وتضع الإدارة في ذلك لوائح تنظيمية توضع كملصقات في أماكنها المعهودة، على الطالب أن يقف على اسمه ورقمه والمكان الذي سيتمحن فيه، كما توجد بالموازية لوائح أخرى داخل القاعة تضبط الحضور والغياب وتكون بيد المراقبين، فالطلبة الذين لا يلتزمون بالمكان المخصص لهم يعرضون أنفسهم لمشاكل عديدة من بينها أن الطالب يُسجل غائبا في قاعته.

ب- الزمان.

عامل الزمان هو عامل مهم جدا في إنجاز الامتحان، كل الأسئلة التي تُعطى يراعى فيها عامل الوقت، ونعني به الغلاف الزمني المخصص للإجابة، فالوقت يجب احترامه، فكل وقت أخذه الطالب بعد نهاية الوقت المسموح به باطل شرعا ومخالف للقانون، والقاعدة الفقهية تقول «التوقيت بالتوقيف»، أما عامل التأخر -وهو كثير- فهو يؤثر على التوقيت المحدد للامتحان، وللإدارة الوصية بتنظيم في الموضوع تُشعر به الطالب والأستاذ والمراقبين.

ثانياً: خطط الطلبة في الإجابة.

وذلك من حيث كتابة الأسئلة وترتيبها وطريقة الإجابة إلخ.

1- أسئلة الامتحان.

الطلبة حيال هذه القضية على أصناف ثلاثة: صنف يكتب الأسئلة كلها ثم يشرع في الجواب، وصنف يكتب السؤال وتحت جوابه، وصنف لا يكتب الأسئلة بل رقم السؤال والجواب، وهم من معيار آخر على ثلاثة أصناف: صنف يحافظ على ترتيب الأسئلة واحدا واحدا، وصنف يقدم ويؤخر، وصنف يقدم ويؤخر ثم يقطع في الأجوبة، وأفضل هؤلاء من

يكتب السؤال كاملاً ثم يجيب على السؤال محافظاً على الترتيب، وليس كل الطلبة يلتزمون بهذا النظام بل فهم من يكتب فقط لا تعرف عن أي سؤال يجيب.

2- الاقتضاب والإسهاب.

نعني بالاقتضاب الاختصار في الأجوبة، والطلبة حيال هذه القضية على ثلاثة أصناف:
- صنف يقتضب ويختصر إلى درجة الإخلال .

- صنف يسهب ويطول في الأجوبة، قد يطول في الأجوبة كلها، وقد يسهب في الجواب على سؤال واحد ويختصر في الباقي...

- وصنف يتوسط ويعتدل.

والواقع أن الاقتضاب لا يكون إلا إذا كان مطلوباً من الأستاذ، وكذلك الإسهاب، وإذا لم يكونا مطلوبين فالمراد تقديم جواب شاف من دون تطويل ممل أو اختصار مخل، والمفهوم من هذا الكلام هو التوسط والاعتدال.

3- الاستعفاف

وهو أسلوب يلتجئ إليه الطلبة لاستدرار النقطة من الأستاذ، وقد يكون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فالمباشر يكون واضحاً بصريح العبارة، وغير المباشر كأن يكثر الطالب من الثناء على الأستاذ صاحب المادة بعبارات التفخيم والتبجيل إلخ، ومثل هذا الكلام نشط عليه ولا نعيه وزنا.

4- الخروج عن الموضوع.

الجواب له حالتان: إما جواب في الموضوع وإما جواب خارج الموضوع، ولا فرق بين الخروج عن الموضوع والورقة الفارغة كليهما تستحقان صفراً، لكن قد تتقدم الورقة المكتوب فيها على الفارغة بنقطة أو نقطتين تقديراً لفعل الكتابة.

الورقة المكتوب فيها مما هو خارج عن المطلوب توجي بأمرين:

الأمر الأول أن بعض الطلبة يراهنون على بعض الدروس ويتركون الباقي، وهو ما يظهر في الإجابة على سؤال غير مطلوب أو درس لا يشمل السؤال.

الأمر الثاني أن الطالب لم يفهم ما في السؤال فأجاب ظنا منه أن ما يكتبه هو الصواب، ومعلوم أن من شروط الإجابة " فهم ما في السؤال"، وعملية الفهم تتطلب ما يلي:
-كتابة السؤال، فالكتابة ترسخ المعنى في الذهن، والطلبة الذين لا يكتبون السؤال يشرد ذهنهم ويغيب تركيزهم.

- قراءته، وهي خطوة ثانية، فبعض الطلبة يكتب ما لا يفهم، والفهم لا يتأتى إلا بالقراءة مرة ومرتين وثلاث، كلما أكثر الطالب من القراءة كان للفهم أقرب، لذلك كانت القراءة مطلوبة في كل شيء.

- فهمه، وقد خصصنا هذه النقطة بالفهم لأنه لا يلزم من القراءة الفهم كما لا يلزم من الكتابة القراءة، على الطالب أن يقرأ ليفهم.

- تحرير الجواب في المسودة، وهي خطوة رابعة، على الطالب أن يكتب ما فهم في المسودة، لأن المسودة تتيح له المراجعة والتصحيح بالإضافة والتشطيب والمحو...وهي قضية تقدم الكلام عليها.

- النقل في ورقة التحرير، وهي الخطوة الأخيرة، ضمانا لسلامة الورقة من التوسيع والتضبيب.

بعض الطلبة يميلون إلى التشجير، وهي رسوم بيانية توضع كملخصات، هذه الرسوم إذا كانت مطلوبة يكتبها الطالب أما إذا لم تكن مطلوبة في السؤال فلا بد من أن تكون مرفوقة بالشرح والتوضيح والبيان.

- المبحث السادس: طرق التحرير ونماذج من الأخطاء

أولاً: طرق التحرير.

يضع بعض الطلبة لأجوبتهم مقدمة وعرض وخاتمة جريا على طريقة كتابة المقالات، وهذه الطريقة مطلوبة إذا كان السؤال واحدا ومفتوحا، ويتضمن معالجة إشكالية بالشرح والتفصيل لكن إذا كان السؤال له صلة بالمقرر الجامعي، ومركب، ومعه أسئلة أخرى فالأولى الدخول في الجواب مباشرة، أما إذا كان السؤال يتطلب ذلك فالأولى أن يقدم الطالب لكلامه بسطر أو سطرين من دون خطبة الحاجة التي يعتمد إليها الطلبة في الغالب،

وتأخذ لوحدها صفحة كاملة من الورقة في حين أنه لا يقول شيئاً في الجواب المطلوب، الأولى البدء بالبسملة والدخول في الموضوع مباشرة.

ومنهم من يضع خاتمة طويلة أيضاً هي بمثل خطبة الاستفتاح أو أكثر، وتتضمن أشياء من تفتيح الذات، واللعب بالعبارات من مثل قول أحدهم «وبهذا أكون قد وفيت الجواب حقه، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وكتبه الفقير إلى رحمة ربه...»

قد يبدو مثل هذا الكلام جميلاً وسليماً من الناحية الإيمانية والعقدية لكن يجب أن تصحبه السلامة العلمية، فكثيراً ما يكتب هذا الكلام على غير ملء.

بعض الطلبة يطلبون أكثر من ورقة، ولا يُعلّم على الأوراق المضافة سواء بعلامة الترقيم، أو إثبات البيانات في الأعلى أو بإشارة ترشد الأستاذ المصحح إلى أن هناك أوراقاً إضافية يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، إذا لم يفعل الطالب ذلك فالأوراق الإضافية قد تضيع.

ثانياً: نماذج من الأخطاء والتصحيحات.

يمكن للأستاذ أن يجمع من أخطاء الطلبة مُعجماً كاملاً، وهي قابلة عند جمعها للتصنيف حسب نوعية الخطأ هل في النصوص المنقولة من المصادر والمراجع، أو في الأسماء والأعلام، أو في الأحاديث، أو في الآيات، أو في اللغة والأسلوب... من نماذج ذلك:

الترمذي يكتب التلميذي، ويكتب الترميدي، ويكتب الترميد ويكتب الترميدي.

المباركفوري يكتب الكافوري

أبوداود يكتب ابن داود

ابن ماجة يكتب ابن ماجدة، أبي ماجة

البخاري يكتب النجاري ويكتب البخاري

موطأ مالك يكتب سنن ابن مالك

سنن الدارقطني يكتب سنن الزارقطني

سنن الإمام أحمد يكتب سنن أبي أحمد

يقول الدكتور أبوهريرة، وهو من غريب ما وقفنا عليه.

التاء المربوطة تصبح مبسوطة مثل: عارضة الأحوزي تكتب عارضت الأحوزي، والواو الشارزة كثيرة جداً، أخطاء في همزة القطع والوصل، القطع في مكان الوصل والعكس، وفي بعض الأحيان لا قطع في موطن القطع ولا وصل في موطن الوصل.

أما النقط فلا تُحترم، ناهيك عن الفواصل وعلامات الاستفهام وعلامات التعجب...

أما الأخطاء في الآيات القرآنية وفي الأحاديث النبوية فكثيرة جداً، وقد تقدم الكلام في هذه النقطة.

خلاصة:

حاولنا في ما تقدم تشخيص الداء ونحاول في هذه الخلاصة أن نضمن طريقة العلاج، فما السبيل إلى معالجة هذه الظاهرة؟

تعالج بما يلي:

1- إقامة ندوات علمية، وأيام دراسية، وطلاقات مستديرة حسب الإمكانيات المتاحة لكل شعبة، ولكل كلية في الجامعة لمعالجة هذا الموضوع وبحثه من جميع وجوهه للتحسيس به.

2- بما أن الموضوع من صميم "مناهج الدراسة الجامعية"، لم لا تخصص له محاضرات داخل هذه المجزوءة، أو يستقل بمجزوءة خاصة داخل الوحدات المعتمدة حتى تكون المعالجة جوهريّة، لأنها ستكون تلقينية وتعليمية وتكوينية.

3- لا بد من أن تكون للطالب رغبة في تجاوز الخطأ حتى تتحسن المردودية، فإذا لم تكن هناك رغبة فلا يتحقق شيء من ذلك لأن الطالب هو المقصود الأول بالموضوع، وإذا لم تكن لديه هذه الرغبة فيجب تحسيسه بها لأن الخطأ يحيك في النفس فيكون دافعا نحو التعلم.

4- القراءة والمطالعة، وحضور المناقشات العلمية للرسائل والأطروحات الجامعية التي يقضي الأساتذة في تقويمها وقتاً طويلاً للتصحيح والمراجعة، آسف جداً أن الطلبة لا يحضرون إلى هذه المناقشات.

الفصل الثالث:

الدراسة الجامعية: المنهج، الأخلاق، التكوين والبيداغوجيا



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: ورشة حول التكوين والبيداغوجيا

- المبحث الثاني: توجهات أكاديمية

- المبحث الأول: ورشة حول التكوين والبيداغوجيا

تمت هذه المناقشة بدعوة من السيدة عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية للمساهمة في اليوم الدراسي التواصلي الذي انعقد بالكلية بتاريخ 12 مارس 2011م والذي خصص للشأن البيداغوجي والبحث العلمي داخل المؤسسة، تخللت هذا اليوم ورشتان: ورشة للتكوين والقضايا البيداغوجية، وورشة للبحث العلمي، انصبت المساهمة على مناقشة محاور الورشة الأولى التي تضمنت مناقشة المحاور الآتية:

الإرشاد والتوجيه - التكوينات من حيث الهيكلية والمضامين، والتكوينات المهنية والمهنة من حيث المضامين والعلاقات مع المحيط الخارجي - التدريس من حيث الغلاف الزمني والوسائل اللوجستكية والتكوين عن بعد - اللغات الأجنبية من حيث التطوير والمضامين والتدريس والتنسيق، ودليل الطالب وما يتضمنه من قضايا مثل: الملفات الوصفية للدروس، الطلبة من حيث أعدادهم وتفويجهم وتسجيلهم، التنسيق داخل المسالك من جهة المواد والتدريس والامتحانات، والامتحانات من حيث جودتها وسلامتها ونزاهتها وتواريخها وتنظيمها، ثم تتبع الطلبة المتخرجين والنظر في وضعية مستقبلهم وعلاقتهم بالمحيط الاقتصادي والاجتماعي...

وفيما يلي الأفكار الأساسية التي تمت المساهمة بها، والتي يمكن التمييز فيما بين صنفين: صنف في كيفية مناقشة القضايا، وصنف في النظر إلى القضايا.

المطلب الأول: كيفية مناقشة القضايا

وذلك من حيث كيفية النظر إليها، وتحديد زوايا النظر فيها، وطريقة مناقشتها، وحالة المناقشة أيضا، والكشف عن كم المشاكل التي تتوالد في صدور متوال بسبب عدم الإسراع في المعالجة، وعدم ربط المقترحات والتوصيات بالتفعيل، ثم التأكيد على طابع الملل الذي يصيب الأساتذة في معالجة القضايا بسبب تكرار الكلام في الموضوع عند كل مناسبة، كما يتضمن هذا الصنف من الأفكار تقويم مواقف الأساتذة وتصنيفهم بحسب الوعي العلمي والوعي بالمشاكل، والحضور والمواكبة مع الغياب والإهمال...

1- كيف ننظر إلى هذه القضايا؟ ومن أية زاوية؟

أ- معالجة هذه القضايا في ورشة واحدة بساعات محدودة هي غير كافية، كما أن يوما دراسيا واحدا لا يكفي للمطارحة العلمية لسبب واحد هو أن هذه القضايا هي متراكمة ومتعددة، متراكمة عبر سنين عدة، وهي كثيرة العدد، ولا يمكن لقضايا من هذا النوع أن تُعالج بطريقة سريعة وبسيطة، ولذلك يمكن أن نعتبر هذا اليوم هو يوم عرض لهذه القضايا والمشاكل بُغية عدها وحصرها لمعرفة أولًا، ثم القيام بقصف ذهني لبعض المشكلات التي تعترض عملية البحث العلمي داخل الكلية، ثم إن الكلام عليها لا يتطلب الرجوع إلى المصادر والمراجع لأنها مشاكل واقعية، فهي خاضعة للتجربة والمعينة أكثر من الرجوع إلى كتب بعينها، اللهم إلا إذا كان هذا الرجوع إلى النصوص القانونية والتنظيمية بغرض تفعيلها والاحتكام إليها.

ب- ثم إننا بحاجة إلى نظرة مستوعبة ذات إمام شمولي، وهي النظرة التي تعالج العناصر المشار إليها من زاوية: الأستاذ والطالب والإدارة الوصية، وإن الانحياز في زاوية واحدة من شأنه أن يلقي اللوم على طرف ويستبعد آخر، مع العلم أن هذه الأطراف الثلاثة هي المسؤولة المباشرة على الخلل الواقع في هذه القضايا.

2- لم نعد نعاني من مشاكل معينة ومحددة في التكوين الجامعي وقضاياها البيداغوجية بقدر ما أصبحنا أمام مشاكل أخرى انضافت إلى هذه المشاكل، لقد أثرت هذه المشاكل على العلاقات العامة داخل الكلية، بحيث ساد نوع من التوتر وفقدان الثقة بين الشعبة والشعبة، وبين الشعبة والإدارة الوصية، بل ساد التوتر وعم القلق داخل الشعبة الواحدة، وقد ترتب عن هذا شيوع ظاهرة عزوف الأساتذة عن حضور اللقاءات والاجتماعات، بل ساد نوع من غياب بعض الأساتذة، غيابا علميا وذاتيا.

3- لقد قضينا وقتا بالجامعة نلتقي ونتناقش في هذه الأمور التي أرى أننا أطلنا الكلام فيها أكثر، كنا في سنوات خلت نناقش قضايا النظام القديم فنشكو ونشتكي، وكنا نظن أن النظام الجديد سيحل المشاكل باعتباره إصلاحا، وإذا به يضيف مشاكل لا حصر لها، وما نثيره اليوم من هذه المشاكل خير دليل على ذلك مما أفقد كلامنا مصداقيته، فإذا لم تعالج هذه المشاكل بعد بيانها وتحديدها فلم الكلام إذن؟ وما الفائدة منه، أخشى أن يكون لقاؤنا هذا ضرب من الاستعراض نفرغ فيه همومنا وأحزاننا ثم نروح نملاً من جديد ثم نعود للتفريغ وهكذا...

4- إننا بحاجة إلى التأكيد على تقديم مقترحات بناءة، يُصاغ أهمها في صيغة توصيات تقدم إلى الإدارة الوصية، ثم يتم التمييز بينها على مستوى " من يهيمه الأمر " ، ما يلزم الأستاذ يجب القيام به، وما يخص الطالب يلتزم به، وما له صلة بالإدارة الوصية يجب أن تبادر به، ويجب الخروج من دائرة إلقاء اللوم، كل طرف يلقيه على الآخر.

إن الغرض من التأكيد على هذه النقطة هو تفعيل هذه التوصيات حتى يكون للكلام هدف ومعنى.

5- مما يلاحظ أن بعض التدخلات طغى عليها الغضب والانفعال فتكلمت بحماسة زائدة، وأعتقد أنه لا لوم على من انفع أو غضب، ولا لوم على من انطوى وانزوى، ولا لوم على من ضحك أيضا لأن المشاكل المطروحة والمتراكمة كلها تبعث على هذا، وإن كنت أميل إلى أن هذه المشاكل تحتاج إلى الحضور لا الغياب، وإلى الكلام لا الصمت، وإلى تقديم مقترحات علمية وبناءة لا إلى الاكتفاء بالسماع وحده.

صحيح أننا أكثرنا من الكلام إلى درجة الملل، وصحيح أنه بقدر ما نطمح إلى أن يساهم هذا الكلام في معالجة المشاكل أو على الأقل التخفيف منها بقدر ما هي تتركب وتتكعب، لكن الذي هو بعيد عن الصحة هو السكوت والانزواء، لأن ظاهرة العزوف من شأنها أن تزيد في المشاكل بقدر أكبر، إن المطلوب منا أن نتكلم ونعاود الكلام مرات عدة إلى أن تُصبح عملية التكوين والبحث العلمي مع القضايا البيداغوجية العامة سليمة وتسير في جو علمي نظيف، وفي مأمن من كل خطر أو تهديد.

6- مما يلاحظ على الجو العام داخل الجامعة بصفة عامة أن الأساتذة من حيث الوعي العام على أصناف ثلاثة: صنف على وعي تام بالعملية العلمية، يقوم بها أحسن قيام لكنه جاهل بالمشاكل التي تحيط به، وصنف على وعي تام بهذه المشاكل، يتكلم فيها في كل وقت، وفي أي لقاء بل تجده مرجعا في هذا الموضوع، لكن الطلبة يتكلمون فيه من جهة المردودية العلمية، وصنف جامع بين الأمرين، له وعي مركب، وهذا هو الصنف المحمود من النوعين، لماذا؟

لأنه بالقدر الذي يجب أن نكون فقهاء في موادنا وتخصصاتنا بقدر ما يجب أن نكون فقهاء في مشاكلنا، فقه التخصص وحده من دون فقه المشاكل التي تحيط به فيه جناية على التخصص نفسه.

7- ليس الغرض من فقه التخصص وفقه المشاكل هو لأجل الفقه فحسب بل الغرض هو حصر هذه المشاكل وتطويقها بغية إيجاد حلول لها أو على الأقل التخفيف منها، فكيف نُساهم بفقه التخصص في حل هذه المشاكل؟ أعتقد أن هذه المشاكل يجب أن نجعل منها موضوعات بحث، يجب أن تدخل مختبرات البحث العلمي، على الأساتذة الباحثين أن يبحثوا فيها، وأغلبها ظواهر أخلاقية واجتماعية وعلمية وتربوية مثل شيوع ظاهرة الغش، والانحلال الأخلاقي، وتفشي ظاهرة الإضرابات، والغياب المتكرر بل الدائم، وغياب البنية التحتية إلى غير ذلك من الأمور التي سنتولى الإشارة إلى بعضها.

المطلب الثاني: مناقشة بعض القضايا

1- التوجيه والإرشاد الأكاديمي: والمقصود به توجيه الطالب وإرشاده، لكن ما معنى التوجيه وما المقصود بالإرشاد؟ هل هما بمعنى واحد؟ أم لكل واحد معنى مختلف؟ ثم من يقوم به، هل هما موكولان للإدارة أم للأساتذة الباحثين؟ وهل يقوم به فرد أم جماعة من الأساتذة؟ وهل فيه برامج موجودة أم أن العملية موكولة للوضع العامة التي يوجد فيها الطالب؟

أعتقد أن التوجيه والإرشاد هما بمعنى واحد من دون الدخول في التديقات اللغوية ومعاني المفاهيم المستوحاة من التحليلات التربوية والتكوينية، هما بمعنى واحد من موقع أن المقصود بهما واحد هو الطالب الجامعي وحاجاته إلى المساعدة في سيره العلمي والتكويني، فهو في حاجة إلى طرف واع وقدوة يستشير ويشير عليه، بحاجة إلى أجوبة على أسئلة تحيره وتؤرقه.

الطلبة الوافدون إلى الكلية نوعان:

نوع حسم اختياراته في البيت مع نفسه ووالديه، أو مع من وجده سندا في التوجيه من خارج الجامعة، فهذا ليس في حاجة إلى التوجيه والإرشاد الجامعي.

ونوع متردد، تابع ومقلد، فهذا النوع لم يحسم اختياره بعد، لذلك فهو قابل للتشكل والتوجيه.

ويمكن التمييز في التوجيه بين نوعين أيضا:

نوع يكون في بداية الموسم الجامعي، يستقبل الطلبة الجدد، وهذا النوع من التوجيه كان سائدا بالكلية في فترة من الفترات، لكن نجاحه كان ضئيلا بحكم أنه يكون في فترات متقطعة، ويوكل لبعض الأساتذة بصفة تطوعية لتندبهم الشعب، لكنه غاب تماما في السنوات الأخيرة.

ونوع دائم ومستمر، يصاحب الطالب طيلة تواجده بالكلية، وهذا النوع لا وجود له للأسف، وهو مطلب من المطالب التي أجمع الأساتذة عليها بعد أن كانت فكرة تخامر الكثيرين.

ولضمان إنجاح النوعين تمت مذاكرة فكرة إنشاء مركز للتوجيه والإرشاد، يشرف عليه مدير، وتكون له هيئة أو لجنة تسيير مكونة من رؤساء الشعب واللجنة العلمية للكلية وممثلين عن الطلبة، يكون له مقر قار، وقانون يسيره، وتكون لها ميزانية يتصرف فيها عند الحاجة، وتوكل إليه مهمة مراقبة تفعيل التوصيات والمقترحات التي يتوصل بها، ويقوم بتدريب مع القيام بشراكات.

على هذا المجلس أن يراعي ما يلي:

- كثرة الطلبة الوافدين على الكلية، وميولهم إلى شعبة معينة أو شعب محددة، فيحصل الاكتضاض في جهة وفراغ في جهات أخرى.

- ضعف البنية التحتية، فالطلبة يميلون إلى الشعب التي يقل فيها عدد الأساتذة مما يقل معه الضبط والإحكام، فإذا قل عدد الأساتذة وكثر الطلبة فإن الأستاذ يصبح مضطرا للتدريس في المدرجات عوض القاعات مما يضعف عامل المراقبة والضبط.

- استحضار التوجيه المضاد، والإرشاد المعاكس، فالطالب لا يحسم اختياراته وفق رغبة علمية محسوبة ومدروسة، ولكنه ينساق مع الشائعات والأفكار المسبقة عن المواد والشعب والأساتذة، فعلى المركز أن يقطع الطريق على هذا النوع من التوجيه القبلي، الذي هو توجيه فوضوي من الأساس.

2- لغات التدريس: بدأت هذه الظاهرة تتبدى للعيان بشكل خطير، لقد لوحظ أن الطلبة لا يحافظون على لغة العلم، ونعني بـ "العلم" المادة العلمية التي يتلقونها خلال الفصول الدراسية من الموسم الجامعي، فهو لا يحافظ على الأقل على اللغة التي تلقن بها

الأفكار، فالكثير من الطلبة يخلطون بين لغات العلوم، فنلاحظ مثلا أن الطالب يحرر موضوعا في الحديث بلغة أصولية، أو الفقه بلغة فكرية وفلسفية، بل حتى اللغة ذاتها هي أقرب إلى لغة الصحافة منها إلى لغة العلم، ففي لغتهم من الأخطاء والركاكة والضعف الشيء الكثير، ثم إنهم لا يعرفون هذه الأخطاء ولا يقفون عليها لأن أوراق الامتحانات التي تثبت عليها ملاحظات الأساتذة وتصحيحاتهم لا تُراجع، ولم يثبت قط أن طالبا طالب بورقة الامتحان لأجل الاستفادة من الملاحظات بل غالبا ما يكون طلب المراجعة للتحقق من النقطة، وهي شكوى عامة من أساتذة اللغة العربية واللغات الحية الأخرى إلى درجة أن البعض بدأ يخاف من تدهور لغته أمام زحف هذه الأخطاء بسبب حضورها الدائم والمستمر على أوراق الطلبة، ولتدارك الموقف نادى البعض بتقديم حصص الدعم داخل الكلية، تبدأ هذه الحصص بجمع أخطاء الطلبة التي تتكرر في كل مناسبة وعرضها عليهم، والواقع أن حصص الدعم هذه وإن كانت ضرورية فإنها يجب أن تعطى للطلبة كحصص إضافية لتكملة برنامج المواد التي لا تكتمل حصصها القانونية وإن حرص الأستاذ على إعطاء الحصص من بداية انطلاق الفصل الدراسي إلى نهايته، ثم إنه يستنزف جهد الأستاذ في وقت أخذ الإصلاح كل الوقت، غير أن المقترح منا في هذا الباب هو أن تتم العملية بالتنسيق مع الأكاديمية الجهوية للسماح لأساتذة التعليم الثانوي بمباشرة دروس الدعم للطلبة المغاربة وغير المغاربة لاسيما الطلبة المتوافدون على الكلية من البلاد الإسلامية الأسيوية.

3- الغلاف الزمني للتدريس: الاختلاس من الغلاف الزمني للتدريس من غير ضرورة موجبة لذلك هو سرقة لا تقل عن الاختلاس من الغلاف المالي، فالزمن المقرر للتدريس لا يُحترم في الغالب من كل الأطراف، فالطالب لا يحرص على تغطية المادة بالحضور فهو دائم الغياب، وقد يدخل في إضرابات متكررة، وإذا حرص على الحضور فهو يدخل إلى الحصة بعد انصرام الوقت بنصف ساعة، ويخرج بنصف ساعة قبل الوقت النهائي، وهو داخل القاعة حاضر وغائب: حاضر بجسده وغائب بعقله.

4- الامتحانات والاختبارات: حان وقت دق ناقوس الخطر حول وضعية الامتحانات والاختبارات التي تجرى بالكلية، حيث تجرى في ظروف صعبة جدا، وذلك من الزوايا الآتية:

-وكلت مهمة تنظيم الامتحانات والسهرة عليها للأستاذ وحده، فبعد أن كانت الإدارة تتولى القيام بعملية التنظيم في النظام القديم من بدايتها إلى نهايتها فإنها في الإصلاح الحالي تكتفي بتحديد مواعيد الامتحانات، وتواريخ المداولات، وتوزيع القاعات، ويبقى الباقي للأستاذ مدرس المادة.

-كثرة الطلبة يخلق للأستاذ متاعب تخلص بسير الامتحان وعملية التقويم، من جهة السير، الطلبة يتراكمون على بعضهم البعض في المدرجات والقاعات مما يصعب على الأستاذ أن يضبطهم بمفرده، ومن جهة التقويم يصبح من المتعذر عليه أن يُقوّم مئات الأوراق على ما يكتنف بعض هذه الأوراق من غياب للأسماء والأرقام.

-شيعو ظاهرة الغش في الامتحانات، فقد استغل الطلبة الظروف الصعبة فأبدعوا في الغش بطرق ذكية وماكرة، وهذا فيه ضرب لتكافؤ الفرص.

5- رد الاعتبار للأستاذ وللكلية: الأستاذ الجامعي هو أستاذ باحث، ومكون أكاديمي قبل أن يكون على صفة أخرى، كثير من الأساتذة الذين نُعول عليهم الجامعة ضيقوا على صفتهم بمهام أخرى لا صلة لها بالكلية، منهم من انزوى إلى مؤسسات ذات مهام غير جامعية، وهؤلاء لم يغيبوا كلياً حتى تقطع الجامعة معهم بل بقوا على الصفة الجامعية لكنهم لم يقدموا للجامعة وما تتطلبه صفتهم ما يجب أن يقدم، فهؤلاء يقفون على الخلل في عملية البحث والتكوين الأكاديمي، ويضاف إلى هؤلاء فئة من غير المبدعين، مازالوا عاكفين على تدريس محاضرات عكفوا على إنجازها سنين عدة، محاضرات بالية لا جدة فيها ولا اجتهاد.

ويتصرف بعض الأساتذة كموظفين عاديين، يقومون بمهام التدريس بطريقة آلية، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، لا يقترب من الطلبة، كلما حاولوا الاقتراب منه نفر منهم وابتعد، إن الاقتراب من الطلبة هو أنجع وسيلة لإذابة جل المشاكل، حين يتواضع الأستاذ تكون هذه مقدمة للسمع للطلبة والإنصات لمشاكلهم، وحين يسمع يحصل الحوار، ومن دون تحقق هذه المعطيات ينقطع التواصل الذي هو شرط من الشروط التي ركز عليها الإصلاح، ومن الطالب ومع الطالب يبدأ التواصل.

إن رد الاعتبار للأستاذ يجب أن يبدأ من الأستاذ نفسه، أن يفرض الأستاذ شخصيته العلمية والتربوية والتكوينية، وإذا ما تحقق هذا تحقق عنصر التقدير والاحترام.

أما الكلية فقيمتها تتمثل في مهمتها التي يجب ربطها بها، إذا أخلت الكلية بمهمتها أصبحت عرضة للنقد، ونجاحها يتمثل في حسن القيام بواجبها، لقد أصبحت الكلية ملاذا للفاشلين في الدراسة، وللحاصلين على نقط متدنية، هؤلاء الطلبة لا يُقَوِّمون لمعرفة كفاءاتهم ومستوياتهم، لذلك يعتبر الطالب المقبل على الكلية أضعف زبون للكلية، ولذلك يميل إلى الغش والمراوغة، أمام هذا الوضع لا مناص من إرجاع الهيبة للكلية، والتقدير والاحترام للأستاذ الجامعي.

- المبحث الثاني: توجيهات أكاديمية¹

حين دُعيت إلى المشاركة في هذا اليوم بإلقاء كلمة لم أتردد لأن الماستر هو خلاصة تجربة الشعبة، هو زبدها بعد مخاض عسير، فنحن نتدرج في المسلك من دورة إلى أخرى إلى حين نهاية الفصل السادس الذي يتوج بإجازة، ثم نلج عالم السلك الثالث الذي يمثله الماستر.

أشكركم على جهودكم المزدوجة: جهد في الإنجاز والتحضير، وجهد في المشاركة، إنه جهد واجتهاد للبرهنة على أنكم موجودون، فالوجود ليس هو أن تتحرك حيا فوق الأرض بل الوجود هو الحياة المصحوبة بالعمل النافع، علمي أو زراعي أو صناعي أو خير... الخ.

إن الأمة الحية هي الأمة العاملة، والأمم الميتة هي الأمم الكسولة، العالة على الغير، وكيف ما كان الحال فنحن أمة تعاني من التخلف، تخلف في الاقتصاد والصناعة والتجارة والزراعة، تخلف في الإنتاج، لكننا أمة ليست متخلفة على مستوى الثقافة، ولا يلزم تخلف أمة تخلف ثقافتها، فثقافتنا ثقافة متقدمة جدا فإذا قارنا بين مجمل الأحكام التي جاءت بها إلى البشرية، والسعادة التي سعت إلى تحقيقها وما علمها البشرية اليوم نجدها في تخلف مطبق، فثقافتنا شيء، ووضعيتنا المعاصرة شيء آخر، وها أنتم تخصصتم ونذرتم أنفسكم للبحث في هذه العلوم، والتكلم فيها، إنكم متقدمون جدا بثقافتكم، متجاوزون لزمانكم بهذه المعرفة المشرفة التي يكرم بها الله عز وجل كل من تخصص فيها.

¹ - نص الكلمة التي تمت المداخلة بها في ختام اليوم الدراسي الذي نظمه ماستر «المجتمع والمستجدات الفقهية المعاصرة» في موضوع: «الفقه الاسلامي المعاصر: مناهج وقضايا»، يوم الجمعة 13 يونيو 2008 بقاعة الاجتماعات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش.

يجب التوقف عند عنصر التخلف هنا الذي يقف حائلاً أمام علمنا وفكرنا وثقافتنا،
إنه مائل أمامنا في كل وقت وحين..

إننا نعاني من التخلف مرتين: الأولى وضعيتنا بين الأمم ووضعيتنا في الشريعة، فإذا
قسنا وضعنا العام على وضعية الأمم المتحضرة اليوم نجد أنفسنا في تخلف، وإذا قسنا
وضعنا العام على الشريعة الإسلامية نجد أنفسنا متخلفين جدا عما جاءت به، فمقاصدنا
في جهة ومقاصد الشريعة في جهة أخرى.

ولما كانت هذه الأمة هي الأمة الشاهدة على الناس فقد مس الأمم الأخرى ما مسها من
التخلف، ذلك أن الأمم المتقدمة اليوم تؤدي هي بدورها ضريبة تخلفنا، لأن أمة محمد هي أمة
رسالة للناس كافة، فالإسلام جاء ليقود البشرية نحو السعادة الأبدية. جاء ليكرم البشرية
ويرفع من شأنها، بالحوار الهادئ والمجادلة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن، فلما تخلفت لم
تجد البشرية من يقودها نحو الخير والسعادة.

هذا العمل تضافت فيه جهود متعددة: جهود الأستاذ وأعني به الأستاذ المدرس،
المكون والمربي من داخل هذه الكلية، ومن خارجها أيضا بمن فيهم أساتذة التعليم الابتدائي
والثانوي، فالطالب يتربى على أفكار أساتذة عديدين لا يلزم بالضرورة أن يكونوا في الجامعة.
وقد أبانت عروضكم على تنوع في الثقافة، ظهر هذا التنوع في التخصصات، في الفكر
الإسلامي، والأحوال الشخصية، والمقاصد، وأصول الفقه، وعلم الفلك، والشعر والأدب،
والذي يوظف هذه التخصصات هو الفقه الإسلامي، وقد توفقتم في اختيار عنوان هذا اليوم
الذي أطلقتم عليه: «الفقه الإسلامي المعاصر: مناهج وقضايا».

لقد أصبحتم أساتذة لبعضكم، تستفيدون من تجاربكم، وتتداولون جهودكم، وهذا
أمر شرعي وقاعدة علمية معروفة عند علماء الأمة المتقدمين، وكانوا يوصون ويتواصلون بها،
وقد تداولتم العلم والمعرفة في هذا اليوم الذي هو ليس كسائر الأيام، إنه يوم الجمعة، وهو
يوم اختاره الله لهذه الأمة، أشبعتموه علما وإيمانا، أنتم لستم نادمين بل غانمين على كل
المستويات، وقد ذكرني هذا اليوم بندوة علمية أقامتها شعبة الدراسات الإسلامية أكثر من
عشر سنين من هذا التاريخ، وكانت في موضوع: «مناهج علم الفقه وقضاياها»، لم تُطبع هذه
الندوة إلى اليوم، وأظن أن بحوثها لم تُنشر، وحتى لا يضيع الجهد أرجو أن تقدموا أوراقكم

إلى لجنة من الأساتذة يقومونها ويصححونها، واعملوا على نشرها ولو على شبكة الأنترنت حتى يعم النفع بها، ويستفيد منها الباحثون.

العلوم الإسلامية لا تعاني من قلة وجود، فهي تراث هائل مائل أمامك عبر القرون، ولا يستطيع أحد أن يتجاهله، إنه في أمس الحاجة إلى رجال إذا ذُكروا ذُكر العلم، وإذا ظهروا ظهر العلم، منّا من إذا ذُكر ذكر الله، وإذا ظهر زادك خشوعاً، وأحسست بجواره بأن الإيمان يزيد، أرجو أن تهتموا بشخصياتكم كعلماء، فهذه بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق، والصادقون هم الذين يتحلون بالمواصفات الآتية:

- 1- الغيرة على هذه المعرفة والصدق في القول بها.
- 2- الإخلاص لها، وعدم جعلها وسيلة لتحقيق مقاصد أخرى.
- 3- الأمانة في أخذها، وفي تقديمها وعرضها.
- 4- الصراحة في العلم والصرامة في المعرفة.
- 5- التفاني في خدمتها بالمال والبدن.
- 6- تكريم أهلها واحترام شيوخها.
- 7- القوة في أخذها، فللعالم الباحث قوة يجب عليه أن يتحلى بها، وإلا عانى من الانهزام النفسي.
- 8- عدم التضييق على هذه المعرفة بالاشتغال بالمال والأهل والولد، أعط لهذه الثقافة حقها وإلا ضاعت منك، ولا تعول على غير المعرفة، فإنك ستضيع كما ضاع كثير ممن صرف همه لغيرها.

لقد أثارتي وأنا أستمع إلى هذه العروض قضيتان، أثيرتا في العروض وفي الكلمات:

- الأولى: قضية المناهج، فنحن أحوج ما نكون إلى معرفة المناهج، وضبط علومنا ومعارفنا بالرؤية المنهجية، وأعتقد أن هذه القضية هي حاضرة في أذهانكم، وقد أخذتم قسطاً من المواد العلمية التي تهتم بالمناهج، ولذلك وضعتم في عنوان هذا اليوم كلمة «مناهج وقضايا»، وهذا جيد، لكن لا يلزم من العمل بالمنهج ذكره فقط، يجب التفريق بين الكلام في المنهج والعمل به، فنحن أحوج ما نكون إلى الثاني، لدينا سيل في الكلام في المنهجية والمناهج لكن العمل بها وتطبيقها معطل للأسف الشديد.

الرؤية المنهجية هي التي تمكنك من التحكم في هذا الكم الهائل من المعارف، ثم بالمنهج تتمكن من خدمة المعرفة الإسلامية، فما أنتم تتكلمون مثلا عن «الفقه الاسلامي»، وكلمة الفقه لها صلة بالمنهج، فالفقه له ارتباط بالنص، فإذا لم نفقه صحة النص وسلامته لن نفقه استخلاص الحكم الشرعي منه، والكل لا يتم إلا بأدوات وقواعد وفنون، ولا أريد أن أوسع الكلام في هذا الموضوع، لكن يكفي أن أشير إليه، وقد أشار إليه بعض الأساتذة المحترمين.

- الثاني: قضية الوسطية: وهي قضية معرفية، فالوسطية ليست فلسفة عقلية أو ممارسة فكرية عفوية يرددها هذا أو ذاك بل هي جاعلية إلهية يجب أن تتمثل جيدا.

الوسطية لا تظهر إلا بين طرفين متناقضين، وهي معيار صعب تحديده، لأن الوسط يتحدد بالنسبة للأطراف القائمة، ولا وجود له بمعزل، ومعنى ذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿وَكَلِمًا جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسْعًا﴾¹، فنحن وسط في كل شيء، وإدراك الوسط يستلزم تمثل الأطراف الأخرى، طرف الغلو وطرف التقصير، فإذا أردت أن تعرف أنك وسط توجب عليك معرفة الطرف الغالي والطرف المقصر من دون ذلك فقد تكون مغاليا وأنت تدعي الوسط، أو تكون مقصر وتزعم أنك في الوسط، وهذا ما يقع - للأسف للكثيرين -.

إننا أمة الشهادة على الناس بالوسطية، والإسلام دين وسط بين الأديان كلها، فأهل الكتاب مغالون في كل شيء، والمشركون والملاحدة مقصرون، ولذلك أمرنا بالوسطية في كل شيء حتى في حياتنا الخاصة.

ومن سلبية عدم تمثل الأطراف المائلة أن البعض يذهب بالوسطية إلى حد الوقوف بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، وهذا مفهوم خاطئ، وتمثل ساذج لمعنى الوسطية، الوسطية لا تعني أخذ العصا من الوسط أو قياس بين نقطتين والوقوف في الوسط، فلا وسط بين الكفر والإيمان، لأنه أمر لا يقبل في الشرع، فالعقيدة لا وسطية فيها، ولذلك جهّم الإمام أحمد بن حنبل الذين وقفوا في الوسط بين القول بخلق القرآن والقول بعدمه.

إن الفائدة من هذا اليوم الدراسي تتجلى فيما يلي:

¹ - سورة البقرة الآية 143.

- 1- تبادل الآراء والأفكار، فإنه يوجد عند الآخر ما لا يوجد عندك، فتذاكروا هذا العلم، فإن روحه في المذاكرة.
- 2- اكتشاف المواهب والقدرات: وقد أصغيت باهتمام إلى بعض العروض التي كانت رائعة حقيقية، والتي أُلقيتُ بتمكن وارتجالية.
- 3- مقارنة الطالب الباحث لجهوده مع الجهود الأخرى، ذلك أن جهدك يجب أن يقاس مع من هم من أمثالك من طلبة العلم، لتعرف حدود علمك ومعارفك، وطريقة تحليلك وعرضك.
- 4- اكتساب الجرأة والصراحة والتدريب على إلقاء المحاضرات، وهي فرصة تتيحها لكم مثل هذه الملتقيات، فالعروض داخل القاعة ليست هي المحاضرة أمام الجمهور العامة.
- 5- اكتساب مهارة النقد والمراجعة والتقويم، وأعتقد أنكم تابعتم عروض بعضكم باهتمام وعلقتم ونقدتم بعضكم، والكل كان مهتم بنفسه قبل غيره، يُسجل ويُدون.
- 6- وضع اليد على مواطن الخلل في التسيير والتنظيم والتواصل أيضا.
- 7- سنُّ سنة حسنة يقتدي بها من بعدكم، وفرض الشخصية العلمية، والشخصية الراغبة في الطلب والتحصيل.
- 8- التدريب على إقامة الطاولات المستديرة، والمحاضرات المفتوحة، وعقد شراكات مع طلبة الماجستير في جهات أخرى من داخل الوطن وخارجه، لتتطور التظاهرات العلمية إلى ندوات وطنية، وإلى ندوات علمية، فهذا يأتي بالتدرج، وقد أثارني حسن التنظيم، وحسن التنسيق، وجودة الإخراج، واستعمال الوسائل السمعية البصرية، وحسن اختيار موضوع التظاهرة هذا كله مع حسن التواضع والأدب والتخلق بالأخلاق الإسلامية الحميدة، وفقكم الله لما يحبه ويرضاه.

الباب السادس:

في التنظيم والتدريس والهيكلية البيداغوجية

بني هذا الباب على الفصول الثلاثة الآتية:

- الفصل الأول: التقييم الذاتي لمسلك الإجازة في الدراسات الإسلامية

- الفصل الثاني: مسلك الدراسات الإسلامية: واقع وأفاق

- الفصل الثالث: منهجية تدريس مادة علوم الحديث في الجامعة المغربية

الفصل الأول:

التقييم الذاتي لمسلك الإجازة في الدراسات الإسلامية



ويتكون مما يلي:

- تقديم

- المبحث الأول: المسلك من حيث الولوج والتجانس

- المبحث الثاني: التأطير والتدريس

- تقديم

توخينا في وضع هذا التقييم¹ ما يلي:

- 1- محاولة تقويم موضوعي، يراعي بسط الايجابيات والسلبيات والترجيح بينها.
- 2- اعتماد العناصر التي جاءت بها مراسلة الوزارة في شأن إعداد تقرير التقييم الذاتي لمسالك الإجازة في الدراسات الأساسية وفق العناصر المسطرة في المراسلة.
- 3- اعتماد الأهداف التي من أجلها وضع الإصلاح حتى يكون التقييم علميا وموضوعيا.

لقد مرت السنوات الماضية- وأخرى في الطريق- سنوات الانخراط في مسلسل الإصلاح الجامعي الجديد الذي ينص عليه ميثاق التربية والتكوين «سنة 1999م»، والقانون الإطار 01.00 «سنة 2000م» بتشكيل مسلك الدراسات الإسلامية كجزء من المسالك المعدة لهذا الغرض لنيل الإجازة في الدراسات الأساسية، مرت مفعمة بالعمل الدؤوب والمتواصل، عمل تجسده المناحي الآتية:

- عمل داخل الفصول والمدرجات، ونعني به عملية التلقين والتكوين والتدريس وما يتبعها ويرافقها من تقويم، وهذا بقدر ما عرف من النجاح الكبير فقد اعترضته مشاكل وصعوبات.

- عمل يهم كيفية تطبيق الإصلاح ومتابعته، ومحاولة تدييل الصعاب أمامه، وهذا العمل هو تنسيقي يقع على كاهل منسق المسلك بصفة خاصة، نعني بذلك اللقاءات الدؤوبة والمتواصلة مع إدارة الكلية والسيد العميد، ومنسقي المسالك، ورؤساء الشعب، والانخراط بفعالية كبيرة في الهياكل الإدارية، كل ما من شأنه أن يعود على سير الإصلاح بالنفع، وقد تم هذا عملا بتفعيل المهام المخولة للهياكل الجامعية حسبما ينص عليه الميثاق والقانون الإطار.

¹ - موضوع هذا العمل هو تقرير التقييم الذاتي لمسلك الإجازة في الدراسات الإسلامية، جاءت مناسبتة استجابة لمراسلة الوزارة الواردة من الجامعة بتاريخ 12 فبراير 2007 م تحت رقم 2346، حررته بصفتي منسقا لمسلك الدراسات الإسلامية الذي انتهى اعتماده في يوليوز 2007 م.

هذا النوع من العمل بقدر ما كان ناجحا وتترتب عليه مردودية كبيرة بقدر ما كان هو الآخر يطرح صعوبات من أشدها الاستهلاك الكلي لوقت الأستاذ الباحث.

- عمل داخل الشعبة، وهو عمل دؤوب ومتواصل، أخذ جهدا ووقتا، كان المراد التنسيق مع مسؤولي وحدات المسلك، ومع الأساتذة المتدخلين في التأطير.

وقد مكنت هذه الأعمال الثلاثة من تحقيق ثلاثة أغراض:

1. الغرض الأول: استكمال تثبيت هياكل المسلك «منسق المسلك، المسؤولين عن الوحدات، تعيين أساتذة التأطير المنتمين والعرضيين، اللجنة العلمية داخل الشعبة ودورها في المتابعة، وضع المجزوءات داخل الوحدات، والوحدات داخل الفصول... الخ».

1- الغرض الثاني: تخرج أول فوج للإجازة الجديدة في الدراسات الإسلامية والثاني في الطريق.

2- الغرض الثالث: مراجعة المنظومة المعرفية لمجزوءات الوحدات وفق ما يتلاءم مع الأهداف التي جاء بها الإصلاح، نقصد بذلك ملاءمة ومسيرة متطلبات المحيط.

- المبحث الأول: المسلك من حيث الولوج والتجانس

المطلب الأول: ولوج المسلك:

لم نحدد في شروط الالتحاق بمسلك الدراسات الإسلامية إلا شرطاً واحداً هو حصول الطالب على شهادة البكالوريا حسب الشروط التي تحددها الجامعة. وحددنا في المسلك الأعداد المرتقبة ما بين مائتين وثلاثمائة طالب، فشرط الشهادة قد تحقق، فلا يلتحق بالمسلك إلا من هو حاصل على شهادة البكالوريا، لكن شرط العدد لم تتم مراعاته، إذ تجاوز العدد ما تم تحديده ولا سيما في السنوات الأولى لانطلاق الإصلاح.

المطلب الثاني: التجانس العام للمسلك:

روعي عنصر التجانس العام للمسلك بشكل كبير، والذي ضمن تحقيق هذا التجانس الواقع في فصول المسلك، والحاصل بين مجزئات كل وحدة، بحيث لو وقع الخلل بين هذه الأخيرة والوحدات فإن ذلك سينعكس سلباً على الفصل برمته، هذا من جهة. ومن جهة ثانية كان من آثار هذا التجانس أنه مكن من ربط الجسور بين مسلك الدراسات الإسلامية والمسالك الأخرى التابعة للكلية، كما أنه مكن من ربط الجسور - وإن كان هذا محدوداً جداً - بين الكلية وبعض المؤسسات ذات الشراكة الخاصة مع مسلك الدراسات الإسلامية.

الفرع الأول - الوحدات الأساسية:

- روعي في الوحدات الأساسية للفصول 1-2-3-4-5-6 المواد الأساسية التي تقوم عليها الدراسة في الدراسات الإسلامية.

- الارتباط بين الفصول الستة يأتي من جهة المحافظة على بعض المواد للتعلم ولذا حافظت بعض الوحدات على تواجدتها في بعض الفصول مثل: وحدة القرآن والحديث «M2» في الفصل الأول، ووحدة القرآن والحديث «M11» في الفصل الثالث، ووحدة التفسير والقراءات القرآنية «M18» في الفصل الخامس.

- المحافظة على الارتباط بين الفصول باستحداث وحدات متفرعة للتعلم مثل وحدة السنة وعلومها «M19» في الفصل الخامس مرتبطة بوحدة القرآن والحديث في الفصل الأول والثالث.

ووحدة الأصول والمقاصد«M22» في الفصل السادس مرتبطة بوحدة الفقه والموازيث «M6» في الفصل الثاني، وبوحدة أصول الفقه والمنطق «M10» في الفصل الثالث.

وحدة المذاهب الفكرية وتاريخ الأديان«M20» في الفصل الخامس مرتبطة بوحدة الفكر والمذاهب«M8» الفصل الثاني، وبوحدة الاستشراق والمناظرات «M12» في الفصل الثالث، وبوحدة حوار الحضارات «M15» من الفصل الرابع ووحدة الفقه والسياسة الشرعية «M23» من الفصل السادس مرتبطة بوحدة الفقه والموازيث «M6» في الفصل الثاني وبوحدة علم التوثيق والعقود «M16» في الفصل الرابع.

الفرع الثاني: الوحدات التكميلية

الوحدات التكميلية في الدورة الخريفية كانت متجانسة مثل: «M20. M12. M4»، ووحدات الدورة الربيعية روعي عنصر التجانس أيضا مثل:

«M16. M8»، لأنها كلها مواد تبنى على الانفتاح، وهو انفتاح روعي فيه ما يلي:

أ - الانفتاح على الوحدات الأساسية

ب - الانفتاح على المحيط الداخلي للكلية

ج - الانفتاح على المحيط الخارجي وسوق الشغل.

الفرع الثالث: أهداف التكوين

راعى المسلك الأهداف التي سطرها التكوين، وتخرج أول فوج، اتضح أن التكوين كان منفتحا على عالم الشغل، وأن الطالب المتخرج كان مؤهلا للتدريس والبحث.

الفرع الرابع: منافذ وانعكاس التكوين:

تمكن الطلبة المنتمون للمسلك من استكمال الدراسة للحصول على الإجازة في الدراسات الإسلامية، وتمكن المسلك من تخريج أول فوج مكون تكويننا أساسيا في الدراسات الإسلامية منفتحا على الحياة المهنية والأشغال العلمية، قادرا على الانخراط في الحياة المعاصرة وفق ما تنص عليه الفقرة 77 والفقرة 80 من الميثاق الوطني للتربية والتكوين.

الفرع الخامس: ربط الجسور:

ربط الجسور من متطلبات الإصلاح، وقد سعينا في المسلك إلى المحافظة على هذا العنصر إيماناً منا أن نجاح أي مسلك رهين بالجسور التي يربطها مع سائر المسالك داخل الكلية، وقد ربط المسلك عدة جسور، منها:

- ربط الجسور مع مسلك الدراسات الفرنسية في «M1، M5، M17»
- ربط الجسور مع مسلك الدراسات الانجليزية في «M9، M13»
- ربط الجسور مع مسلك الدراسات العربية في «M1، M3» بكاملها «M21»
- ربط الجسور مع مسلك الدراسات الجغرافية انظر «M4، M21»
- ربط الجسور مع مسلك التاريخ والحضارة انظر «M4، M14، M15»
- ربط الجسور مع قسم المعلومات التابع للكلية والذي يشرف عليه أستاذ من شعبة الجغرافيا انظر «M17».

ومع ذلك فمزال المسلك يتطلع إلى ربط الجسور مع مسلك الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، ومع مسالك أخرى خارج كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

المطلب الثالث: تجانس الفصول وترابطها:

ترابط الوحدات مع بعضها هو أساس ترابط الفصول وتجانسها، فالفصل يتجانس مع بعضه بقوة الارتباط الحاصلة بداخله.

لقد روعي في تجانس الفصول الستة عنصر التدرج في أخذ المعرفة، بحسب قدرة الطالب ومستواه، وبحسب أهمية المادة وضرورتها، فمراعاة الأوليات هنا هي من أولويات وضع الفصول، ولذلك كانت مضامين الفصل الأول ترتبط بالثاني، ومضامين الفصل الثاني ترتبط بالثالث، والثالث مرتبط بالرابع... الخ، وهذا الارتباط انعكس على فصول الدورتين، ففصول الدورة الخريفية- وهي الفصل الأول والثالث والخامس- مرتبطة ببعضها، وكذلك فصول الدورة الربيعية- الفصل الثاني والرابع والسادس -.

وطبيعة هذا الارتباط تستحضر في «الانتقال»، انتقال الطالب من فصل إلى الذي يليه، بحيث يراعى فيه اكتساب معارف لازمة تؤهله لولوج الفصل الموالي، وهذا كله قد أعطى ثماره فيما يخص التدرج في أخذ المعارف اللازمة.

المطلب الرابع: تجانس الوحدة:

نعني ب«تجانس الوحدة» تجانس الوحدة في مكوناتها، فالوحدة تتكون من مجزوءات، ولخلق هذا التجانس اقتضى أن لا تنزل كل وحدة من الوحدات الأساسية على ثلاثة مجزوءات، فهي إما «وحدات رباعية»، أو «وحدات ثلاثية»، فالرباعية مثل: «M11 , M2»، والثلاثية مثل: «M20 , M19 M18 , M15 , M14 , M10 , M7 , M6 , M3...»

بماذا تحقق تجانس الوحدات؟.

تحقق تجانس الوحدات بما يلي:

- 1 - مراعاة نوعية المواد التي تكونها، فالمواد يجب أن تكون متجانسة، لأنه بتجانسها يحصل التجانس في الوحدة كلها.
- 2 - الترابط بين عناصرها، فكل مادة لها صلة بأختها، وهذا- بحمد الله - محقق في طبيعة مواد الدراسات الإسلامية.

المطلب الخامس: انعكاس الوحدات الجديدة...

نعني ب «الوحدات الجديدة» الوحدات التي تم إدخالها في النظام البيداغوجي مثل: وحدات اللغات والتواصل، والوحدات التكميلية، ووحدة المشروع المؤطر، وتشكل هذه الوحدات رافدا مهما من روافد المعرفة نعرض لكل نوع على حدة:

الفرع الأول: وحدات اللغات والتواصل:

وهي المدرجة في فصول المسلك باسم وحدة أدواتية «M1»، «M5»، «M9»، «M13»، «M17».

لقد ساهمت هذه الوحدات ولا تزال في تطوير قدرات الطالب اللغوية والتواصلية، لكن هذه المساهمة محدودة جدا لأسباب أربعة:

الأول: قلة الأساتذة المتدخلين في التأطير لعموم الشكوى بالقلة في عدد الأساتذة.

الثاني: قلة الإمكانيات المادية من قاعات ووسائل التدريس.

الثالث: اكتظاظ القاعات والمدرجات بالطلبة مما يجعل إمكانية ضبط الطالب ومحاولة تكوينه وفق الأهداف المسطرة صعبة وعسيرة.

الرابع: حصة المعلومات ضعيفة جدا لكون القسم المتواجد في الكلية لا يتوفر على بنية قوية للنهوض بتلقين المعلومات لكل طلبة الكلية، فنصيب مسلك الدراسات الإسلامية هو حصة واحدة في «M17»، والتي تسمى بـ«المعلومات التطبيقية». لا تتجاوز ساعتين في الأسبوع، وهي غير كافية على كل حال وتُقدم في ظروف صعبة. ومع ذلك، فأهمية هذه المادة لا تخفى، والطلبة يعولون على قدراتهم الخاصة في تحصيل المعلومات بتوجيه من الأستاذ، وقد ساهمت هذه المحاولات في تطوير قدراتهم التواصلية واستعمال المعدات الحديثة.

الفرع الثاني: الوحدات التكميلية¹

وهي الوحدات المنصوص عليها في فصول المسلك برمز: «M8» «M4»، «M12»، «M16»، «M22»، وقد سعت هذه الوحدات إلى تحقيق الأهداف المتوخاة منها، هذه الأهداف هي:

- تكوين الطالب على المستوى النظري في مجال مناهج البحث وطرقه.
- تكوينه على المستوى التطبيقي في مجال انجاز البحث وتقويمه.

الفرع الثالث: المشروع المؤطر:

نعني بها الوحدة «M24»، وهي آخر وحدة في الفصل السادس، وهي وحدة توازي عنصر البحث في النظام القديم، بحيث يقوم المشروع المؤطر على انجاز بحث أو تقرير يظهر فيه الطالب كفاءته المنهجية، ويوظف فيه قدراته المعرفية، ويستخدم فيه خلاصة ما استفاده من فصول المسلك علما ومنهجيا، ويكون تحت إشراف أستاذ موجه ومؤطر. لقد كُيفت هذه الوحدة حسب الأهداف والوسائل التي سطرها الإصلاح، وللنهوض بها، ولضمان نجاحها وُكلت إلى أستاذ متخصص هو المشرف عليها بوضع الاستمارات الخاصة لهذا الغرض، وتوزيع عدد الطلبة بالتساوي على جميع الأساتذة، ومن بحث العملية من أولها إلى نهايتها فيسهل على تنظيم المناقشات وإدخال النقط والحضور إلى المداورات. ومن مميزات هذه الوحدة أنها جعلت جميع الأساتذة ينخرطون فيها فعدد طلبة الفصل السادس يوزعون بالتساوي على أساتذة الشعبة، ويقل عدد الطلبة وينقص بالنسبة لكل أستاذ بحسب العدد.

¹ - تم الكلام عليها في النقطة الثانية: «التجانس العام للمسلك» فلتراجع هناك.

أما سير المشروع المؤطر وطريقة تنظيمه فيمكن قراءتها في توصيات اللجنة البيداغوجية وفي اجتماع مجلس الكلية حيث تم التنصيص على إحدى عشرة توصية، وهي كما يلي:

- 1- أن يرتبط موضوع المشروع المؤطر بالمواد التي تدرس بمسلك الدراسات الإسلامية.
- 2- أن ينضبط بضوابط البحث العلمي.
- 3- ألا يشترك طالبان أو أكثر في عمل واحد.
- 4- ألا يسمح للطالب بتغيير الإشراف إلا بإذن مكتوب من الأستاذ المشرف وبإشراف من رئيس الوحدة.
- 5- أن ينجز المشروع المؤطر في شكل بحث نظري، أو دراسة كتاب، أو بحث ميداني، أو تقرير، أو فهرست، أو توثيق، أو تحقيق، أو بيبولوجرافيا...
- 6- ألا يقل عدد صفحات المشروع عن 15 صفحة وألا يزيد عن 30 صفحة.
- 7- أن يقدم المشروع في ثلاث نسخ مرقونة تسلم إلى كتابة الشعبة في أجل أقصاه 30 ماي من كل سنة.
- 8- أن يناقش المشروع قبل إجراء الامتحانات الاستدراكية للفصل السادس.
- 9- أن تتم مناقشة المشروع بعضوية أستاذ مؤطر وأستاذ مناقش.
- 10- أن ينقط المشروع على عشرين.
- 11- أن يحافظ الطالب في حالة عدم استيفائه للفصل على النقطة المحصل عليها في المشروع شريطة ألا تقل عن 10 على 20، وهي وحدة غير قابلة للاستدراك.

- المبحث الثاني: التأطير والتدريس

المطلب الأول: التأطير البيداغوجي:

يعرف التأطير البيداغوجي مشاكل متعددة منها:

- عدد الأساتذة المتدخلين في التأطير غير كاف، والمطلوب هو زيادة في عدد الأساتذة فالعدد الحالي هو 17 أستاذ غير كاف بالمرّة أمام وفرة المجزئات وكثرة الطلبة وقلة القاعات والمدرجات، فالمطلوب هو مضاعفة العدد الحالي 17×2، فالأستاذ يدرس حالياً بين أربع مواد إلى ستة ناهيك عن المهام والمسؤوليات.

- التعليم في مجموعات كبيرة يعوق عملية التعلم، والمطلوب هو التعليم في مجموعات صغيرة محدودة، يمكن ضبطها على جميع المستويات.
- يعاني المسلك من نقص في أساتذة اللغات والتواصل مثل اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية واللغة العربية والمعلومات...

المطلب الثاني: وسائل التدريس

الوسائل الموجودة حاليا، والطاغية في التدريس هي الوسائل المستصحبة من النظام القديم وبعض الأساتذة يراها ملائمة لمسيرة الاكتظاظ الحاصل، وقلة الإمكانيات المادية، لكن بعض الأساتذة يستعينون بالمعلومات الحديثة في دروس التوجيه والتطبيقات مثل الكمبيوتر والأجهزة العاكسة والأنترنت...
إن أسلوب المحاضرة الشفوية، وتوجيه الطلبة إلى كراسات ومذكرات وكتب يكاد يكون هو الأسلوب الطاغية على العملية التعليمية والتلقينية.

المطلب الثالث: تقييم المعارف

تقييم المعارف هي ثمرة العمل في المسلك، فمدار كل ما تقدم ينبني على المراقبة لقطف ثمرة جهد الطالب هل هو مستوعب، أم غير مستوعب؟ هل هو مسير أم غير مسير؟ ولذلك سميت ب«المراقبة المستمرة»، فاستمرارها هو لأجل مواكبة جهد الطالب، وتتلخص عملية التقييم في وضع نقطة يجب أن تعكس حقيقة جهد الطالب.
شكل هذه المراقبة يقوم على تقويمين: تقويم شفاهي مباشر، وميزة هذا التقويم أنه يضبط الطالب ضبطا كاملا، من جهة التأكد من حضوره، واختبار كفاءته، وفي هذا النوع من المراقبة تنعدم حالات الغش.
تقويم كتابي تتخلله ظاهرة الغش، ولذلك يفترض فيه الحراسة الدقيقة مما يجعل الأساتذة يتجندون للحراسة مع بعضهم، غير أن انطلاق عملية التقويمات في فترة متزامنة أو متقاربة في الزمن تجعل الأساتذة منشغلين عن بعضهم مما يفقد هذه العملية نجاحها الكامل.
أما عدد المراقبات المستمرة فلا تنزل عن مراقبتين في كل مجزوءة.
أما الغلاف الزمني المخصص لتقييم المعارف فيختلف بحسب نوع التقييم، فالشفاهي يأخذ وقتا أطول قد يستغرق يوما أو يومين، بخلاف التقويم الكتابي فلا يتجاوز نصف يوم إذا أخذنا بعين الاعتبار اختبار كل فوج على حدة.

المطلب الرابع: نسبة الإنجاز

نحدد هنا نسبة الإنجاز بشكل تقريبي من حيث المضامين والغلاف الزمني وطرق التدريس.

الفرع الأول: من حيث المضامين

يسهر أستاذ المادة على أن لا يقوم بمراقبة من المراقبات حتى يحصل الطالب على قدر مهم من المضامين العلمية داخل المادة التي يدرسها، ويكشف الأستاذ على برنامج مضمونه العلمي بتقديم موضوعات مادته للطلبة حتى يتسنى لهم أن يتابعوا معه، وتتراوح نسبة الانجاز ما بين 90% و100%.

الفرع الثاني: من حيث الغلاف الزمني

عدد الساعات في كل مادة يتراوح ما بين 30 و45 ساعة، يسهر الأستاذ على استيفاء هذه الساعات، وهي ساعات داخلة في استعمال زمنه بمعدل ساعتين لكل مادة في الأسبوع، تدخل فيها ساعات المراقبة المستمرة، وتتعاون الشعبة وإدارة الكلية على متابعة سير إنجاز ساعات كل مادة مما يضمن في الأخير تحقيق نسبة جيدة للغلاف الزمني للوحدة، مما ينعكس إيجابا على الفصل برمته، وهذا يجعلنا نقر بأن النسبة تتجاوز 95%.

الفرع الثالث: نسبة طرق التدريس

تعرف هذه النسبة انخفاضاً كبيراً في مجال تطبيق ما كان يجب أن يكون لأسباب منها:

- استحالة مراقبة حضور جميع الطلبة لعدم التمكن من التعليم في مجموعات صغيرة.
- استحالة ضبط الكثرة لأن الحجرات والمدرجات تكتظ بالطلبة.

لهذه الأسباب نرى أن الأشغال التطبيقية والموجهة لم تأخذ حظها الكافي بسبب هذه الإكراهات المفترضة، ولا تكون ناجحة إلا في المشروع المؤطر حيث يتوزع الطلبة على مجموعات قليلة مما يضمن ضبطهم والعمل معهم في ظروف مريحة نسبياً.

الفصل الثاني:

مسلك الدراسات الإسلامية: واقع وآفاق



ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: المناسبة والوضعية

- المبحث الثاني: المشروع المؤطر، الواقع والطموح

- المبحث الأول: المناسبة والوضعية

المطلب الأول: في المناسبة¹.

لقد شرفتنى هذه اللجنة الموقرة التي سهرت على تنظيم هذا الملتقى الاحتفالي، والذي يتضمن في غايته ومقصده الاحتفاء بتخرج أول فوج من الإجازة الجديدة من مسلك الدراسات الإسلامية، وإنه ليسر شعبة الدراسات الإسلامية أن يقام هذا الملتقى لتري باكورة جهدها وثمره عملها عبر ثلاث سنوات امتدت في فصول ستة مرت بحلوها ومرها وسط تجربة جديدة، ومنهج جديد، وبأساليب تكتنفها الجدة.

وإني ألقى هذه الكلمة من موقع اهتمامي، بعضه تشريف وآخر تكليف، فأما التشريف فقد نبلي إخوتي في شعبة الدراسات الإسلامية حينما أسندوا إلي تسيير الشعبة منذ أكثر من ثلاث سنوات، كما أسندوا إلي الإشراف على مسلك الشعبة المسعى بـ "مسلك الدراسات الإسلامية".

وأما التكليف فينبع من موقع الانخراط في هذا المسلك بتدريس بعض المواد العلمية فيه، بعضها أساسي وبعضها تكميلي، وأكاد أقول أنني غطيت جميع فصول المسلك في الدورتين الربيعية والخريفية خلال كل سنة تقريبا، فإذا كان الأساس علميا ومعرفيا فإنه تنسيقي لأنه يجعل مني حاضرا في كل فصل، وفي كل دورة تتبعها للمشاكل، ومواكبة سير الإصلاح، ولم تقف القضية عند مسلك شعبة الدراسات الإسلامية بل بادرنا إلى التواجد داخل مسالك أخرى تنتهي إلى كليتنا رغبة في تحقيق التواصل بين الشعبة وباقي الشعب، صحيح جدا أن هذا مرهق ومتعب لكن لأجل المحافظة على تواجد أساتذة من خارج الشعبة في مسلك الشعبة بادرنا إلى التواجد خارج الشعبة.

المطلب الثاني: وضعية المسلك.

لم يكن مسلك الدراسات الإسلامية مسلكا مغلقا في داخل شعبته، بل كما تلاحظون كان مسلكا منفتحا على كل الشعب، كما أنه لم يكن منفتحا على صعيد الكلية فحسب بل

¹ - مشاركة في الحفل الختامي الذي أقامه طلبة الفصل السادس بمناسبة تخرج أول فوج من شعبة الدراسات الإسلامية في الإصلاح الجامعي الجديد للموسم الجامعي 2006/2005، أقيم النشاط بتاريخ 2006/07/06 بمدرج 4 بالكلية.

استحدثنا لذلك لجنة تنسيق وطنية بين شعبة الدراسات الإسلامية كنت ولله الحمد واحدا من مؤسسيها وعضوا فيها حتى الآن. وقد استغرقت لقاءاتنا في الرباط عدة ملتقيات وخرجنا بعدة توصيات أستطيع أن أقول لكم أن المسلك الذي تخرجتم منه ستين بالمائة من المواد تم الاتفاق عليها وطنيا، وبقيت النسبة الأخرى خاضعة لتقلبات وضع الشعبة داخل جهتها، من جهة توفر الإمكانيات في تغطية جميع المواد.

كنا نُبدي دائما الوجه الإيجابي للقضية، ونقول إن الأمور تسير بخير وعلى أحسن ما يرام، فلم نكن نقبح الإصلاح ونذمه و«إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم» كما جاء في الحديث¹، بل كنا ننظر دائما إلى الوجه الإيجابي والنافع للإصلاح رغبة في التجاوز، والعيش على الأمل.

لقد استغرق إنجاز هذا المسلك أوقاتا لله أعلم بعددها، لقاءات مستمرة ودائمة، لقاءات داخل الشعبة مع الأساتذة في توزيع المواد ووضع استعمالات زمن الفصول، ولا أتكلم هنا عن الامتحانات وإدخال النقط والمداولات ولكنني أتكلم عن اللقاءات العامة داخل الشعبة، ثم لقاءات مع الإدارة بحيث لا يمر الأسبوع إلا ولرئيس الشعبة ومنسق المسلك لقاء إداريا، وأنتم تعلمون أن الكلية ابتليت بتغيير العمداء والمسؤولين، فكل عميد يأتي ليبدأ معك من جديد أو يتابع ما ترك السابق لكن بصيغة تشعر بالبداية، وقد عاصرت في تحمل المسؤولية خمسة من العمداء والمسؤولين، ثم لقاءات وطنية وأخرى مع الجامعة والوزارة...

ومن الصعوبات التي كنا نواجهها تعدد الاهتمام، وذلك أن النظام القديم كان يزاحم الجديد وعبر ثلاث سنوات كان النظام القديم ينقرض شيئا فشيئا فكانت نهاية النظام القديم بتخرج أول فوج من النظام الجديد وهو فوجكم هذا، ولأول مرة ستعطي الشعبة إجازتين: واحدة قديمة وأخرى جديدة ستتوج بمداولات المسلك، وتوقيع شواهد الإجازة التي ستتم حسب الإخبار الإداري بعد منتصف شهر يوليوز من السنة الجارية.

هذا الانقسام لا شك أنه أثر على نفسية الأستاذ، وعلى عمله، وعلى علمه وتكوينه وتركيزه.

¹ - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي من قول: هلك الناس، 2024/4 رقم الحديث 2123.

جاء الإصلاح الجامعي الجديد بسلبياته وإيجابياته، من سلبياته على المستوى العام أنه أجبر جميع الشعب المتواجدة في الكليات والتابعة للجامعات المغربية أن تنخرط فيه وإلا توقفت، ومن إيجابياته أنه بني على نظام الفصول والوحدات، وأتاح للنظام التعليمي والتربوي مرونة كبيرة في التلقين والتقويم.

المطلب الثالث: الانخراط في تحديث الجامعة

لقد انخرطت شعبة الدراسات الإسلامية في مسلسل الإصلاح منذ أن بدأ، وهي اليوم تواكبه بنجاح محدود، ذلك أن هذا النظام يتماشى مع طبيعة شعبة الدراسات الإسلامية من جميع الوجوه.

إن التعليم عن طريق الفصول والوحدات هو أجدر وسيلة للتلقين بالنسبة للشعبة، ويجب الوعي الكامل بأهمية هذا النظام وإدراك مغزاه على مستوى تداخل العلوم الشرعية والتكامل الذي يسود نظامها ثم على مستوى التفتح على المحيط، وعلى مستوى ربط الجسور وفتح الآفاق.

إنني لا أمدح هذا النظام بإطلاق ولكنني أمدحه من موقع ما يتيح للشعبة من فرص تلقينية وتقويمية، وما يقدم لها من مرونة كبيرة في تحريك العملية العلمية الشرعية وسط المحيط الجامعي.

تقوم السنة على فصلين: فصل خريفي يشكل النصف الأول من السنة الجامعية، وآخر ربيعي يشكل النصف الثاني منها، يبدأ الأول في شهر شتنبر وينتهي الثاني في أواخر يوليو، يقوم الفصل على نظام الوحدات، وتقوم الوحدة على مجزئات، عدد وحدات الفصل أربعة، وعدد مجزئات الوحدة من اثنين كحد أدنى إلى أربعة كحد أقصى، سميت الوحدة بالوحدة لأنها توحد بين مجزئات يسود بينها رابط معرفي، وتتوحد الوحدات فيما بينها لتعطي الفصل، وهذا من الناحية المنهجية يتجانس مع العلوم الإسلامية فهي كل يتضمن أجزاءا تلتحم فيما بينها بطريقة يصعب تناولها مفرقة ولذلك كان الإسلام كلا لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصل، أما من الناحية المعرفية فمهما تنوعت المعارف الإسلامية، وتعددت العلوم الشرعية فبعضها يكمل بعضها، فهي تتعاقب فيما بينها، وتتكامل كغرف القصر الواحد، كل غرفة تؤدي بك إلى أخرى.

من هنا تتأكد عملية ربط العلوم الإسلامية مع بعضها لأجل تجميعها نحو هدف واحد، ذلك الهدف الذي تعبر عنه وحدة معينة.

ميزة النظام القديم مع سلبياته أن المواد كانت موحدة في التسمية بمقتضى مرسوم 31 يناير 1983م المنظم للدراسات والامتحانات قصد الحصول على شهادة الإجازة في الآداب، والمبني على ظهير 25 فبراير 1975م المنظم للجامعات.

في هذا القانون جاءت التسميات موحدة وملزمة لكل شعب الدراسات الإسلامية ولكل الشعب، لكن لما جاء الإصلاح قدم صيغا جديدة للتعامل مع المواد، و كان من الممكن أن تتعدد الأوصاف والنوعت أو لنقل لولا المبادرة الشجاعة التي اتخذها رؤساء شعب الدراسات الإسلامية ومنسقي المسالك في استحداث لجنة تنسيق وطنية التي عقدت عدة اجتماعات لوضع مسلك الدراسات الإسلامية، فإذا كان مرسوم سنة 1983م هو الذي سعى مواد الشعبة فان لجنة التنسيق الوطنية مع أساتذة الشعبة هم الذين سموا الوحدات والمجزوءات.

مع كل هذه المعوقات وهي كثيرة مر الإصلاح، ومرت فصوله ووحداته، وها أنتم تكونون باكورة نتيجته، لكنها باكورة خرجت من بين فرث ودم، لقد أقبلنا على الإصلاح بوعود أننا سنستقبل الطلبة في أفواج قليلة، وفي مدرجات، وقاعات، وفي الزيادة في عدد الأساتذة، والعمل في ظروف مريحة جدا، وإذا بكل هذا يتبخر، ويذهب أدراج الرياح، ومع ذلك فقد بدأ العمل في ظروف غير مريحة.

ولا أطيل عليكم، فما وقع في ثلاث سنوات لا يمكن أن يحكى في يوم بله في دقائق، ومما شجعتني على ختم هذه الكلمة أنكم عشتم التجربة، فلکم أنتم تقويما وكلمة أرجو أن تفرغوه في هذا المطبوع التقويمي الذي سيوزع عليكم، كما لا يفوتني أن أنوه بسلوككم وصبركم وحسن متابعتكم، وحملكم للصورة المطلوبة منكم كطلبة لشعبة الدراسات الإسلامية، أسأل الله أن يوفقكم، ويسدد خطاكم، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه.

- المبحث الثاني: المشروع المؤطر، الواقع والطموح

انطلق الإصلاح الجامعي الجديد وانطلقت معه عملية المراجعة والتصحيح، وتمت هيكلية المسلك في فصوله الخريفية والربيعية، وفي وحداته الأساسية ووحدات التواصل والتفتح، وما تتضمنه من مجزوءات... واليوم يحظى المشروع المؤطر بهذه الوقفة التواصلية مع طلبة البحوث والتي تمت برمجتها من قبل لجنة التوجيه والتكوين تحت شعار: «كيف تنجز بحثا جامعيًا»¹، وذلك في إطار هذا المشروع.

نساهم في هذه الوقفة التقييمية والتأطيرية بهذه الورقة التي تتضمن المطالب الآتية:

المشروع المؤطر: التقديم والمرجعية، المشروع المؤطر: الحقيقة والخصوصية، المشروع المؤطر: الجسور والتفتح، المشروع المؤطر: السلبيات والايجابيات، المشروع المؤطر: مرحلة الاختيار والانجاز والتقييم ثم خلاصة نهائية.

المطلب الأول: المشروع المؤطر، التقديم والمرجعية.

الفرع الأول: في التقديم

يدخل المشروع المؤطر في مجال البحث العلمي الذي ترعاه الجامعة المغربية، والبحث العلمي في أصل معناه هو اكتشاف الجديد في مجال المعرفة يقدمه الباحث لساحة المعرفة والثقافة²، غير أنه في هذا المشروع يأخذ بعدا آخر يتماشى مع طبيعة الباحث «الطالب»، وطبيعة المدة التي يستغرقها الإنجاز، وهي دورة واحدة تشغل نصف السنة أو أقل، لذلك يكون المشروع المؤطر هو محاولة للتدريب على البحث العلمي داخل مسلك معين ينتهي إليه الطالب، ويحظى المشروع المؤطر بهذا الاهتمام لأنه هو البحث الجامعي الوحيد الذي أنجز في ظل الإصلاح، فلا يوجد من البحوث الجامعية في ظل الإصلاح غير هذا المشروع الذي يطلق عليه «مشروع بحث نهاية الدراسة»، وقد مثل باكورة هذا المشروع الفوج المتخرج من مسلك الإجازة الجديدة في السنة المنصرمة، والثاني في طريق التخرج وهو المخاطب بهذه

¹ - تم ذلك يوم الأربعاء 14 مارس من سنة 2007م، الموافق ل 24 صفر 1428هـ، بمدرج 4.

² - انظر الميثاق الوطني للتربية والتكوين، التعليم العالي، البند 77، الفقرة 3، والقانون الإطار ص 01، المادة 3، الفصل الأول من الباب الأول.

الكلمة، ولذلك يشكل الفوج المتخرج برسم سنة 2005-2006 م سندا مرجعيا للتقويم، وهذا السند هو المحك الأساسي لنجاح أو فشل الإصلاح.

الفرع الثاني: المراجع القانونية للمشروع

يستند بحث مشروع نهاية السنة على مرجعيات قانونية:

أولها: الميثاق الوطني للتربية والتكوين الذي نص في المادة 80 على «تركيز هيكلية الدراسات على مسالك ووحدات»، ومشروع نهاية الدراسة هو وحدة من وحدات الفصل السادس، وهو يشكل الوحدة الأخيرة في مسلكنا المعتمد، وفي جامعات ومراكز علمية أخرى يفرغ له الفصل السادس برمته، وذلك لأهميته.

ثانها: القانون الإطار 01.00 المتعلق بتنظيم التعليم العالي، والذي يحدد في المادة «8» منه نظام التدريس بالمؤسسات الجامعية في مسالك وأسلak ومجزوات ويتوج بشهادة وطنية. ومن ضمنها من دون شك مشروع نهاية الدراسة الذي تتوقف عليه شهادة الإجازة.

ثالثها: المذكرات الإخبارية المتعلقة بأجراء الوحدات والمسالك المرسله من قبل مديرية التعليم العالي، والندوات الوطنية التي تقيمها وزارة التعليم العالي سابقا، والتي لها مردودية كبيرة في التوجيه والتحسين والتكوين.

رابعها: اللجنة البيداغوجية المنبثقة من مجلس الكلية، وهذه اللجنة سهرت على سير الإصلاح وتطبيقه، وواكبته بوضع توصيات وإصدار قرارات ملزمة، ومن جملة الأمور التي سهرت عليها هذه اللجنة مشروع نهاية الدراسة، وقد أصدرت بشأنه توصيات منظمة¹.

وخامسها: مجلس شعبة الدراسات الإسلامية الذي يسهر على تنفيذ وتطبيق ما تم الاتفاق عليه في اللجنة البيداغوجية الذي يعتبر منسق المسلك من أحد أعضائها، ورئيس الشعبة أحد أعضاء مجلس الكلية.

تلك إذن هي العناصر الأربعة التي تشكل السند القانوني والمرجعي للمشروع المؤطر بصفة خاصة وللمسلك بصفة عامة.

¹ - انظر الورقة المعدة لهذا الغرض الصادرة عن اللجنة البيداغوجية بالكلية، والتي عرضت على مجلس الشعبة المنعقد بتاريخ 29 دجنبر 2005م - كلية الآداب بمراكش.

المطلب الثاني: المشروع المؤطر: الحقيقة والخصوصية.

الفرع الأول- الحقيقة:

ليست حقيقة الشيء هي وجوده، ولكن حقيقة الشيء هي التي يدل عليها هذا الوجود، إن المشروع المؤطر أصبح اليوم حقيقة موجودة انخرطت فيه عينات معينة من الطلبة، أولئك الذين يتوفرون على مؤهلات تسمح لهم بالتدريب فيه، وبالتالي إنجازه، وقد دل وجوده على صفتين: الأولى أنه «مشروع»، والثانية أنه «مؤطر».

1 - مشروع: لأنه يخص الطالب بالأساس، فهو ينعكس إيجاباً على مشاريعه العلمية المستقبلية، إذ من المفروض أن يكتسب الطالب مهارات بحثية تمكنه من أن ينجز أبحاثاً بمفرده في المستقبل، وشهادة الإجازة التي يحصل عليها ما هي إلا تذكرة سفر طويل تصاحبه في المعاهد والمدارس والمؤسسات ذات الصلة بالبحث العلمي.

2 - مؤطر: على وزن مفعّل، ويعني أنه يُؤطر من قبل أستاذ موجه، فالمؤطر هو الأستاذ المشرف الذي يرعى هذا العمل من بدايته إلى نهايته حيث يتوج البحث بنقطة معيارية يجب أن تعكس جهد هذا الطالب، تُضاف تلك النقطة إلى سائر نقط الوحدات، ولا استدرارك فيها.

بقدر ما يجب على الطالب أن يحسن اختيار الموضوع بقدر ما عليه أن يحسن اختيار المشرف.

الفرع الثاني: الخصوصية

إن البحث الناجح والمثمر هو الذي يجمع له طالب حريص، ومشرف متمكن، وموضوع جيد، إذا كان واحد من هذا الثلاثي فيه خلل انعكس الخلل على العمل برمته، والبحث المثمر هو البحث الذي يستفيد منه الطالب وغير الطالب:

1 - الطالب: هو المعنى الأول بالاستفادة، فهو أول من يقطف ثمار بحثه، وإذا لم يستفد من بحثه فلا أحد يستفيد منه، والاستفادة هنا تحصل بالتدرج، إذ من المفروض أن يكون الطالب قد اكتسب فوائد، وجنى ثمرات من وحدات فصول المسلك، وما وضعت هذه الفصول والوحدات إلا لأجل تكوينه وإعداده إعداداً سليماً، وإعداداً يجعله مؤهلاً لأن يخوض غمار البحث العلمي.

2- غير الطالب: هو المعني الثاني بالاستفادة، ومعناه أن يكون هذا البحث مفيدا لكل من اطلع عليه، سواء في هذا الوقت أو في وقت آخر، أو في هذه الكلية أو في كلية أخرى، ومن المفروض أن يكون المستفيد الثاني من بحث الطالب أستاذه، لأنه هو الذي اعتنى بالبحث ووجهه.

ومن خصوصية المشروع المؤطر أن الغلاف الزمني المخصص لوحده محدود جدا، إذ تشغل حوالي 90 ساعة خصصت منها 30 ساعة للبحث والتوجيه، و60 ساعة للإنجاز، وقد تقلص ساعات الإنجاز لتُضاف إلى ساعات التوجيه، وقد تقلص ساعات التوجيه لتُضاف إلى ساعات الإنجاز، وقد تزيد الساعات على العدد الإجمالي المحدد بحسب طبيعة المشروع، وعلى كل حال فالوقت محدود جدا، وهذا التحديد يؤثر على سير العمل وعلى طبيعته بحيث يصبح من اللازم الاهتمام بالكيف أكثر من الكم، والاعتناء بالمنهج ومسالك البحث أكثر من المعرفة المرتبطة به، فالجهد قد يتحول إلى جهد تقني صرف.

ومن خصوصية المشروع أيضا أن يُوجَّه الطالب إلى لغة المعالجة، وإلى أسلوب المعالجة، اختيار اللغة التي تليق للموضوع، والأسلوب الذي يصلح للمعالج حسب طبيعة الموضوع، هل هو فكري أو فقهي أو أصولي أو تفسيري أو حديثي أو فلسفي أو يجمع بين حقلين أو أكثر.

ومن خصوصية المشروع أنه لا يخرج عن طبيعة وحدات المسلك الذي ينتهي إليه، بحيث يكون التوجيه:

- إما إلى فهرسة كتاب أو كتب: فهرسة الأعلام، أو الأمكنة، أو المصطلحات، أو المصادر، أو القواعد، أو الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية...

- وإما فهرسة موضوعات كتب معينة، والفهرسة هي أسلوب علمي ناجح يسهل أخذ المعرفة وييسر الرجوع إلى المادة العلمية في داخل الكتاب.

- وإما يوجه إلى تخريج الآثار من كتب علمية معينة.

- وإما يوجه إلى دراسة كتاب معين، يرتبط به وبأسلوبه، وبالمنهج السائد فيه، فتكون مصاحبه لمصدر من المصادر العلمية الأصيلة مصاحبة علمية، يتدرب من خلالها على كيفية مصاحبة كتب أخرى.

- وإما إقامة أعمال علمية تطبيقية في كتاب معين، كالمقارنة بين فصوله وأبوابه، أو دراسة مقارنة لكتب علم من الأعلام، أو مقارنة بين كتابين لعلمين مختلفين متعاصرين، أو غير متعاصرين.
- وإما تحقيق مخطوط معين، يتدرب فيه على كيفية إخراج النصوص الأصلية للوجود.
- وإما يعتمد منهجية معينة مثل التدريب على النقد والمراجعة، أو تطبيق منهجية الدراسة المصطلحية...
- وقد يكلف بإقامة تدريب في خزانة من الخزانات، أو معهد من المعاهد، أو مؤسسة من المؤسسات ذات الشراكة مع شعبة الدراسات الإسلامية مثل المجلس العلمي المحلي، أو نظارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أو خزانة الكلية، أو الخزانة البلدية، أو خزانة وزارة الثقافة، أو بإحدى المحاكم الشرعية... الخ.

المطلب الثالث: المشروع المؤطر، التفتح وربط الجسور.

المشروع المؤطر هو تقليد جامعي متداول في الجامعات العالمية، كان الغرض منه بلورة تفكير منهجي وموضوعي يعالج القضايا المهمة للمجتمع يستنير به الفاعلون الإداريون والسياسيون والاقتصاديون والدعاة والوعاظ... الخ، وذلك لأجل صياغة مشاريع ناضجة، حية، نافعة وقابلة للتنفيذ.

الفرع الأول - ربط الجامعة بالمحيط وانعكاس ذلك على المشروع المؤطر.

جاء الإصلاح بفكرة ربط الجامعة بالمحيط، وهو مطلب إصلاحي ما زال يثير الجدل والكلام من جهة أن البعض لم يتمثله جيدا، فاعتقد بأنه اقتباس صرف من الغرب، لم يراعي خصوصية البيئة، ومنهم من طلب من هذا الربط أكثر مما يراد منه بتأويلات بعيدة المدى، وحمل على إثره الجامعة مسؤولية البطالة وعدم التشغيل، ومنهم من تفاعل خيرا، وينتظر نتائج بعضها تحقق وبعضها في الطريق، لكن هناك أسئلة محرجة وملحة، فأي نجاح حققته الجامعة في هذا المجال؟

الجواب يجب أن ينحصر في دور كل كلية من كليات الجامعة ومدارسها ومعاهدها التابعة لها، هل وجد المجتمع ضالته في الجامعة؟ هل تجاوب المجتمع مع كلية الآداب؟ هل

حققت الكلية مطالبه؟ إذا حققت فما نسبة هذا التحقيق؟ هل مائة بالمائة أو نسبة أقل بالمائة؟ وهل عنصر التجاوب لائق هنا؟ من يجب أن يتجاوب مع من؟ هل الكلية تتجاوب مع المجتمع أم المجتمع هو الذي يجب أن يتجاوب مع الكلية؟ أم أن التجاوب عنصر تجاذب بينهما؟ لكن من يذهب للآخر: هل الكلية هي التي تذهب إلى المجتمع أم العكس؟...أعتقد أنه أمامنا العشرات من الأسئلة إذا توفقنا في الإجابة عليها حل الإشكال تماما، وهذه المرة ليس المجتمع هو المرشح للإجابة على مثل هذه التساؤلات بل الجامعة بالأساس، ولذلك أقمنا اليوم هذا الحوار المفتوح والساخن لنجيب على هذه الأسئلة، وقد بدأناه بالكلام عن مشروع نهاية الدراسة.

واسمحوا لي أن أضيف شيئا أن من مستلزمات التدقيق في الجواب تحديد دور مكونات الجامعة، وهذا يستلزم بالتبع دور الشعب المتواجدة بكلية الآداب، والتي ننتمي إلى شعبة واحدة من شعبها، وهي شعبة «الدراسات الإسلامية»، وبخصوص هذه الشعبة فإن المعطيات العلمية تثبت أن الشعبة هي الأكثر انفتاحا على المجتمع، لأنها تتولى معرفيا ومنهجيا وعلميا الاهتمام بهوية ودين هذا المجتمع، ولذلك لم يتوان المجتمع يوما واحدا في أن يدفع إليها المئات من أبنائه ليتعلموا ويتخرجوا بشهادات علمية ليقوموا بخدمة هذا المجتمع، وليست لدينا إحصاءات دقيقة عن نوعية هذه الأشغال التي يزاولونها والمهام التي يقدمونها للمجتمع لكن بلا ريب أنها كثيرة جدا، فيها ما هو رسمي، وما هو حر.

إن الأمور التي تجب مراعاتها في مشروع نهاية الدراسة هذا وفي غيره من الأبحاث العلمية الأكاديمية ثلاثة حاجات:

- الأولى حاجة المجتمع، كأن يكون المجتمع في حاجة إلى معالجة ظاهرة من المظاهر السلبية أو الإيجابية لتعود بالنفع عليه، وظواهره كثيرة ومعقدة، فيجب للبحث العلمي الأكاديمي أن يستجيب، وإذا استجاب حقق مزايا نافعة، بعضها يعود على المجتمع، وبعضها يعود على البحث العلمي من جهة التزامه وواقعيته، وصلاحيته، ونفعه... وهذه جميعا هي أساس حياة كل بحث علمي.

- الثانية: حاجة البحث العلمي نفسه من زاوية أخرى، وهي زاوية حاجته إلى قواعد وضوابط وطرق ومناهج، وهذه جميعها تسهم في تطوير البحث العلمي من داخله ليكون قادرا على التغلب على صعاب الخارج، وقد رأينا كثيرا من دعاة الأحكام غير المنصفة

يحكمون على مثل هذا النوع من البحث بأنه أكاديمي صرف، لا يفيد المجتمع في شيء في إشارة إلى التنقيص منه، وإلى النيل من الجهود المبذولة فيه، فإذا لم ينهض البحث العلمي بنفسه كيف يكون قادرا على إنقاذ غيره؟!

- الثالثة: هي حاجة الإسلام نفسه، فللإسلام حاجات يريد لها للناس كلهم تجب مراعاتها، وهذه الحاجات مُقدمة، وهي على كل حال لا تتعارض مع الحاجتين السابقتين، وإنما أفردناها هنا للتمييز كما ميز المقاصديون والأصوليون بين حاجات الله وحاجات العباد، وحقوق الله وحقوق العباد...

الفرع الثاني - جسور المشروع المؤطر:

يشكل مشروع نهاية الدراسة حلقة وصل بين مجالين: مجال مسلك الدراسات الإسلامية الذي يعتبر هو نهايته، ولذلك سمي ب «مشروع نهاية الدراسة»، ومجال المحيط الخارجي الذي سيخرج إليه الطالب بشهادة جامعية.

فبخصوص الصلة بالمحيط فقد أقر الميثاق هذا العنصر، ودعا إليه، وحث عليه مما يضمن انفتاح الجامعة على المحيط، وقد تمت الإشارة إليه في العنصر السابق.

وبخصوص الصلة بالمسلك فهي تتمثل في الجسور التي ربطت بوحدات المسلك، والواقع وإن كنا حددنا بعض الوحدات التي لها صلة بوحدة المشروع المؤطر «M24» من جهة اكتساب المعارف السابقة فإن المشروع في الحقيقة له صلة جسور بكل وحدات المسلك من دون استثناء، ذلك أن وحدات المسلك برمتها هي مجالات تربي الطالب لولوج عالم البحث لأن هذه الوحدات - على تعددها وتنوعها - تقدم ما يلي:

أ - مصادر العلوم، ليتعرف عليها الطالب، مثل مصادر التفسير، ومصادر السنة والحديث، ومصادر الفقه والأصول، ومصادر في القراءات واللغة والفكر والفلسفة...

ب - تقدم أمامه مصادر الإسلام الأصلية مثل القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وكذلك السيرة النبوية المشرفة.

ج - تقدم أمامه بنية العلوم وتاريخها، ونعني بذلك العلوم التي تنتسب إلى الإسلام أصلاً أو فرعاً.

د - تقدم أمامه صناعة العلوم ومناهجها، وأساليبها وقواعدها، ولكل علم منهج تجب معرفته وتدوقه والانخراط فيه، والعلم به والعمل على تطبيقه، كما تجب صياغته واحترامه، ألا وإن لكل علم مسلك وطريقة، ألا وإن لعلوم الإسلام مناهجها، ألا وإن في الإسلام منهجا إذا صلح صلح العلم كله وإذا فسد فسد العلم كله.

هـ - تقدم أمامه طرق البحث العلمي وأدواته مثل:

- طرق ضبط الآيات من المصحف الشريف بمختلف القراءات المعتمدة، إما من الحفظ إن كان الطالب من حفظة كتاب الله، أو من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

- طرق تخريج الحديث النبوي الشريف من مظانه.

- الوقوف على صحة السند وسلامة الحديث لأجل اعتماد الصحيح والحسن وترك الضعيف والموضوع.

- طرق تحقيق المخطوطات التي لها صلة بالثقافة الإسلامية، ومسالك التحقيق.

- طرق فهرسة الكتب وأنواعها.

- طرق التعامل مع المكتبة والكتب، وكيفية تناولها.

- إقامة تداريب على ترجمة نصوص إسلامية من اللغات الحية إلى العربية، ومن اللغة العربية إلى اللغات الحية.

المطلب الرابع - المشروع المؤطر: سلبيات وإيجابيات.

لكل شيء سلبيات وإيجابيات، ولا يكون الحكم بالسلب مطلقا إلا إذا ربت السلبيات على الإيجابيات، كما لا يكون الحكم بالإيجاب مطلقا إلا إذا ربت الإيجابيات على السلبيات، فالحكم السليم والمنصف يتطلب القيام بموازنة بين السليبي والإيجابي فيما جاء به هذا الإصلاح سواء أكان مشروعا مؤطرا أم غيره، لكن كثيرا من الأحكام تتجاوز هذه المعايير لتطلق حكما ضارا ومجحفا.

إن الانخراط في الإصلاح ومواكبته يتطلب من المعاش والمساير أن يرصد السليبي ويقومه، ويرصد الإيجابي ويقومه، ثم يوازن بينهما في مقارنة تأخذ بعين الاعتبار الأهداف

التي من أجلها جاء الإصلاح، والظروف التي يمر منها، والإمكانيات والوسائل المعمول بها لأجل إنجازه.

الفرع الأول - الإيجابيات:

لا نريد أن نوسع الكلام عن إيجابيات الإصلاح بصفة عامة، ولا عن مسلك معين بصفة خاصة، ولكن نريد رصد الإيجابيات التي تحققت بفعل تطبيق المشروع المؤطر بصفة أخص، لأن هذا هو المقصود الآن.

فمن إيجابيات مشروع نهاية الدراسة ما يلي:

أ - إنه ورشة جماعية ينخرط فيها الأساتذة والطلبة وحتى الإدارة، الأساتذة بتوجيهاتهم، والطلبة بإنجازهم واستفادتهم، والإدارة بفتح أبواب مكاتبها ومنها مكتبة الكلية وأجهزتها التي يعول عليها كثيرا في إنجاز البحث.

ب - التحسيس بأن المعنى الأول بالبحث ليس الأستاذ بل الطالب بصفة خاصة، ولذلك على الطالب أن يولي هذا البحث نصيبا كبيرا من الاهتمام.

ج - يضمن مشروع نهاية الدراسة للطالب تحقيق عنصر التواصل فيما بينه وبين المجموعة التي ينتمي إليها، وفيما بينه وبين الأساتذة لأنه دائم السؤال والبحث، والتواصل مع مكتبة الكلية والمكتبات المتواجدة في المحيط، والتواصل فيما بينه وبين المجتمع...

د - يفسح له في المجال لربط جسور علمية ومعرفية مع مسالك الشعب الأخرى ومسالك كليات أخرى، وجسور مع المؤسسات الرسمية وغير الرسمية التي لها صلة بالثقافة الإسلامية والتوجيه الديني مثل نظارة الأوقاف والمجلس العلمي... الخ

هـ - يمكنه من الانخراط بفعالية في عالم البحث، فكل عمل أصبح - بفعل هذا المشروع - يعكس الجهد الحقيقي لصاحبه، ويستلزم ذلك الحضور والمتابعة...

و - يمكن الطالب من المبادرة والانخراط واتخاذ القرار المناسب بتشجيعه على التساؤل والاستفسار والنقد والمراجعة والمتابعة... الخ، فيكتسب الطالب بفعل ذلك جرأة علمية.

ز - يتيح المشروع المؤطر للطلبة مجالات هائلة منها اقتراح مشاريع علمية للبحث، فقد يكون للطالب مشروع علمي يشوش عليه وليست له القدرة على إنجازه، ولا الإمكانيات على النهوض به، فيقترحه على الأستاذ لينظر فيه.

وقد تكون له كفاءة علمية عالية في معرفة اللغات الحية، أو في الإعلاميات، أو لديه مخطوطات لها صلة بالتخصص... فكل هذه الكفاءات تُستثمر وتُرشد بطريقة سليمة في إطار المشروع المؤطر.

الفرع الثاني - السلبيات:

مثلما أحجمنا عن توسيع الكلام في إيجابيات الإصلاح بصفة عامة أو إيجابياته على مستوى مسلك معين بصفة خاصة فإننا سنحجم هنا عن الكلام عن السلبيات بصفة عامة، ولن نذكر سوى ما له علاقة بهذا العنصر.

فمن السلبيات ما يلي:

أ - تخوف كثير من الطلبة من أن هذا المشروع لا يعود عليهم بالنفع بالأساس بقدر ما يعود على الأستاذ الموجه، لأنه يوجههم ويرشدهم، ومثل هذا التخوف يكون عائقا بين الأستاذ والطالب، وبين الطالب والبحث، فيكون هو المتضرر الأول.

ب - تفشي ظاهرة الغياب في حصص التأطير، وهذا الغياب على نوعين، نوع مفترض، وهو لا يكون إلا عند فئة من الطلبة ولا سيما الموظفين منهم، أولئك الذين منعهم عملهم من المواكبة والحضور، ونوع مفتعل يفتعله الطلبة بأسباب ومبررات خارجة عن إطار البحث العلمي، وجلها أسباب واهية.

ج - الشروذ الذهني عند الطلبة، كثير من الطلبة هم معك وليسوا معك، أجسادهم في القاعة وعقولهم خارجها، ولهذا النوع من السلبيات أسباب كثيرة.

د - شيوع ظاهرة عدم الانتماء، فبعض الطلبة ينتمون إلى المسلك بأسمائهم وكنائهم، فهم حاضرون قالبا لا قلبا، ولهؤلاء أهداف رسموها قبل، وهي الحصول على الشهادة فقط من دون أي جهد أو انتماء.

هـ - شيوع ظاهرة الغش، الغش هو ظاهرة عامة في الامتحانات والفروض وانعكس على المشروع المؤطر سلبا، فنسبة معينة من الطلبة تحاول الغش بشتى الأساليب، أدناها أنه لا يقوم بواجب البحث كما يجب، فيخون نفسه ويخون غيره.

و - فقدان الأمل، وهو شعور ينتاب كثير من الطلبة، ولذلك تراهم يتساءلون: ماذا سأجني من البحث؟ وماذا لو أنجزت بحثا علميا جيدا؟ هل هذا سيفيدني في سوق الشغل؟ هل هذا البحث سيمكنني من متابعة الدراسة في الماجستير مثلا؟ وماذا لو كان التخصص في الماجستير على غير تخصص بحثي؟... الخ.

ز - الإحساس بأن البنية التحتية غير متوفرة لإنجاز هذا البحث أو غيره، مثل قلة القاعات والمدرجات وانعدام المختبرات...

الفرع الثالث - شروط نجاح المشروع ومستلزماته:

العلماء لا يولدون بالمصادفة، ولا يبرزون بالموهبة فقط بل هم في حاجة إلى مناخ ملائم حتى يبدعوا، وإلى توفر الإمكانيات حتى يتمكنوا من إنجاز البحث العلمي في أحسن الظروف، هذه الظروف والمستلزمات هي أساس نجاح المشروع، ويتقاسمها ثلاثة أطراف: الطرف الأول: إداري صرف، والثاني: الأستاذ الباحث مع الشعبة التي ينتهي إليها، والثالث: الطالب الباحث.

الطرف الأول: الإدارة.

وأعني بها إدارة الكلية التي تسهر على تسيير شؤون المهام العلمية، فإنجاز البحث يستلزم توفير الإمكانيات الضرورية التي يتوقف عليها إنجاز البحث، ومن هذه الوسائل الزيادة في عدد الأساتذة والقاعات والمدرجات والمختبرات، وتحسين اقتناء الكتاب من المكتبة، فعلى المكتبة أن تكون جاهزة في أي وقت لاستقبال طلبات الطلبة الباحثين، ومجهزة بأحدث ما يجب، وفي مقدمة ذلك «الكتاب» الذي عليه مدار البحث العلمي.

الطرف الثاني: الأستاذ.

يشكل الأستاذ الدعامة الأولى في هذا المشروع، إذ لولاه لما تحقق المشروع، لأن المشروع به يكون، فهو بصفته مشرفا وموجها يجب أن يتحلى بثلاث دعومات: الأولى تربوية، والثانية: تعليمية، والثالثة: تكوينية، وهذه الدعومات لا تنفصل عن بعضها.

فالأولى تشمل المحافظة على الاعتبارات الأخلاقية لتنمية مهارات الطالب على ضوءها، وإذا كانت هذه الدعامة تستوجب حضورا معيناً في مختلف التخصصات العلمية فهي في مسلك الدراسات الإسلامية وفي تخصصاتها الشرعية من أوكد الواجبات.

والثانية تتمثل في تلقين الطالب مبادئ العلم وأسسها، لأن التعليم هو الغرض الأساس الذي اجتمع عليه الطالب والأستاذ والإدارة، ومن أجله حج الطلبة إلى الكلية، وعليه أن لا يظهر تقصيرا أو عجزا في هذا الجانب لأنه تعين عليه وتخصص فيه...

والثالثة تكوينية. أي مد الطالب بطرق وأدوات عمل وقواعد بحث، وتدريبه على حسن الاستماع والأخذ، وعلى جودة الإلقاء، وبين الأخذ والعطاء يقطع الطالب أشواطاً معينة في ضبط المعرفة وفي التحكم فيها، وتصنيف وغريلة المعلومات ثم تحريرها بأساليب دقيقة مع ما يتبع هذا من استخدام للوسائل السمعية والبصرية الحديثة ..

الطرف الثالث: الطالب.

يتعلم الطالب في هذا المشروع عناصر أدبية وأخلاقية تشكل المقدمات الأولى والممهديات الأساسية للبحث العلمي داخل ما يطلق عليه «مشروع نهاية الدراسة»، إذا استكمل الطالب هذه العناصر وحافظ عليها تمكن من إنجاز سائر أعماله العلمية بنجاح، هذه المتطلبات هي:

1- ملازمة الطالب للأستاذ: ولا تعني الملازمة أن يلتقي الطالب بالأستاذ المشرف لأجل توقيع استمارة البحث ثم لا يلتقيان بعدها سوى مرة أو مرتين، فهذا سلوك يتنافى مع متطلبات البحث العلمي، وقد اشتكى عدد كبير من الأساتذة من غياب الطلبة وعدم حضورهم لحصص التأطير، وقد ردت بحوث على أصحابها بهذا السبب على اعتبار أنها بضاعة غير صالحة.

2- المواظبة: ونعني بها الحضور الدائم والمستمر، لا الحضور المتقطع المصحوب باعتذارات مختلفة وواهية، أو إرسال العمل بالوسائل بحيث لا يتمكن الأستاذ من تقويم العمل تقويماً علمياً، كما أن الطالب يكون بعيداً عن الاستفادة من ملاحظات الأستاذ وتوجيهاته، فبقدر ما كان الطالب مواظباً على الحضور بقدر ما كانت استفادته كبيرة جداً، إذ جل الملاحظات التي يوجهها الأستاذ لعمل طالب واحد إنما هي تخص الجميع، فإذا افترضنا أن المجموعة تضم عشرين طالبا فإن كل طالب سيستفيد عشرين مرة.

3- الجدية: وهي أساس الإنجاز، إذا انتفت ضاع الطالب وضع العمل، وضاع وقت الأستاذ أيضا، الطلبة ليسوا كلهم في مستوى واحد من الجدية، ففهم المجدون، وفهم من هم دون ذلك، وغالبيتهم بحاجة إلى نوع من الصرامة، ولذلك فالجدية هي موهبة واكتساب، فإذا كانت موهبة فيجب على الأستاذ أن يرعاها، ويجب على الطالب أن يحافظ عليها، أما الجدية المكتسبة فهي التي تتحصل بالحزم والصرامة أحيانا والعقاب أحيانا أخرى لأن الطالب هنا مخير بين أمرين: إما الجدية وإما الوقوع في ضدها وهو الإهمال.

4- الشعور بالمسؤولية: والمسؤولية هي حسن تحمل الأمانة، وأكبر أمانة هي البحث العلمي لأنه أساس طرد الجهل، والخروج من التخلف، وتكوين الوعي لدى أفراد المجتمع، ولذلك فالأمة التي تولي للعلم والبحث العلمي أهمية بالغة هي التي تتصدر القائمة في التقدم العلمي والرقى الحضاري.

إنها مسؤولية كبيرة يتقاسمها الأستاذ والطالب والمؤسسات الساهرة على العلم والمعرفة.

المطلب الخامس: المشروع المؤطر، الاختيار والإنجاز والتقييم.

يقطع المشروع المؤطر ثلاثة مراحل: الأولى الاختيار، والثانية الإنجاز، والثالثة التقييم.

الفرع الأول: الاختيار.

يشكل الاختيار الخطوة الأولى من الخطوات الثلاثة، وهي أصعب مرحلة، لأن كل ما يأتي يبني عليها، وقد تنقسم إلى أقسام بمعايير مختلفة: فقد يختار الطالب موضوعه، وقد يختار الأستاذ الموجه، وقد يختار المنهج الذي يصلح للدراسة، وقد يحصل العكس بأن يختار الأستاذ الموضوع المراد للدراسة والبحث، وقد يختار الطلبة الذين سيشرّف عليهم بمواصفات معينة لها صلة بطبيعة الموضوع، وقد يختار المنهج والأسلوب الذي يصلح لإنجاز البحث، والواقع أنه لا يعدل إلى اختيار الأستاذ إلا إذا كان اختيار الطالب غير صائب أو لا اختيار له، فكثير من الطلبة هم عاجزون عن الاختيار فيفوضون للأستاذ ذلك، وقد يقع التراضي بين الأستاذ والطالب بأن يقترح الأستاذ جملة من الموضوعات ويعطي للطالب الحرية ليختار، كما يضع أمامه اختيار المنهج وطريقة البحث.

وللاختيار إيجابيا وسلبيا.

1- الإيجابيات ومنها:

- الحصول على بحث متفق عليه بعد تجربة الاختيار بين الأستاذ والطالب.
- أن يكون الموضوع واقعيا وعلميا له صلة بالتراث الإسلامي من جهة وبالمجتمع والمحيط من جهة ثانية.
- أن يدخل في إحدى الوحدات الأساسية التي ينتمي إليها المشروع المؤطر، ونعني بذلك المجزوءات التي تشكل الوحدات الأساسية لمسلك الدراسات الإسلامية.
- المرونة في الاختيار، إذ المطلوب هو حسن الاختيار، لأن حسن اختيار الموضوع هو نصف إنجازه، ولا ضرر في أن يعدل الطالب عن موضوع تبين له فيما بعد عدم جدواه إلى موضوع آخر يرى له فائدة.
- السعة في الاختيار بأن يختار الطالب من الموضوعات موضوعا، ومن القضايا العلمية والظواهر الاجتماعية قضية لموضوعه، وأن يختار من الأساتذة أستاذا، ومن المناهج والأساليب والطرق منهجا وأسلوبا وطريقة...
- حصول التجاوب بين الطالب والمشرف، على الأستاذ أن لا يكون معسرا يبخل بوقته وجهده على الطالب، أو يتعالى عليه بل متجاوبا كل التجاوب، متواضعا، يضع نفسه رهن إشارة الطالب، وعلى الطالب أيضا أن يكون متجاوبا يسمع ويطيع، وأن يتحلى بمواصفات الطالب الباحث.

2- السلبيات:

- وهي كثيرة ومتعددة، وكثيرها لا تظهر إلا بعد المزاولة، منها:
- إساءة الطالب لاختيار الموضوع والمشرف، فالعقل الناضج هو الذي يجيد الاختيار كما تقدم، رغبة في تحصيل التجاوب بين الطالب وأستاذه، والطالب وموضوعه، لأن الاختيار يتم بذوق علمي، وفراصة أخلاقية، وميول ورغبة، فإذا انتفت كل هذه المعطيات حصل التسلط، والتسلط يولد النفور، والنفور له انعكاس سلبي على البحث العلمي.
- اختيار القضايا المستهلكة والمقتولة بحثا، ليكرر ما قيل، وغالبا ما يعمل إلى النقل من دون أي جهد.

- اختيار العموميات فيتيه الطالب في العموم، يضرب في البحث هنا وهناك من دون طائل، فيميل إلى شحن بحثه بمعلومات غير مجدية من دون تفكير ولا تدبر.

- اختيار موضوعات هي فوق مستواه، وأعلى من قدرته وكفاءته، وزمنها يتعدى الزمن المخصص للبحث، وبفعل هذه السلبية يكون الطالب أمام موقفين: إما التوقف الكلي والانسحاب، وإما أن يخوض غمار هذا البحث الذي يجني على وقته وجهده، ويكون الطالب هو المتضرر في النهاية.

الفرع الثاني: الإنجاز

لا يتم الإنجاز إلا بعد التمكين، ونعني به توفير جميع الحاجيات والوسائل التي تمكن الطالب من إنجاز بحثه، فالتمكين هو مجموع الأدوات الإجرائية والقواعد المنهجية التي يتم بها البحث ولولاها لتعذر الإنجاز، فهي ما به يقوم البحث، ولم نفرد التمكين بفقرة مستقلة لأنها هي والإنجاز شيء واحد.

مثلما أن في الاختيار مراحل فإن في الإنجاز مراحل أيضا، وهي تختلف باختلاف طبيعة البحث، هل هو تحقيق أو تعليق أو فهرسة أو نقد أو بحث ميداني، فطبيعة البحث تتحكم في طرق البحث وطرق البحث تتحكم في الإنجاز.

وكيفما كان الحال فإن الطالب في مرحلة الإنجاز يكون بحاجة إلى الاشتغال بأدوات البحث مثل: «التنظيم»، «البطاقة العلمية»: هيأتها وصفتها وشكلها ومكوناتها، و«التصنيف» أو «التنظيم»، كيف ينظم الوقت ويصنف البطاقات العلمية، و«التبويب» وهي طريقة من طرق التصنيف، ثم «الحكم» و«التعليق»... الخ، وهذه جميعا لا تكتسب إلا بالممارسة والعمل لا بالتحليل والنظر وحدهما.

الفرع الثالث: التقويم

لا يعني «التقويم» في عرف الإصلاح غير اختبار كفاءة الطالب بفروض معينة تسفر على وضع نقطة معيارية يجب أن تعكس حقيقة الجهد الذي بذله الطالب في بحثه، وهذا وإن كان ضروريا بحاجة انتقال الطالب من مستوى إلى آخر فإن التقويم المراد هنا هو أمر آخر، إنه يعني تدارك السلبيات لاستبدالها بالإيجابيات، وتدارك الأخطاء لاستبدالها في المستقبل بما هو صحيح، وهذا - للأسف - لا يتم لأن ملاحظات الأساتذة على جهود الطلبة لا

تستثمر كما يجب، فالطالب لا يعرفها، وإذا عرفها لا يعمل بها لأنه في مرحلة التخرج، وقد ينتبه إليها وقد لا ينتبه، ومنها ملاحظات الأساتذة على أوراق الطلبة فكثيرهم لا يعير بالا للتعليم على الأخطاء اللغوية والنحوية وغيرها لعلمه أن الطالب لا يراها، لذلك فهم يكتفون في الغالب بنقطة عامة معيارية، بملاحظات عامة أيضا.

إن المطلوب على الأقل في بحوث المشروع المؤطر الذي ينتهي بمناقشة علمية وتقويم دقيق هو جمع أخطاء الطلبة وتصنيفها وتقديمها في شكل معجم للأخطاء التي يقع فيها الطلبة، ومثل هذه الأخطاء تتكرر من طالب لآخر، وهذه الأخطاء تعرض على الطلبة الجدد في شكل محاضرات مفتوحة أو يدخلها الأستاذ المؤطر ضمن دروس التأطير لأهميتها، وهذه التجربة لم أعرفها إلا مع أستاذ واحد في مسلك الدراسات العربية، وكان يدرس في مسلك الدراسات الإسلامية مادة النحو والصرف والبلاغة قبل أن يحال على التقاعد، وأعني به الأستاذ محمد أمزوي، لكن محاولته لم تذهب بعيدا، وقد اعتمدها في النظام القديم، ولا أعلم لها نظيرا في الإصلاح الجامعي الجديد، وأعتقد أنها تجربة يجب أن تستثمر، لأنها تشكل الأساس في البحث السليم والتقويم السليم.

خلاصة:

أفردت في هذا البحث الكلام عن المشروع المؤطر من جهتين:

الأولى من جهة الواقع، أي من حيث المشروع المؤطر كما هو، وهذه الناحية يجيب عليها المطلب الأول الذي يبحث طبيعة المشروع من جهة المرجعية القانونية، والمطلب الثاني الذي يكشف على حقيقة المشروع وخصائصه، والمطلب الثالث الذي يبين عنصرين مهمين هما: ربط الجسور والانفتاح على المحيط، وهي مطالب أساسية من مطالب الإصلاح.

الثانية من جهة الطموح أي من حيث المشروع المؤطر وكيف يجب أن يكون، ونعني بذلك رصد تطلعات واستشراف وجه حسن للصورة المطلوبة التي نرى - من موقع التجربة - أن البحث يجب أن يكون علميا، وقد ضَمَمْنَا كل ذلك في المطلب الرابع الذي بسط الإيجابيات والسلبيات ووازن بينها، والمطلب الخامس والأخير الذي أفرد خالصا للكلام للمشروع المؤطر من حيث المراحل التي يقطعها، وهي ثلاثة: الاختيار والإنجاز والتقويم، ثم ختم المبحث بخلاصة جامعة.

الفصل الثالث:

منهجية تدريس مادة علوم الحديث في الجامعة المغربية



ويتكون مما يلي:

- تقديم

- المبحث الأول: الدوافع والأهمية ومحتوى المادة ووضعها في المسلك

- المبحث الثاني: في هيئة التدريس وطرقه مع المقترحات

تقديم¹:

جدير بنا وبالزملاء الأساتذة اللذين يدرسون العلوم الإسلامية في الجامعات المغربية أن يتناولوا مواد الشعبة ومجزواتها وطرق نظامها وتسييرها في عروض علمية، وأبحاث دراسية تبسط فيها المشاكل، وتجسد فيها الآلام والآمال لنستأنس بآراء بعضنا لإصلاح ما فسد، ولتدارك ما فات، ولنتعاون على ما صعب وثقل، فما هو مشكل في جهة قد يجد حله في جهة أخرى، ومشاكل قوم عند آخرين فوائده.

إن مشاكلنا كثيرة ومتعددة، وإثارته والبحث فيها هي المقدمة الصحيحة للعلاج، أما طمرها والسكوت عنها فلا يزيد الطين إلا بلة.

إننا ننتهي إلى هيئة التدريس في الجامعة، فهل علومنا الإسلامية هي من جنس العلوم الإنسانية؟ وهل انتماؤنا للعلوم الإنسانية يلغي وظيفة العلوم الشرعية؟

إننا ندرس لكن لا نتساءل عن ماذا ندرس؟ وكيف ندرس؟ لا نقوم ما ندرس، وإذا قومنا لا نعمل بنتيجة التقويم، لا ننسق فيما بيننا على مستوى البرامج والمقررات؟ وعلى مستوى التسيير والتنظيم، فيقع الخلل هنا والارتباك هناك.

إننا نتواجد في مؤسسة علمية، وندرس مواد علمية فلا بد لمشاكلنا أن تحل بطريقة علمية أيضا، لهذا السبب يأتي هذا المبحث ليتناول قضية من قضايا الشعبة، وهي قضية واقع تدريس مادة علوم الحديث في الإصلاح الجامعي الجديد.

لقد جمعت ما يمكن جمعه في الموضوع، فتأملته، وصنفته وحررته فجاء موزعا على مقدمة ومدخل وأربعة مطالب وخاتمة، بنيت المدخل على نقطتين: أهمية العرض ومنبع الاهتمام، وعالجت في المطلب الأول أهمية المادة وأهداف تدريسها وتقويم مصادرها تحت صيغة «محتوى المادة»، وكشفت في المطلب الثاني عن خطة المادة ووضعها في نظام المسالك والوحدات، وأفردت المطلب الثالث لواقع هيئة التدريس وشروط المدرس، وجعلت المطلب الرابع والأخير خالصا لأساليب وطرق تدريس المادة، ميزت فيه بين الأساليب المعمول بها

¹ - تم إنجاز هذا العمل بطلب من دائرة الرباط العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية، وألقي في إحدى دوراتها التكوينية بكلية الآداب بالرباط، وتم نشره في مجلة بصائر الرباط، عدد خاص لقضايا التعليم الجامعي، العدد الرابع، ديسمبر من سنة 2007م

حاليا والأساليب الغائبة والمرغوب فيها في إطار المنهجية العلمية المطلوبة مع تقديم مقترحات منهجية في تدريس المادة ثم أنهيت المبحث بخاتمة.

- المبحث الأول: الدوافع والأهمية ومحتوى المادة ووضعها في المسلك

المطلب الأول: منبع الاهتمام وأهمية الموضوع

ينبع الاهتمام بهذا الموضوع من عدة زوايا:

- التجربة الشخصية في دراسة وتدريس هذه المادة في النظامين القديم والجديد.
- تحمل مسؤولية تنسيق نظام المسلك في الإصلاح الجامعي الجديد منذ أن كان مشروعا إلى أن أصبح حقيقة.

المعاناة العلمية في البحث في السنة النبوية وعلوم الحديث، تلك المعاناة التي استحضرت الإشكالات الحقيقية والمعوقات والعراقيل التي تعترض سبيل هذه المادة العلمية ومدرسيها في الحاضر والمستقبل.

لم يُتناول هذا الموضوع بالبحث والدرس لأسباب منها:

- أ- أن الإصلاح لم يكتمل بعد، إننا نعيش سنته النهائية بإتمام الفصل السادس منه خلال الدورة الربيعية الجارية، وتقويم التجربة يجب أن يكون بعد الاكتمال¹.
- ب- إن تقويم التجربة يحتاج إلى استقراء عام لوضعية تدريس المادة في كل الجامعات المغربية، وهو أمر تعذر علينا القيام به.

ومع ذلك فإن التجربة التي نقوم بها لها من الإيجابيات ما يكفي لأسباب منها:

الأول: تدريس المادة.

الثاني: التعامل مع الموضوع من موقع الهم والاهتمام.

الثالث: تتبع خطوات الإصلاح من بدايته إلى استكمال سنوات الإجازة بنهاية الفصل السادس من الدورة الربيعية الحالية.

¹ - للتذكير فإن زمن هذا البحث يرجع إلى سنة 2007م.

الرابع: المشاركة في لجنة التنسيق الوطنية بين شعب الدراسات الإسلامية والاتفاق على قدر مهم من وحدات ومجزوءات المسلك لاسيما في الوحدات الأساسية. لهذه الأسباب فالتجربة هي جزء ينطبق على الكل، لأن التجربة واحدة والمسيرة واحدة والعوائق والمشكلات تكاد تكون متشابهة.

المطلب الثاني: محتوى المادة: الأهمية والأهداف والتقويم

نتناول في هذا المبحث ثلاثة عناصر:

1- أهمية المادة

تدريس هذه المادة داخل الجامعة لا ينبع من الدافع الفكري البحث، لأن طبيعة هذه المادة هي طبيعة خاصة، ولا تشبه المواد العلمية المتواجدة داخل كليات الآداب والتي يطلق عليها نعت «العلوم الإنسانية».

إن أهمية المادة هي في وظيفتها، ووظيفتها هي شرعية وتعبدية لأنها تعنى بالأصل الثاني في التشريع وهي السنة النبوية من جهة بحث الصحة وعدمها، وما تفرع عن ذلك من اصطلاحات وقواعد وضوابط وفنون...

إن علم الحديث هو السبيل الوحيد لضبط صحة الحديث وسلامته، وإذا صح أصبح ملزما في التشريع والاعتقاد.

الأجيال هي في أمس الحاجة إلى معرفة هذا الفن والوقوف عند قواعده وضوابطه، ومعرفة أعلامه ومصادره واصطلاحاته، لأن هذه جميعا هي علوم الحديث بالمعنى الإصطلاحي للكلمة، لذلك فهذه المادة لا يمكن الاستغناء عنها في الدين، كما لا يمكن أن تُدمج أو تختزل أو تُعوض بمادة أخرى.

2- أهداف تدريس المادة

يجب الاعتراف بأن الهدف من تدريس هذه المادة يكاد يكون غائبا عند كثير من المدرسين، قليل من يستحضر السؤال التالي: لماذا أدرس هذه المادة؟ ولأي مقصد؟ التدريس يقوم على التدريس فحسب، وهذا أكبر عيب!.

إن المدرس إذا عرف الهدف توجه إليه، وسعى إلى تحقيقه وربط أذهان الطلبة به حتى تكون الصورة واضحة للمعلم وللمتعلم.

الهدف يختلف من عصر إلى عصر، ومن باحث إلى آخر، وذلك بحسب تنوع التحديات وتلون الشبهات، ولكي تكون أهداف التدريس واضحة لا بد من تحقيق ما يلي:

- توضيح تاريخ السنة، والأطوار والأدوار التي مرت بها.
- توضيح مكانة السنة النبوية وعلاقتها بالقرآن.
- تحديد الغاية التي نشأ من أجلها علم الحديث.
- تحديد مصادر علم الحديث.
- دور النبوة في تكوين السنة النبوية.
- ضبط عدالة الصحابي ضبطاً محكماً.
- الإجابة عن كل الشبهات القائمة من خلال أساليب تدريس المادة.

3 - المصادر المعتمدة في المادة

أعني بالمصادر الكتب المقررة على الطالب الجامعي، وهذه الكتب على نوعين: نوع من المصادر القديمة مثل «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» لابن خلد الرامهرمزي، و«معرفة علوم الحديث» لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، و«الإلماع في أصول الرواية وتقييد السماع» للقاضي عياض اليعقوبي السبتي، ومقدمة ابن الصلاح... ومثل هذه المصادر يصعب على الطالب المبتدئ أن يرجع إليها، ويكفي الأستاذ أن ينبه عليها ويشير إليها.

نوع من المراجع الحديثة: وهي كتب علوم الحديث ومصطلحه التي رجع فيها أصحابها إلى النوع الأول، فاستوعبوا واختصروا، ويسروا المادة العلمية بلغة سهلة وبمنهج ميسر، هذا النوع هو الذي يجب على أستاذ المادة أن يوجه الطالب إليه سواء أكان من تصنيفه أو من تصنيف غيره، وفائدة هذه الكتب أنها تُشعر الطالب بأن ما يأخذه داخل الفصل هو محاضرات ودروس توجيحية، وأن هناك مصادر ومراجع ميسرة.

إن المصنفات في علوم الحديث ولاسيما المصادر منها هي كثيرة جداً، فكل قرن لا يخلو من جهد، وهي في مجموعها وعرة الأسلوب صعبة الإدراك على المبتدئين لأنها لم تكتب لتكون

كتابا جامعيا يراعي قدرة الطالب وإمكانياته المعرفية المحدودة بل وضعت لغرض علمي عميق جدا، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تأليف مراجع في الموضوع، تراعي الغرض العلمي، وتكون في مستوى الطلبة.

المطلب الثالث: خطة المادة ووضعها في نظام المسالك والوحدات: نظرة وصفية

في هذا القانون جاءت تسمية المادة موحدة: "علوم الحديث مع النصوص" «2 س» في السنة الأولى من السلك الأول، و"علوم القرآن والحديث مع النصوص" 3 ساعات في السنة الثانية من السلك الأول، و"دراسات عن القرآن والحديث" 3 ساعات في السنة الأولى من السلك الثاني، وهنا توقفت المادة، وهي كما ذكرت ممزوجة مع القرآن الكريم، ومدرسها أستاذ واحد، وساعتها قليلة جدا.

وكما سبق أن قلنا فإن لجنة التنسيق الوطنية يرجع إليها الفضل في تسمية مجزوءات مادة علوم الحديث بعد أن كانت في النظام القديم تخضع لمرسوم سنة 1983م، وعند وضع مسلك الدراسات الإسلامية إبان انطلاق مسلسل الإصلاح الجامعي في بداية سنة 2003-2004م راعينا أن يكون فيه حضور قوي للسنة النبوية يليق بمكانتها وأهميتها، وقد مرت أجراً هذه المادة في المسلك عبر مرحلتين: الأولى وطنية، ترجع إلى لجنة التنسيق الوطنية كما تقدم، والثانية محلية تمت في كل شعبة شعبة، وقد تمخض عن هذه اللقاءات الوطنية والمحلية نتيجة سنحاول رسمها انطلاقاً من استقراء مسلك شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بمراكش ووضع هذه المادة داخل وحداته.

لقد حظيت السنة وعلومها بحضور قوي في جل الفصول الستة المكونة للمسلك مراعين عنصر الربط بين الوحدات، ثم عنصر التكملة وربط الجسور، وعنصر الانفتاح على المحيط، ولذلك تنوعت فنون هذه المادة حسب طبيعة الوحدات المكونة للفصل، وقد اعتمدنا في ذلك على ثلاثة معايير:

أ- معيار اندماجي: ونعني به دمج السنة النبوية وعلومها مع القرآن الكريم وعلومه، هذا الاندماج فرضته طبيعة علاقة السنة بالكتاب، ولست بحاجة إلى بيان ذلك.

ب- معيار الاستقلالية: ونعني به إفرادها بوحدة مستقلة من دون أن تدمج لا مع القرآن ولا مع أية مجزوءة من مجزوءات العلوم الإسلامية، وكان الغرض من ذلك فهمها في سياقها العلمي والمعرفي الخاصين بها.

ج- معيار اختزالي: ونعني به وجود فن من فنون السنة النبوية ضمن مجزوءات وحدة من الوحدات من دون تعيين ذلك، ولها صور كما سنبينه في موضعه.

اخترنا - بخصوص المعيار الأول - من فنون السنة النبوية ما نراه ضروريا في تدريس مادة علوم الحديث، فقد رأينا أن تكون المادة في عناوين وحدات قائمة مثل الوحدة الثانية في الفصل الأول المرموز إليها بـ M2، والوحدة الحادية عشرة في الفصل الثالث المرموز إليها بـ M11، أطلقنا عليهما «وحدة القرآن والحديث» جعلنا للأولى رقم «1»، وللثانية رقم «2»، ضمنا مجزوءة «علوم الحديث» وأخرى «نصوص حديثية»، وهما وحدتان متكاملتان، الثانية تكمل الأولى، كان هذا هو الهدف من وضع هاتين الوحدتين في فصلين خريفيين.

وبخصوص المعيار الثاني وضعنا الوحدة الثالثة في الفصل الخامس المرموز إليها بـ M19، سميناهما «وحدة السنة وعلومها» تظم ثلاثة مجزوءات: الأولى، «مناهج المحدثين»، والثانية، «علم التخريج ودراسة الأسانيد»، والثالثة، «فقه الحديث».

أما المعيار الثالث فنجده على حالات، منها اقتران أحاديث الأحكام مع آيات الأحكام كما نجد في الوحدة السابعة M7، وهي الثالثة من الفصل الثاني المسماة بـ «وحدة العقيدة والأحكام الفقهية»، ثم نجد نصوص الحديث تعالج ضمن مجزوءة «ترجمة نصوص إسلامية» في M13، وهي وحدة اللغات والتواصل من الفصل الرابع، كما نجدها بكيفية أخرى في الوحدة الأولى من الفصل الخامس المرموز إليها بـ M17 والمسماة بـ «الوحدة الأدواتية» ضمن نفس المجزوءة «ترجمة نصوص إسلامية»، ثم نجدها في صورة مخالفة تماما في وحدة المشروع المؤطر M24 من الفصل السادس والأخير.

ماذا نستنتج من هذا الوصف؟

نستنتج ما يلي:

1- أن السنة النبوية وعلومها حاضرة في كل فصول مسلك الدراسات الإسلامية بنسبة 6/6.

2- أن المجزوءات المتعلقة بالسنة النبوية تشكل 62/11 تقريبا من مجموع المجزوءات.

3- أن عدد الساعات من مجموع ساعات الفصول هي أكثر من 288 ساعة من 2160، وساعات علوم الحديث تدخل ضمن الساعات الأساسية.

مع كل هذه الإيجابيات فإن صورة الترابط والأهداف، وربط الجسور والتواصل والتفتح على المحيط، وغير ذلك من المفاهيم التي جاء بها الإصلاح لم تستوعب كما يجب في بعض مسالك الدراسات الإسلامية، كما أن هناك إكراهات جعلت هيئة التدريس في بعض الجهات تتعامل مع الواقع كما هو، لا مع متطلبات الإصلاح.

- المبحث الثاني: في هيئة التدريس وطرقه مع المقترحات

المطلب الأول: هيئة التدريس: الواقع والشروط

نعالج محتويات هذا المطلب من خلال عنصرين: واقع هيئة التدريس، والواقع لا يرتفع، والثاني: شروط في مدرس المادة.

1- واقع هيئة التدريس:

لكي تتحقق الغايات المرجوة من دراسة المادة، وحتى يتمكن الطلبة من استيعابها والاستفادة منها فإنه يتعين على هيئة التدريس اتباع الطرق المنهجية والأسس التربوية. لكن بالنظر إلى واقع تدريس المادة في الجامعات المغربية نجد ما يلي:

أ- توجد فئة من المتصدين لتدريس هذه المادة لا يخلصون لها حق الإخلاص، بل يتناولون موضوعاتها بفتور واسترخاء، وغالبا ما يعتمد كثير منهم إلى التركيز على مصدر من المصادر من دون تحليل ولا شرح ولا بيان ولا توضيح، بحيث لا يجد الطلبة متعة البحث مع الأستاذ المدرس.

ب- فئة منهم ليسوا من أهل التخصص في الموضوع، إما أنه أرغم على تدريسها في غياب المتخصص أو تطاول عليها من موقع الهواية والفضول.

ج- إن أكبر تحد تواجهه هذه المادة هو النقص في عدد الأساتذة المتخصصين، فالمناصب المخصصة لمادة علوم الحديث قليلة جدا إن لم نقل منعدمة، وهذا قد انعكس سلبا على وضعيتها في الجامعة.

لا ننكر أنه في السنوات الأولى لتأسيس شعب الدراسات الإسلامية تخرج من الجامعات نفر من الأساتذة بشهادات تؤهلهم لتدريسها، وكانت نهضتها في البداية قوية حتى

وصل الأمر إلى حد التنافس عليها في أقسام الدراسات الإسلامية، ومع مضي الوقت لم يبق في هيئة تدريسها إلا القليل.

2- شروط في مدرس المادة:

يجب على مدرس هذه المادة أن يستحضر الشروط التي وضعها علماء هذا الفن منذ قرون، تلك الشروط التي وضعوها وعملوا بها، وهي شروط لا علاقة لها بالتطور، أو مراعاة الواقع، أو تبدل الأحوال لأنها ثابتة ومطلقة، وأغلبها شروط أخلاقية وعلمية، إذا كيفناها مع العصر قلنا ما يلي:

أ- على المدرس أن يستشعر أنه مسؤول، وصاحب رسالة، وليس موظفا أكاديميا فحسب.

ب- على شخصيته أن تكون قوية، مؤثرة وفاعلة.

ج- التمكن من المادة، والعلم بها، وقدرته على عرضها، وتقديمها بطريقة مقنعة ومفيدة، ومحققة للأهداف التي ينشدها.

د- علاقته بالطلبة يجب أن لا يكون علاقة ندية ولا استعلائية، بل علاقة مبنية على الود والاحترام بما يكفل تحقيق الرغبة العلمية والهدف التربوي.

هـ- ثم نأتي إلى أسلوب «القدوة الحسنة» الذي هو من أنجح الأساليب في العملية التعليمية، ونعني بذلك أن يظهر مدرس هذه المادة بمظهر من التوقير والاحترام حتى ينال احترام الطلبة، لأن المادة التي يلقيها هي جزء منه، وعلى هذا الحال كان يظهر علماء السلف، فإنهم كانوا يظهرن بمظهر التعظيم والإكبار رغبةً في أن يعظم علمهم في النفوس.

و- ما نريده من هذه الشروط هو تحلي المدرس بقسط من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم لأنه هو الوصف الذي يجب أن يكون في حملة هذه العلوم، وهو شرط أساس لكونه يزرع الثقة بين المدرس والطالب، وليس من ذلك شيوع الجفاء والنقد الفاحش كما يظهر عند بعض الناس.

المطلب الثاني: طرق تدريس المادة

لا يوجد هناك أسلوب خاص بتدريس هذه المادة وسائر المواد الأخرى، وحتى الأسلوب المعتمد حاليا لا يمكننا أن نقره بصفته هو الأسلوب الذي يجب أن يكون، لكن بودنا أن نختار من الأساليب العامة ما يمكن أن يكون صالحا مع العلم أن اختيار أسلوب من بين

عدة أساليب تتحكم فيه عدة قضايا من بينها: موضوع الدرس، وعدد الساعات، ومستوى الطلبة، والإمكانيات المتاحة داخل الكلية، وقدرة الأستاذ نفسه... إلخ.

بعد النظر تبين أن هناك أساليب سائدة وأخرى غائبة، نبدأ بالأولى ثم نثني بالأخرى.

1- الطرق الموجودة:

ومنها:

أ - طريقة المحاضرة الشفوية:

أسلوب المحاضرة الشفوية يعتمد على الأستاذ كطريقة من طرق تلقين هذه المادة، بحيث يعد الأستاذ الموضوع الذي يدرسه في محاضرة يلقيها على الطلبة، وهم يستمعون ويسجلون نقاطاً. وهذه الطريقة من أكثر الطرق شهرة في عملية التدريس، وعلمها يعتمد على عدد كبير من الأساتذة، اعتمدت في النظام القديم وفي النظام الجديد.

لكي تكون هذه العملية ناجحة على الطالب أن يكون على علم مسبق بالدرس الذي سيلقى بناء على البرنامج الذي يقدمه الأستاذ في بداية السنة، منهم من يهين ليتابع، ومنهم من لا يهين، والذي لا يهين يكون له استعداد نفسي للمتابعة، وحتى تؤدي المحاضرة بنجاح لابد من توفر شروط في الأستاذ والطلبة.

بالنسبة للأستاذ لابد من حسن الإعداد، وجودة الإلقاء ولغة عربية فصيحة وسليمة بعيدة عن اللهجات، وفي جو من اليقظة والتحلي بالأخلاق والورع كما بينا ذلك في موضعه، ولابد للأستاذ أن يقسم المحاضرة إلى محاور، والمحاور إلى عناصر مترابطة، تبدأ بمقدمة وتتوسط بشرح وتحليل، وتنتهي بخاتمة، وتكون هذه الهيكلية مكتوبة على السبورة حتى يتمكن الطلبة من المتابعة، ولابد من توفر شرط التأني، وعدم الإغراب، ومخاطبة الطلبة حسب مستواهم العلمي.

وبالنسبة للطلبة لابد من توفر شرط التحضير والاستعداد، مع حسن الاستماع والتركيز والفهم عن الأستاذ، مع المتابعة.

يعود هذا الأسلوب على الأستاذ وطلبته بمزايا هامة، منها أنه يساعد الأستاذ على جمع المادة العلمية، وتصنيفها، ووضعها في خطة منهجية ثم تحريرها، وهذه المزايا هي التي تجعل من الأستاذ «باحثاً».

وتساعد الطالب على تنمية مهارة الإصغاء، والاستيعاب، والفهم، والتركيز، والمتابعة، والتحليل، واستخلاص الأفكار والفوائد، كما تقوي قدرة الطالب اللغوية.

ب - طريقة الإملاء

نعني به أن الأستاذ يحضر الدرس فيلقنه للطلبة بالإملاء، يملي عليهم وهم يكتبونه على لغته وأسلوبه، بحيث يكون المتكلم هو الأستاذ والذي يكتب هو الطالب، وهذه الطريقة وإن كانت من طرق التلقين القديمة في التحديث فإنها في الجامعة العصرية تحدث مشكلا علميا ومنهجيا.

يمكن أن نميز في الأساتذة الذين يعتمدون هذه الطريقة فئتين: فئة تملي من كتب غيرها، وفئة تحضر الدرس وتمليه، الطريقة الأولى يلغي فيها الأستاذ ذاته، فيكون مجرد ناقل ربما لا يدري ما معه، وهذه الطريقة تشترك مع الثانية في كونهما يقتلان روح الحيوية والإبداع، ويجمدان عنصر التفاعل بين الأستاذ والطالب.

2- الطرق المنشودة:

وهي غائبة كليا، وإن كانت حاضرة في الجامعة بشكل جزئي، وإنما أطلقنا عليها هذا النعت لأننا نريدها في صورة أخرى، من هذه الأساليب أسلوب المناقشة والحوار، وأسلوب حل المشكلات، وأسلوب إنجاز التقارير، وأسلوب إنجاز بحث في الموضوع، وأسلوب تقويم الإنجاز.

أ - طريقة المناقشة والحوار:

هذا الأسلوب لا يستخدم وحده في التلقين بل يكون مرافقا للمحاضرة الشفوية أو مرافقا لنوع آخر من أنواع التدريس، فالأستاذ ملزم بأن يفتح مع الطلبة حوارا ونقاشا حول الموضوع المدروس ولهذا الأسلوب مزايا هامة منها:

- تنمية التفاعل بين الأستاذ والطالب، وهي مزية تمت الإشارة إليها، ونعيد ذكرها هنا.
- استفسار الطلبة عن الأمور التي لم يفهموها.
- تعزيز الثقة بأنفسهم وقدراتهم على إنتاج الآراء وتقديم الحلول.
- تزيد عملية المناقشة في الزيادة في التعلم وفي البحث عن المعرفة.
- يكتسب الطالب قدرة لغوية في التعبير مع توسيع مدارك التفكير بتقديم الأسئلة، ونقد الآراء والأفكار، وتقويم المعلومات المعروضة.

- بهذا الأسلوب يتمكن الأستاذ من قياس درجة وعي الطلبة، وتحديد كمية المعارف التي هي بحوزتهم، فهو نمط جديد من الاختبار بالنسبة للأستاذ.

- إثارة حب الاستطلاع بالنسبة للطلبة، وتوسيع مدارك التحصيل والرغبة في الزيادة منه.
مع هذه الأهمية فإن أسلوب المناقشة والحوار يجب أن يكون منحصرا في وقت محدد، بحيث لا يستغرق كل الوقت المخصص للمحاضرة، ويجب أن ينحصر في موضوع محدد لا يخرج منه إلى غيره.

إن الخاصية المحركة لهذا الأسلوب هي خاصية الأسئلة، وهي أشكال وأنواع، ومن أنواع الأسئلة التي يجب على الأستاذ المدرس أن يستخدمها ما يلي:

1- أسئلة التذكير: تذكر بما سبق لأجل ربطه بما لحق، فالمعرفة الجديدة تُبنى على المعرفة القديمة، وهذه الأسئلة هي من أبسط أنواع الأسئلة، ولا يجب الإطالة فيها.

2- أسئلة الفهم والاستيعاب: يوجهها الأستاذ للطلبة لقياس قدرتهم على الشرح والتفسير والتلخيص والتعبير، والتمييز بين الأمور، والمقارنة بين القضايا، ويشترط أن يكون جواب الطلبة بأسلوبهم وفكرهم.

3- أسئلة التحليل: هذا النوع من الأسئلة يمكن الطالب من القيام بملاحظات عن الأجزاء أو العناصر أو الفروع التي تكون الموضوع للوقوف عليها وإدراك العلاقة بينهما.
ومجال أسئلة التحليل كثيرة جدا، فالطالب بحاجة إلى تحليل نص حديث، أو تحليل تعريف نوع من الحديث، أو تحليل نص من نصوص النقده...

4- أسئلة التركيب: يمكن هذا النوع الطلبة من تجميع العناصر الفرعية في فكرة عامة أساسية، والمفاهيم الصغيرة في مفهوم أكبر، والأحكام المتعددة في معنى جامع لها.

مجال هذا النوع من الأسئلة موجود بكثرة في مادة علوم الحديث، مثل تجميع عناصر الحديث «المقبول»، وتجميع عناصر الحديث «غير المقبول»، وتجميع عناصر «العدالة»، وتجميع عناصر «الجرح»، وتجميع عناصر «الحديث المعلول»...

وقد يطلب من الطلبة البحث عن عنوان مناسب لمجموعة قواعد، أو اصطلاحات، أو أحاديث مثلما فعل العلماء في تراجم الأبواب وعناوين الفصول.

ب- طريقة حل المشكلات

المقصود بحل المشكلات أن يعرض الأستاذ على الطلبة الموضوع المتعلق بمادة علوم الحديث في صيغة مشكلة تحتاج إلى حل، والمشكلة موقف غامض يقتضي الفهم والتوضيح، وهو يثير تفكير الطالب فيجعله قلقا متضايقا ثم يدفعه للبحث عن الحل، وهذا الأسلوب نراه لائقا جدا لمادة علوم الحديث، وذلك في ضوء ما يثيره البعض اليوم من تعارض بين الحديث والحديث، والحديث والقرآن، والحديث والعقل، والحديث والعلم التقني المعاصر، وما يثار من مشكلة تدوين السنة النبوية وكتابتها، وعدالة الصحابي وتزكيتته... إلخ.

إن من مميزات هذا الأسلوب أنه يُنبئ لدى الطلبة قوة الملاحظة، والقدرة على التحليل، وإدراك المظاهر المختلفة للمشكلة محل الدرس، كما يُنبئ لديهم القدرة على التفكير في معالجة المشكلات.

ج- طريقة إنجاز التقارير:

هذا الأسلوب هو من الأساليب التي أتاحها الإصلاح الجامعي الجديد يسمى بـ «إنجاز التقارير» أو «إعداد التقارير» ومعناه أن يكلف الأستاذ الطالب أو مجموعة من الطلبة بالتعرف على مصدر من مصادر المادة، أو كتاب من الكتب ذات العلاقة بموضوعات المادة الدراسية، يعين الأستاذ المصدر ويضعه رهن إشارتهم ليقرواوه كله أو فصلا منه ثم يعدون تقريرا موجزا لا يصل إلى حجم البحث الجامعي، وهذه الطريقة تتناسب مع مادة علوم الحديث التي تعددت مصادرها، وتنوعت مراجعها.

ميزة هذا الأسلوب أنه يعرف الطلبة بمراجع المادة ومصادرها مع ما يتبع هذه المراجع والمصادر من معرفة الأعلام والاصطلاحات والقواعد والنصوص، كما أنه يوثق العلاقة بين الطالب والكتاب، هذه العلاقة التي أصبحت اليوم في تصدع كبير، ثم إن هذه العلاقة هي ضرب من المصاحبة المؤقتة، وقد تكون بداية مصاحبة حقيقية يجني منها الطالب فوائد كثيرة، منها: التعرف على منهج المصنف، وطريقته في التصنيف، ومعرفة أسلوبه وأفكاره، كما يخرج برصيد كبير من المصطلحات والمفاهيم، وتعزز في نفسه روح القراءة والمطالعة والبحث مع حسن اختيار الكتب والمراجع.

يشترط في نجاح هذا الأسلوب اختيار الكتاب الذي يتناسب مع مستوى الطالب الجامعي، ومع المادة المدروسة، ولهذا الأسلوب منهجية يجب اتباعها، وهي:

- 1- وصف الكتاب وصفا دقيقا، في كفه وكيفه.
- 2- ترجمة صاحب الكتاب والتعريف به وفق المنهجية المتبعة في عرض التراجم والأعلام.
- 3- بيان الموضوعات التي يشتمل عليها الكتاب.
- 4- كشف منهج المصنف في تناول موضوعاته.
- 5- مكانة الكتاب وأهميته في هذا العلم.
- 6- تقويم الكتاب من جهة نقده والثناء عليه.

يقدم الطالب التقرير إلى الأستاذ ليصححه، ثم يقرؤه على زملائه الطلبة، ثم يقدم ملاحظات شفوية تتخللها أسئلة يجيب عليها الطالب، وينبه إلى أخطائه ليصحح عرضه في ضوءها، ولا بد للأستاذ أن يُسجل ملاحظات خطية على التقرير مع كلمة تقديرية.

د - طريقة إنجاز العروض والفروض.

قد يكون هذا البحث من الأبحاث العارضة والطارئة، وقد يكون مقررا من قبل الأستاذ أو مفترضا بنص القانون، مثل بحوث الإجازة التي يوازها المشروع المؤطر في الاطلاع الجامعي الجديد. وأسلوب إنجاز البحث هو أسلوب شائع ومعروف، وقد استغل البعض رداءة سير هذا الأسلوب في الجامعة وقلة مردوديته فنادوا بحذفه نهائيا من الجامعة، وهو مطلب خطير على البحث والتكوين بالجامعة، ذلك أن هذا الأسلوب له مزايا كثيرة جدا، وفوائد عظيمة لو أنجز بالشروط العلمية المطلوبة، وقد أتينا على ذكر الشروط والفوائد في مباحث سابقة.

هـ - طريقة التقويم وخصائصه

التقويم هو خطة أو أسلوب أو طريقة يشترط فيها أن تكون منظمة ومقننة حتى تحدد لنا مدى تحقيقنا للأهداف التي رسمناها للمادة. وأردنا من الطالب أن يصل إليها بفعل تلقينه معلومات معينة، قد يجري هذا على موضوع داخل المادة، وقد يجري على المادة كلها، وهو هنا على نوعين، نوع متعلق بالطالب ونوع متعلق بالأستاذ.

يمثل أسلوب التقويم بالنسبة للطالب أعلى مراحل الإدراك، حيث يتمكن الطالب من إدراك المعايير التي يحكم بها على الأشياء والمواقف والمسائل كي يتمكن من إصدار الأحكام وفقا لهذه المعايير. وبخصوص الأستاذ فهو يمكنه من تقدير التحصيل لكل طالب، كما أنه يشخص صعوبات التعلم، وبه يزن المدرس الفعل التربوي للمنهج وأسلوب التدريس.

ووسائل التقويم على أنواع، منها:

- الاختبار الشفوي أو ما يطلق عليه بـ «الاختبارات المقالية»، وهذا النوع من التقويم أتاحه الإصلاح الجامعي الجديد، يوجه الأستاذ للطالب أسئلة شفوية متنوعة من خلالها تظهر كفاءة الطالب ومعارفه، وكيف هي شخصيته وأخلاقه، وهل كان يحضر أم لا، وهل كان يتابع الدروس بانتظام أم بتقطع...

- الاختبارات الكتابية، وهي طريقة أخرى من طرق التقويم يوجه الأستاذ للطالب أسئلة مكتوبة يجيب عليها في وقت محدد، قد تكون مباشرة وقد تكون عامة، ولكي تكون هذه العملية ناجحة لا بد من توفر شرط الحراسة الصارمة في الامتحان، فقد شاعت ظاهرة الغش في الامتحانات بشكل عام لاسيما في الإصلاح الجامعي الجديد، لقد استغل الطلبة انشغال الأساتذة وكثرة أعمالهم، وقيامهم بالحراسة بمفردهم فتسللوا في زحمة هذه الإكراهات وتسابقوا إلى الغش، وحصلوا على نقط عالية لا يستحقونها، لكن الله سبحانه وتعالى للغاشين بالمرصاد، فكثير من هؤلاء لم يبارك الله لهم في نقطهم وفي علمهم وفي شهادتهم، نسأل الله السلامة!

المطلب الثالث: مقترحات منهجية في تدريس المادة

كون هذه المادة تعرف بالسنة النبوية الصحيحة، وكون السنة الصحيحة تكون الأصل الثاني في التشريع، وكون علومها تكشف عن جهود العلماء في مكافحة الوضع والكذب والافتئات فإنها تصلح أن تكون بداية المجتهدين، فحينما يدرس الطالب علوم الحديث مقرونة بعلوم القرآن، ودراسات عن الحديث مقرونة بدراسات عن القرآن، وأحاديث الأحكام مقرونة بآيات الأحكام، فقه الحديث مقرونة بتفسير القرآن، إنما يكون في صلة مع أصلي التشريع، وبمقتضى ذلك يفقه علاقة القرآن بالسنة، ورتبة السنة تجاه القرآن، وفعل السنة في القرآن، وأفات فهم السنة اليوم إنما هي نتيجة التجزئ والتناول المبتور.

وحق يتحقق الغرض المنشود من هذه المادة فإنني أقترح المنهجية العلمية التالية:

- التأكد من سلامة نص الحديث المنسوب إلى النبي ﷺ، بحيث لا نعول في مثل هذه المواضيع وفي هذا الوقت بالذات إلا على الحديث المقبول.

- التأكد من سلامة المرويات ونسبتها إلى أصحابها، فكثير من المرويات نعزوها إلى الصحابة والتابعين من دون تمحيص ولا ضبط.

- التأكيد من معقولية هذه النصوص، فبعضها يخالف المعقول.
- التأكيد من عدم معارضتها لأصل صحيح كالقرآن مثلا.
- تحرير العبارات تحريرا علميا بعيدا عن الإطناب والإغراب.
- عدم المبالغة في منزلة العلم ومكانة أهله، والاكتفاء بما يلزم من المراد.
- التركيز على الجوانب الفنية في علم الحديث، وعلى القضايا الاصطلاحية والصناعية فإنها هي المقصودة في تدريس المادة.
- التخفيف من حدة الأحكام، ولهجة النقد خاصة حينما يتعلق الأمر بالطوائف والفرق والمذاهب.
- تدريب الطلبة على فقه الحديث، واستنباط الأحكام الشرعية منه، واستخلاص العبر والفوائد والعظات من متنه، فإن ذلك - بعد عملية تحقيق السند - هو الثمرة المرجوة.
- عدم إهمال الأسانيد ومعرفة الرجال في عملية التعليم، فإن الطلبة ابتعدوا عن معرفة الأسانيد ابتعادا كبيرا، فعادوا السند من موقع الجهل به.
- بسط الأسانيد في مواطن البسط والتفصيل حتى يستفيد منها الطلبة، واختصارها في مواطن الاختصار حتى لا ينفر منها الطلبة، فإن مسالك الأسانيد وعرة، وطرقها ملتوية تحتاج إلى دربة ومملكة لا تتأتى للكثير من الأساتذة بله الطلبة!
- فهم الحديث، وفهم جهود السلف في خدمته فهما علميا، وذلك بتتبع القواعد اللغوية ودلالاتها والسير وفق الاصطلاحات الفنية التي أجمع أهل العلم عليها.
- عدم بدء الطلبة بالإشكالات والقضايا الوعرة، والتعارضات والترجيحات، فإن هذه لا تعطى في البدايات بل في الأواخر والنهايات.
- أستدرك هنا لأشير إلى أن المسلك المعتمد حاليا حصل فيه تغيير كبير، واستدراك إيجابي في إضافة بعض المواد العلمية التي هي من صميم علم الحديث، وعلى مدار الفصول الستة للمسلك، كما أن المسلك نفسه ونتيجة التنسيق الوطني بين شعب الدراسات الإسلامية قد مكن من تحصيل التشابه الكبير بين المواد المدرسة سواء في علم الحديث أو في العلوم الأخرى مما يسر عملية التدريس، وأعطى للطلاب فرصة الاطلاع على تجارب علمية أخرى خارج جامعته، والواقع أن هذه العملية وإن كانت نافعة وإيجابية فإن فرصة تناظر

الأستاذة المدرسين لمادة علوم الحديث في الجامعة المغربية فيما بينهم لم تتحقق بعد مما يجعل فكرة التنسيق ضعيفة، كل أستاذ لا يعلم ما يفعله زميله في الجامعة الأخرى، ما هي المصادر والمراجع التي يقررها، والخطة التدريسية التي ينتهجها، وطرق التقويم التي يتبعها...

ولذلك فما نطالب به اليوم هو إقامة ندوة وطنية تجمع كل الأساتذة المدرسين لعلم الحديث، يتناولون المادة من كل جوانبها، من حيث مصادرها ومناهجها، ومستويات التدريس داخل المسلك، وموضوعاتها، وترتيب هذه المواضيع حسب مستويات الطلبة، وابتكار أساليب جديدة في التدريس أولا وفي ترغيب الطلبة في المادة ثانيا، وإقامة أنشطة موازية لإضفاء عنصر الحيوية على المادة... ما لم يتحقق هذا فإن مجمل المقترحات ستبقى فردية وخاصة ولن تحظى بالقبول عند جماعة الأساتذة.

إن مما نعييه على أنفسنا أننا لا نعرف بعضنا البعض، لا نعرف كم عدد الأساتذة المتدخلين في تدريس المادة في كل جامعة مغربية، لا نعرف بنيات البحث المتخصصة في المادة، لا نعرف الإصدارات العلمية للسادة الأساتذة، ولا علم لنا بالندوات والملتقيات العلمية التي تهتم بمادة علم الحديث، أما الأطروحات والرسائل العلمية المسجلة والتي نوقشت فحدث ولا حرج.

خلاصة:

وفي الختام فهذا مبحث عالجت فيه: «واقع تدريس مادة علوم الحديث في الإصلاح الجامعي الجديد»، ما أتينا على ذكره يصلح لمادة علوم الحديث بصفة خاصة ولسائر مواد الشعبة بصفة عامة، وذلك لتشابهها في الوضع والأهداف والتدريس مع العوائق والمشكلات...

لقد تكلمت عن أهمية المادة، وأهداف تدريسها، وتقويم مصادرها، ووضعها داخل نظام الوحدات والمسالك مع رصد واقع هيئة التدريس وشروط المدرس، ثم تناولت بالعرض والنقد أساليب وطرق التدريس ثم ختمت العرض بمقترحات منهجية لتدريس المادة، وأنهيت العرض بخاتمة.

لقد جاء الإصلاح بإيجابيات مثلما جاء بسلبيات، ومن أقوى إيجابياته أنه يسمح بتنوع طرق التدريس بما في ذلك الطرق التقليدية إذا كانت صالحة، كما يسمح بتنوع التقويم أيضا، ولذلك فلا مكان لليأس داخل هذه الإمكانيات المتاحة، فأى أسلوب وجدته المدرس صالحا في التلقين والتبليغ والتكوين ويتمشى مع الإمكانيات فليعمل به.

الخاتمة

قدمنا للباحث الجامعي وللمتخصص الأكاديمي ما يجب أن يعرفه من حقيقة العلوم من جهة الطبيعة والمأل، وحقيقة المكتبة من جهة الخصائص والمكونات والأنواع، وكشفنا له حقيقة الجامعة والمنهج والبحث العلمي من جهة خصوصية ما يتعلق بالدرس الإسلامي والإنساني والطبيعي، ومن جهة تقريب المنهج من حيث إشكالاته ومكوناته الأساسية والبنوية، ووضعنا الكتاب الجامعي داخل الجامعة، ولربط بين النظري والعملي قمنا بتطبيقات من خلال دراسات مكتبية حول كتب وأعلام علمية بارزة، أما في مجال التوجيه الأكاديمي والهندسة البيداغوجية فقد قدمنا بعضا مما يكون الطالب الباحث في حاجة إليه مثل كيفية تقديم الكتب وقراءتها، وكيفية إنجاز البحوث والعروض العلمية، ومعالجة أخطاء الطلبة في الامتحانات الجامعية، والدراسة الجامعية من حيث المنهج والأخلاق والتكوين والبيداغوجيا وطرق تدريس بعض العلوم.

نسأل الله العصمة من الزلل، والتوفيق لخدمة التراث بالعلم والعمل، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه النبيل.

مصادر ومراجع الكتاب

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، المصحف الحسني المسبع، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية لعام 1417هـ.
- الآجري، أبوبكر محمد بن الحسين الآجري البغدادي المتوفى سنة 360هـ، أخلاق العلماء، اعتنى به الدكتور أحمد حاج محمد عثمان، أضواء السلف، الرياض، الأولى 2007م.
- إبراهيم محمود خليل، السياق وأثره في درس اللغوي، وهي رسالة دكتوراه قدمت إلى الجامعة الأردنية عام 1411هـ.
- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، العلل، دار المعرفة - لبنان - 1985.
- ابن الجزري، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري المتوفى سنة 833هـ غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره المستشرق ج براجسراسر G:REGSTRASSER، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص «3 أجزاء»، حققه محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الحمدي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852هـ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز 1379 هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة لسنة 1981م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين ابن خلكان المتوفى سنة 681هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد الثالث.
- ابن رجب، الحنبلي، جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة 1991م.
- ابن السبكي، تاج الدين التوفي سنة 771هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الجاد، الجزء الأول، دار إحياء الكتب العربية.
- ابن شاهنشاه، أبو الفداء عماد الدين بن شاهنشاه، ملك حماة، المختصر في أخبار البشر، المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ابن عبد البر، الحافظ القرطبي المتوفى سنة 463هـ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق سعيد أعراب، الطبعة الثانية 1982م.

- ابن العماد، أبو الفلاح عبد العلي ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المجلد الثالث، الجزء الخامس، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م.
- ابن كثير، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير الحافظ، المتوفى سنة 774هـ، البداية والنهاية في التاريخ، الجزء الثالث عشر، مطبعة السعادة.
- ابن منظور الإفريقي المتوفى سنة 711هـ، لسان العرب، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، المجلد الثامن، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، طبعة 1999م.
- ابن هشام، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي مع مراجعة سعيد الأفغاني، دار الفكر، الطبعة الخامسة، بيروت، طبعة سنة 1979م.
- أبو شامة، الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، بعناية محمد زاهد بن الحسن الكوثري، الأولى 1948م.
- الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، الجزء السادس، مطبعة دار الكتب المصرية، طبعة سنة 1355هـ-1936م.
- أحمد بن حنبل الإمام المتوفى سنة 241هـ، المسند، المجلد الرابع، أشرف على تحقيقه الشيخ شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة 1995م.
- أحمد أمين، ضحى الإسلام، المجلد الثاني، مكتبة الأسرة 98، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الأدفوي، كمال الدين أبي الفضل ابن ثعلب ابن جعفر الأدفوي الشافعي، الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواية بأعلى الصعيد، المطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر، طبعة سنة 1914م.
- الأسترابادي، الشيخ رضی الدين محمد بن الحسن الأسترابادي النحوي المتوفى سنة 686هـ، شرح شافية ابن الحاجب، حققها وضبط غريبها وشرح مهمها الأساتذة: محمد نور الحسن، ومحمد

- زفراف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة 1395هـ-1975م.
- الأسترابادي، الشيخ رضى الدين محمد بن الحسن الأسترابادي النحوي المتوفى سنة 686هـ، شرح الكافية في النحو، «2 أجزاء»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، مكتبة المثنى، بيروت، المجلد الأول، إسطنبول، طبعة سنة 1951م.
- أصبان، إبراهيم، د. إبراهيم أصبان، السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة في مقال بمجلة الإحياء - العدد 25 يوليو 2007.
- الأصهباني، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصهباني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الثالثة 2008م.
- البركاوي، عبد الفتاح عبد الحلیم، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، كتاب مطبوع بدار المنار بالقاهرة - الأولى 1411هـ.
- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، الجزء الخامس، نقله إلى العربية الدكتور رمضان عبد التواب، راجع الترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، دار المعارف، الطبعة الثانية.
- بصائر الرباط، مجلة علمية إسلامية محكمة شهرية، تصدرها دائرة الرباط العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية، عدد خاص لقضايا التعليم الجامعي، العدد الرابع، ديسمبر 2007م.
- بغداد، عبد العزيز، - الفقه الإسلامي حيوية وامتداد، المطبعة الوطنية بمراكش، الطبعة الأولى، أبريل 2003م.
- البغدادي، عبد القادر صاحب خزانة الأدب «ت 1093هـ»، شرح شواهد الشافية، تحقيق الأساتذة: محمد نور الحسن، محمد زفراف، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، مجلد، بيروت، لبنان.
- البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة 463هـ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، تحقيق محمد سعيد أوغلي - دار إحياء السنة النبوية - منشورات كلية الإلهيات، جامعة أنقرة - 1972م.

- البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- بلخالفي، حامد البشير المكي بلخالفي، أوراق متناثرة من أنامل ساهرة: مقالات أدبية وفكرية،، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، الأولى 2012م.
- بلقزيز، محمد، كتاب الحيوان، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، الأولى 2005م.
- بنعدة، محمد، السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة محمد بن عبد الله لعام 1418 هـ
- بودرع، عبد الرحمن، منهج السياق في فهم النص، كتاب الأمة 111، السنة السادسة والعشرون - طبعة وزارة الأوقاف - قطر.
- بودرع، عبد الرحمن، أثر السياق في فهم النص القرآني، مقال منشور بمجلة الإحياء، العدد 25.
- بوسلامة، فاطمة، السياق عند الأصوليين: السياق والمفهوم، مقال منشور في مجلة الإحياء - العدد 25 يوليو 2007م.
- ثابت، محمد الفندي، دار المعارف الإسلامية، المجلد الأول، نقله إلى العربية محمد ثابت الفندي، وأحمد الشناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، طبعة أكتوبر 1933.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبين - تحقيق عبد السلام هارون - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت.
- جرجي، زيدان، -تاريخ آداب العرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، طبعة 1983م.
- الجنابي، طارق عبد عون، ابن الحاجب النحوي آثاره ومذهبه، رسالة الدكتوراه، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، منشورات جامعة بغداد، تسلسل التعضيد لسنة 1984-73
- جواد، علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ومكتبة النهضة ببغداد، الطبعة الثانية يونيو 1987م، المجلد الثامن والتاسع.
- حاجي، مصطفى عبد الله الشهير بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى بيروت.
- حسن، عبد المنان، المعجم الموضوعي لآيات القرآن، بيت الأفكار الدولية، طبعة سنة 2000م.
- الحسيني، عبد الله بن محمد الحسيني المعروف بنقره كار، المتوفى سنة 776هـ، شرح الشافية في التصريف، الطبعة الثانية، اسطامبول، في مطبعة أحمد كامل.

- حمادة، فاروق، المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، دراسة منهجية في علوم الحديث، منشورات مكتبة المعارف بالرباط، الطبعة الأولى.
- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، الطبعة الأولى، المجلد الرابع من عشرة مجلدات، دار صادر، بيروت.
- خروبات، محمد، علمية علم الحديث، مطبعة شمس برانت، الأولى 2018م، الرباط.
- خروبات، محمد، مدخل إلى علم الطبقات عند المحدثين، منشور في مجلة دراسات عربية وإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض بمراكش، العدد 2، السنة 2018م.
- خروبات، محمد، كشف الخفي في فهم سنة النبي، الأحمديّة للنشر - الأولى 2001م.
- خليل، عبد المنعم عبد السلام خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين»، رسالة دكتوراه مقدمة إلى الجامعة الأردنية - 1411هـ.
- الدقاق، عمر، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، مكتبة دار الشروق، شارع سوريا، بيروت لبنان. الطبعة الثالثة 1972م.
- الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، راجعه وضبطه عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، مكتبة الايمان، المنصورة، مصر، أبريل 1940م.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين، الجزء الرابع، الطبعة الثالثة.
- زمرد، فريدة، السياق عند ابن تيمية: قراءة جديدة، مقال في مجلة الإحياء، العدد 25.
- زيد عمر عبد الله، السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني، مجلة جامعة الملك سعود، الجزء 15 - عام 1423 هـ - الرياض - السعودية.
- السبكي، تاج الدين بن نصر بن عبد الوهاب، ابن تقي الدين السبكي طبقات الشافعية الكبرى، طبعها أحمد بن عبد الكريم القادري الحسيني المغربي الفاسي في ستة أجزاء، الطبعة الأولى.
- السجستاني، الحافظ أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي المتوفى سنة 275 هـ، السنن، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- سركيس، يوسف إلياس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، المجلد الأول، مطبعة سركيس بمصر، طبعة سنة 1346هـ-1928م.
- السيوطي، جلال الدين، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت ن لبنان.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، الطبعة الأولى.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، الجزء الأول، طبع بمطبعة الموسوعات بمصر.
- الشتوي، فهد بن شتوي الشتوي، دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى لعام 1426 هـ، 2005م.
- الشهراني، سعيد بن محمد، السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، رسالة مقدمة إلى كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، عام 1427 هـ / 2006م.
- الطرابلسي، أمجد، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا، الطبعة الخامسة 1986، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء.
- الطلحي، ردة الله، دلالة السياق، رسالة مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام 1424 هـ، والرسالة من مطبوعات الجامعة.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الحديث، مصر، طبعة 1987م.
- عبد الحكيم، القاسم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير من خلال تفسير ابن جرير، رسالة جامعية مقدمة إلى قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام لعام 1420 هـ.
- عبد العال، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم محرم، دار المعارف بمصر، طبعة سنة 1968م.
- العطار، محمد صدقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الأولى 2010م.
- العراقي، الحافظ زين الدين عبد الرحيم المتوفى سنة 806هـ، مقدمة ابن الصلاح بشرح الحافظ العراقي، المسماة "التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح"، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- عزت، علي، اللغة ونظرية السياق، مقال منشور في مجلة الفكر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، العدد 76، السنة 1971.
- علال، الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، طبعة 1979م.

- العموش، خلود إبراهيم سلامة، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق من سورة البقرة، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية عام 1408هـ - 1998م.
- علي، ابن أبي طالب، نهج البلاغة، ضبط نصه ووضع فهارسه الدكتور صبحي الصالح، دار الكتاب العربي القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الرابعة 2004م.
- فاضل، العصام، الشرح المنسوب إلى فاضل العصام، «كتاب بخانه راشد» حكا كرده نومرو 21، حلي بهامش شرح نقره كار على الشافية، الطبعة الثانية، اسطامبول، مطبعة أحمد كامل.
- فوزي، إبراهيم عبد الرزاق، السياق ودلالته في توجيه المعنى، رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية الآداب بجامعة بغداد عام 1416هـ 1996م.
- الكتاني، وآخرون، النصوص الأدبية للسنة السادسة ثانوي، كتاب مقرر من قبل وزارة التربية الوطنية بالمملكة المغربية، من تأليف: محمد الكتاني، عبد الجواد السقاط، علي الصقلي، ادريس الكتاني سعود، دار النشر المغربية، الدر البيضاء.
- كحالة، رضا، معجم المؤلفين، مطبعة الترقى بدمشق، طبعة سنة 1378هـ-1958م.
- مؤسسة زايد، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية،، أبوظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.
- المبرد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، تحقيق الدكتور زكي مبارك، الأولى 1936م، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، القاهرة، طبعة يوليو 1980م.
- مجموع مهمات المتون، يشتمل على ستة وستين متنا في مختلف الفنون والعلوم، دون مؤلف، دار الفكر، دون تاريخ.
- محمد، إسماعيل إبراهيم، معجم الألفاظ والاعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- محمد، حماد ساعد القرشي، الربط في سياق النص العربي، عنوان بحث جامعي قدم إلى جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية بتاريخ 2006/09/05م.
- المسلوت، عبد المجيد، نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي، دار القلم، القاهرة، 1964م.
- مسلم، ابن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، مصر.

- مقبول، إدريس، السياق في تداوليات أبي إسحق الشاطبي، مقال منشور في مجلة الإحياء، العدد 25 يوليو 2007م.
- المنوني، محمد بن عبد الهادي، دور الكتب في ماضي المغرب، مطبوعات الخزنة الحسنية، تقديم أحمد شوقي بنين، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، الأولى 2005 م.
- النجدي، أحمد سالم، منهج البحث الادبي عند العرب، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، سلسلة دراسات 154.
- النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي المتوفى سنة 927هـ، الدارس في تاريخ المدارس، عُني بنشره وتحقيقه جعفر الحسيني، مطبعة الشرقي بدمشق 1968هـ 1948 م.
- النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم المتوفى سنة 405هـ، المستدرک على الصحيحين، أشرف عليه الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الهدليين، ديوان الهدليين، القسم الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية 1995م.
- الهلالي، إبراهيم، نضالات مراكش عبر أحداث القرن العشرين، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، الطبعة الأولى 2006م.
- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، وكالة الصحافة العربية، القاهرة طبعة 2018م.

فهرس لموضوعات الكتاب

5المقدمة العامة
7الباب الأول: في حقيقة العلوم والمكتبة
9الفصل الأول: العلوم الإسلامية: الطبيعة والمآل
11المبحث الأول: خصائص العلوم الإسلامية
11المطلب الأول: التعريف
11المطلب الثاني: الغاية والهدف
11المطلب الثالث: الحكم الشرعي
12المطلب الرابع: المصادر
12المطلب الخامس: الأعلام
13المطلب السادس: المصطلحات
13المطلب السابع: موضوعات العلم
13المطلب الثامن: مناهج العلم
14المبحث الثاني: العلوم الإسلامية: المميزات والأنواع
14المطلب الأول: المميزات
15المطلب الثاني: الأنواع
16المطلب الثالث: التكامل
17المبحث الثالث: المقاصد الشرعية: المفهوم والمقاصد
17المطلب الأول: في العلاقة بالموضوع
17المطلب الثاني: التأصيل قبل التفعيل
19المطلب الثالث: التوظيف السلي للمقاصد
20المطلب الرابع: حقيقة علم المقاصد
21المطلب الخامس: علم المقاصد والانفتاح على العلوم والمعارف

23	الفصل الثاني: المكتبة الإسلامية، الخصائص والمكونات والأنواع
25	المبحث الأول: خصائص المكتبة الإسلامية
26	المبحث الثاني: مكونات المكتبة الإسلامية
28	المبحث الثالث: أنواع المكتبة الإسلامية واستثمارها
28	المطلب الأول: أنواع المكتبة
29	المطلب الثاني: استثمار المكتبة في التعامل مع التراث
30	المبحث الرابع: الكتاب الجامعي ودوره في تنمية البحث العلمي
33	المطلب الأول: الوضع العام للكتاب الجامعي
35	المطلب الثاني: مواصفات الكتاب الجامعي
37	المطلب الثالث: أهداف الكتاب الجامعي
38	المطلب الرابع: أهمية الكتاب الجامعي
39	المطلب الخامس: معضلة الكتاب الجامعي
42	المطلب السادس: نقد نقد الكتاب الجامعي
45	المطلب السابع: مقترحات وتوصيات
47	الباب الثاني: الجامعة والمنهج والبحث العلمي
49	الفصل الأول: البحث العلمي بين خصوصية الدرس الإسلامي والإنساني والطبيعي
51	المبحث الأول: مواصفات للكلام في الموضوع
51	المبحث الثاني: "البحث العلمي" بين علوم الإسلام والطبيعة والإنسان
51	أولاً- البحث العلمي مصطلح مشترك
52	ثانياً- علوم النظر والخصوصية العلمية
53	ثالثاً- البحث العلمي: الأزمة والمعاناة
57	رابعاً - البحث العلمي والتنمية. أية علاقة؟
57	المبحث الثالث: الجامعة والبحث العلمي
59	المبحث الرابع: البحث العلمي والمجتمع
60	المبحث الخامس: البحث العلمي: الخصائص والمجالات

63	الفصل الثاني: تساؤلات حول المنهج
65	المبحث الأول: محددات منهجية
66	المبحث الثاني: محددات إشكالية
67	المبحث الثالث: تساؤلات منهجية
73	الفصل الثالث: مكونات البحث العلم
75	المبحث الأول: أهمية معرفة المكونات
77	المبحث الثاني: مكونات البحث العلمي في العلوم الشرعية
77	أولاً: المكونات الأساسية
93	ثانياً: المكونات البنيوية
101	الباب الثالث: دراسات مكتبية
103	الفصل الأول: دراسات في كتب الفقه والأصول والأخلاق
105	المبحث الأول: معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية
105	المطلب الأول: كيفية التعامل مع المعلمة على مستوى البحث العلمي
105	المطلب الثاني: المعلمة تيسر عملية البحث العلمي
106	المطلب الثالث: كيف نستثمر المعلمة في عملية البحث العلمي
107	المطلب الرابع: طرق تقنية في كيفية التعامل مع المعلمة
108	المبحث الثاني: قراءة في كتاب " الفقه الإسلامي حيوية وامتداد "
109	المطلب الأول: صورة الكتاب
109	المطلب الثاني: سبب التأليف وغايته
110	المطلب الثالث: خطة الكتاب وشواهد
110	1- خطة الكتاب
110	2- شواهد العلمية
112	المبحث الثالث: انطباعات حول كتاب " مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها "
114	المبحث الرابع: علاقة العلم بالأخلاق من خلال كتاب " أخلاق العلماء " للأجري

- 115.....المطلب الأول: حاجة العلم للأخلاق
- 115.....المطلب الثاني: علاقة الكتاب بصاحبه
- 116.....المطلب الثالث: محتويات الكتاب
- 127.....**الفصل الثاني: دراسات مكتبية في اللغة والأدب**
- 129.....المبحث الأول: التعريف بحركة التأليف والتصنيف في اللغة والأدب
- 129.....المطلب الأول: منهجية التأليف في المجموعات الشعرية القديمة
- 129.....الفرع الأول: الرواية والتدوين في الجاهلية و صدر الإسلام
- 129.....1- الرواية في الجاهلية
- 133.....2- التدوين والرواية في صدر الإسلام
- 137.....الفرع الثاني: الدواوين والمختارات
- 140.....المطلب الثاني: كتب الثقافة العامة
- 145.....المطلب الثالث: كتب تراجم الأدباء
- 145.....1- الكتب المصنفة في تراجم الشعراء
- 148.....2- الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة
- 149.....المبحث الثاني: دراسة مكتبية حول ابن الحاجب والشافعية
- المطلب الأول: عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو بن الحاجب
- 149.....النحوي
- 149.....العنصر الأول: من هو ابن الحاجب؟
- 149.....1- مصادر حياته
- 150.....2- اسمه ونسبه ولقبه وأصله
- 151.....3- ولادته ووفاته
- 152.....العنصر الثاني: علمه وعلومه
- 152.....1- علومه وشيوخه
- 153.....2- دروسه وتلاميذه
- 155.....3- مصنفاته حسب العلوم

157	العنصر الثالث: شخصيته العلمية والخُلُقِيَّة
157	1- شخصيته العلمية من خلال آراء العلماء
159	2- شخصيته الخلقية من خلال آراء العلماء
160	المطلب الثاني: منهج ابن الحاجب
160	العنصر الأول: منهجه عموماً
160	1- منهجه النقلي في اللغة، وموقفه من مشكل ثبوتها
160	2- منهجه في الدراسات النحوية
162	3- تعريف الكافية في النحو
163	العنصر الثاني: مكونات منهج ابن الحاجب
163	1- القياس والسمع
164	2- التعليل والتأويل
165	المطلب الثالث: كتابه الشافية
165	العنصر الأول: التعريف بالشافية
166	العنصر الثاني: الشافية ومكانتها العلمية
168	العنصر الثالث: شروح الشافية
169	1- شروحها بالعربية
174	2- شروحها بالفارسية
175	المطلب الرابع: وصف الشافية
175	المطلب الخامس: موضوع الشافية
178	المطلب السادس: بحث الشواهد
178	العنصر الأول: القرآن الكريم
179	العنصر الثاني: الحديث الشريف
179	العنصر الثالث: القراءات القرآنية
180	المطلب السابع: الشواهد الشعرية
183	الفصل الثالث: دراسات مكتبية في كتب ثقافية عامة
185	- المبحث الأول: دراسة لكتاب "نضالات مراكش عبر أحداث القرن العشرين"
185	المطلب الأول: حول الكاتب والكتاب
185	العنصر الأول: حول الكاتب

186.....	العنصر الثاني: حول الكتاب.....
187.....	العنصر الثالث: طبيعة الكتاب.....
188.....	المطلب الثاني: حول منهجية الكتاب.....
188.....	العنصر الأول: خطة الكتاب.....
188.....	العنصر الثاني: عنوان الكتاب.....
189.....	العنصر الثالث: اللغة والأسلوب.....
189.....	العنصر الرابع: المصادر والمراجع.....
190.....	العنصر الخامس: الرسائل والشعارات والحوار.....
193.....	المطلب الثالث: مكونات الكتاب.....
193.....	العنصر الأول: مكون المضمون أو الموضوع.....
195.....	العنصر الثاني: مكون الأعلام.....
196.....	العنصر الثالث: مكون المكان.....
196.....	المطلب الرابع: القضايا الأساسية في الكتاب.....
196.....	العنصر الأول: قضايا تاريخية.....
197.....	العنصر الثاني: قضايا سياسية.....
198.....	العنصر الثالث: قضايا اجتماعية.....
199.....	العنصر الرابع: قضايا أخلاقية.....
200.....	العنصر الخامس: قضايا علمية.....
201.....	المطلب الخامس: الأبعاد الأساسية في الكتاب.....
201.....	العنصر الأول: البعد الوطني.....
202.....	العنصر الثاني: البعد الاقتصادي.....
202.....	العنصر الثالث: البعد الثقافي.....
204.....	العنصر الرابع: البعد العالمي.....
206.....	- المبحث الثاني: نظرات في جهود العلامة محمد بلقرين من خلال كتابه الحيوان.....
206.....	المطلب الأول: المغزى من التكريم.....
207.....	المطلب الثاني: عالم وعلم.....
208.....	المطلب الثالث: المجال العام لجهد الأستاذ بلقرين.....
210.....	المطلب الرابع: نظرات حول معجم الحيوان.....

العنصر الأول: نظرة عامة:.....	210
العنصر الثاني: نظرة تقويمية.....	210
العنصر الثالث: خاتمة وتوصيات	212
- المبحث الثالث: نظرات علمية ومنهجية من خلال كتاب " النحو والتفسير:	
أصول نظرية ونماذج تطبيقية "	213
- المبحث الرابع: كتاب " خواطر متكاثرة حول أفكار متناثرة... " في إطاره العلمي	216
الباب الرابع: تطبيقات منهجية ومعرفية في حقول علمية	221
الفصل الأول: طرق في التعامل التقني مع القرآن الكريم	223
أولاً: مدخل منهجي	225
ثانياً: التوثيق من القرآن	226
1- تقديم	226
2- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم:	228
3- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم «1»:	229
4- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم «2»:	231
5- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم	233
6- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية:	234
7- التقنيات الإلكترونية الحديثة:	235
الفصل الثاني: خطة السياق ومحاولة تطبيقها على النص الحديثي	237
- مقدمات منهجية	239
المبحث الأول: السياق: محاولة تأصيلية في اللغة والاصطلاح	241
المطلب الأول: التأصيل اللغوي لمفاهيم السياق	241
المطلب الثاني: التأصيل الاصطلاحي لمفاهيم السياق	243
المطلب الثالث: سلطات النص	244

- 247.....المبحث الثاني: منهجية السياق وتطبيقاتها على النصوص
- 247.....المطلب الأول: القسم النظري، وهو على أنواع
- 248.....المطلب الثاني: القسم التطبيقي
- 250.....المبحث الثالث: خطة السياق والنص اللغوي
- 252.....المبحث الرابع: محاذير لتطبيق خطة السياق على النص الحديثي.
- 252.....المطلب الأول: رواية الحديث بالمعنى
- 253.....المطلب الثاني: إصلاح الساقط
- 253.....المطلب الثالث: النقصان من الحديث
- 254.....المطلب الرابع: اختصار الحديث
- 254.....1- اختصار الحديث في سنده
- 255.....2- اختصار الحديث في متنه
- 255.....المطلب الخامس: تحري الصحة
- 256.....المطلب السادس: سلامة القصد
- 256.....المبحث الخامس: خطة السياق والنص الحديثي
- 256.....المطلب الأول: السياق الروائي
- 257.....المطلب الثاني: السياق اللغوي
- 259.....المطلب الثالث: السياق الموضوعي
- 260.....المطلب الرابع: السياق المآلي أو المقاصدي
- 261.....المطلب الخامس: السياق العلمي
- 261.....خلاصة
- 263.....الفصل الثالث: علم الكلام وعلم أصول الفقه: العلاقة والامتداد
- 265.....أولاً: حول الملتقى
- 265.....ثانياً: طبيعة موضوع الملتقى
- 267.....ثالثاً: الثقافة الإسلامية والمجتمع
- 269.....رابعاً: المنطق والعلوم الإسلامية

269	خامسا: العقل والتراث
271	سادسا: العلوم الإسلامية والتراث
272	سابعا: توجيهات علمية للطلبة الباحثين
275	الباب الخامس: في التوجيه وكيفية البحث والإرشاد الأكاديمي
277	الفصل الأول: تقنية تقديم الكتب وانجاز العروض
279	- المبحث الأول: ورقة تقنية في كيفية تقديم كتاب
279	المطلب الأول: الشروط القبلية
280	المطلب الثاني: خطة التقديم
282	المطلب الثالث: التقويم العام
283	- المبحث الثاني: ورقة تقنية في كيفية إنجاز عرض علمي
283	المطلب الأول: في الشكل
284	المطلب الثاني: مقدمة العرض
284	المطلب الثالث: خاتمة العرض
285	المطلب الرابع: فهرس للمصادر والمراجع
285	المطلب الخامس: فهرس للموضوعات
285	المطلب السادس: عدد الصفحات
286	المطلب السابع: المصادر الأساسية والتوثيق منها
286	المطلب الثامن: السلامة من الأخطاء وضبط المنقول
287	الفصل الثاني: أخطاء الطلبة في الامتحانات الجامعية: عرض وتقويم
289	- المبحث الأول: أهداف المحاضرة وطبيعتها
289	أولا: لماذا هذه المحاضرة؟
290	ثانيا: طبيعة المحاضرة
290	المبحث الثاني: مؤثرات هامشية
291	- المبحث الثالث: أخطاء في القرآن والحديث والأعلام
291	أولا: أخطاء في القرآن الكريم

- 291ثانيا: أخطاء في الحديث.
- 292ثالثا: في التعامل مع الأعلام.
- المبحث الرابع: في الخط والتحرير والتسويد والألوان والفراغات292
- 292أولا: الخط.
- 293ثانيا: التحرير والتسويد.
- 293أ-التحرير.
- 293ب-التسويد.
- 294ثالثا: في الألوان والفراغات.
- 294أ-الألوان.
- 294ب-الفراغات.
- المبحث الخامس: في المحافظة على المكان والزمان وخطط الطلبة في الإجابة. 295
- 295أولا: المكان والزمان
- 295أ-المكان.
- 295ب-الزمان.
- 295ثانيا: خطط الطلبة في الإجابة.
- 2951-أسئلة الامتحان.
- 2962-الاقتضاب والإسهاب.
- 2963-الاستعطف.
- 2964-الخروج عن الموضوع.
- المبحث السادس: طرق التحرير ونماذج من الأخطاء297
- 297أولا: طرق التحرير.
- 298ثانيا: نماذج من الأخطاء والتصحيحات.
- الفصل الثالث: الدراسة الجامعية: المنهج، الأخلاق، التكوين والبيداغوجيا 301**
- المبحث الأول: ورشة حول التكوين والبيداغوجيا303
- 303المطلب الأول: كيفية مناقشة القضايا.
- 306المطلب الثاني: مناقشة بعض القضايا.
- المبحث الثاني: توجيهات أكاديمية310

315	الباب السادس: في التنظيم والتدريس والهيكلية البيداغوجية
317	الفصل الأول: التقييم الذاتي لمسلك الإجازة في الدراسات الإسلامية
321	- المبحث الأول: المسلك من حيث الولوج والتجانس
321	المطلب الأول: ولوج المسلك
321	المطلب الثاني: التجانس العام للمسلك
321	الفرع الأول- الوحدات الأساسية
322	الفرع الثاني:الوحدات التكميلية
322	الفرع الثالث: أهداف التكوين
322	الفرع الرابع: منافذ وانعكاس التكوين
323	الفرع الخامس: ربط الجسور
323	المطلب الثالث: تجانس الفصول وترابطها
324	المطلب الرابع: تجانس الوحدة
324	المطلب الخامس: انعكاس الوحدات الجديدة
324	الفرع الأول: وحدات اللغات والتواصل
325	الفرع الثاني: الوحدات التكميلية
325	الفرع الثالث: المشروع المؤطر
326	- المبحث الثاني: التأطير والتدريس
326	المطلب الأول: التأطير البيداغوجي
327	المطلب الثاني: وسائل التدريس
327	المطلب الثالث: تقييم المعارف
328	المطلب الرابع: نسبة الإنجاز
328	الفرع الأول: من حيث المضامين
328	الفرع الثاني: من حيث الغلاف الزمني
328	الفرع الثالث: نسبة طرق التدريس

- 329 الفصل الثاني: مسلك الدراسات الإسلامية: واقع وأفاق
- 331 - المبحث الأول: المناسبة والوضعية
- 331 المطلب الأول: في المناسبة
- 331 المطلب الثاني: وضعية المسلك
- 333 المطلب الثالث: الانخراط في تحديث الجامعة
- 335 - المبحث الثاني: المشروع المؤطر، الواقع والطموح
- 335 المطلب الأول: المشروع المؤطر، التقديم والمرجعية
- 335 الفرع الأول: في التقديم
- 336 الفرع الثاني: المراجع القانونية للمشروع
- 337 المطلب الثاني: المشروع المؤطر: الحقيقة والخصوصية
- 337 الفرع الأول- الحقيقة
- 337 الفرع الثاني: الخصوصية
- 339 المطلب الثالث: المشروع المؤطر، التفتح وربط الجسور
- 339 الفرع الأول - ربط الجامعة بالمحيط وانعكاس ذلك على المشروع المؤطر
- 342 المطلب الرابع - المشروع المؤطر: سلبيات وإيجابيات
- 343 الفرع الأول - الإيجابيات
- 344 الفرع الثاني- السلبيات
- 345 الفرع الثالث - شروط نجاح المشروع ومستلزماته
- 345 الطرف الأول: الإدارة
- 345 الطرف الثاني: الأستاذ
- 346 الطرف الثالث: الطالب
- 347 المطلب الخامس: المشروع المؤطر، الاختيار والإنجاز والتقييم
- 347 الفرع الأول: الاختيار
- 349 الفرع الثاني: الإنجاز
- 349 الفرع الثالث: التقييم



الدكتور محمد خروبوات

- أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض بمراكش
- أستاذ زائر بجامعة محمد الخامس بأبوظبي سابقا
- عضو الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف بكلية الدراسات العربية والإسلامية بديبي سابقا.
- عضو لجن توظيف أساتذة باحثين وتعيين عمداء بالجامعة المغربية.
- رئيس مجموعة البحث في السيرة والسنة وفقههما سابقا، ورئيس مجموعة البحث في مناهج الاستمداد والاستدلال وتطبيقاتها المعاصرة حاليا.
- خبير ومحكم دولي للمقالات والأبحاث العلمية والترقيات الأكاديمية.
- يتوفر على شواهد تقديرية مسلمة من مؤسسات علمية وأكاديمية وطنية ودولية، وعلى شواهد تكوين في مناهج البحث العلمي، وفي ملفات بناء المواد وتحضير أدوات التقييم، وفي إعداد وتصميم مخرجات تعلم البرامج الأكاديمية وموادها، وفي مراجعة المساقات الأكاديمية، وغير ذلك.
- أشرف وفحص وناقش عددا من الرسائل الجامعية في الماجستير والدكتوراه.
- له عدة إصدارات علمية ومقالات ومحاضرات متنوعة، صدر له في التخصص: (أبحاث الرازي وجهوده في خدمة السنة النبوية)، طبع منها عدة أجزاء وأخرى تحت الطبع، وكشف الخفي في فهم سنة النبي، ومحاضرات في علم الحديث.
- البريد الإلكتروني: khamed01@gmail.com
- الموقع الأكاديمي: kharroubat.com

" مناهج الدراسات الجامعية " هي مادة من المواد المقررة للتدريس في الجامعة، الهدف منها هو تمكين الطالب من معرفة خصوصية الثقافة الجامعية من الناحية المنهجية، وتوجيهه نحو اكتساب مهارات التواصل العلمي المنهجي مع التراث الإسلامي، وتزويده بقواعد البحث العلمي وطرائق التحصيل الجامعي ومسائل الضبط والاستيعاب، وتدريبه على كيفية الاستفادة المعلومة العلمية من مصادرها، والتمكن من التعامل معها تعاملًا علميًا، وتدريبه على طرق التصنيف والتأليف من حيث القراءة والمطالعة والجمع والترتيب والتحرير، وحثه على اكتساب خصلة الصبر والتأني، ومعاودة القراءة مع الاجتهاد والجدية والمثابرة، والتحلي بأخلاق وآداب البحث العلمي، ومساعدته على كيفية اختيار الموضوع، ووضع خطته، وفهارسه، وحواشيه، ومقدمته، وخاتمته مع إنجاز الأبواب والفصول والمباحث والمطالب الضرورية، وتعيين المصادر الأصلية التي يرجع إليها الطالب لضبط اللفظ والمصطلحات الفنية والأعلام والشواهد، وتلقيه المعارف الضرورية بمقتضى بعض الموضوعات والعلوم والقضايا المنهجية.

351 الفصل الثالث: منهجية تدريس مادة علوم الحديث في الجامعة المغربية

354 - المبحث الأول: الدوافع والأهمية ومحتوى المادة ووضعها في المسلك

354 المطلب الأول: منبع الاهتمام وأهمية الموضوع

355 المطلب الثاني: محتوى المادة: الأهمية والأهداف والتقويم

355 1- أهمية المادة

355 2- أهداف تدريس المادة

356 3- المصادر المعتمدة في المادة

357 المطلب الثالث: خطة المادة ووضعها في نظام المسالك والوحدات: نظرة وصفية

359 - المبحث الثاني: في هيئة التدريس وطرقه مع المقترحات

359 المطلب الأول: هيئة التدريس: الواقع والشروط

359 1- واقع هيئة التدريس

360 2- شروط في مدرس المادة

360 المطلب الثاني: طرق تدريس المادة

361 1- الطرق الموجودة

361 أ- طريقة المحاضرة الشفوية

362 ب - طريقة الإلقاء

362 2- الطرق المنشودة

362 أ - طريقة المناقشة والحوار

364 ب- طريقة حل المشكلات

364 ج- طريقة إنجاز التقارير

365 د - طريقة إنجاز العروض والفروض

365 هـ - طريقة التقويم وخصائصه

366 المطلب الثالث: مقترحات منهجية في تدريس المادة

368 خلاصة

369 **الخاتمة**

371 **مصادر ومراجع الكتاب**

379 **فهرس لموضوعات الكتاب**